

معالم التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن
والسنة: دراسة تحليلية لنماذج مختارة

إعداد

فضلي أناندا

الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

٢٠٢٦م

معالم التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن
والسنة: دراسة تحليلية لنماذج مختارة

إعداد

فضلي أناندا

بحث متطلب مقدم لنيل درجة الدكتوراه في معارف الوحي والتراث

قسم دراسات القرآن والسنة

كلية عبد الحميد أبو سليمان لمعارف الوحي والعلوم الإنسانية

الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

مايو ٢٠٢٦م

مُلخَصُ البَحْث

يهدف هذا البحث إلى بيان معالم التربية الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية من خلال منهج أُولى العزم من الرسل ﷺ، والكشف عن أسسها ووسائلها وأساليبها في بناء المجتمع المسلم. وينطلق هذا البحث من مشكلة علمية تتمثل في غياب التأصيل القرآني والنبوي الواضح لمعالم التربية الاجتماعية، مع عدم إبرازها إبرازاً منهجياً ضمن منهج أُولى العزم من الرسل ﷺ، رغم مركزيتها في بناء الفرد والمجتمع المسلم. وقد اعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي في تتبع وجمع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بالتربية الاجتماعية ومعالمها، مع الرجوع إلى كتب التفسير وشروح الحديث لاستخلاص دلالاتها التربوية والاجتماعية، كما اعتمد المنهج التحليلي في تحليل تلك النصوص، وبيان مقاصدها، والكشف عن معالم التربية الاجتماعية كما تجلّت في منهج أُولى العزم من الرسل ﷺ. ويخلص البحث إلى عدة نتائج، منها: أن التربية الاجتماعية في الإسلام ذات معالم واضحة متجذّرة في مقاصد الوحي، تقوم على ترسيخ التوحيد، وبناء الإنسان الصالح، وتعزيز قيم الوحدة والعدل والتكافل، بما يحقق تماسك المجتمع واستقامته. كما يبيّن أن أُولى العزم من الرسل ﷺ يمثلون نماذج تطبيقية رائدة لهذه المعالم من خلال تبليغ الرسالة، وتعليم الكتاب والحكمة، والتركيز، وتحمل أمانة الاستخلاف، والسعي إلى إقامة العدل وعمارة الأرض. ويبرز البحث أهم وسائل التربية الاجتماعية في منهجهم ﷺ، ومن أبرزها: التربية العقدية، والتربية الشرعية، والتربية على العلاقات الاجتماعية، والتربية البيئية، كما يكشف عن الأساليب التربوية المعتمدة، وفي مقدّماتها: القدوة الحسنة، والتدرّج في التعليم والتأديب والدعوة، والمجاهدات الشخصية، ومبدأ البراءة من التأثيرات السلبية المخالفة لمنهج الله تعالى. ويؤكد البحث أن التربية الاجتماعية مسؤولية مشتركة بين الفرد والمجتمع، وأن الإصلاح الحقيقي - بعد توفيق الله تعالى - يبدأ من إصلاح الداخل وبناء الإنسان، وبدون ذلك تبقى الجهود التربوية، مهما تنوّعت ووسائلها وأساليبها، محدودة الأثر وقليلة الثمرة.

ABSTRACT

This study aims to elucidate the features of social education in the light of the *Qur'ān* and the Prophetic *Sunnah* through the methodology of the Messengers of *Ulū al-'Azm 'alayhim al-salām*, and to identify its foundations, means, and methods in building the Muslim society. The study stems from an academic problem represented in the absence of clear Qur'ānic and Prophetic grounding of the features of social education, and the lack of systematic highlighting of these features within the methodology of the Messengers of *Ulū al-'Azm 'alayhim al-salām*, despite their central role in shaping the Muslim individual and society. The study adopts an inductive method by tracing and collecting *Qur'ānic* verses and Prophetic *hadiths* related to social education and its features, followed by consulting classical works of *tafsīr* and *hadith* commentaries to derive their educational implications. It also employs an analytical method to analyse these texts in order to identify the features of social education within the methodology of the Messengers of *Ulū al-'Azm 'alayhim al-salām*. The study concludes that social education in Islam possesses well-defined features deeply rooted in the objectives of divine revelation, based on establishing *tawhīd*, building righteous individuals, and reinforcing the values of unity, justice, and solidarity, thereby ensuring social cohesion and integrity. It further demonstrates that the Messengers of *Ulū al-'Azm 'alayhim al-salām* represent exemplary practical models of these features through conveying the divine message, teaching the Book (*Kitāb*) and wisdom (*Hikmah*), purification (*tazkiyah*), bearing the responsibility of vicegerency (*istikhlāf*), and striving to establish justice and cultivate the earth. The study highlights the principal means of social education in their methodology, including the education of *'aqīdah*, the education of *sharī'ah*, the education of social relations, and the education of the environment, and identifies the key educational methods they employed, most notably exemplary role-modelling, gradualism in teaching, discipline, and *da'wah*, personal spiritual striving (*mujāhadah*), and the principle of dissociation from negative influences contrary to the divine methodology. The study affirms that social education is a shared responsibility between individuals and society, and that genuine reform—after divine guidance—begins with inner reform and human development; without this foundation, educational efforts, regardless of the diversity of their means and methods, remain limited and ineffective.

APPROVAL PAGE

The thesis of Fadhli Ananda has been approved by the following:

Saad Eldin Mansour Gasmelsid
Supervisor

Ahmed El-Mogtaba Bannga Ahmed Ali
Co. Supervisor

Noor Mohammad Osmani
Internal Examiner

Abu Hafiz Bin Salleh Hudin
Internal Examiner

Fouad Bounama
External Examiner

Akram M Z M Khedher
Chairman

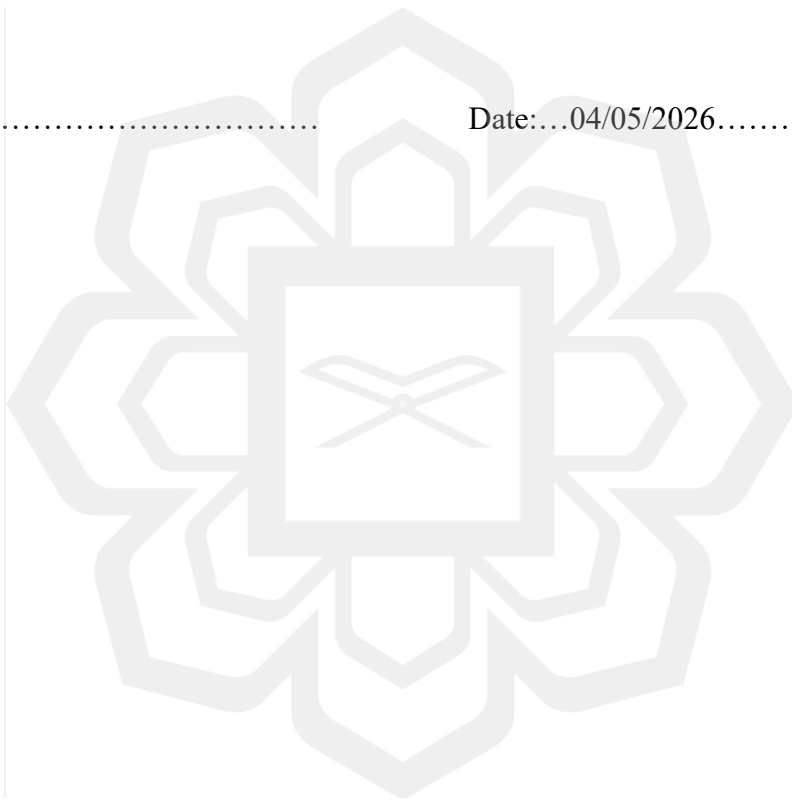
DECLARATION

I hereby declare that this thesis is the result of my own investigations, except where otherwise stated. I also declare that it has not been previously or concurrently submitted as a whole for any other degrees at IIUM or other institutions.

Fadhli Ananda

Signature:

Date: ...04/05/2026.....



إقرار بحقوق الطبع وإثبات مشروعية استخدام الأبحاث غير المنشورة

حقوق الطبع ٢٠٢٦ م محفوظة ل: فضلي أناندا

معالم التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن والسنة: دراسة تحليلية لنماذج مختارة

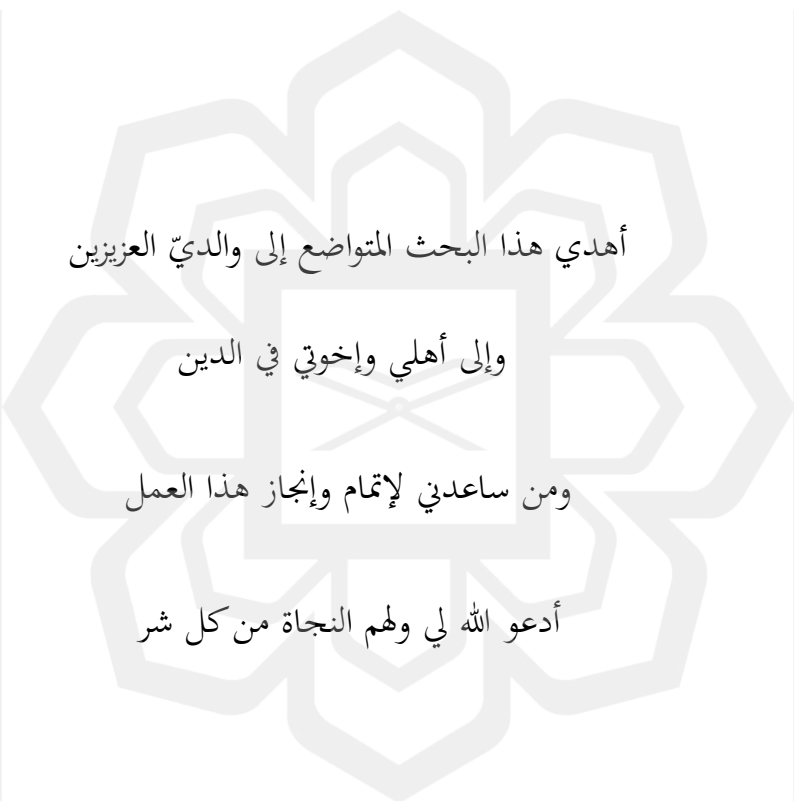
لا يجوز إعادة إنتاج أو استخدام هذا البحث غير المنشور في أي شكل وبأي صورة (آلية كانت أو إلكترونية أو غيرها) بما في ذلك الاستنساخ أو التسجيل، من دون إذن مكتوب من الباحث إلا في الحالات الآتية:

- ١- يمكن للآخرين اقتباس أية مادة من هذا البحث غير المنشور في كتاباتهم بشرط الاعتراف بفضل صاحب النص المقتبس وتوثيق النص بصورة مناسبة.
- ٢- يكون للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ومكتبتها حق الاستنساخ (بشكل الطبع أو بصورة آلية) لأغراض مؤسساتية وتعليمية، ولكن ليس لأغراض البيع العام.
- ٣- يكون لمكتبة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا حق استخراج نسخ من هذا البحث غير المنشور إذا طلبتها مكتبات الجامعات ومراكز البحوث الأخرى.

أكد هذا الاقرار: فضلي أناندا

التاريخ: ٠٤/مايو/٢٠٢٦

التوقيع:



أهدي هذا البحث المتواضع إلى والديّ العزيزين

وإلى أهلي وإخوتي في الدين

ومن ساعدني لإتمام وإنجاز هذا العمل

أدعو الله لي ولهم النجاة من كل شر

الشكر والتقدير

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين. يتقدّم الباحث بخالص الشكر وعظيم العرفان إلى المشرف الأول، الأستاذ المشارك الدكتور سعد الدين منصور، على إشرافه العلمي الدقيق، وتوجيهاته السديدة، ومتابعته المستمرة لمراحل البحث، مما كان له بالغ الأثر في إخراج هذه الرسالة بالصورة العلمية المرجوة. كما يتقدّم الباحث بجزيل الشكر إلى المشرف الثاني، الأستاذ المشارك الدكتور أحمد المجتبى بانقا أحمد علي، لما بذله من عناية وإشراف وتوجيهات قيّمة أسهمت في تقويم مسار البحث وتعزيز جوانبه العلمية. ويتقدّم الباحث بوافر الشكر وعظيم الامتنان إلى أعضاء لجنة المناقشة على ما قدّموه من ملاحظات علمية ببناء وتوجيهات دقيقة أسهمت في تحسين هذه الرسالة وتقويمها. كما يعبر الباحث عن تقديره وشكره لجميع الأساتذة وأعضاء هيئة التدريس، والموظفين والطاقم الإداري في قسم دراسات القرآن والسنة، وكلية عبد الحميد أبو سليمان لمعارف الوحي والعلوم الإنسانية، ومركز الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، لما قدّموه من دعم علمي وإسناد إداري وتعاون مثمر كان له أثر واضح في تيسير إنجاز هذه الدراسة. ونسأل الله تعالى أن يبارك في جهود كل من أسهم في إنجاز هذه الرسالة، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً للعلم وخادماً للمجتمع، وأن يجزي الجميع خير الجزاء في الدارين.

فهرس محتويات البحث

ب	مُلخَص البحث	١
ج	ملخص البحث بالإنجليزية	١
د	صفحة القبول	١
هـ	صفحة التصريح	١
و	الإقرار بحقوق الطبع	١
ز	الإهداء	١
ح	الشكر والتقدير	١
١	الفصل الأول: خطة البحث وهيكله العام	١
١	المقدمة	١
٦	مشكلة البحث	٦
٦	أهمية البحث	٦
٧	الدراسات السابقة	٧
١٢	أسئلة البحث	١٢
١٢	أهداف البحث	١٢
١٣	حدود البحث	١٣
١٣	منهج البحث	١٣

الفصل الثاني: المقصود بمعالم التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في القرآن

١٥	والسنة	١٥
١٥	المبحث الأول: مفهوم معالم التربية في ضوء القرآن والسنة	١٥
١٦	المطلب الأول: تعريف معالم التربية لغةً واصطلاحًا	١٦
٢٢	المطلب الثاني: دلالات التربية في ضوء القرآن والسنة	٢٢

المطلب الثالث: المصطلحات ذات الصلة بالتربية في ضوء القرآن والسنة	٢٦
المبحث الثاني: مفهوم مصطلح اجتماعية في ضوء القرآن والسنة	٣٢
المطلب الأول: الإجتماع في اللغة والاصطلاح.....	٣٣
المطلب الثاني: دلالات الاجتماع في ضوء القرآن والسنة	٣٦
المطلب الثالث: المصطلحات ذات الصلة بالاجتماعية في ضوء القرآن والسنة ٣٩	
المبحث الثالث: أولو العزم من الرسل ﷺ وعاداتهم في التربية الاجتماعية من خلال	
القرآن والسنة.....	٤٧
المطلب الأول: مفهوم عادات أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن والسنة	
.....	٤٨
المطلب الثاني: المدخل النظري لدراسة العادات التربوية عند أولي العزم من	
الرسل ﷺ في تحديد البحث العلمي المتواضع	٧٧
المطلب الثالث: نماذج من القدوة الصالحة في العادات الاجتماعية لأولي العزم من	
الرسل ﷺ	٨٦

الفصل الثالث: أهمية التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء مقاصد

القرآن والسنة	٩٨
المبحث الأول: أهمية التربية الاجتماعية في ضوء مقاصد القرآن والسنة	٩٩
المطلب الأول: أهداف التربية الاجتماعية وتناسبها مع مقاصد القرآن والسنة	
.....	١٠٠
المطلب الثاني: مقارنة بين أهداف التربية الاجتماعية الإسلامية والغربية ...	١١٢
المبحث الثاني: مقاصد قصص أولي العزم من الرسل ﷺ	١١٧
المبحث الثالث: أهمية الجماعة ومنزلة أولي العزم من الرسل ﷺ في حياتهم الاجتماعية	
.....	١٢٧
المطلب الأول: فضل الجماعة والاجتماع في القرآن والسنة	١٢٧

المطلب الثاني: منزلة أولي العزم من الرسل ﷺ في حياتهم الاجتماعية من خلال القرآن والسنة..... ١٣٣

الفصل الرابع: جهود أولي العزم من الرسل ﷺ في ميادين التربية الاجتماعية..... ١٤٤

المبحث الأول: اهتمامات أولي العزم من الرسل ﷺ بميادين التربية الاجتماعية. ١٤٤

المطلب الأول: ميادين التربية الاجتماعية في دعوات أولي العزم من الرسل ﷺ

..... ١٤٤

المطلب الثاني: مسؤولية أولي العزم من الرسل ﷺ في ميادين التربية الاجتماعية

..... ١٤٧

المبحث الثاني: التحديات المعاصرة في ميادين التربية الاجتماعية..... ١٦٩

المبحث الثالث: دور بعثات أولي العزم من الرسل ﷺ في مواجهة الانحرافات

الاجتماعية..... ١٧٤

المبحث الرابع: المقارنة المنهجية بين التربية الاجتماعية الربانية والتربية الغربية

ومقاصدهما من خلال قصص أولي العزم من الرسل ﷺ ٢١٥

الفصل الخامس: وسائل التربية الاجتماعية وأساليبها عند أولي العزم من الرسل ﷺ ٢٣٦

المبحث الأول: مفهوم وسائل التربية الاجتماعية وأساليبها في التراث الإسلامي ٢٣٨

المطلب الأول: معنى مصطلح الوسائل والأساليب في اللغة والاصطلاح والصلة

بينهما ٢٣٩

المطلب الثاني: أهمية وسائل التربية الاجتماعية وأساليبها في الإسلام..... ٢٤٤

المبحث الثاني: وسائل التربية عند أولي العزم من الرسل ﷺ لتحقيق الآداب

الاجتماعية..... ٢٤٨

المطلب الأول: التربية العقدية عند أولي العزم من الرسل ﷺ ٢٤٩

المطلب الثاني: التربية الشرعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ ٣١١

المطلب الثالث: التربية في بناء العلاقات الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل

ﷺ ٣٢٩

المطلب الرابع: التربية البيئية عند أولي العزم من الرسل ﷺ	٣٤٤
المبحث الثالث: أساليب التربية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ترسيخ الآداب الاجتماعية.....	٣٥٩
المطلب الأول: التربية بالتدرّج عند أولي العزم من الرسل ﷺ	٣٦٠
المطلب الثاني: التربية بالقُدوة عند أولي العزم من الرسل ﷺ	٣٧١
المطلب الثالث: التربية بالمجاهدة والتعوّد والصبر عند أولي العزم من الرسل ﷺ	٣٧٩
المطلب الرابع: التربية بالعزلة والبراءة عند أولي العزم من الرسل ﷺ	٣٨٩
الخاتمة.....	٣٩٩
قائمة المصادر والمراجع.....	٤٠٢

الفصل الأول

خطة البحث وهيكله العام

المقدمة

الحمد لله الغني ذو الرحمة، نحمده ﷺ على تمام كل نعمة، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد ﷺ النبي القدوة، والرسول الأسوة، ومربي الإنسانية، وهادي البشرية، الذي جاءنا بمنهاج التربية الربانية، حتى غدت أمته خير أمة أخرجت للناس، وعلى آله الأطهار، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وصحابته القادة الغر الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد!

فإنّ الكشف عن مداخل التربية الاجتماعية، ومفهومها، ومعالمها، أمرٌ في غاية الأهمية؛ لأنها من صميم المسؤولية الإنسانية، كما دلّ عليه القرآن الكريم والسنة النبوية، باعتبار أن الإنسان مسؤول عن ذاته ومجتمعه، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^١، هذا تقرير قرآني حاسم بمسؤولية الناس عن أعمالهم^٢. جاء في حديث النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^٣.

إنّ القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسان للتوجيهات التربوية في الإسلام؛ إذ تضمّنّا مبادئ التعلم والتعليم، والتربية والتزكية، ومسؤوليات الأفراد والجماعات، بما يضمن بناء شخصية متوازنة، ويحقق الغاية من الخلق وعمارة الأرض^٤.

^١ القرآن الكريم، سورة المدثر ٦٢: ٣٧.

^٢ انظر: محمد عزت دروزة، التفسير الحديث: مرتب حسب ترتيب النزول، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٨٩)، ١: ١٨١.

^٣ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (دمشق: دار ابن كثير، ١٩٩٣)، ٢: ٨٤٨، (٢٢٧٨).

^٤ انظر: فتحي حسن ملكاوي، الفكر التربوي الإسلامي المعاصر: مفاهيمه ومصادره وخصائصه وسبل إصلاحه، (هرندن، الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠)، ٢١٤.

ولقد اشتملت آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبي ﷺ، على جوانب الهداية كلها، وقدّمت برامج إصلاحية متكاملة، تصلح أن تكون أساساً للتربية والتعليم والإصلاح في كل زمان^٥.

وقد وجه الله تعالى عباده إلى تدبر تلك التوجيهات، لما فيها من حياة القلوب والعقول، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^٦، أي: بالإحياء تكون الحياة في الجسد، وتكون حياة العقل بالعلم وسداد الرأي، ليشمل ذلك الكمال من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح، والخلق الكريم، والدلالة على الأعمال الصالحة، وإصلاح الفرد والمجتمع، وما يقوم عليه ذلك من الخلال الشريفة العظيمة؛ فالشجاعة حياة للنفس، والاستقلال حياة، والحرية حياة، واستقامة أحوال العيش حياة^٧.

فالتربية الاجتماعية تُعدّ من أهم مجالات التربية، لأنها تضع الأساس لتكوين سلوك الفرد وقيمه ومبادئه، من خلال التفاعل مع المؤسسات المجتمعية، كالأُسرة، والمدرسة، والإعلام، والثقافة، والسياسات العامة، وهي بذلك تسهم في بناء الشخصية المسلمة الواعية المنتمة^٨.

وتقوم التربية الاجتماعية في الإسلام على منهج إلهي مستمدّ من القرآن والسنة، فإذا غاب هذا المنهج عن واقع المجتمع، فقدت العلاقات الاجتماعية ترابطها، وتحوّلت الأمة إلى تجمعات متفرقة^٩. كما صوّرها النبي ﷺ حال الأمة حين تضعف وحدتها، ولا يعود المجتمع مجتمعاً حقيقياً، بل مجرد تجمعات متفرقة لا رابطة بينها، كغشاء السيل، وتتلأشى شبكة علاقاته الاجتماعية^{١٠}؛ كما جاء في حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «يوشك

^٥ انظر: عبد المجيد محمد علي الغيلي، كيف يرمج القرآن الحياة؟، (صنعاء: دار النشر للجامعات، ٢٠٠٩)، ١٤.

^٦ القرآن الكريم، سورة الأنفال ٨: ٢٤.

^٧ انظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤)، ٩: ٣١٢-٣١٣.

^٨ يوسف القرضاوي، ملامح المجتمع الذي ننشده، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٣)، ٥.

^٩ انظر: علي عبد الحليم محمود، التربية الاجتماعية في الإسلام، (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٢٠)،

١٦.

^{١٠} انظر: مالك بن نبي، مشكلات الحضارة: ميلاد مجتمع، الجزء الأول: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد

الصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، (الجزائر: دار الفكر، ١٩٨٦)، ٢٩.

أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكرهية الموت»^{١١}. ولذا، من أراد أن يتأمل أثر الإسلام في المجتمع، فليقارن بين حال العرب في الجاهلية، وحالهم بعد الإسلام، وكيف نقلهم منهج الوحي من التشتت إلى الوحدة، ومن الجهل إلى نور العلم والكرامة^{١٢}، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^{١٣}.

لقد استقرت جهود علماء الإسلام على محاولة إصلاح نظام التعليم الإسلامي، والدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية والطبيعية، إذ أن الحاجة إليها أشد؛ ويجب أن تقام على أسس إسلامية وتناط بها أغراض جديدة تتفق مع الإسلام، ويجب أن يصاغ كل علم صياغة جديدة بحيث يجسد مبادئ الإسلام في منهجيته واستراتيجيته، وفي معطياته ومشاكله، وفي أغراضه وطموحاته، ويجب أن يعاد تشكيل كل علم كي يصبح ملائماً للإسلام^{١٤}. ولهذا أشار يوسف القرضاوي في كتابه "ملامح المجتمع"؛ قد لمسنا في عصرنا محنة الفرد المسلم في المجتمعات التي لا تلتزم بالإسلام منهاجاً لحياتها، ويعيش هذا الفرد في توتر وقلق وحيرة^{١٥}. ولما كانت الرسائل السماوية، وخاصة رسالة أولي العزم من الرسل ﷺ، مشحونة بالتوجيهات الربانية في جوانب الإصلاح المجتمعي، كان من اللازم التأسّي بمنهجهم التربوي والاجتماعي، كما قال الله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِهِ﴾^{١٦}، أي: "والاقتداء بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة من الصبر على أذى

^{١١} انظر: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩)، ٦: ٣٥٥، (٤٢٩٧)، خلاصة حكم المحدث: حديث حسن.

^{١٢} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٥.

^{١٣} انظر: محمد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥)، ٢: ٦٨.

^{١٤} انظر: إسماعيل راجي الفاروقي، أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطّة العمل، ترجمة: عبد الوارث سعيد، (الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٨٤)، ١٦.

^{١٥} انظر: يوسف القرضاوي، ملامح المجتمع الذي ننشده، ٨.

^{١٦} القرآن الكريم، سورة الأنعام ٦: ٩٠.

السّفهاء والعفو عنهم"١٧. وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "فإن كنتم لا بد مقتدين فاقتدوا بالميت؛ فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة"١٨. ولذا، من أوجب الواجبات وأولي المهمات، أن نتقدي بهم خاصة في التربية الاجتماعية.

ومن وظيفتهم عليهم السلام تقويم مسالك الناس إلى الإيمان إذا انخرفوا، وتوجيههم إلى الإصلاح بطريق الرشاد إذا ابتعدوا، قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾١٩. وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بالافتداء بأولي العزم من الرسل في الصبر والدعوة والإصلاح، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾٢٠، أي: نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله٢١. ويظهر ذلك من خلال قصصهم في القرآن الكريم والسنة النبوية وذكر مسيرة سعيهم للإصلاح بين الأقوام الذين أرسلوا إليهم، وقد نذروا أنفسهم، وسخروا عقولهم وألسنتهم وأنفسهم في سبيل الدعوة والتربية إلى الله تعالى، فقد وجهوا الناس إلى التأسي بمنهج الوحي، وهم الأجيال الناجحة في التربية الربانية٢٢. وقد كانوا أمثلة حيّة في الإخلاص والبذل والفداء والتربية؛ أما النبي محمد صلى الله عليه وآله، فقد كان قمة في القدوة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾٢٣، أسوة أي: "قدوة ونموذج سلوكي، والرسول صلى الله عليه وآله مُبلِّغ عن الله منهجه لصيانة حركة الإنسان في الحياة"٢٤.

١٧ انظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب: التفسير الكبير، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩)، ١٣: ٥٦.

١٨ أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (مصر: مطبعة السعادة، ١٩٧٤)، ١: ١٣٦.

١٩ القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٨٨.

٢٠ القرآن الكريم، سورة الأحقاف ٤٦: ٣٥.

٢١ انظر: إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، (بيروت: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩)، ١٣: ٥٦.

٢٢ الرّبّانيّ الَّذي يُرِيّ النَّاسَ بصغار العلم قبل كباره أي بالتدرّج وقيل غير ذلك ومنه قوله ربيون واحدة ربيّ قوله يريّها كما يرى هو من التربية، وهي القيام على الشّيء وإصلاحه. انظر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، ١٩٩٩)، ١: ١٢١.

٢٣ القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٣٣: ٢١.

٢٤ انظر: محمد متولي الشعراوي، الخواطر، (مصر: دار أخبار اليوم، د.ط، ١٩٩٧)، ١٤: ٧٥١.

وكان من أساليبه ﷺ التدرّج، ومراعاة المستويات، والربط بين الإيمان والتعليم، كما جاء في حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان خزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازدنا به إيماناً»^{٢٥}.

ومن هنا يتبين لنا، أن هناك نماذج قرآنية وحديثية مختارة لمعالم التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ؛ منها اهتمام النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في التربية الاجتماعية اهتمامهم البالغ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^{٢٦}، هذه وسيلة إلى السلامة من أسباب الهلاك، وسبيل النجاة، وطريق صلاح المجتمع، كما علمنا إمام أهل السنة؛ مالك بن أنس رضي الله عنه: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"^{٢٧}. وإذا كان هذا المعنى، فإننا ننظر إلى سُنَّة النبي ﷺ بوصفها مصدراً مبيناً لتوجيهات القرآن الكريم، ومنزلاً لأحكامه في الواقع العملي، فكان ﷺ نموذجاً وقدوةً وأسوةً في مقام التربية؛ في: موضوعاتها، ومناهجها، وأساليبها^{٢٨}.

ومن هنا، جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على النماذج التربوية الاجتماعية لأولي العزم من الرسل ﷺ، من خلال تتبع قصصهم في القرآن والسنة، واستنباط معالم التربية التي انتهجوها، مع التركيز على الوسائل والأساليب التي اتبعوها في بناء المجتمعات، وتحقيق المقاصد العليا للتربية في الإسلام.

^{٢٥} أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني، السنن، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في الإيمان، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت)، ١: ٢٣، (٦١)، خلاصة حكم الحديث: صحيح.

^{٢٦} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١١٠.

^{٢٧} وقد رُوِيَ عنه بلفظ: "لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها". انظر: إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، (السعودية: دار ابن عفان، ١٩٩٩)، ١: ٣٤٩؛ وأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، (بيروت: دار عالم الكتب، ١٩٩٩)، ٢: ٢٤٣. خلاصة الحكم: صحيح ثابت بأسانيد الثقات، المنقول عن الإمام مالك بن أنس.

^{٢٨} انظر: فتحي حسن ملكاوي، الفكر التربوي الإسلامي المعاصر، ٢١٦.

مشكلة البحث

تُعَدُّ التربية الاجتماعية من القضايا المركزية في البناء الحضاري للأمة الإسلامية، إذ بها تتكوّن شخصية الفرد، وتنظم علاقة الإنسان بغيره، وتحقق مقاصد الشريعة في حفظ الدين والمجتمع. قد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية عنايةً كبيرة بتقويم السلوك الاجتماعي، وترسيخ القيم والآداب التي تضمن صلاح الفرد والجماعة ضمن التصور الإسلامي الشامل. غير أنّ الواقع التربوي المعاصر يشهد اضطراباً في تحديد الغاية والاتجاه في مجال التربية الاجتماعية^{٢٩}، وقد تأثرت كثيرة من المناهج والبرامج التربوية السائدة بالنظريات التربوية والاجتماعية الغربية^{٣٠}، التي تقوم في معظمها على تصورات مادية أو إنسانية، وتفصل التربية عن المرجعية القرآنية والنبوية. وقد انعكس هذا التأثير على الوسائل والأساليب التربوية، وأدّى إلى إضعاف البعد القيمي والعبودي في بناء الفرد والمجتمع المسلم.

وفي مقابل هذا الاتجاه الوافد، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية قد رسّما مقصداً واضحاً واتجاهاً محدداً للتربية الاجتماعية، يقوم على تحقيق العبودية لله تعالى، وبناء الإنسان الصالح، وإصلاح المجتمع وفق منظومة قيمية متكاملة^{٣١}، وهو ما تجسّد عملياً في منهج الأنبياء والرسل. وقد اتفق العلماء على أن أولى العزم من الرسل ﷺ قد اضطلعوا بدور تربوي واجتماعي محوري في إصلاح أقوامهم، والدعوة إلى القيم الفاضلة، وتقويم السلوك الفردي والجماعي، كما دلّت على ذلك نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وبيّنته كتب التفسير وشروح الحديث؛ وذلك من حيث المواقف والمشاهد القرآنية والحديثية التي يظهر فيها أولى العزم من الرسل ﷺ بين قرابتهم وأقوامهم في تقويم مسالك الناس إلى الإيمان إذا انحرفوا، وتوجيههم إلى الإصلاح بطريق الرشاد إذا ابتعدوا؛ كانحراف قوم نوح ﷺ لما اتخذوا أصناماً آلهة، وقوم موسى ﷺ لما سألوه أن يأخذ لهم إلهاً يعبدونه واتخاذهم عجلاً جسداً له خوار

^{٢٩} انظر: إسماعيل راجي الفاروقي، أسلمة المعرفة، ١٦.

^{٣٠} انظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني؛ غزو في الصميم: دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي في مجالات "التعليم المنهجي" و"التثقيف العام" ونظرة عامة إلى التعليم في العالم مع توجهات وتوصيات خاصة وعامة، مذيلة بتوصيات المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، (بيروت: دار القلم، ١٩٨٢)، ٣٠١.

^{٣١} انظر: علي عبد الحليم محمود، التربية الاجتماعية في الإسلام، ١٦.

فيعدونه. إلا أنّ المتتبع للدراسات السابقة يلاحظ أن معالجة التربية الاجتماعية في ضوء المنهج النبوي، ولا سيما عند أولي العزم من الرسل ﷺ، جاءت في الغالب معالجة جزئية أو ضمن مباحث عامة، أو متأثرة بأطر تحليل مستمدة من النظريات التربوية الحديثة، دون دراسة علمية مستقلة تُعنى بتأصيل معالم التربية الاجتماعية تأصيلًا قرآنيًا ونبويًا، وتبين مقاصدها، ووسائلها، وأساليبها في مقابل النماذج التربوية الغربية السائدة.

ومن هنا تتحدد مشكلة البحث في الحاجة إلى دراسة علمية منهجية تُبرز معالم التربية الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية كما تجلّت في منهج أولي العزم من الرسل ﷺ، وبيان تميّزها المقاصدي والمنهجي عن الاتجاهات التربوية الغربية، بما يسهم في تصحيح مسار التربية الاجتماعية المعاصرة وفق التصور الإسلامي الأصيل.

أهمية البحث

تنبع أهمية الدراسة في الأمور الآتية:

١. يسعى البحث إلى تقديم دراسة تحليلية موضوعية تُبرز معالم التربية الاجتماعية كما يمكن استخلاصها من سير أولي العزم من الرسل ﷺ، في ضوء هدي القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك من خلال تتبع العادات التربوية التي أرساها هؤلاء الرسل في تلبية حاجات الفرد والمجتمع، وتنظيم السلوك الاجتماعي، وترسيخ القيم والآداب، وبناء العلاقات الإنسانية ضمن إطار التصور الإسلامي الشامل.
٢. يُسهم البحث في إبراز المنهج القرآني والنبوي في التربية الاجتماعية، وإحياء دوره بوصفه مصدرًا أصيلًا لتقديم القدوة والأسوة الحسنة، وربط الأفراد، ولا سيما الأجيال المعاصرة، بكتاب الله تعالى وهدى رسوله ﷺ. وتُعدّ سير أولي العزم من الرسل ﷺ نماذج تربوية راسخة، يُستفاد منها في استنباط التوجيهات والإرشادات العملية التي تسهم في بناء الفرد والمجتمع على أسس إيمانية وأخلاقية متينة.

٣. يبرز هذا البحث إمكان توظيف التطبيقات التربوية المستنبطة من القرآن الكريم والسنة النبوية في توجيه النظم التربوية المعاصرة، من خلال الاستفادة من النماذج

التربية التي جسدها أولي العزم من الرسل ﷺ، ولا سيما في تنمية القيم، وترسيخ الآداب، وتعزيز العلاقات الاجتماعية، بما يحقق بناء الشخصية المسلمة المتوازنة عقدياً وسلوكياً.

٤. يُساعد البحث على تأصيل مفاهيم القيم والمبادئ الإسلامية في مجال التربية الاجتماعية، من خلال دراسة سير أولي العزم من الرسل ﷺ وقصصهم، بما يُسهم في معالجة عدد من الإشكالات التربوية المعاصرة التي تواجه المجتمعات الإسلامية، ويقدم رؤية تربوية أصيلة منبثقة من الوحي.

الدراسات السابقة

هناك دراسات متنوعة سيستفيد الباحث من الكتب والبحوث والمجلات المتعلقة بالعنوان المطروح، التي تعالج جوانب التربية الاجتماعية؛ ولكن لم تظهر دراسة خاصة حسب معرفة الباحث المتواضع عن موقف أولي العزم من الرسل ﷺ، من أهمها:

منها مقال عنوانه، "القواعد القرآنية في تربية الذرية"^{٣٢}. لحصة بنت حمد محمد الحواس، توصل هذا البحث إلى تأصيل وتأسيس التربية وما يحتاج إليه الجيل المسلم، فقد استفاد القرآن الكريم بذكر القواعد التربوية وتبدو الحاجة ماسة لإبرازها ونشرها في المجتمع، فالقرآن الكريم منهج حياة في عصر كثر فيه النظريات التربوية التي تلففتها المجتمعات الإسلامية من الغرب فزادهم رهقاً. ويستفيد الباحث من هذه الدراسة فيما يتعلق بالقواعد القرآنية في التربية.

ومنها: "أدب الأنبياء ﷺ مع أقوامهم: أولي العزم من الرسل أنموذجاً"^{٣٣}، بحث أنوار ضيف الله ومحمد شوقي بوسته، هذا البحث يتناول أولي العزم من الرسل ﷺ من منظور الدعوة إلى العقيدة الإسلامية مع أدبهم ﷺ مع أقوامهم وأثارة مع الموافقين والمخالفين لهم،

^{٣٢} حصة بنت حمد محمد الحواس، 'القواعد القرآنية في تربية الذرية'، مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا ٢، (٢٠٢٢): ٣٦-٦٠.

^{٣٣} أنوار ضيف الله، ومحمد شوقي بوسته، "أدب الأنبياء مع أقوامهم: أولي العزم من الرسل أنموذجاً"، (مذكرة تخرج الماجستير، جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي، ٢٠٢١).

ولقد توصل هذا البحث إلى أن للأدب والخلق الحسن آثاراً كبيرة على المخالفين؛ إذ ما من مخالف من أقوام الأنبياء ﷺ إلا وقد تأثر بمن أرسل فيهم. وتختلف هذه الرسالة عن هذا البحث اختلافاً بيناً، حيث أن هذا البحث يركز على موضوع آخر مختلف كما يشير إليه العنوان، ولكن الباحث رجع إليها للاستئناس، ويمكن أن يقال بأن البحث زائد على هذه الرسالة بأمور، منها: أولاً: أن هذا البحث يتكلم عن أدب الأنبياء ﷺ مع أقوامهم: أولي العزم من الرسل ﷺ أنموذجاً فقط، والباحث يتناول إبراز جانب من جوانب التربية الإسلامية، وهي معالم التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن والسنة بشكل خاص. ثانياً: كما سيتعرض الباحث إلى التربية الاجتماعية وماهيتها وأنواعها وأساليبها وآدابها وقيمها، وبيانها عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن والسنة وعواقبها من التربية الاجتماعية.

ومنها دراسة لمحمد إيكو ستجفتو: "التسامح الاجتماعي في القرآن الكريم: دراسة تحليلية لنماذج مختارة من تفسير المراغي"^{٣٤}، وقد توصلت هذه الدراسة إلى أن الأخوة الإنسانية ومعاشرة غير المسلمين بالبر والإحسان من مظاهر التسامح الاجتماعي في الإسلام، وأن معظم ما فسره المراغي للآيات المتعلقة بالتسامح الاجتماعي يتماشى مع مفهوم التسامح الاجتماعي في الإسلام. وتعتبر هذه الدراسة مفيدة لنا؛ لكنها تختلف عن دراسة الباحث في عدم تقديمه موقف أولي العزم من الرسل ﷺ لهذا الموضوع. وسيستفيد الباحث من هذه الدراسة فيما يتعلق بالمصطلحات اللغوية عن مفهوم التربية الاجتماعية.

ومن الكتب التي سيعتمد الباحث عليها: "الفكر التربوي الإسلامي المعاصر: مفاهيمه ومصادره وخصائصه وسبل إصلاحه"^{٣٥}، يتمحور هذا الكتاب حول أمة الإسلام والعلم، ودور الفكر التربوي الإسلامي المعاصر في بناء الحضارات، وهذا الكتاب قد وضع لبنة في صرح الإسلام، حيث جمع المؤلف ما يشير إلى أهمية الوحي في إعادة الأمة إلى مكانها

^{٣٤} محمد إيكو ستجفتو، "التسامح الاجتماعي في القرآن الكريم: دراسة تحليلية لنماذج مختارة من تفسير المراغي"، (رسالة الماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠٢٠).

^{٣٥} فتحي حسن ملكاوي، الفكر التربوي الإسلامي المعاصر، (هرندن: الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠).

الصحيح، والعودة إلى نظام الوحي في التربية الإسلامية، ودراسة تجارب الأمم التي كان لها نصيب من الصدارة والتمكين، لكنه يقتصر في مباحثه على موضوع التربية الاجتماعية بشكل عام دون أن يخصص دراسة التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في القرآن والسنة، وهذا ما سيتناوله هذا البحث.

ومنها رسالة دكتوراه بعنوان: "تفسير الآيات القرآنية في معجزات أولي العزم من الرسل: دراسة مقارنة بين تفسيري القرآن العظيم والمصباح"³⁶، محمد شكري إسماعيل؛ يرى هذا الباحث؛ أن تفسيري مولانا محمد علي وتفسير محمد قريش شهاب بينهما فرق جلي، فقد بين أن مولانا محمد علي ومحمد قريش شهاب ممن ينتهج منهج التفسير بالرأي أو بالاجتهاد، لكنهما لا يتساويان في تفسير الآيات التي تتحدث عن معجزات أولي العزم من الرسل ﷺ، فإن الأول قد مال إلى المنهج الليبرالي في تفسيره، وأما الثاني فمال إلى منهج الاعتقاد في المبادئ. إن الدافع الأساسي والخلفية في الميل السابق لمولانا محمد علي ومحمد قريش شهاب هو العامل البيئي والاجتماعي، أن مولانا محمد علي كان متناقضاً في تعريفه للمعجزة، ولا يقول بوجودها قبل النبي ﷺ، فيقول: معجزته هي القرآن، ولا يقول بغيرها، وأما محمد قريش شهاب فلم يكن كلامه متناقضاً في تعريفه لمعجزات الأنبياء ﷺ، خاصة لنبينا ﷺ، فيمكن الاستفادة من بعض الأفكار لدفع المنهج الليبرالي في تفسير آيات أولي العزم من الرسل ﷺ، غير أن هناك فرقاً واضحاً، فالباحث يركز على معالم التربية الاجتماعية.

ومن الدراسات حول الموضوع: "الأمراض الاجتماعية وعلاجها في ضوء سورة الحجرات: قراءة معاصرة"³⁷، لعلي أسا علي مبارك، تبين في هذه الدراسة أن سورة الحجرات رسمت للمجتمع الإسلامي منهجاً مثالياً لعلاج الأمراض الاجتماعية المعاصرة؛ لأنها تدعو المسلمين إلى عدم تقديم آرائهم أمام رأي رسول الله ﷺ، وخاصة فيما يتعلق بالشريعة، وكما أن السورة الكريمة أسست مبدأ احترام الآخرين وعدم التفاضل بين الناس إلا بالتقوى،

³⁶ M. Syukri Ismail, *Penafsiran Ayat-Ayat Mukjizat Ulul 'Azmi: Studi Komparatif: The Holy Qur'an dan Tafsir al-Mishbāh* (Doctoral Dissertation, Sunan Ampel State Islamic University Surabaya, 2019).

³⁷ علي أسا علي مبارك، "الأمراض الاجتماعية وعلاجها في ضوء سورة الحجرات: قراءة معاصرة"، (رسالة الماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠١٦).

فمضى تمسكت المجتمعات المسلمة بالقيم والمبادئ الأخلاقية السامية التي جاءت بها سورة الحجرات ستعيش في معافاة تامة. فهذا البحث له صلة بعنوان الباحث، من ناحية أنه تناول الأمراض الاجتماعية، إلا أنه بحث عام لم يحدد السور المدروسة، بينما موضوع الباحث محدد بأولي العزم من الرسل ﷺ وموقفهم من التربية الاجتماعية في القرآن والسنة.

ومنها رسالة دكتوراه بعنوان، "أسلوب التعليل في القرآن الكريم وأثره على العالم والمتعلم: دراسة تحليلية"^{٣٨}، توصلت الباحثة للكشف عن مفهوم هذا الأسلوب القرآني وأدواته وآثاره، وربطه بالسلوك، وقد خلص البحث إلى نتائج، من أهمها: أسلوب التعليل وأدواته، استثمار كل ذلك في استنتاج آثاره العظيمة في تنمية مهارة التفكير الإبداعي للعالم والمتعلم، وكذلك الأثر السلوكي من خلال أساليب التعليم التعليلية، وتوسعة لمجالي الفهم والإدراك والوصول إلى مهارات تهذيب النفوس، وتدفع في نهاية المطاف إلى الاستنهاض بالهمم، والسمو بالنفس وتهيئتها لحل المشكلات واتخاذ القرارات والتميز بالارتقاء الفكري، وتحقيق النجاحات والسعادة في كل مرافق الحياة. إلا أن الباحث سيستفيد منها في معرفة المقصود بالمنهج القرآني، وأيضاً في بيانه لسمات هذا المنهج.

ومن الكتب المتعلقة بالباحث: "من روائع حضارتنا"^{٣٩}، كتبه الدكتور مصطفى السباعي. وقد فصل المؤلف عن جوانب المجتمع المسلم وشرح شرحاً وافياً. ويهدف للفت الأنظار إلى صور رائعة من حضارة المسلم، لتذكير الجيل الجديد من أبناء الأمة الإسلامية بواجبه في بناء حضارة إنسانية كريمة كما بنى الآباء أمثالها، وقدم الدليل على استطاعته بناء حضارة أكمل وأسمى من هذه الحضارة، كما أن المؤلف تطرق لمثال على ذلك في القضية الاجتماعية ومشكلتها، فيمكن الاستفادة من بعض الجزئيات وبعض الأفكار التي تسلط الضوء حولها، وسيتناول الباحث في هذا البحث مفهوم التربية الاجتماعية عند أُولي العزم من الرسل ﷺ ومعالمها عندهم.

^{٣٨} نجوى نايف عبد النبي شكوكاني، "أسلوب التعليل في القرآن الكريم وأثره على العالم والمتعلم: دراسة تحليلية"، (رسالة الدكتوراه، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٨).

^{٣٩} مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، (القاهرة: دار السلام، ٢٠١٦).

ومنها كتاب ألفه الدكتور حسن عبد العزيز: "الهدي النبي ﷺ في تربية الأولاد في ضوء القرآن والسنة"^{٤٠}، يعرض هذا الكتاب أهمية القرآن الكريم للنبي ﷺ؛ دعويًا وتربويًا وبعض المفاهيم والمصطلحات كمفهوم التربية الربانية القرآنية والحديثية، وكذلك بعض الأساليب القرآنية والأحاديث النبوية في تربية النبي ﷺ للأولاد. ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب يتناول قضايا مختلفة عن الموضوع الرئيسي الذي يحاول الباحث الحديث عنه، غير أن الكتاب فيه ما يفيد الباحث.

بناءً على ذلك، وبعد الاطلاع هذه الدراسات كلها، لم يجد الباحث بحثاً مستقلاً يعرّف بجهود أولي العزم من الرسل ﷺ في مواقفهم من التربية الاجتماعية؛ وسيستفيد الباحث من هذه الدراسات السابقة مع النظر إلى التعريف بأولي العزم من الرسل ﷺ ومواقفهم من التربية الاجتماعية في القرآن والسنة.

أسئلة البحث

يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١. ما المقصود بمعالم التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في القرآن والسنة؟
٢. ما أهمية التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ؟
٣. ما جهود أولي العزم من الرسل ﷺ في التربية الاجتماعية؟
٤. ما الوسائل والأساليب القرآنية والحديثية للتربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ؟

أهداف البحث

يسعى هذا البحث لتحقيق الأهداف الآتية:

^{٤٠} سعيد بن علي القحطاني، الهدى النبي ﷺ في تربية الأولاد في ضوء القرآن والسنة، (د.م)، سلسلة مؤلفات سعيد بن علي القحطاني، ٢٠١١).

١. بيان المقصود بمعالم التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ.
٢. الكشف عن أهمية التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ.
٣. إبراز جهود أولي العزم من الرسل ﷺ في التربية الاجتماعية.
٤. إبراز الوسائل والأساليب القرآنية والحديثية للتربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ.

حدود البحث

ينحصر هذا البحث في دراسة المعالم التربوية الاجتماعية في سِير أولي العزم من الرسل عليهم السلام، وذلك في ضوء ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بالرجوع إلى كتب التفسير المعتمدة التي عنيت ببيان القصص القرآني ودلالاته الاجتماعية والتربوية، مثل تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير، وغيرها من التفاسير المعتبرة قديمها وحديثها، مع الإفادة مما تميّزت به بعض التفاسير من عناية بالأبعاد الاجتماعية والبلاغية واللغوية والمقاصدية للنص القرآني، بما يسهم في إبراز الدلالات التربوية المقصودة. كما يعتمد البحث في السنة النبوية على كتب السنة المعتمدة والمشهورة عند أهل العلم، ولا سيما الصحيحين، والسنن، والمسانيد المعروفة، مع الاستعانة بشروح الحديث الموثوقة. ويركّز البحث على استقراء العادات التربوية المتكررة في حياة أولي العزم من الرسل ﷺ، من حيث المنهج الذي سلكوه، وأهم الوسائل والأساليب التي اعتمدها في بناء الجماعة، وإصلاح المجتمع، وتحقيق المقاصد التربوية العليا، وذلك في حدود النصوص الشرعية ذات الصلة المباشرة بموضوع الدراسة، ووفق التصور الإسلامي الشامل.

منهج البحث

يعتمد الباحث على:

١. المنهج الاستقرائي: تم استخدام هذا المنهج لجمع البيانات من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتصلة بموضوع التربية الاجتماعية، ولا سيما ما ورد منها في سياق مواقف ومنهج أولي العزم من الرسل ﷺ. وقد تم جمع

الآيات القرآنية من المصحف الشريف من خلال تتبع المواضيع التي تتضمن توجيهات اجتماعية، أو مبادئ تربوية ذات بعد اجتماعي، أو مواقف عملية في بناء الجماعة وإصلاح المجتمع، ثم حصر الآيات ذات الصلة المباشرة بموضوع البحث. كما تم الرجوع إلى كتب التفسير المعتمدة قديمها وحديثها لبيان دلالات هذه الآيات، والتحقق من فهمها في سياقها القرآني العام، واستخلاص ما يتعلق منها بمعالم التربية الاجتماعية. أما الأحاديث النبوية، فقد جُمعت من خلال الرجوع إلى كتب السنة المعتمدة والمشهورة عند أهل العلم، مثل الصحيحين، والسنن، والمسانيد المعروفة، وذلك باختيار الأحاديث التي تتضمن توجيهات نبوية ذات بعد اجتماعي، أو مواقف تربوية عملية في بناء الفرد والمجتمع. وقد روعي في اختيار هذه الأحاديث صحة الحديث أو حسنه، ووضوح دلالاته، وصحة الاستدلال به، مع الرجوع إلى شروح الحديث الموثوقة لفهم معانيه وسياقه. ويهدف هذا المنهج إلى حصر النصوص الشرعية المرتبطة بموضوع البحث، ثم تصنيفها وفق محاور الدراسة، بما يحقق الإجابة عن أسئلة البحث المتعلقة بمفهوم معالم التربية الاجتماعية، وأهميتها، وجهود أولي العزم من الرسل ﷺ، ووسائلهم وأساليبهم التربوية.

٢. **المنهج التحليلي:** يُستخدم هذا المنهج لتحليل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تم جمعها بالمنهج الاستقرائي، وذلك من خلال تفسير مضامينها، وبيان دلالاتها اللغوية والسياقية والتربوية، وربطها بالمقاصد العليا للتربية الاجتماعية في الإسلام. كما يُعتمد عليه في تحليل النماذج القرآنية والحديثية المختارة، وبيان ما تتضمنه من معالم تربوية واجتماعية، وتصنيف البيانات المستخلصة وفق محاور البحث، والكشف عن جهود أولي العزم من الرسل ﷺ، ووسائلهم وأساليبهم في التربية الاجتماعية، وصولاً إلى استخلاص النتائج المرتبطة بأسئلة البحث وأهدافه.

الفصل الثاني

المقصود بمعالم التربية الاجتماعية عند أولى العزم من الرسل ﷺ في القرآن والسنة

تمهيد

إن تأصيل مصطلحات البحث العلمي وضبطها وتحريرها من حيث مدلولها اللغوي والاصطلاحي يُسهم في توضيح المعلومة ويساعد القارئ في اتجاهات البحث وتفرعاته؛ لأن توضيح المراد من الألفاظ والمصطلحات يستلزم تحديد معناها ومقصودها، قال جميل صليبا: "تثبيت الاصطلاحات العلمية لا يفيد العلماء وحدهم، بل يفيد الدعاة والمدعوين كما يفيد جمهور القراء"^١.

بناء على ذلك، سوف يتمّ الحديث في هذا الفصل عن مفهوم المعاني اللغوي لكلمة المعالم والتربية والاجتماعية وأولى العزم من الرسل ﷺ، من خلال كتب العلماء القديمة والحديثة، مع رصد الصلة بين التعريفات اللغوية والاصطلاحية، حتى يتضح المقصود بمعالم التربية الاجتماعية عند أولى العزم من الرسل ﷺ. لذا، هذا الفصل يتضمن ثلاثة مباحث رئيسية: المبحث الأول: مفهوم معالم التربية في القرآن والسنة، والمبحث الثاني: مفهوم مصطلح اجتماعية في القرآن والسنة، والمبحث الثالث: أولو العزم من الرسل ﷺ وعاداتهم في التربية الاجتماعية في ضوء القرآن والسنة.

المبحث الأول: مفهوم معالم التربية في ضوء القرآن والسنة

تمهيد

يعد لفظة تربية بضيغها المختلفة واسع الاستخدام، ومن أكثر الألفاظ تداولاً، وشيوعاً عند كثير من الباحثين ممن لهم اهتمامات تربوية وغيرهم؛ قال مصطفى ناصف: "لا شيء أخطر من تصور سهولة تقرير معاني الكلمات، وخاصة إذا كانت كثيرة التداول بين الناس"^٢. لذا فإن باحث التربية صار لزاماً عليه أن يقف ويطلب الوقوف ويبدل الجهود للكشف عن

^١ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢)، ٩.

^٢ مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، (القاهرة: دار القلم، ١٩٦٧)، ١٥١.

دلالته أو تقرير معناها أو دلالتها بذاتها. نال مفهوم التربية اهتمام العلماء؛ ومن الطبيعي أن يعود باحث التربية إلى معاجم اللغة لمعرفة دلالتها اللفظية، ومدى الصلة بين معناها اللغوي والاصطلاحي، وكذلك باحث التربية القرآنية والحديثية منها على وجه الخصوص؛ أن يعود إلى كتب التفسير والشروح، ولكثرة ورودها ومشتقاتها ومصدرها وأجزائها ومرادفاتھا في القرآن الكريم والسنة النبوية وما تضمنها من معانٍ ودلالات، ومحاولة العلماء لتفسير الآيات القرآنية وشرح الأحاديث النبوية لإيضاح معناها فيما وردت فيها.

ومن هنا؛ رأى الباحث أن يقف على ما قيل عنها ويناقش الباحث هؤلاء؛ ومن ثم يعرض خلاصة ما توصل إليه، كما سيتبين ذلك؛ من خلال هذه المطالب: المطلب الأول: تعريف معالم التربية لغةً واصطلاحًا، والمطلب الثاني: التربية في القرآن والسنة، والمطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة بالتربية في القرآن والسنة.

المطلب الأول: تعريف معالم التربية لغةً واصطلاحًا

أولاً: تعريف المعالم لغةً واصطلاحًا

فالمعالم لغةً: بالنظر إلى لفظة المعالم في أصل تكوينها اللغوي فإنها مأخوذة من علم، ذكر الرازي في معجمه: "علم: يدل على أثر بالشئ يتميز به عن غيره"^٣. وقد أضافوا للمعالم معاني أخرى فالجوهري ابتداءً المادة بنفس ما ابتدأها به الرازي، فقال: والعلامة والعلم: الجبل؛ والعلم: الراية، وقال الراغب الأصفهاني: ° والعلم: الأثر الذي يُعلم به الشئ كعلم الطريق، وسمي الجبل علمًا لذلك، وجمعه: أعلام، وأعلمت كذا: جعلت له علمًا، ومعالم الطريق والدين الواحد، ومعلم: وفلان معلم للخير، وقرئ في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾^٦؛

^٣ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٩)، ٤: ١٠٩.

^٤ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٩)، ٥: ١٩٩٠.

^٥ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، (بيروت: دار القلم، ١٩٩٨)، ٥٨١.

^٦ القرآن الكريم، سورة الزخرف ٤٣: ٦١.

قال البغوي في تفسيره: «وَإِنَّهُ» يعني عيسى عليه السلام، «لَعَلَّمُ لِلْسَّاعَةِ» يعني نزوله من أشراف الساعة يعلم به قربها، وقرأ ابن عباس وأبو حمزة وقتادة: «وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلْسَّاعَةِ» بفتح اللام والعين أي أماراً وعلامة^٧. والمعنى أن ظهور النبي عيسى عليه السلام ونزوله علامة تدل على اقتراب الساعة^٨.

أما تعريف المعالم اصطلاحاً: قال ابن منظور^٩: والمعلم: ما جعل علامةً وعَلَمًا للطرق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه. وروى في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس في يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة نقي»، قال سهل وغيره: «ليس فيها معلم لأحد»^{١٠}؛ قال ابن حجر العسقلاني: أن المعلم هو الشيء الذي يستدل به على الطريق^{١١}. وفي الحديث عن عمر رضي الله عنه قال: أن رسول الله ﷺ قال: «...ذاك جبريل، أتاكم يعلمكم معالم دينكم»^{١٢}؛ أي: «أصول دينكم وأساسه بسؤاله إياي؛ أي: أتاكم حالة كونه معلماً إياكم وقواعد دينكم وأساسه وأصوله، والمعالم: جمع معلم؛ بمعنى: مداركه ودلائله، والإضافة للبيان، أي: قواعد دينكم، أو كلمات دينكم»^{١٣}.

خلاصة القول: حسب اطلاع الباحث؛ ومن كل ما تقدم يتضح؛ أن كلمة المعالم معناها: الأثر والعلامة، والجبل، وغيرها. إذ لم يجد الباحث تعريفاً اصطلاحاً دقيقاً للفظ معالم عند العلماء، ولعل ذلك يرجع إلى أن لفظة معالم لا يتضح مقصودها ومعناها إلا بإضافتها

^٧ انظر: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: تفسير البغوي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠)، ١٦٦: ٤.

^٨ ابن منظور، لسان العرب، ١٢: ٤١٩؛ وانظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ٣٣: ١٣١.

^٩ ابن منظور، لسان العرب، ١٢: ٤١٩.

^{١٠} البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة، ٥: ١٢٣٩، (٦٥٢١).

^{١١} ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ١٥: ١٨.

^{١٢} ابن ماجه، السنن، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في الإيمان، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ١: ٤٤، (٦٤)، خلاصة حكم الحديث: صحيح.

^{١٣} محمد الأمين بن عبد الله بن يوسف بن حسن الأرمي العلوي الأثيوبي الحرري الكري البؤيطي، شرح سنن ابن ماجه المسمى «مرشد ذوي الحجا والحاجة إلى سنن ابن ماجه» و «القول المكتفى على سنن المصطفى»، مراجعة لجنة من العلماء برئاسة: الأستاذ الدكتور هاشم محمد علي حسين مهدي، (جدة: دار المنهاج، ٢٠١٨)، باب: في الإيمان، ١: ٢٤١، (٦١).

إلى لفظة أخرى، على سبيل المثال: معالم التربية. ويمكن أن يقال: كل شيء واضح أو ظاهر من الآثار أو الإشارات أو الدلائل التي يرجع إليها الباحثون ليدلهم عن أمرٍ ما. وأما المقصود من كلمة المعالم في هذه البحث فهي جمع الآثار أو الإشارات أو الدلائل العلمية والشرعية التي يستطيع الباحث أن يسترشد بها أو يعتمد عليها أثناء إطلاعه وبجته حتى يصل إلى الهدف أو الغاية المنشودة التي يصبو إليها من استنباط المعاني وكشف غموض وغيرها.

ثانياً: تعريف التربية لغةً واصطلاحاً

تعددت التعريفات للفظ التربية، وقبل بيان ذلك، ينبغي معرفة الأصل اللغوي لهذه الكلمة. **فالتربية لغةً:** مصدر للفعل الرباعي من رَبَّى على وزن تَفَعَّلَ؛ لأنه معتل على وزن فَعَّلَ، كما نقول في الفعل زَكَّى تزكية. قال الراغب الأصفهاني: "يقال: رَبَّه، ورباه وربَّه" ^{١٤}؛ وقيل: أنها مأخوذة من ثلاثة ألفاظ في الأصل وهي ربا يربو، وربا يربي، ورب ربَّ ^{١٥}، ويبدوا أن تفرق الأصفهاني وغيره بين أصول اللفظ للتربية لم يَحُلْ دون ربط أكثر اللغويين؛ ويمكن إرجاع أصولها في معاجم اللغة لإيضاح عدة معانٍ؛ وذلك تبعاً لاشتقاقها، وهي كالتالي:

١. ربا يربو: صرح محمد بن يعقوب الفيروزآبادي عند رجوعه إلى مادة ربا يربو، فقال: "ربا ربواً ورباءً أي زاد ونما، وارتبته وأربيته: نميته" ^{١٦}. وقال ابن منظور والجوهري: ربا الشيء يربو رُبواً ورباءً: زاد ونما ^{١٧}. وعلى هذا فتكون التربية النمو والزيادة.

٢. يربي: ذكر ابن منظور: يربي يربي على وزن خفي يخفى، أي: نشأ وترعرع؛ ويقال: يربي فلان في بني فلان أي: نشأ فيهم، ويقال: ربَّى الوالد ابنه بمعنى غذاه

^{١٤} أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (بيروت: دار القلم، ٢٠٠٩)، ٣٣٦.

^{١٥} انظر: علي بن نايف الشحود، الخلاصة في أصول التربية الإسلامية، (ماليزيا: دار المعمور، ٢٠١٠)، ٧-٨؛ وانظر: خالد بن حامد الحازمي، أصول التربية الإسلامية، (بيروت: دار عالم الكتب، ٢٠١٠)، ١٧-١٨.

^{١٦} انظر: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠)، ٤: ٣٦٤.

^{١٧} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢: ٤٠١؛ وانظر: الجوهري، الصحاح، ٦: ٢٣٤٩-٢٣٥٠، باب الواو والعلم، فصل الراء، مادة "ربا".

وجعله ينمو؛ أي: حفظه ورعاه ونشأه^{١٨}؛ وذهب ابن سيده إلى مثل ما ذهب إليه ابن منظور؛ قائلًا: ربّيت أي: أصلحت^{١٩}. عند إسماعيل بن حماد الجوهري، فقال: "ربيته تربية وتربيته أي غذوته وهو لكل ما ينمي كالولد والزرع ونحوه"^{٢٠}. بناء على ذلك فالتربية هنا بمعنى النشأة والترعرع والتغذية.

٣. رباه: قال ابن منظور: "تقول: رباه بمعنى نشأه ونمى قواه الجسدية والعقلية والخلقية"^{٢١}، فالتربية هنا بمعنى النمو والتغذية للجسد والعقل والخلق؛ وأضاف ابن منظور على هذه المعاني **بالحفظ والرعاية**: رباه تربية وترباه أحسن القيام عليه ووليه حتى يفارق الطفولية كان ابنه أم لم يكن^{٢٢}.

٤. ربّ: تضمن معنى الإتمام والإصلاح؛ وهو مأخوذة من مادة ربّ يربّ، قال ابن منظور: "ورب المعروف والصنيعة والنعمة، أي: نماها وأتمها وأصلحها"^{٢٣}. ويقال: "ربّ الأب ولده: وليه وتعهّده بما يغذيه وينميه ويؤدبه"^{٢٤}، وعلى هذا فتكون التربية هنا بمعنى **الرعاية والتأديب**. وأضاف هذه المعاني؛ عند ابن فارس في مادة رب أي: "جمع وزاد، ومن هذا الباب الربابة وهو العهد وسمي العهد ربابة لأنه يجمع ويؤلف"^{٢٥}. وقد جاء في المصباح المنير: "وربّ زيد الأمر ربّا من باب قتل إذا ساسه وقام بتدبيره؛ كما جاء في حديث^{٢٦} عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال صلى الله عليه وسلم: «إنّ من أشراط الساعة أن يرى رعاء الشاء رؤوس الناس، وأن يرى الحفاة العراة

^{١٨} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢: ٤٠١.

^{١٩} أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى، المخصّص، تحقيق خليل إبراهيم جفال (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٨)، ٣: ١٠.

^{٢٠} انظر: الجوهري، الصحاح، ١: ١٣٠.

^{٢١} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢: ٤٠١.

^{٢٢} انظر: ابن منظور، ٢: ٤٠١.

^{٢٣} ابن منظور، ١: ٣٩٩.

^{٢٤} أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (القاهرة: دار عالم الكتب، ٢٠٠٨)، ٢: ٨٤٢.

^{٢٥} انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٣٧٨.

^{٢٦} أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، إشراف عبد الله بن عبد المحسن التركي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١)، ١٥: ٦٥، (٩١٢٨)، قال المحققون: حديث صحيح.

الجَّوْع يتبارون في البنيان، وأن تلد الأمة ربحاً»^{٢٧}. وعلى هذا فالتربية هنا بمعنى الرعاية والتدبير.

٥. رب: الرب فيكون بمعنى المالك، قال ابن منظور: "فالرب هو الله ﷻ، هو رب كل شيء أي مالكة، ولا يقال الرب في غير الله إلا بالإضافة؛ فالرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والقيم والمنعم"^{٢٨}. ويقول أبو هلال العسكري: والصفة برب أيضاً تقتضي معنى المصلح^{٢٩}. فالتربية هنا بمعنى المالك والمصلح.

٦. الرباني: وأورد في اللسان أكثر ما قيل عن هذه المادة، ذكر ابن منظور هذه المعاني بالراسخ في العلم، فقال: الربّاني من الرب بمعنى التربية، ونقل ابن منظور قول ابن الأعرابي فقال: الرباني: العالم المعلم الذي يغزو الناس بصغار العلوم قبل كبارها. والرباني: الراسخ في العلم، أو الذي يطلب بعلمه وجه الله تعالى^{٣٠}. وعلى هذا فالتربية هنا بمعنى العلم.

يتبين لنا أن كلمة التربية جاءت في معاجم اللغة بعدة معانٍ، ومن معناها: الازدياد والنمو، والتنشئة والتغذية، والتأديب والرعاية، والمالك، والعلم؛ وكل هذه المعاني تهدف إلى إعداد الأفراد إعداداً كاملاً وتكوين الجماعات تكويناً جيداً ليكونوا صالحين ومصلحين في المجتمع. وأما التربية اصطلاحاً: فقد تعددت التعريفات الاصطلاحية لكلمة التربية تبعاً للجانب لما يتناوله الباحثون في ذلك. منهم من قصرها على الإنسان فحسب؛ وفي ذلك ما عرّفها الأصفهاني صاحب المفردات في غريب القرآن بقوله: "التربية هي إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام"^{٣١}. وذهب البيضاوي إلى أن التربية: "تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً

^{٢٧} أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (بيروت: المكتبة العلمية، د.ط، د.ت)، ١: ٢٩١.

^{٢٨} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢: ٤٠١.

^{٢٩} انظر: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، الفروق اللغوية، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، (مصر: دار العلم والثقافة، د.ط، د.ت)، ١: ٢٤٧.

^{٣٠} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢: ٤٠٠.

^{٣١} الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ١٨٤.

فشيئاً^{٣٢}. وعليه، يمكن أن يقال: أن معناها يشمل الإنسان والحيوان والنبات، وغيرها، وأنها تصلح لجميع المخلوقات.

ومن أهم معاني التربية التهذيب، والرفع، والسمو والترقية، والتزكية للروح والعقل والجسم^{٣٣}؛ كما عرّفها مقدار يالجن بأنها: "تزويد الطفل بما يحتاج إليه من الثقافة الإنسانية الضرورية، وتغذيته بما يحتاج إليه من الأغذية الضرورية، وحفظه من كل سوء، ورعايته خلال مرحلة نموه، وتهذيب أخلاقه ونفسه؛ لينشأ نشأة سليمة؛ ولينمو نمواً متكاملًا، حتى يعلو شأنه، من الناحية الجسمية والروحية والعقلية والنفسية والاجتماعية، والأخلاقية، حتى يعلو شأنه، وترتفع منزلته، ويكون شريفاً في قومه"^{٣٤}. وهذا التعريف إن كان فيه شيء من الشمول، يمكن أن يقال: التربية تقتصر على الطفل دون غيره، والتربية فيما يرى الباحث أنها شاملة لجميع مراحل الإنسان، وأطواره، ومراحلته المختلفة، حتى يتوفاه الله تعالى. وهناك محاولات جادة في تعريفات التربية، فقد عرّفها محمد صالح بأنها: "طريقة لإعداد الإنسان الصحيح والصالح والمتميز بسلوكه الفكري والإنساني والقادر على توظيف مصادر المعرفة لديه في حل مشاكله ومشاكل مجتمعه"^{٣٥}.

ومن أهم التعريفات؛ تعريف عبد الرحمن النحلاوي بقوله: تنمية فكر الإنسان وتنظيم سلوكه وعواطفه على أساس الدين الإسلامي^{٣٦}. وعرّفها أيضاً محمود السيد بأنها: إعداد المسلم إعداداً كاملاً من جميع النواحي وفي جميع مراحل نموه للحياة الدنيا والآخرة في ضوء المبادئ والقيم وطرق التربية التي جاءت في الإسلام^{٣٧}. وعرّفها زغلول النجار بقوله: بأنها نظام

^{٣٢} أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (بيروت: دار القلم، ١٩٩٨)، ١: ٣.

^{٣٣} انظر: عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، (تونس: الدار العربية للكتاب، د.ط، د.ت)، ٢٣.

^{٣٤} مقدار يالجن، التربية الأخلاقية في الإسلام، (الرياض: دار عالم الكتب، ط ١، د.ت)، ٥١.

^{٣٥} ثاراس محمد صالح، المبادئ التربوية في القرآن الكريم، (دم، آداب الرفادين، ٢٠١٨)، ٤.

^{٣٦} عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، (بيروت: دار الفكر، ٢٠١٢)، ٢٨.

^{٣٧} محمود أحمد السيد، معجزة الإسلام التربوية، (بيروت: دار البحوث العلمية، ١٩٧٨)، ٢٩.

تربوي قائم على الإسلام بمعناه الشامل^{٣٨}. وعرفها عبد الرحمن النقيب بقوله: بأنها نظام تربوي وتعليمي يستهدف إيجاد إنسان القرآن والسنة أخلاقاً وسلوكاً مهما كانت حرفته ومهنته^{٣٩}. وعرفها علي بن نايف الشحود بأنها: تسعى إلى إيجاد الإنسان الصالح بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعاني الإنسانية، فهي تنمي في الإنسان المسلم حسن التعامل مع كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأوطانهم على أنهم بشر خلقهم الله ﷻ، وأن مقياس التفاضل بينهم ما قرره الله ﷻ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^{٤٠}.

وانتهى الباحث إلى: تعدد التعريفات والمفاهيم لكلمة التربية، وذلك يعود لتعدد ثقافات ومشارب الكاتبين التي يستقون منها، ومما سبق فإن الباحث يخلص إلى أن التربية بعمومها هي التنشئة والتغذية والرعاية لجميع المخلوقات، وأما التربية بخصوصها لإنسان هي إصلاح النفس الإنسانية، وتنمية جوانبها الروحية والعقلية والجسمية وإحكام بنائها إلى حد الكمال. ولذا، فإن التربية ليست عملية مادية فقط مقتصرة على الطعام والشراب، وإنما عملية متكاملة تشمل جميع جوانب شخصية المتربي؛ روحياً وعقلياً وجسدياً؛ ولإعداد شخصية إسلامية متكاملة وتنميتها، وفقاً لما سنة الله ورسوله، بغية استثمار طاقاتها فيما ينفعها والمجتمع، لتعيش في هذه الحياة عيشة طيبة، وتكسب رضا خالقها في الحياة الآخرة.

المطلب الثاني: دلالات التربية في ضوء القرآن والسنة

لم ترد لفظة التربية في القرآن الكريم والسنة النبوية بنصها ولكن وردت بعض مشتقاتها ومعانيها؛ وهي تهدف إلى إبراز دور التربية في عمارة الأرض، ومن أهمها: تربية الله ﷻ لخلقه، وتربية الأنبياء ﷺ لأقوامهم، وتربية الأبوين للأولاد.

^{٣٨} زغلول النجار، أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، (هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٠). ٨٥.

^{٣٩} عبد الرحمن النقيب، التربية الإسلامية المعاصرة في مواجهة النظام العالمي الجديد، (بيروت: دار الفكر العربي، د.ط، ١٩٩٦)، ١٧.

^{٤٠} القرآن الكريم، سورة الحجرات ٤٩: ١٣؛ وانظر: علي بن نايف الشحود، الخلاصة في أصول التربية الإسلامية، ٢٣-٢٤.

بالنسبة إلى تربية الله ﷻ لخلقه، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^{٤١}، ذكر ابن الجوزي أن كلمة ربّ هي مأخوذة من التربية، يقال: رب فلان صنيعته يربها ربّاً: إذا أتمها وأصلحها^{٤٢}. قال البيضاوي في معنى ربّ هو المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه^{٤٣}. فالله ﷻ هو المالك والحافظ والخالق للخلق؛ وأنه سبحانه وتعالى مربّيهم، ويقول السعدي في تفسيره أن تربية الله ﷻ لخلقه العامة والخاصة؛ فالتربية العامة وهي خلق الله تعالى المخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا؛ وأما التربية الخاصة وهي تربية أوليائه فيربّهم بالإيمان ويوفّقهم له ويكملهم به ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه؛ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^{٤٤}. أي: يختار من خلقه من يعلم أنه يصلح للاجتماع برسالته وولايته، ومنه أن اجتبي هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وآخرها^{٤٥}. ذكر الشعراوي بأن التربية الخاصة لله سبحانه تكون لأنبيائه والصالحين؛ كما فسّره قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾^{٤٦}: أي: ربك أنت بالذات، لا الرب المطلق، لأن الرسل مختلفون عن الخلق جميعاً، فلهم تربية مخصوصة، فالحق تبارك وتعالى يربي الرسل تربية تناسب المهمة التي سيقومون بها^{٤٧}. وقال الشربيني في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^{٤٨}، أي: المرابي لي تربية خاصة، هي أعلى من كل مخلوق سواي، فأنا أعبد عباداً تفوق عبادة كل عابد^{٤٩}.

^{٤١} القرآن الكريم، سورة الفاتحة ١: ٢.

^{٤٢} جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المحقق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار الكتب العربي، ٢٠٠٩)، ١: ١٨.

^{٤٣} أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (مكة المكرمة: دار التربية والتراث، ٢٠١٠)، ١: ١٤٣.

^{٤٤} القرآن الكريم، سورة الشورى ٤٢: ١٣.

^{٤٥} السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠)، ٤: ٤١٤.

^{٤٦} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ١٢.

^{٤٧} الشعروي، خواطر، ١٥: ٩٢٣١.

^{٤٨} القرآن الكريم، سورة غافر ٤٠: ٦٦.

^{٤٩} أحمد بن محمد الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، ٣: ٤٩٥.

فأما تربية الأنبياء ﷺ لأقوامهم؛ يقول أحمد أبو زيد حول مهمة الأنبياء ﷺ في الحياة وكيفية تربيتهم لأقوامهم: "قامت دعوات الأنبياء ﷺ على تكوين الإنسان الذي يوحد الله تعالى ويراقبه في سره وعلا نيته، ويسارع في الخيرات، لذلك تبدأ بغرس كلمة الإيمان في النفس وتعمل بوسائل شتى على ترسيخها وتثبيت جذورها في القلب، لأن الإيمان إذا تغلغل في القلب كان قوة ذاتية تدفع الإنسان إلى السلوك القويم والتحلي بالأخلاق الحميدة والاستقامة على طريق الصلاح"^{٥٠}. قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^{٥١}، ذهب السعدي إلى أن كلمة ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الرديئة، التي لا تزكي النفوس معها"^{٥٢}.

وأما تربية الأبوين للأولاد، فلا شك أن الله تعالى أمرنا بأداء الأمانة في تربية الأولاد وإصلاحهم وتأديبهم. قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^{٥٣}، قال الطبري: "هكذا عَلَّمْتُمْ، وبهذا أُمِرْتُمْ، خذوا تعليم الله وأدبه"^{٥٤}. وهنا من معاني لفظة التربية في التأديب والتعليم. وقال الله ﷻ على لسان فرعون، ﴿قَالَ أَلَمْ نُزَكِّهِمْ فِينَا وَلِيدًا﴾^{٥٥}. أي: "ألم نعمم عليك ونقم بتربيتك منذ كنت وليداً في مهدك ولم تنزل كذلك"^{٥٦}. قال مقاتل: "ذكر موسى وفرعون، لأن أهل مكة ازدروا محمداً ﷺ واستخفوا به، لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون أزدري موسى، لأنه رباه ونشأ فيما بينهم"^{٥٧}.

ومن النصوص القرآنية فيما يشير إلى معنى التربية، وهي في الحقيقة يتوقف على إلهامات الله ﷻ وتوجيه وإرشادته، وتهدف إلى مميزات التربية القرآنية، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ

^{٥٠} أحمد أبو زيد، الأبعاد التربوية للعبادة في الإسلام، ٧٧.

^{٥١} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٤

^{٥٢} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٦٦.

^{٥٣} القرآن الكريم، سورة الإسراء: ٢٤.

^{٥٤} الطبري، جامع البيان، ج ١٤، ٥٥٣.

^{٥٥} القرآن الكريم، سورة الشعراء ٢٦: ١٨.

^{٥٦} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٣٦٧.

^{٥٧} القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٩: ٤٨.

كُونُوا رَبَّانِينَ^{٥٨}، ومعنى كونوا ربانيين أي علماء، حكما حلما معلمين للناس ومربيهم بصغار العلم قبل كباره عاملين بذلك^{٥٩}. وقيل لفظة ربَّانيون: عربية منسوبة إلى رُبَّان السفينة الذي يُنْزِلُهَا ويقوم لمصلحتها؛ ولكن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم ربَّانيون؛ لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله^{٦٠}؛ وذلك هو المنقول عن السلف، قال مجاهد: الربانيون هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنهي. ونقل عن علي رضي الله عنه أنه قال: هم الذين يُغذون الناس بالحكمة ويُربُّوهم عليها^{٦١}.

وهنا من معاني لفظة التربية هي العلم والحكمة والحلم. بالإضافة إلى ذلك، لقد جاءت التربية في الاستعمال القرآني بمعنى الحفظ والرعاية^{٦٢}؛ وشاهد ذلك، وقد استخدمت في القرآن للدلالة على عملية تنشئة الصغار ورعايتهم، قال الله تعالى: ﴿أَوْمَنْ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾^{٦٣} أي: "يربي ويكبر في الحلية"^{٦٤}.

بالنسبة إلى السنة النبوية، فإن لفظة التربية لم ترد بنصها كذلك؛ ولكن وردت بعض مشتقاتها، منها كلمة يربي بمعنى ينمي ويزيد قال البخاري في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل»^{٦٥}. قال حمزة قاسم في معنى كلمة «يربيها» أي: "ينميها، ويضاعف ثوابها لصاحبها"^{٦٦}.

^{٥٨} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٧.

^{٥٩} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ١٣٦.

^{٦٠} ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١: ٦٣.

^{٦١} انظر: ابن تيمية، ١: ٦٢؛ وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ١: ٤١٣.

^{٦٢} انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ٢: ٣٨٢.

^{٦٣} القرآن الكريم، سورة الزخرف ٤٣: ١٨.

^{٦٤} القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٩: ٤٨.

^{٦٥} البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب: لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلا من كسب طيب، ٢: ٥١١، (١٣٤٤).

^{٦٦} حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، راجعه عبد القادر الأرناؤوط، عني بتصحيحه ونشره بشير محمد عيون، (دمشق: مكتبة دار البيان، ١٩٩٠)، ٣: ١٢.

يقول العيني في معنى قوله: «كَمَا يَرَى أَحَدُكُمْ فَلَوْه»، أي: "ضرب المثل؛ لأنه يزيد زيادة بينة، وتربية الصدقات مضاعفة الأجر عليها وإن أريد به الزيادة في كمية عينها ليكون أثقل في الميزان"^{٦٧}.

ووردت بألفاظ أخرى في السنة النبوية تدل على معنى التربية، منها: ما روي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا أولادكم، وأحسنوا أدبهم»^{٦٨} أي: بأن تعلموهم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق^{٦٩}. وهنا نلاحظ من معاني هذا الحديث أن لفظ الأدب يدل على معنى كلمة تربية الأبناء وتنشئتهم على التحلي بمحاسن الأخلاق، وجميل الطباع. بناءً على ما سبق، يمكن القول أن المقصود بلفظة التربية في القرآن والسنة هي التنشئة والرعاية والحفظ والتأديب والتعليم والتركية والحلم والحكمة؛ وستناول فيها كل جوانب التربية للإنسان، فهي التربية الجسمية والعقلية والروحية، وتشمل كل المراحل العمرية.

المطلب الثالث: المصطلحات ذات الصلة بالتربية

وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية عدة ألفاظ تشير إلى معنى التربية، ومن أهمها كالاتي:

أولاً: التزكية

التزكية لغة: التزكية في مادتها اللغوية تدور حول: الإصلاح، والتطهير، والثناء الجميل والمدح، والنماء والزيادة والنماء.^{٧٠} والتزكية تعني التطهير، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^{٧١}، أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب^{٧٢}. وتأتي التزكية في معنى التطهير بالتربية قال

^{٦٧} بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد الله محمود محمد عمر، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، ٢٠٠١)، كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، ٨: ٢٨٦.

^{٦٨} ابن ماجه، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، ٢: ١٢١١، (٣٦٧١)، خلاصة حكم الحديث: ضعيف.

^{٦٩} عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ٢٠٠٢)، ٢: ٩٠.

^{٧٠} انظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٣: ١٨؛ والرازي، مختار الصحاح، ١: ١٣٦؛ وابن منظور، لسان العرب، ١٤: ٣٥٨.

^{٧١} القرآن الكريم، سورة الشمس ٩: ٩.

^{٧٢} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٢: ٩٢٦.

الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^{٧٣}، قال السعدي في معنى ﴿يُزَكِّيكُمْ﴾: "أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتركيتكم من الشرك إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق"^{٧٤}.

وأما التزكية اصطلاحاً: تخلص النفس الإنسانية من كل ما يتعلق بها من شوائب، ونواقص، وسلبات، وترسيخ الفضائل والقيم النبيلة والأخلاق السامية فيها، وتوجيهها إلى كل ما فيه الخير والصالح^{٧٥}. المراد بالتزكية هنا: تطهير وتنمية النفس الإنسانية من كل الخصال السيئة سلوكياً كان أو روحانياً، وأن العبادة الصحيحة لله وسيلة التزكية للنفس الإنسانية، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^{٧٦}؛ وهي كذلك وسيلة التربية ذلك أن الهدف الأخير للتربية هو تزكية النفس، ومن ثم كانت وسيلة التزكية هي ذاتها وسيلة التربية^{٧٧}. وروي في الحديث عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول ﷺ يقول: «... اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها...»^{٧٨}. قال النووي: "ومعنى زكها طهرها"^{٧٩}.

^{٧٣} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٥١.

^{٧٤} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٧٤.

^{٧٥} انظر: انظر: نايف حامد همام الشريف، "مفهوم التزكية وتطبيقاتها في التربية الإسلامية"، مجلة الأحمدية، العدد الرابع، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ، ٢١٩.

^{٧٦} القرآن الكريم، سورة الشمس ٩١: ٩.

^{٧٧} محمد قطب، "نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع"، بحث مقدم لندوة "أسس التربية الإسلامية"، مكة المكرمة، ١١-١٦ جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ، ١.

^{٧٨} أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ: صحيح مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط، ١٩٨٩)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، ٤: ٢٠٨٨، (٢٧٢٢).

^{٧٩} أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط٢ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٧)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في الأدعية، ١٧: ٤١، (٢٧٢١).

ثانياً: التعليم

التعليم لغة: هو مصدر من الفعل الرباعي، عِلَّمَ يَعْلَمُ تعليمًا فهو مُعَلِّمٌ، والمفعول مُعَلَّمٌ على وزن فَعَّلَ يَفْعِلُ، وهي نقيض الجهل، علمت الشيء: عرفتته وخبرته^{٨٠}. جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة: عِلَّمَ له علامةً: جعل له سِمَةً أو أَمَارَةً يَعْرِفُهَا، وَعَلَّمَهُ الْقِرَاءَةَ: جعله يَعْرِفُهَا، وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَةَ: فَهَّمَهُ إِيَّاهَا، وَعَلَّمَهُ الرِّمَايَةَ: دَرَّبَهُ عَلَيْهَا، وَعَلَّمَ النَّاشِئَةَ. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾^{٨١}، أي وما دَرَّبْتُمْ^{٨٢}. وفي الحديث رُوي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم من بعض حجره، فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين، إحداها يقرءون القرآن، ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي ﷺ: «كل على خير، هؤلاء يقرءون القرآن، ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويُعَلِّمون، وإنما بُعثت مُعَلِّمًا»، فجلس معهم^{٨٣}.

وأما التعليم اصطلاحاً: فقد جاء فيه عدة تعريفات منها ما ذكره الغزالي بأنه: إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق الحمودة السعيدة^{٨٤}. وذكر ابن خلدون أن التعليم صناعة أو مهنة ذا عملية له أصولها وقواعدها المحكمة التي تتحقق بمراعاتها أهداف المجتمع ومقاصده^{٨٥}.

هناك فرق واضح بين عملية التربية من جهة والتعليم من جهة أخرى، فالتعليم يمثل جزءاً من التربية والتربية تشمل التعليم، والعكس غير صحيح؛ فالتربية الإسلامية هي عملية تهدف إلى تنمية متكاملة ومتزنة في الوقت نفسه لجميع قوى الإنسان بالوسائل والأساليب المشروعة، حتى يكون الإنسان عضواً صالحاً في مجتمعه؛ تشمل جميع جوانب الإنسان الروحية

^{٨٠} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٩: ٣٧٠.

^{٨١} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١١٣.

^{٨٢} انظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ٢: ١٠٤١.

^{٨٣} ابن ماجه، السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١: ٨٣، (٢٢٩). قال المحقق: في الزوائد إسناده ضعيف، داود وبكر وعبد الرحمن كلهم ضعفاء، وحكم الألباني: ضعيف.

^{٨٤} علي سالم النباهين، أصول التربية الإسلامية، (غزة: د.م، ١٩٩٥)، ٢٥.

^{٨٥} علي أحمد مذكور، مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، (بيروت: دار الفكر العربي، ٢٠١٠)، ٣١.

والعقلية والجسمية^{٨٦}. أما عملية التعليم؛ فهي جزء من عملية التربية الكاملة، تسعى إلى تنمية العقل وصقله، وتمكينه من اكتساب بعض المعارف والمهارات التي تلزمه في حياته، وتمكينه كذلك من إتقان فن ما أو حرفة من الحرف^{٨٧}.

ونخلص من هذه التعريفات إلى أن التعليم له أثر يظهر على الفرد والمجتمع وينتجه بعد التعلم؛ ولعل عملية التربية أكثر وأوسع في الشمول والتكامل من عملية التعليم؛ ولأن هدف التربية تنمية جميع جوانب الإنسان وصقلها^{٨٨}.

ثالثاً: التأديب

التأديب لغةً: مأخوذ من مادة الكلمة الهمزة والdal والباء وهو يدل على الدعاء والعلم والجمع، ورد في معاجم اللغة أصل الأدب هو الدعاء، وقيل: أدبته تأديباً على إساءته؛ لأنه سبب يدعو إلى حقيقة الأدب، وقيل للصنيع يدعى إليه الناس أي مأدبة، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم»^{٨٩}؛ أي مدعاته^{٩٠}. ويقال: أدبهم على الأمر، أي: جمعهم عليه^{٩١}؛ والتأديب لفظ يدل على المبالغة والتكثير وهو التهذيب والمجازاة^{٩٢}. وأما المؤدّب هو لقب؛ كان يلقب به من يختار لتأديب الناشئ وتعليمه؛ ويقال: أدّبه فتأدّب أي علّمه الأدب، وأدّبه تأديباً: أي علّمته، وسمي أدباً؛ لأن يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح^{٩٣}.

^{٨٦} انظر: الزنتاني، أسس التربية الإسلامية، ٢٥ - ٢٦.

^{٨٧} انظر: الزنتاني، ص ٢٦.

^{٨٨} انظر: خالد بن عبد الله بن مسلم القرشي، تربية النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم، (الرياض: مكتبة دار المنهاج، ٢٠١١)، ص ١٣.

^{٨٩} الحاكم، المستدرک، ١: ٧٤١، (٢٠٤٠). وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

^{٩٠} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ١: ١٠٠.

^{٩١} انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ١: ٧٤؛ الزخشي، أساس البلاغة، ١: ٣.

^{٩٢} الفيومي، المصباح المنير، ١: ٩؛ وانظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٧٥.

^{٩٣} انظر: الزبيدي، تاج العروس، ٢: ١٢؛ وانظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ١: ١٠؛ وانظر: ابن منظور، لسان العرب، ١: ١٠٠.

وأما التأديب اصطلاحاً: فهو عبارة عن معرفة ما يحتز به عن جميع أنواع الخطأ،^{٩٤} وقيل: رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغي، لذي الصناعة أو الفن أن يتمسك به، كأدب القاضي وأدب الكاتب، ونحوه؛ وقيل التأديب: هو التعليم والمعاقبة على الإساءة بقصد الإصلاح.^{٩٥} قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^{٩٦}. روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام في تفسير هذه الآية فقال: "علّموهم، وأدّبوهم"^{٩٧}. قال نقيب العطاس: "إن المعرفة هي غرس الأدب وطبعه في الإنسان إنها التأديب"^{٩٨}. وأما مفهوم التأديب عند الفقهاء؛ فيما ذكر علاء الدين الكاساني في بيان معنى التأديب المعاقبة، فقال: "إن الصبي العاقل يعزر تأديباً لا عقوبة؛ لأنه من أهل التأديب، ألا ترى إلى ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعا واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً»^{٩٩}؛ وذلك بطريق التأديب والتهذيب لا بطريق العقوبة لأنها تستدعي الجنائية، وفعل الصبي لا يوصف بكونه جنائية بخلاف المجنون والصبي الذي لا يعقل؛ لأنهما ليسا من أهل العقوبة ولا من أهل التأديب"^{١٠٠}. ومن هنا يتبين لنا أن التأديب وإن كان في ذاته عقوبة على الخطأ إلا أنه عقوبة تأديبية لا جنائية، وأن العقوبة التأديبية تترتب عليه الشروط، منها: أن لا يعتبر الصغير جانباً مهما تكرر تأديبه، وأن لا يوقع عليه من عقوبات التعزير إلا ما يعتبر تأديباً كالتوبيخ والضرب^{١٠١}؛ ولأن الهدف من التأديب التربية والتعليم لا

^{٩٤} انظر: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، التعريفات، المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ٢٩.

^{٩٥} انظر: مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ١: ٩.

^{٩٦} القرآن الكريم، سورة التحريم ٦٦: ٦.

^{٩٧} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ٢٦٨.

^{٩٨} سيد محمد نقيب العطاس، مُداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ترجمة: محمد الطاهر الميساوي، (كوالالمبور: المعهد العالي العالمي للفكر والحضارة الإسلامية، ٢٠٠٠م)، ١٦٩.

^{٩٩} انظر: أبو داود، السنن، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، ١: ١٣٣، (٤٩٤)؛ خلاصة حكم الحديث: صحيح.

^{١٠٠} انظر: علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (بيروت: دار الكاتب العربي، د.ط، د.ت)، ٧: ٦٤.

^{١٠١} عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، (بيروت: دار الكاتب العربي، د.ط، د.ت)، ٢: ١٦٠.

الانتقام، بل قد تكون بالعقوبة. وأما المقصود بالتأديب في هذه الرسالة هو تهذيب الناشئ بتعليمه وتربيته مع العناية بما يجهل به من الخير ليكون عبداً صالحاً عادلاً، وبهذا يتبين لنا أن التأديب كلمة مرادفه للتربية.

وقد جاء عند العطاس بأن التأديب هو المصطلح الأنسب للتربية الإسلامية، لأنه يدمج عناصر المعرفة والتعليم والتربية بشكل متكامل. على الرغم من الانتقادات التي وُجّهت إلى هذا المفهوم، فإن مصطلحات التربية، التأديب، والتعليم تتداخل فيما بينها بعلاقة عموم وخصوص؛ كما ذكر محمد أريهان شاه في كتابه، استناداً إلى ما قدمه سيد محمد نقيب العطاس خلال المؤتمر الدولي الأول للتربية الإسلامية في مكة المكرمة عام ١٩٧٧م، فإن مفهوم التأديب يُعدّ أساساً للتربية الإسلامية. ويرى العطاس أنه أكثر دقة وشمولية مقارنة بمفهومَي التربية والتعليم^{١٠٢}. وقد عرّف العطاس التأديب بأنه يشمل عناصر المعرفة والتعليم والتربية، وأكد أن التأديب يهدف إلى تكوين الإنسان المؤدّب الذي يعكس العدالة والحكمة، ويحقق أهداف التربية الإسلامية المتمثلة في الإصلاح الشامل^{١٠٣}.

ومع ذلك، لم يتفق جميع العلماء في ذلك المؤتمر على مصطلح التأديب الذي اقترحه العطاس؛ فقد أصرّ بعض العلماء على استخدام مصطلحي التربية والتعليم للتعبير عن مفهوم التعليم في الإسلام، وأفضت النقاشات بينهم إلى قبول حل وسط يقضي باستخدام المصطلحات الثلاثة: وهي التربية، والتعليم، والتأديب معاً للتعبير عن مفهوم التعليم الإسلامي الشامل^{١٠٤}. وأشار أريهان شاه أيضاً إلى أن العطاس لم تتوقف أفكاره عند هذا الحد، إذ انعقد المؤتمر الدولي الثاني للتربية الإسلامية في إسلام آباد بباكستان عام ١٩٨٠م، حيث واجهت رؤيته بعد ذلك انتقادات أخرى من بعض العلماء والباحثين^{١٠٥}؛ فقد رأى كمال بدر الدين أن مفهوم التأديب عند العطاس مجرد، فلسفي للغاية، ومحدود بالسعي إلى نضج أو إكمال التعليم في مستويات التعليم العالي مثل الجامعات^{١٠٦}؛ وانتقاد آخر جاء من العالم

¹⁰² Muhammad Ardiansyah, *Konsep Adab Syed Muhammad Naquib al-Attas dan Aplikasinya di Perguruan Tinggi* (Depok: Yayasan Pendidikan Islam At-Ta'wa Depok, 2020), 5-7.

¹⁰³ Syed Muhammad Naquib al-Attas, *The Concept of Education in Islam*, (Kuala Lumpur: ISTAC, 1999), 33.

¹⁰⁴ Wan Mohd Nor Wan Daud, *Filsafat dan Praktik Pendidikan Syed Muhammad Naquib al-Attas* Translated by Hamid Fahmy Zarkasyi et al. (Bandung: Mizan, 2006), 174.

¹⁰⁵ Ardiansyah, *Konsep Adab Syed Muhammad Naquib al-Attas*, 8-9.

¹⁰⁶ Kemas Badaruddin, *Filsafat Pendidikan Islam, Analisis Pemikiran Prof. Dr. Syed Muhammad Naquib al-Attas* (Yogyakarta: Pustaka Pelajar, 2007), 59-64.

الإيراني خسرو باغزي نوبارست، الذي يرى أن مفهوم التأديب ليس أفضل من التربية؛ بل إنه يعتقد أن التأديب يقتصر فقط على الجوانب الأخلاقية والاجتماعية، دون الالتفات إلى الجوانب الأخرى في التعليم^{١٠٧}.

وعلى النقيض، دعم بعض العلماء، مثل حسن لنجولونغ مفهوم التأديب عند العطاس، حيث اعتبر أن التأديب أكثر دقة وعمقاً في التعبير عن التربية الإسلامية، لأنه يعكس عملية بناء وتطوير الأخلاق والدين بصورة شاملة^{١٠٨}. وذكر محمد طاهر الميساوي في ترجمة كتاب "مداخلات فلسفية" عند العطاس عن مصطلح التعليم فهو "أمر يختص بالإنسان دون سواه؛ ولذلك فإنه علينا أن نختار عبارة دقيقة للتعبير عن مفهوم التعليم وغاياته المتمثلين في تكوين الإنسان الصالح والعبارة الوحيدة المناسبة والكافية للوفاء بذلك فهي عبارة تأديب. ولذا الخطأ في اختيار الكلمات للتعبير عن المفاهيم الثقافية والدينية والروحية يؤدي قطعاً إلى التشويش والاضطراب في المعرفة على المستويين النظري والعملي"^{١٠٩}.

كما سبق من تعريفات يتبين لنا أن التربية تتضمن عدة مصطلحات أخرى ترادفه كالتركية والتعليم والتأديب.

المبحث الثاني: مفهوم مصطلح اجتماعية في ضوء القرآن والسنة

تمهيد

يعدّ مصطلح اجتماعية إحدى المصطلحات التي يرى الباحث أنه لا بد من التطرق إليه؛ للوصول ضمناً إلى مفهوم التربية الاجتماعية في القرآن والسنة، ولكي يكون الحديث موصولاً في معانيه، ولأن لهذا المصطلح أصولاً ومفاهيمًا ومشتقات ودلالات متعددة والتي يمكن الرجوع إليها في كتب المعاجم اللغوية، وفي كتب التفاسير القرآنية وكتب الشروح الحديثية، وكذلك كتب التراث الإسلامي. وبناءً عليه فيتضمن هذا البحث توضيحاً لمفهوم الاجتماعية

¹⁰⁷ Khosrow Baghezi Noaparast, *al-Attas Revisited on The Islamic Understanding of Education Journal of Shi'a Islamic Studies*, 2012, Vol V, No.2.

¹⁰⁸ Hasan Langgulung, *Manusia dan Pendidikan, Suatu Analisa Psikologi, Falsafah dan Pendidikan* (Jakarta: Pustaka al-Husna, 1984), 63.

^{١٠٩} انظر: سيد محمد نقيب العطاس، مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ترجمة: محمد الطاهر الميساوي،

من خلال المطالب الآتية: المطلب الأول: تعريف الاجتماع لغةً واصطلاحاً، والمطلب الثاني: الاجتماع في القرآن والسنة، والمطلب الثالث: المصطلحات ذات الصلة بالاجتماعية في القرآن والسنة.

المطلب الأول: الاجتماع في اللغة والاصطلاح

الاجتماع في اللغة: مصدر باب الافتعال، وهو ضد الانفصال والافتراق، واجتمع القوم: انضم بعضهم إلى بعض، أي اتخذوا واتفقوا، كما سمي يوم الجمعة بها لاجتماع العرب قبل الإسلام فيه، أو لجمع خلق آدم ﷺ، أو اجتماع المسلمين لصلاة الجمعة في هذا اليوم^{١١٠}. جاء في المعجم الوسيط: "المجتمع: موضع الاجتماع؛ والجماعة من الناس، يقال: رجل اجتماعي: مزاوِل للحياة الاجتماعية، كثير المخالطة للناس"^{١١١}. ويقول الرازي في مختاره: "تجمع القوم اجتمعوا من هنا وهنا. والجمع أيضاً اسم لجماعة الناس ويجمع على جموع"^{١١٢}. وعليها فالمجتمع: "جماعة من الناس تربطها روابط ومصالح مشتركة وعادات وتقاليد وقوانين واحدة"^{١١٣}. ويقول صاحب اللسان: "الجمع: اسم لجماعة الناس. والجمع: مصدر قولك جمعت الشيء. والجمع: المجتمعون، وجمعه جُموع، والجماعة والجميع والمجمع والمجموعة: كالجمع، وقد استعملوا ذلك في غير الناس حتى قالوا: جماعة الشجر، وجماعة النبات. والمجمع: يكون اسماً للناس وللموضع الذي يجتمعون فيه"^{١١٤}، ويدور معنى الاجتماع حول تأليف المتفرقة وانضمامه^{١١٥}.

^{١١٠} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٨: ٥٣؛ وانظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١: ٤٧؛ وانظر: أحمد مختار

عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ١: ٣٩٣.

^{١١١} مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ١: ١٣٥

^{١١٢} محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ١: ٦٠

^{١١٣} أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ١: ٣٩٦.

^{١١٤} ابن منظور، لسان العرب، ٨: ٥٢

^{١١٥} انظر: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي مجد الدين، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي

النجار وعبد العليم الطحاوي (القاهرة: إحياء التراث الإسلامي، ١٩٩٦)، ٩١٦.

ومن هنا فإن المعنى اللغوي لمصطلح كلمة اجتماعية، فهو يدل على مجموعة من الأفراد الذين يعيشون معاً، وتربطهم روابط ومصالح مشتركة، ويخضعون لقوانين وعادات وتقاليد وأعراف موحدة.

وأما الاجتماع اصطلاحاً: عرّف الجرجاني الاجتماع بأنه: تقارب أجسام بعضها من بعض^{١١٦}. وعرّفه السيوطي بقوله: الاجتماع: وجود أشياء كثيرة يعمها معنى واحد^{١١٧}. وقال المناوي: الاجتماع: مجاورة جوهريين في حيزين، ليس بينهما ثالث، وضده الافتراق، وهو وقوع جوهريين بينهما حيز^{١١٨}.

وعلى هذا، لكي يكون الحديث موصولاً عن هذا المفهوم أيضاً جاء علم الاجتماع؛ وهو علم يبحث في نشوء الجماعات الإنسانية ونموها، وطبيعتها، وقوانينها ونظمها^{١١٩}. ومن الضروري البحث عن تعريف المجتمع الإسلامي وهو الذي تميز عن المجتمعات الأخرى بنظمه الخاصة وقوانينه القرآنية وأفراده الذين يشتركون في عقيدة واحدة، ويتوجهون إلى قبلة واحدة، ولهذا المجتمع وإن تكون من أقوام متعددة وألسنة متباينة خصائص مشتركة، وأعراف عامة وعادات موحدة^{١٢٠}؛ والمجتمع في الأصل يتشكل من الأسرة التي هي وحدة اجتماعية مكونة من أفراد تربطهم عوامل (بيولوجية) واحدة سواء أكان هؤلاء من جيل واحد كالإخوة، أم من أجيال متعاقبة كالأجداد والآباء والأحفاد، فالأسرة أصغر مجموعة من أفراد^{١٢١}، ومن القبيلة التي جعلها الله وسيلة وذريعة للتعارف، وقرره بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^{١٢٢}. وهكذا يكون الترابط بين أبناء قرية أو مدينة كبيرة كانت أو صغيرة، فكلها

^{١١٦} الجرجاني، التعريفات، ١٠.

^{١١٧} انظر: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تحقيق محمد إبراهيم عبادة (القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٤)، ١٣٧.

^{١١٨} انظر: المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ٣٨.

^{١١٩} انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ١: ١٣٥؛ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ١: ٣٩٤.

^{١٢٠} انظر: محمد أمين المصري، المجتمع الإسلامي، (الكويت: دار الأرقم، ١٩٨٦)، ١٧.

^{١٢١} جمال الدين محمد محمود، أصول المجتمع الإسلامي، (القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٩٢)، ٣٣.

^{١٢٢} القرآن الكريم، سورة الحجرات ٤٩: ١٣.

مجتمعات صغيرة داخل المجتمع الإسلامي. فيمكن تعريف المجتمع بأنه: "عدد كبير من الأفراد المستقرين، تجمعهم روابط اجتماعية ومصالح مشتركة، تصبحها أنظمة تضبط السلوك وسلطة ترعاها"^{١٢٣}.

وعرفه متولي بقوله: "إن المجتمع مجموعة من الأفراد يعيشون معاً فوق بقعة جغرافية معينة ويرتبطون بتراث ثقافي معين، ولديهم إحساس بالانتماء لمجتمعهم، ويسود بينهم لون من العلاقات المنسقة التي تدفعهم إلى التعاون في تكوين عدد من المؤسسات التي تسهم في إشباع حاجاتهم وتحقيق أهدافهم"^{١٢٤}. ويمكن أن يُجمل الباحث القول حول التعريفين السابقين عن المجتمع باعتبارهما تعريفين تقليديين، فهو مجموعة من البشر يعيشون على بقعة من الأرض، لديهم ثقافة، تربطهم وشائج، يشعرون بالانتماء نحو أرضهم ومجتمعهم، يتطلعون إلى جملة أهداف تحكمها تصوراتهم ومعتقداتهم. ولكن نجد بعضهم يعرف المجتمع من زاوية أخرى على: "أن المجتمع كيان عضوي ديناميكي، تحكمه نظم وعلاقات وقيم ومعتقدات وتقاليد وترتبط به مؤسسات سياسية واجتماعية واقتصادية وهو دائم التغير تبعاً للظروف السياسية والاقتصادية والثقافية والعملية"^{١٢٥}. وطبقاً لهذه النظرة، يعرف السيد سلطان المجتمع على أنه: "مجموعة من النظم الاجتماعية التي تتفاعل مع بعضها، وترتبط وتتعاون ارتباطاً وتعاوناً عضوياً؛ لتحقيق أهداف اجتماعية، وفق منهج للتخطيط العلمي الشامل، من أجل التنمية الشاملة"^{١٢٦}.

وقد أجمل النحلاوي الحديث في تعريفه للمجتمع بقوله: "أنه مجموعة أفراد تجمعهم تصورات وأهداف مشتركة، يعملون على تحقيقها، فتنشأ بينهم روابط متينة، تشدهم بعضهم إلى بعض، وتحبب إليهم العيش المشترك، وتبعثهم على التعاون والتكافل والتراحم والتكامل، كما وصف النبي ﷺ المجتمع المؤمن"^{١٢٧}. وأما المعنى الاجتماعي للتربية الإسلامية: "هي تعلم

^{١٢٣} حسن عبد الغني أبو غدة وآخرون، الإسلام وبناء المجتمع، ١٣.

^{١٢٤} مصطفى محمد متولي وآخرون، المدرسة والمجتمع، ط ٢ (الرياض: دار الخريجي، ١٩٩٥)، ٢٥.

^{١٢٥} جمال محمد الهندي وآخرون، قراءات في علم اجتماعيات التربية، (د.م، مؤسسة أم القرى، ٢٠٠٧)، ٣٩.

^{١٢٦} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٧٣؛ انظر: محمود السيد سلطان، مقدمة في التربية، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩)، ٣٠.

^{١٢٧} عبد الرحمن النحلاوي، التربية الاجتماعية في الإسلام، ٧٦.

وتعليم الأفراد قيماً ومهارات اجتماعية تؤهلهم ليكونوا مشاركين في الحياة على أسس من قواعد والتزامات العقيدة الإسلامية التي تحفظ لهم ولمجتمعاتهم هويته، وتجعلهم متمتعين بحصانة ثقافية تمكنهم من التفاعل اليقظ مع الهويات الثقافية في زمن صار فيه العالم متوصلاً^{١٢٨}. وعلى هذا، فإن كلمة الاجتماع لا تختلف في الاصطلاح عن المعنى الذي يفيد في أصل اللغة، وإن كان مقصود الشرع من الاجتماع هو ما يحمد شرعاً، وهو أن يلتقي المسلمون، وينضم بعضهم إلى بعض، ولا يتفرقوا.

المطلب الثاني: دلالات الاجتماع في ضوء القرآن والسنة

بالنسبة إلى كلمة الاجتماع في القرآن فإنه لم يرد بلفظه، ولكن ورد وتكرر لفظ الجمع ومشتقاته ١٢٨ مرة في ١٢٢ آية؛ منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾^{١٢٩}. وهذه من الآيات القرآنية التي تشير إلى معنى الاجتماع في بيان إعجاز خلق الله ﷻ، وفيها تحدي كل ما يعبد من دون الله مجتمعين متحدين أن يخلقوا شيئاً من خلق الله تعالى، قال ابن كثير: "لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك"^{١٣٠}. وعلى هذا، فإن معناه على إبطال الحق؛ ويؤيد ذلك المعنى في قصة موسى ﷺ مع فرعون؛ لما جاء موسى ﷺ إلى فرعون بالمعجزة، وكانت قلب العصا ثعباناً، وإظهار اليد البيضاء، جمع فرعون السحرة، قال الله تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ • وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾^{١٣١}؛ قال السعدي: "أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع"^{١٣٢}.

^{١٢٨} سعيد إسماعيل علي وآخرون، التربية الإسلامية: المفاهيم والتطبيقات، (الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠٠٥)، ٢٣.
^{١٢٩} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٧٣؛ انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، (القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٦)، ٢١٥-٢١٧.
^{١٣٠} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ٣٩٧.
^{١٣١} القرآن الكريم، سورة الشعراء: ٣٨-٣٩؛ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٥٩٠. وإشارة إلى قوله تعالى: ﴿مُجْتَمِعُونَ﴾، والمعنى: قوم جميع أي مجتمعون. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ٥٢. وكلمات جميع وأجمع وأجمعون تستعمل لتأكيد الاجتماع على الأمر. وانظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٢٠٢.

ونسب فعل الاجتماع إلى الإنس والجن في سياق تحدي القرآن الكريم للمكذابين به أن يأتوا بمثله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^{١٣٣}، قال الطبري: "لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لا يأتون أبداً بمثله، ولو كان بعضهم لبعض عوناً وظهيراً. وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ بسبب قوم من اليهود جادلوه في القرآن، وسألوه أن يأتهم بآية غيره شاهدة له على نبوته، لأن مثل هذا القرآن بهم قدرة على أن يأتوا به"^{١٣٤}. وقال ابن عاشور: "ومعنى الاجتماع أي: الاتفاق واتحاد الرأي"^{١٣٥}.

وقد جاءت النصوص القرآنية فيما يشير إلى معنى الاجتماع، منها ما جاء في قول الله ﷻ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾^{١٣٦}، والشاهد من الآية هنا هو قوله ﷻ ﴿زُمَرًا﴾ أي: "جماعات، والواحد: زمرة، ويقال: تزرع القوم إذا اجتمعوا، زمرهم، أي: جمعهم، وأصله: أن يساق كل فريق على ما أحبوا، وكانوا في الدنيا جماعة جماعة وأمة أمة، وعلى ما يجتمعون في هذه الدنيا: أهل الخير على أهل الخير، وأهل الشر على أهل الشر، وسروا بالاجتماع في ذلك، لكن أهل الخير يساقون إلى الجنة على ما كانوا يجتمعون في هذه الدنيا مسرورين، وأهل الكفر يساقون إلى النار على ما كانوا يجتمعون في هذه الدنيا على الشر حزينين مغتمين"^{١٣٧}. وسبقت الإشارة إلى أن فعل الاجتماع في القرآن الكريم نسب إلى الأصنام وقوم فرعون ثم إلى الإنس والجن في سياق التحدي، وأما في السنة النبوية فقد اتسعت دائرة فعل الاجتماع فهو يشير إلى معان عدة، ومن أهمها:

^{١٣٢} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٥٩٠. وإشارة إلى قوله تعالى: ﴿مُجْتَمِعُونَ﴾، والمعنى: قوم جميع أي مجتمعون. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٨: ٥٢. وكلمات جميع وأجمع وأجمعون تستعمل لتأكيد الاجتماع على الأمر. انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٢٠٢.

^{١٣٣} القرآن الكريم، سورة الإسراء ١٧: ٨٨؛ وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ٣٩٧.

^{١٣٤} الطبري، جامع البيان، ١٧: ٥٤٦.

^{١٣٥} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٥: ٢٠٣.

^{١٣٦} القرآن الكريم، سورة الزمر ٣٩: ٧١.

^{١٣٧} محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، تأويلات أهل السنة، تحقيق مجدي باسلوم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥)، ٨: ٧١٠.

أن تستوعب أفاضل المؤمنين في الدنيا والآخرة، إضافة إلى الأعمال الصالحة والشمائل الحميدة، كقوم يتلون كتاب الله ويتدارسونه، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»^{١٣٨}.

ورود لفظ الاجتماع في عدد من الأحاديث بصيغة النفي، ومن أهمها؛ نفي اجتماع الإيمان والكفر، والحسن والسوء التعامل؛ روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ ولا يجتمع الكذب والصدق جميعاً، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعاً»^{١٣٩}.

وكذلك نفي اجتماع الأمة على ضلالة؛ روي عن كعب بن عاصم الأشعري رضي الله عنه، سمع النبي ﷺ يقول: «إن الله تعالى قد أجاز أمتي من أن تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم»^{١٤٠}. ومما تميز به لفظ الاجتماع في السنة النبوية ورود بصيغة المصدر؛ منها ما جاء في الحديث، عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنوعة الطعام بعد دفنه من النياحة»^{١٤١}.

^{١٣٨} مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ٨: ٧١، (٢٦٩٩).

^{١٣٩} أحمد بن حنبل، المسند، ٨: ٣٥٩، (٨٥٧٧)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

^{١٤٠} ابن ماجه، السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الفتن: باب السواد الأعظم، ٢: ١٣٠٣، (٣٩٥٠). بين محمد فؤاد عبد الباقي معنى «السواد الأعظم» أي: الجماعة الكثيرة؛ فإن اتفاقهم أقرب إلى الإجماع؛ قال السيوطي في تفسير السواد الأعظم: "أي جماعة الناس ومعظمهم الذين يجتمعون على سلوك المنهج المستقيم"، والحديث يدل على أنه ينبغي العمل بقول الجمهور. خلاصة حكم الحديث: حديث حسن.

^{١٤١} أحمد بن حنبل، المسند، ١١: ٥٠٥، (٦٩٠٥)، خلاصة حكم الحديث: حديث صحيح.

بناءً على ما سبق؛ يمكن القول أن لفظ الاجتماع ليس كله مأموراً به شرعاً ولا منهي عنه شرعاً؛ فهناك اجتماع صالح وغير صالح؛ وهناك اجتماع محمود ومذموم؛ وقد ذكر ابن العربي أن الاجتماع على ضربين: اجتماع أجسام، واجتماع معانٍ، وهي الأخلاق والأهواء، وجعل افتراق الأهواء كافتراق الأجسام^{١٤٢}، ولذا عظم الله ﷻ ذمَّ اتباع الهوى في قوله تعالى: ﴿وَلَّيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾^{١٤٣}، أي "لفظ الجمع تنبيهاً على أنَّ لكل واحد هوى غير هوى الآخر، ثمَّ هوى كلِّ واحد لا يتناهى، فإذا اتَّبَعَ أهوائهم نهاية الضلال والحيرة"^{١٤٤}. والمقصود بـ(الاجتماعية) في القرآن والسنة في هذه الرسالة هي: التكليفات القرآنية والحديثية الموجهة إلى الجماعة ذات الهدف الواحد مركزةً على دور الفرد وطبيعته وعلاقته مع نفسه ومع أسرته ومجتمعه ومبيّنة حدود علاقة الجماعة مع جماعة أخرى في حدود ما أمر الله ﷻ به ووفقاً لمقاصد كتابه الكريم وسنة رسوله ﷺ.

المطلب الثالث: المصطلحات ذات الصلة بالاجتماعية في ضوء القرآن والسنة

ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية عدّة مصطلحات تشير إلى معنى الاجتماعية، ومن أهمها:

أولاً: الوحدة

كلمة الوحدة مأخوذة من وحد، ويدل على عدة معانٍ، منها قال ابن فارس: أصلٌ واحد يدل على الانفراد، ومن ذلك الوحدة وهو واحد قبيلة، إذا لم يكن فيهم مثله، والواحد: المنفرد^{١٤٥}. جاء في لسان العرب: والواحد بني على انقطاع النظير وعوز المثل، والوحيد بني على الوحدة والانفراد؛ وأحد يكون للجمع، والواحد في النّفي؛ ومنه قول الله ﷻ: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^{١٤٦}، جعل أحد في موضع جمع؛ وكذلك قوله ﷻ: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^{١٤٧}، فهذا جمعٌ، لأن بين لا تقع إلا على اثنين فما زاد، قال:

^{١٤٢} محمد بن عبد الله بن العربي، أحكام القرآن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، ٢: ٢٣٧.

^{١٤٣} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٠.

^{١٤٤} مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، ٥: ٣٥٩.

^{١٤٥} أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٦: ٩٠.

^{١٤٦} القرآن الكريم، سورة الحاقة ٦٩: ٤٧.

^{١٤٧} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٨٥.

والعرب تقول: أنتم حيٌّ واحدٌ وحيٌّ واحدون، قال: ومعنى واحدٍ واحدٌ. والوحدة الانفراد هو الواحد في الحقيقة وهو الشيء الذي لا جزء له البتة^{١٤٨}.

والوحدة هي اتحاد الدول أو البلاد والأفراد والجماعات في سائر حياتهم ومعاشهم وسيرتهم وغايتهم. وبهذه الوحدة يصبح الجميع شيئاً واحداً، أو أمةً واحدةً، يقال: اتحد البلدان، أي: صارا بلدًا واحدًا^{١٤٩}. وأما وحدة الأمة الإسلامية هي: توحيد المسلمين جميعاً، واجتماعهم على أساس الدين الإسلامي الذي أنزله الله ﷻ، بحيث تلغى بينهم جميع الروابط الأخرى، كالروابط العرقية والقومية وروابط اللغة، ويصبح القاسم المشترك بين أفراد هذه الجماعة هو الدخول في دين الإسلام عقيدة وعبادة ونظام حياة^{١٥٠}.

وقد جاءت النصوص القرآنية في إشارة إلى أن معنى الوحدة كالنفس الواحدة؛ منها قول الله ﷻ: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنْفُسٍ وَاحِدَةً﴾^{١٥١}، نقل القرطبي قول الضحاك فقال: المعنى ما ابتداء خلقكم جميعاً إلا كخلق نفسٍ واحدةٍ، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفسٍ واحدةٍ، وقال النحاس: وهكذا قدره النحويون بمعنى إلا كخلق نفسٍ واحدةٍ، مثل: ﴿وَسَلِّ الْقُرْيَةَ﴾^{١٥٢}، وقال مجاهد: لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون، ونزلت الآية في أبي بن خلف وأبي الأسدین ومنبه ونبیه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبي ﷺ: إن الله تعالى قد خلقنا أطواراً، نطفةً ثم علقهً ثم مضغةً ثم عظاماً، ثم تقول إننا نبعث خلقاً جديداً جميعاً في ساعةٍ واحدةٍ! فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلق له للعالم كخلق له لنفسٍ واحدةٍ^{١٥٣}.

^{١٤٨} انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، ٤٩٣.

^{١٤٩} أحمد عمر هاشم، وحدة الأمة الإسلامية في السنة النبوية، (مكة المكرمة: بحث مقدم للملتقى الأول للعلماء المسلمين تحت عنوان "وحدة الأمة الإسلامية"، ٢٠٠٦)، ٧.

^{١٥٠} جماعة من الباحثين، موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: دراسة موضوعية لـ ٣٥٤ موضوعاً قرآنياً، (الرياض: مركز تفسير للدراسات القرآنية، ٢٠١٩)، ٤: ٣٧٢.

^{١٥١} القرآن الكريم، سورة لقمان ٣١: ٢٨.

^{١٥٢} القرآن الكريم، سورة يوسف ١٢: ٨٢.

^{١٥٣} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٤: ٧٨.

وقرر القرآن الكريم أن المؤمنين فيما بينهم أمة واحدة وهي كنفس واحدة، وأعظم دليل على حثه واهتمامه بوحدهم وتماسكهم، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾^{١٥٤}، نقل الشوكاني عن الحسن عليه السلام: معنى بأنفسهم بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة، وقال النحاس: بأنفسهم أي بإخوانهم^{١٥٥}. وقال الله تعالى مؤكداً على ذلك: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^{١٥٦}، قال سيد طنطاوي: "لو شاء الله وَجَّهَ أن يجعل الأمم جميعاً أمة واحدة، تدين بدين واحد، وبشريعة واحدة لفعل"^{١٥٧}. بالإضافة إلى ذلك فإن تجد كلمة الوحدة مضاف إلى الأمة؛ أي: وحدة الأمة ولم ترد في القرآن الكريم، ولكن؛ ورد وصف الأمة بأنها أمة واحدة، فالتركيز في القرآن قد جاء على مفهوم الأمة التي توصف بأنها أمة واحدة، وليس على مفهوم الوحدة التي تضاف إلى الأمة، وهذا يعني أن الأمة الواحدة هي الأصل، أما مسألة توحيد الأمة ووحدها فهي طارئة بعدما حل بالأمة ما حل^{١٥٨}.

إن الأخوة التي قررها القرآن الكريم هي أخوة مبنية على أساس متين؛ فالذي يربط المؤمنين ببعض هو رباط العقيدة والدين، وهذا أقوى من كل رباط يجمع الناس، حتى ولو كان رباط نسب أو رحم، فالمؤمنون بهذا الرباط كالجسد الواحد، كما جاء في الحديث، الذي رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^{١٥٩}. قال ابن حجر العسقلاني: "فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية، وفيه تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضاً"^{١٦٠}.

^{١٥٤} القرآن الكريم، سورة النور ٢٤: ١٢.

^{١٥٥} انظر: محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، (بيروت: دار ابن كثير، ١٩٩٤)، ٤: ١٩.

^{١٥٦} القرآن الكريم، سورة المؤمنون ٢٣: ٥٢.

^{١٥٧} انظر: سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ٤: ١٨٤.

^{١٥٨} انظر: محمود حمدي زقزوق، هموم الأمة الإسلامية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١)، ٧١.

^{١٥٩} مسلم، الصحيح، كتاب البر، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاذهم، ٤: ٩٩، (٢٥٨٦).

^{١٦٠} ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ١٠: ٤٣٩.

مما تقدم يُفهم أن كلمة الوحدة غاية التضامن والتآلف والتحابب، وأنها لم ترد في القرآن الكريم لهذا اللفظ ويضاف إلى الأمة بلفظ وحدة الأمة، ولكن الأمة الواحدة. وأما معنى الوحدة في السنة النبوية منها التوافق بين المؤمنين في التعب والراحة وتداعي بعضهم بعضًا إلى المشاركة في كل حال.

ثانيًا: الأمة

تأتي كلمة الأمة في الأصل هي راجعة إلى القصد، وهي: الجماعة التي تقصد الأمر بالتضافر والتعاون^{١٦١}، وجاء عند ابن فارس في معجمه أنه يتفرع من أربعة أبواب وهي الأصل والمرجع والجماعة والدين.^{١٦٢} وقال ابن قتيبة: "أصل الأمة: الصنف من الناس والجماعة"^{١٦٣}. وقال الكفوي: "الأمة في الأصل: المقصود، كالعمدة والعدة في كونهما معمولًا ومعدًا، وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق"^{١٦٤}. قال الراغب الأصفهاني: "والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا"^{١٦٥}. وقال ابن عاشور: "والأمة: اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، مشتقة من الأم بفتح الهمزة وهو القصد، أي: يؤمون غاية واحدة؛ وإنما تكون الجماعة أمة إذا اتفقوا في الموطن، أو الدين، أو اللغة، أو في جميعها"^{١٦٦}. قال سيد قطب: "عبارة عن طائفة من الناس، متوافقة فيما بينها، اجتمعت وتآلفت وامتازت من بين طوائف أخرى؛ لا اشتراكها في بعض الأمور الجوهرية"^{١٦٧}.

^{١٦١} أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، **الوجوه والنظائر**، تحقيق وتعليق: محمد عثمان، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٧)، ٣١.

^{١٦٢} ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ١: ٢١.

^{١٦٣} ابن قتيبة، **تأويل مشكل القرآن**، ٢٤٨.

^{١٦٤} الكفوي، **الكليات**، ١٧٦.

^{١٦٥} الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ٨٦.

^{١٦٦} ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ٢: ٣٠٠.

^{١٦٧} سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ٣: ١٤٤٦.

ورد في النصوص القرآنية والحديثية كلمة الأمة تدل على معان متعددة، فأما في القرآن الكريم قيل أن كلمة الأمة جاءت في ٦٤ مرة^{١٦٨}، وهي على أربعة أوجه^{١٦٩}؛ منها؛ قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَخْرَنَّا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولَنَّ مَا يَجِبُ لَهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾^{١٧٠}، قال ابن كثير: "والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معانٍ متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾^{١٧١}، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^{١٧٢}، وتستعمل في الملة والدين، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾^{١٧٣} والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه قال: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^{١٧٤}.

وأما أمة الأتباع، فهم المصدقون للرسول، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^{١٧٥}. والمعنى نفسه للأمة الوارد في السنة النبوية، دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: «... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضرك إلا بشيء قد كتبه الله

^{١٦٨} محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ٨٠.

^{١٦٩} مقاتل بن سليمان، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق حاتم صالح الضامن، (الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠١١) ٤٧.

^{١٧٠} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٨.

^{١٧١} القرآن الكريم، سورة يوسف ١٢: ٤٥.

^{١٧٢} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ١٢٠.

^{١٧٣} القرآن الكريم، سورة الزخرف ٤٣: ٢٣.

^{١٧٤} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، ١: ١٣٤، (١٥٣).

^{١٧٥} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١١٠.

عليك»^{١٧٦}. قال الهروي: «أن الأمة» أي: جميع الخلق من الخاصة والعامة والأنبياء والأولياء وسائر الأمة؛ لو اجتمعت أي: اتفقت فرضاً وتقديراً على أن ينفعوك بشيء. «لم ينفعوك» أي: لم يقدروا أن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك» أي: قدره، وأثبتته في الذكر وفرغ منه^{١٧٧}. بناءً عليه، يمكن القول أن المراد بلفظ الأمة المستعمل في القرآن والسنة يدل على معانٍ متعددة: منها الأمد، والجماعة، وإماماً يقتدي به في الخير، والملة والدين.

ثالثاً: الاعتصام

كلمة الاعتصام مأخوذة من عصم، وهو الاستمسك، ويقال: استعصم أي: استمسك^{١٧٨}، قال ابن منظور: الاستمسك بالشيء، ومما يستدل به على ذلك قول الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^{١٧٩}، أي تمسكوا بعهد الله^{١٨٠}. قال الطبري: "ولا تفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه، من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله ﷺ، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخواناً بعد إذ كنتم أعداءً تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه"^{١٨١}.

يقول ابن كثير مؤكداً لما سبق في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، أي أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرقة والأمر بالاجتماع والائتلاف؛ منها ما جاء في حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه

^{١٧٦} محمد بن عيسى الترمذي، الجامع المختصر من السنن عن النبي ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل المعروف ب: جامع الترمذي أو السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٥)، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٥١٦). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

^{١٧٧} الهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٨: ٣٣٢٤.

^{١٧٨} انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٥٦٩-٥٧٠.

^{١٧٩} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١٠٣.

^{١٨٠} ابن منظور، لسان العرب، ٣: ٤٦٧.

^{١٨١} الطبري، جامع البيان، ٧: ٧٤-٧٧.

ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^{١٨٢}.

ومن النصوص التي تشير إشارة صريحة وبدلالة مفهومية إلى حال الاجتماع، قول الله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾^{١٨٣}. فالنص واضح في أن اجتماع اليهود والمنافقين لقتال المسلمين اجتماع شكلي لا وجداني، فتجدهم متحدّين في المظهر، متفرّقين في المخبر، وتأكيداً لهذا المعنى؛ يقول الطبري: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾، يعني المنافقين وأهل الكتاب، يقول: تظنهم مؤتلفين مجتمعة كلمتهم، ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾، يقول: وقلوبهم مختلفة لمعاداة بعضهم بعضاً^{١٨٤}؛ فإذا كان الاعتصام بالله تعالى هو سبيل التآليف بين القلوب والاجتماع على الطاعة فإن الغفلة عن ذلك سبب التفرف والخرس في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ﴾^{١٨٥}، وروي عن قتادة أنه قال: "فرقة والله، لا اجتماع بعدها"^{١٨٦}. وهكذا في كل الاجتماعات وتلك منة الله تعالى على المؤمنين، الذين ائتملت قلوبهم وتصوراتهم على الوحي قرآناً وسنةً، فاتحدت بواطنهم وأشكالهم في الصلوات والجمعات والغزوات.

المقصود بالتربية الاجتماعية في التراث التربوي الاسلامي :

لقد تعددت التعريفات حول هذا الموضوع، من ذلك قول عمر أحمد عمر في بيان مجالات التربية: "تتناول التربية كل جوانب الإنسان الجسمية والعقلية والروحية، ثم تتجاوز ذلك إلى

^{١٨٢} مسلم، الصحيح، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه، ٣ : ١٣٤٠، (١٧١٥). قال المحقق: "الاعتصام بحبل الله التمسك بعهد وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده، والتأدب بأدبه. والحبل يطلق على العهد وعلى الأمان وعلى الوصلة وعلى السبب. وأصله من استعمال العرب الحبل في مثل هذه الأمور، لاستمسكهم بالحبل عند شدائد أمورهم، ويوصلون به المتفرق؛ فاستعير اسم الحبل لهذه الأمور".

^{١٨٣} القرآن الكريم، سورة الحشر ٥٩ : ١٤.

^{١٨٤} الطبري، جامع البيان، ٢٣ : ٢٩٢.

^{١٨٥} القرآن الكريم، سورة الروم ٣٠ : ١٤.

^{١٨٦} الطبري، جامع البيان، ٢٠ : ٨١.

تهديب انفعالاته وعواطفه، وتهتم بمشاعره وأحاسيسه، وتحدد علاقته بغيره على أسس سليمة، فهي تشمل التربية البدنية والتربية العقلية، والتربية الروحية والتربية الاجتماعية، والتربية الانفعالية والتربية الجمالية^{١٨٧}.

وقد عرّفها محمد العجمي بأنها: "توجه المسلم إلى الوفاء بالتكاليف الفردية، والواجبات الجماعية"^{١٨٨}. وقال البابطين: "عملية تنشئة الطفل المسلم على الآداب الاجتماعية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لتكون المحرك له في جميع شؤون حياته"^{١٨٩}.

والبابطين كأنه يرى الترادف بين التنشئة والتربية من جهة، كما أنه قصر التربية الاجتماعية في هذا التعريف على الطفل فقط من جهة أخرى، والذي يراه الباحث أن التربية أعم من التنشئة، كما أن التنشئة ممارسة عملية على ضوء خطة مستقبلية من قبل المُنشئ، ولأن التربية الاجتماعية ليست محصورة فقط في مرحلة الطفولة؛ بل تبدأ منذ اختيار الزوج، مروراً بجميع المراحل حتى نهاية العمر. فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم»^{١٩٠}. كذلك يرى الباحث أن التربية الاجتماعية ليست أدباً فحسب؛ وإنما هي إضافة إلى ذلك قيم، وأخلاق، وسلوك، وعادات، وتقاليد، وعلاقات، وتعاملات، تعمل في إطار التوجه الإسلامي وتسير وفق مسنونهات وتوجهاته. وجاء عند مالك بن نبي إضافة على ذلك فإن التربية الاجتماعية قواعدها العامة ينبغي أن تستقى من علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس فكل فكرة عن التربية الاجتماعية يجب أن تصدر من هنا؛ لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما وفي سلوك نمودجه الذي يتكون منه.^{١٩١}

^{١٨٧} عمر أحمد عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، تحقيق وهبة الزحيلي، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٥)، ٣١.

^{١٨٨} محمد عبد السلام العجمي، وزملاؤه، تربية الطفل في الإسلام، (د.م: د.ن، د.ت)، ٨٢.

^{١٨٩} عبد الرحمن بن عبد الوهاب البابطين، مرجع الآباء في تربية الأبناء، (د.م: د.ن، د.ت)، ١٧٦.

^{١٩٠} ابن ماجه، السنن، كتاب النكاح، باب الأكفاء، ١: ٦٣٣، (١٩٦٨). خلاصة حكم الحديث: حسن.

^{١٩١} مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥)، ٧٢-٧٩.

خلاصة القول: من خلال ما سبق يرى الباحث أن المقصود بمفهوم التربية الاجتماعية في هذه الرسالة هو تربية أفراد المجتمع وتزويدهم بالمهارات، والقيم والمبادئ، والاتجاهات، والعلاقات، والتعاملات، وأنماط السلوك منطلقين بذلك من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وتزويدهم بالمهارات، والقيم والمبادئ، والاتجاهات، والعلاقات، والتعاملات، وأنماط السلوك الإيجابي الذي يُيسّر لهم التفاعل مع البيئة الاجتماعية ثقة وبقينا كانت الوحدة والاعتصام والتكافل وتحقيق الأمة الإسلامية.

المبحث الثالث: أولو العزم من الرسل ﷺ وعاداتهم في التربية الاجتماعية

تمهيد

تُعَدُّ قصص أولي العزم من الرسل ﷺ في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من الموضوعات المهمة، وقد كَتَبَ العلماء عن صفاتهم ودعوتهم وسيرهم؛ وذلك لمكانتهم العظيمة في المجتمع، وأعمالهم المؤثرة في ميادين العلم والعمل. وينبغي أن تتحقق الحكمة التاريخية، فلعل التاريخ يعيد نفسه، إن أخذنا بأسباب النهضة الأولى عاد ذلك المجد، وإن لم نأخذ بها فلن يعود. ولعلنا نرجع كما كنا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.^{١٩٢}

بناءً عليه، مال الباحث إلى الاستفادة من بعض إشارات العلماء حول عادات أولي العزم من الرسل ﷺ في التربية الاجتماعية. ويتضمن هذا المبحث توضيحاً من خلال المطالب الآتية: **المطلب الأول:** مفهوم عادات أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن والسنة، **والمطلب الثاني:** المدخل النظري لدراسة العادات التربوية عند أولي العزم من الرسل ﷺ، **والمطلب الثالث:** نماذج من القدوة الصالحة في العادات الاجتماعية لأولي العزم من الرسل ﷺ.

^{١٩٢} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١١٠؛ انظر: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٠)، ١٣؛ وانظر: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، جامع تراث العلامة الألباني في الفقه، (اليمن: مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، ٢٠١٥)، ٢: ٣٢٨.

المطلب الأول: مفهوم عادات أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن والسنة تمهيد

إن في سِير أولي العزم من الرسل ﷺ ملامح ثابتة وسلوكيات متكررة ظهرت في حياتهم الدعوية والتربوية، تُشكّل نماذج حيّة للقدوة الصالحة، وتُعبّر عن عادات تربوية أصيلة ذات أثر بالغ في بناء المجتمعات وتنمية الأفراد.

ويشتمل هذا المطلب على جملة من المرتكزات المفاهيمية والمنهجية لفهم تلك العادات، من خلال تحديد المفاهيم الأساسية، كتعريف أولي العزم من الرسل، وبيان معنى العادات لغةً واصطلاحاً، ثم الوقوف على معالم العادات الصالحة في ضوء القرآن والسنة، وبيان دور طلبة العلم والعلماء في ترسيخها.

أولاً: التعريف بأولي العزم من الرسل ﷺ لغةً واصطلاحاً

تعددت التعريفات للفظ أولي العزم، وقبل بيان ذلك لابد من معرفة الأصل اللغوي له، وهو يتركب من كلمتين، كلمة أولو، وكلمة العزم، ولكل منهما معنى.

فأما أولو لغةً: قال صاحب الصحاح: فجمع لا واحد له من لفظه، واحده ذو؛ وأولات للإناث واحدها ذات، تقول: جاءني أولو الألباب، وأولات الأحمال. وأمّا أولي فهو أيضاً جمع لا واحد له من لفظه، واحده ذا للمذكر، وذو للمؤنث، يمد ويقصر، فإن قصرت كتبته بالياء، وإن مددته بنيته على الكسر، ويستوي فيه المذكر والمؤنث^{١٩٣}. ولا يُتكلم به إلا مضافاً، كقولك أولو بأس شديد وأولو كرم، كأن واحده أل، والواو للجمع، ألا ترى أنها تكون في الرفع واوا وفي النصب والجر ياء^{١٩٤}. وأولو بمعنى أصحاب^{١٩٥}.

^{١٩٣} الجوهري، الصحاح في اللغة، ١: ٥٥.

^{١٩٤} ابن منظور، لسان العرب، ١١: ٢٨.

^{١٩٥} أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، غريب القرآن، المحقق: أحمد صقر، (مصر: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨)، ١: ١٠١؛ حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨)، ١: ١٢٧.

وأما العزم لغةً: هو الجد والثبات، فقال الخليل بن أحمد: "وهو ما عَقَدَ عليه القلبُ أَنتَكَ فاعلهُ أو من أمرٍ تيقَّنَه؛ وما لفلان عزيمةُ أي: "ما يثبُتُ على أمرٍ يَعَزِمُ عليه، وما وجدنا له عَزْماً، وإنَّ رأيَه لذو عزم" ١٩٦. وقال ابن فارس: "عزم) العين والزاي والميم أصلٌ واحد صحيحٌ يدلُّ على الصَّرمَةِ والقطع. يقال: عَزَمْتُ أعزم عَزْماً. ويقولون: عَزَمْتُ عليك إلا فعلتَ كذا، أي جعلته أمراً عَزْماً، أي لا مثنويةً فيه. ويقال: كانوا يَرونَ لِعَزْمَةِ الخُلَفَاءِ طاعةً، ويقال: عَزَمْتُ على كذا عَزْماً وعَزْماً بالضم وعزيمةً وعزماً، إذا أردتَ فعله وقطعتَ عليه، قال الله تعالى، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ١٩٧، أي صرمة أمرٍ ١٩٨.

قال الخليل: "العزم: ما عَقَدَ عليه القلبُ من أمرٍ أنتَ فاعله، أي متيقِّنة؛ ويقال: ما لفلانٍ عزيمةٌ، أي ما يَعَزِمُ عليه، كأنَّه لا يمكنه أن يصرم الأمر، بل يختلط فيه ويتردَّد ١٩٩، وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أي صبراً ٢٠٠.

ومعنى أولي العزم اصطلاحاً: لم يقف الباحث على مَنْ عَرَفَ أولي العزم شرعاً، إلا أنه يمكن التعريف بأنهم: أصحاب الشرائع اجتهدوا في تأسيسها وتقديرها، وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها ومشاهيرهم؛ وقيل: هم الَّذِينَ عزموا على أمر الله فيمَا عهد إِلَيْهِمْ، وقال الزمخشري: "هم أولو الجد والثبات" ٢٠١. قال ابن فارس ٢٠٢: "وأولو العزم من الرسل ﷺ الذين قطعوا العلائقَ بينهم وبين من لم يؤمن من الذين بُعثوا إِلَيْهِمْ، كَنوح ﷺ قال

١٩٦ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، المحقق: مهدي الخزومي، وإبراهيم السامرائي، (مصر: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٩) ٣: ١٤٩.

١٩٧ القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ١١٥.

١٩٨ الجوهري، الصحاح في اللغة، ٢: ١١١.

١٩٩ ابن فارس، مقاييس اللغة، ٤: ٣٠٨.

٢٠٠ أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (٢٠٠١)، ٢: ٩١.

٢٠١ انظر: أيوب بن موسى الحسيني القريعي الكفوي، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المحقق: عدنان درويش، ومحمد المصري (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩)، ٥٥٠.

٢٠٢ ابن فارس، مقاييس اللغة، ٤: ٣٠٩.

الله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^{٢٠٣}، وكمحمد ﷺ وآله إذ تبرأ من الكفار وبرأه الله ﷻ منهم، قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^{٢٠٤}، وأمره بقتلهم في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^{٢٠٥}. وعرفها الشوكاني فقال: "أولو العزم أي أرباب الثبات والحزم"^{٢٠٦}. وقال الضحاك: "ذوو الجد والصبر"^{٢٠٧}، كل هذه المعاني تدور حول الجد والصبر والثبات على أمر الله سبحانه، قاله الرازي وغيره من المفسرين^{٢٠٨}. وفي الحديث روي عن النبي ﷺ قوله لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة، إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها والصبر عن محبوبها»^{٢٠٩}.

من هنا، يخلص الباحث إلى أن مصطلح "أولي العزم" يشير في القرآن إلى الرسل ﷺ الذين كانوا على درجة عالية من الإيمان، والصبر، والقوة في تحمل التحديات. وفي السنة النبوية، يتم استخدام هذا المصطلح للإشارة إلى الرسل ﷺ الذين حملوا رسالة الله بشكل قوي وثابت.

وأما مصطلح "أولو العزم" ذكر في القرآن الكريم في عدة مواضع^{٢١٠}، ولقد قدم العلماء تفسيرات مختلفة حول هذا المصطلح؛ وللحصول على فهم دقيق حول كيفية فهم

^{٢٠٣} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٢٦.

^{٢٠٤} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ١.

^{٢٠٥} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ٥.

^{٢٠٦} الشوكاني، فتح القدير، ٥: ٣٢.

^{٢٠٧} البغوي، معالم التنزيل، ٧: ٢٧١.

^{٢٠٨} الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٨: ٣٠.

^{٢٠٩} شيرويه بن شهردار الهمداني، الفردوس بمأثور الخطاب، تحقيق السعيد بن بسويي زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ٥: ٤٢٦، (٨٦٢٨). خلاصة حكم الحديث: ضعيف جداً. انظر: ابن حجر العسقلاني، الغرائب الملتقطة من مسند الفردوس المسمى زهر الفردوس، تحقيق حسن علي ورسمه (دبي: جمعية دار البر، ٢٠١٠)، ٨: ٢٨٥.

^{٢١٠} ورد لفظ أولو العزم صراحة في القرآن الكريم في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (القرآن الكريم، سورة الأحقاف ٤٦: ٣٥). كما ورد ذكر أسمائهم في أربعة مواضع أخرى، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (القرآن الكريم، سورة

"أولو العزم" لدى العلماء، يفضل الرجوع إلى تفاسير القرآن ومؤلفات علماء التفسير والحديث، حيث يوضحون هذا المصطلح بناءً على السياق اللغوي والشرعي.

وتعدد أقوال العلماء في هذه المسألة يعود إلى تفسير كلمة "من" في قول الله تعالى:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^{٢١١}، فإذا فُسِّرَتْ تبعيضياً، يُفهم أن أولو العزم من

الرسول ﷺ هم بعض الرسل ﷺ، وإذا فُسِّرَتْ ببياناً، يُفهم أنهم جميع الرسل ﷺ. وتظهر

هذه الأوجه في فهم معنى "أولو العزم" من الرسل، كما ذكرها ابن جوزي فيهم عشرة أقوال:

أحدها: أنهم نوح ﷺ، وإبراهيم ﷺ، وموسى ﷺ، وعيسى ﷺ، ومحمد ﷺ، رواه

الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه، وبه قال مجاهد، وقتادة، وعطاء الخراساني، وابن السائب.

والثاني: نوح ﷺ، وهود ﷺ، وإبراهيم ﷺ، ومحمد ﷺ، قاله أبو العالية الرياحي. والثالث:

أنهم الذين لم تُصِبْهم فتنة من الأنبياء ﷺ، قاله الحسن. والرابع: أنهم العرب من الأنبياء ﷺ،

قاله مجاهد، والشعبي. والخامس: أنهم إبراهيم ﷺ، وموسى ﷺ، ودَاود ﷺ، وسليمان ﷺ،

وعيسى ﷺ، ومحمد ﷺ، قاله السدي. والسادس: أن منهم إسماعيل ﷺ، ويعقوب ﷺ،

وأيوب ﷺ، وليس منهم آدم ﷺ، ولا يونس ﷺ، ولا سليمان ﷺ، قاله ابن جريج.

والسابع: أنهم الذين أمروا بالجهاد والقتال، قاله ابن السائب، وحكي عن السدي. والثامن:

أنهم جميع الرسل، فإن الله لم يُبْعَثْ رسولاً إلا كان من أولي العزم، قاله ابن زيد، واختاره ابن

الأنباري، وقال: "من" دخلت للتجنيس لا للتبعيض، كما تقول: قد رأيتُ الثياب من الحرِّ

والجِباب من القَرِّ. والتاسع: أنهم الأنبياء الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام، قاله

الحسين بن الفضل، والعاشر: أنهم جميع الأنبياء إلا يونس، حكاها الثعلبي^{٢١٢}.

الأحزاب ٣٣: ٧)، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا... وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

وَعِيسَى﴾ (القرآن الكريم، سورة الشورى ٤٢: ١٣). كما ذُكِرُوا كذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا

إِلَى نُوحٍ... وَإِبْرَاهِيمَ﴾ (القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٦٣)، وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ...

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ (القرآن الكريم، سورة الأنعام ٦: ٨٣-٩٠). ومن خلال هذه المواضع يتبين أن عددها في

القرآن الكريم خمسة مواضع، أحدها جاء باللفظ الصريح، وأربعة جاءت بذكر أسمائهم.

^{٢١١} القرآن الكريم، سورة الأحقاف ٤٦: ٣٥.

^{٢١٢} ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ٤: ١١٤.

لقد رجّح ابن كثير في تفسيره أن المشهور في أولي العزم من الرسل ﷺ أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ^{٢١٣}. وقال ابن تيمية: "وأفضل أولياء الله هم أنبياءه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح ﷺ وإبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعيسى ﷺ ومحمد ﷺ، ثم ذكر قول الله تعالى في سورتي الأحزاب والشعراء^{٢١٤}. وقال الشنقيطي: "أشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم الذين قدمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ؛ وعلى هذا القول فالرسل ﷺ الذين أمر رسول الله ﷺ أن يصبر كما صبروا هم الأربعة، فصار هو ﷺ خامسهم؛ واعلم أن القول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل ﷺ وأن لفظة ﴿مِنْ﴾، في قوله: ﴿مِنْ الرُّسُلِ﴾ ببيانية يظهر أنه خلاف التحقيق، كما دلت على ذلك بعض الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾^{٢١٥}، فأمر الله ﷻ نبيه في أية القلم هذه بالصبر، ونهاه أن يكون مثل يونس ﷺ لأنه هو صاحب الحوت، وكقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^{٢١٦}، تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي ﷺ بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل ﷺ، والعلم عند الله تعالى^{٢١٧}. وأما المقصود بأولي العزم من الرسل ﷺ في هذا الرسالة، هم الخمسة نوح ﷺ وإبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعيسى ﷺ ومحمد ﷺ. وقد ذهب كثير من العلماء أن أولي العزم من الرسل ﷺ هم الخمسة لأن كلمة "مِنْ" تبعيضية، وليست ببيانية. ومن ذهب إلى أن ذلك ابن كثير والشنقيطي وابن تيمية وغيرهم من العلماء، وهو المروي عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما^{٢١٨}.

^{٢١٣} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧: ٣٠٥.

^{٢١٤} انظر: ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، (دمشق: مكتبة دار البيان، ١٩٨٥)، ٥٥؛ وانظر: ابن قيم الجوزية، طريق المهجرتين وباب السعادتين، ٢ (القاهرة: الدار السلفية، ١٩٧٥)، ٥١٦.

^{٢١٥} القرآن الكريم، سورة القلم ٦٨: ٤٨.

^{٢١٦} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ١١٥.

^{٢١٧} محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥)، ٧: ٢٤١.

^{٢١٨} انظر: البغوي، معالم التنزيل، ٧: ٢٧٢.

ثانيًا: التعريف بالعادات لغةً واصطلاحًا

جرت عادة العلماء رحمهم الله أن يبدؤوا كل موضوع بتقديم عدد من التعريفات اللغوية والاصطلاحية، تمهيدًا لبيان مفاهيمه؛ وذلك لأن اللغة العربية هي وعاء الدين، والمبينة لما قد يُشكل من دلالات المعاني فيه. ومعلوم أن لفظ العادات في اللغة: جمع، ومفرده "عادة". قال الجوهري: "والعادة معروفة، والجمع: عادٌ وعادات"^{٢١٩}. وبالرجوع إلى متون اللغة، نجد أن أصل لفظ "عاد" من العود، ومعناه كما قال الخليل: "تثنية الأمر عودًا بعد بدء"^{٢٢٠}.

والعادة: الدربة على الشيء، وهي أن يتمادى المرء في الفعل حتى يصير له سجيّة. ولذلك يُقال للرجل المواظب على الأمر: معاود، ومنه قولهم في الشجاع: "بطلٌ معاود"، أي لا يمنعه ما رأى من شدة الحرب أن يعاودها. والمعاد: كلُّ شيء يُرجع إليه، ولذلك كانت الآخرة معادًا للناس، والله تعالى هو المبدئ المعيد؛ لأنه سبحانه بدأ الخلق ثم يُعيدهم"^{٢٢١}. ومن هذا الباب "العيد"، واشتقاقه كما ذكر الخليل: من "عاد يعود"؛ لأنه يعود كل عام، وقيل: لأن الناس قد اعتادوه"^{٢٢٢}.

ومن هنا سُمّيت العادة عادة؛ لأن صاحبها لا يزال يُعاودها. وقيل: العادة هي تكرير الفعل والانفعال"^{٢٢٣}. وأما معنى العادات في الاصطلاح: فقد تعددت تعريفاته عند العلماء، ومن أهمها: أن العادة هي ما استمر الناس عليه على حكم المعقول، وعادوا إليه مرة بعد أخرى"^{٢٢٤}. وقيل: هي كل ما اعتيد، وصار يُفعل من غير جهد. وقيل أيضًا: العادات هي الحالة التي تتكرر على نهج واحد، كعادة الحيض عند المرأة"^{٢٢٥}.

^{٢١٩} الجوهري، الصحاح في اللغة، ٢: ٥١٤.

^{٢٢٠} الفراهيدي، كتاب العين، ٢: ٢١٨.

^{٢٢١} ابن فارس، مقاييس اللغة، ٤: ١٤٨-١٥٠.

^{٢٢٢} الفراهيدي، كتاب العين، ٢: ٢١٨؛ وانظر: ابن سيده، المخصص، تحقيق خليل جفال، ٣: ٣٢٦.

^{٢٢٣} ابن فارس، مجمل اللغة، تحقيق زهير سلطان (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦)، ص ٦٣٥؛ وانظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ٨: ٤٣٤؛ وانظر: السيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، ١٩٨.

^{٢٢٤} الجرجاني، التعريفات، ١٤٦؛ وانظر: زكريا بن محمد الأنصاري، الحدود الأنيفة والتعريفات الدقيقة، تحقيق مازن المبارك (بيروت: دار الفكر المعاصر، د.ت)، ٧٢.

^{٢٢٥} سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا، (دمشق: دار الفكر، د.ت)، ١: ٢٦٥.

وأما عند الفقهاء، فقد قال القرافي: "العادة غلبة معنى من المعاني على الناس"، وقد تكون هذه الغلبة عامة في سائر الأقاليم، كالحاجة إلى الغذاء والتنفس في الهواء، وقد تكون خاصة ببعض البلاد، كالنقود والعيوب، وقد تكون خاصة ببعض الفرق، كالأذان للمسلمين، والناقوس للنصارى^{٢٢٦}، وعرفها الحنفية بأنها: "ما استمر الناس عليه على حكم المعقول، وعادوا إليه مرة بعد أخرى"، وعند الشافعية: "ما هو مألوف من الأفعال وما يشبهها"^{٢٢٧}.

وعند الحديث عن مصطلح "العادة" نجد ألفاظاً مرادفة تتكرر في كتابات العلماء، ومع تقاربها في المعنى، إلا أنهم فرّقوا بينها من الناحية الاصطلاحية، فالمقصود بالترادف هنا هو الترادف النسبي، إذ يمكن استعمال لفظ مكان آخر في بعض السياقات، أما الترادف التام فهو نادر في اللغة. ومن هذه الألفاظ:

١. العرف: هو ما استقر في النفوس من جهة شهادة العقول، وتلقّته الطباع السليمة بالقبول، ويفترق عن العادة في أن العرف يُستعمل غالباً في الألفاظ، بينما تُستعمل العادة في الأفعال^{٢٢٨}.

٢. الدأب: وأصله في اللغة الملازمة والدوام. قال ابن الأثير: "الدأب: العادة والشأن، وأصله من دأب في العمل إذا جد وتعب، إلا أن العرب حولت معناه إلى العادة والشأن"^{٢٢٩}. والفرق بين العادة والدأب أن العادة تشمل ما هو اختياري واضطراري، أما الدأب فلا يكون إلا عن اختيار^{٢٣٠}.

٣. السنة: هي في اللغة الطريقة، سواء أكانت محمودة أم مذمومة، وفي الاصطلاح الشرعي: هي الطريقة المرضية المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب^{٢٣١}.

^{٢٢٦} أحمد بن إدريس القرافي، الذخيرة، تحقيق مجموعة من العلماء، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤)، ١: ١١.

^{٢٢٧} أبو حبيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، ١: ٢٦٥.

^{٢٢٨} الكفوي، الكليات، ٦١٧؛ وابن القيم، إعلام الموقعين، ٣: ٣٧٤.

^{٢٢٩} ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ٢: ١٠١.

^{٢٣٠} أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، معجم الفروق اللغوية، ط٦، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي)، ٢٠١٢.

٣٤٥-٤٣٦.

^{٢٣١} الكفوي، الكليات، ٤٩٧.

والفرق بينها وبين العادة أن العادة ما يفعله الإنسان بشكل متكرر من تلقاء نفسه، أما السنة فهي فعل مستند إلى مثال سابق^{٢٣٢}.

بالإضافة إلى ما سبق، فإن كلمة "العادة" لا يتضح معناها المقصود إلا بإضافتها إلى لفظة أخرى، كما ذكرت حنان بنت لوي في العمري في تعريفها لـ "عادات الأنبياء" ﷺ: "هي ما تكرر على نهج واحد من الصفات والأحوال المرتبطة بالأنبياء والرسول ﷺ"^{٢٣٣}.

خلاصة القول: إن لكلمة "العادات" معنيين مختلفين في العلوم الشرعية: الأول: المعنى الفقهي الذي يقصده الفقهاء: تُستخدم "العادات" في مقابل "العبادات" كتصنيف للأحكام، فمثلاً: العبادات تشمل الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج...، بينما العادات تشمل البيع، الزواج، الأطعمة، اللباس، العرف، وغيرها من الأمور المتعلقة بالمعاش والمعاد. والثاني: المعنى التربوي السلوكي الذي يقصده الباحث: يشير إلى الأقوال والأفعال والسلوكيات المتكررة التي داوم عليها الأنبياء في تربية الناس، والتي تعكس ثبات منهجهم التربوي والاجتماعي في الإصلاح، وبناء الإنسان، ومواجهة الانحراف. ونستخلص ممّا سبق: أن العادة هي: المعاودة، وبسبب تكرارها مرة بعد أخرى، أصبحت شائعة ومعروفة ومستقرة في العقول، بسبب ألفة النفوس لها وارتباطها بالممارسة المستمرة.

ثالثاً: معالم العادات الصالحة في ضوء القرآن والسنة

لم ترد كلمة "العادات" بلفظها الصريح في القرآن الكريم أو السنة النبوية، ولكن وردت مفاهيم تعبّر عنها ضمناً، بحسب ما استنبطه العلماء. ومن أبرز هذه المفاهيم:

الفرع الأول: معالم العادات بنوعها في فهم القرآن الكريم

لقد بيّن عبد الفتاح محمد أحمد خضر أن العادة هي: "أحوال العرب السلوكية السائدة وقت نزول القرآن الكريم"^{٢٣٤}. ومن الأمثلة على العادات الجاهلية الواردة في القرآن الكريم، ما جاء

^{٢٣٢} العسكري، معجم الفروق اللغوية، ٣٤٥-٤٣٦.

^{٢٣٣} حنان بنت لوي في بن علي العمري، 'عادات الأنبياء والرسول'، مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية، مجلة علمية دورية محكمة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، شعبان ١٤٤٣هـ، ١، العدد ٢٢٢ (٢٠٢١)، ٣٢٨-٣٤٠.

في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^{٢٣٥}، فقد ظن بعض الصحابة أن السعي بين الصفا والمروة لا يجوز، لما فيه من مشابهة لفعل الجاهلية، فنزلت الآية لتزيل هذا الحرج، كما جاء في رد السيدة عائشة رضي الله عنها على عروة بن الزبير رضي الله عنه حين استشكل ذلك^{٢٣٦}. وقسم عبد الفتاح خضر العادات في القرآن الكريم إلى نوعين: أولاً: عادة حسنة: وهي السلوك المتكرر الموافق للفطرة السليمة ومقاصد الشريعة. ثانياً: عادة سيئة: وهي ما اعتاده الناس من موروث مخالف للشرع أو العقل؛ كما صنف العادات العربية المذكورة في القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام: أولاً: عادات أقرها القرآن: مثل الجوار. ثانياً: عادات هدّ بها القرآن: مثل التفاخر بالآباء، ثالثاً: عادات أبطلها القرآن: مثل أكل الربا وعبادة الأوثان^{٢٣٧}. ومن هنا يتبين أن القرآن أقرّ بعض العادات، وهذب بعضها، وأبطل أخرى بحسب معيار الشريعة لبناء العادات الصالحة.

الفرع الثاني: معالم العادات بنوعيتها في فهم السنة النبوية

تتجلى في السنة النبوية معالم العادات بنوعيتها: الثابتة (المتكررة) والمتغيرة. كما بين محمد أبو الليث الخير آبادي أن السنة تنقسم بحسب تأثير البعد الزماني والمكاني إلى مجالات ثابتة لا تتغيّر؛ من أهمها: الأول: العقائد؛ والثاني: العبادات الأصول مثل: الطهارة الواجبة، والفرائض من الصلاة، والصوم والحج والزكاة؛ والثالث: المبادئ العامة للأنظمة الإسلامية في المعاملات والحكم والقضاء وغيرها. مثل مبدأ الشورى، ومبدأ الشراء والشركة والإيجار وغيرها؛ والأخلاق والقيم مثل: جمال الصدق والأمانة والعفة والشجاعة والحلم والكرم وغيرها من الأخلاق الحميدة، ومثل قبح الكذب والخيانة والبخل وغيرها من الأخلاق الذميمة؛ والرابع: السنن

^{٢٣٤} عبد الفتاح محمد أحمد خضر، 'عادات عربية في ضوء القرآن الكريم'، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، ج ١، العدد ٣، (٢٠٠٧)، ٦٨-١٣٥.

^{٢٣٥} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٥٨.

^{٢٣٦} البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب: وجوب الصفا والمروة رقم: ١٦٤٣؛ وانظر: السيوطي، الإتيقان، ١: ٨٩.

^{٢٣٧} عبد الفتاح، عادات عربية.

الإلهية مثل طلوع الشمس من المشرق وغروبها في المغرب، وخلق الإنسان والحيوان من تلقيح نطفة الذكر ببويضة الأنثى، ونزول المطر وغيرها من السنن الإلهية لا تتأثر للزمان والمكان فيها، فلا تتغير، ولا تتبدل إلا إذا شاء الله بقدرته وإرادته؛ والخامس: القضايا الخاصة بالنبي ﷺ مثل وجوب قيام الليل عليه، ووجوب الضحى عليه، وجواز صوم الوصال له، وعدم التزوج على بناته في حياتهن من امرأة أخرى، وغيرها^{٢٣٨}.

ولذا، فعدم تناول البعدين هذه المجالات للتأثير فيها يدل على أن قضايا تلك المجالات من الثوابت التي لا تتغير، ولا تأثير للبعدين الزماني والمكاني فيها أيما تأثير، إلا في حالات الاضطرار؛ لأن في ثبات تلك الأمور حماية للمجتمع الإسلامي من الانهيار والذوبان، وعملاً على استقرار التشريع وبنائه على دعائم مكيئة راسخة لا تعصف بها الأهواء وتقلبات المجتمع، وهذه الثوابت قد اعتبرتها الشريعة الإسلامية صالحةً مُصلحةً لكل زمان ومكان، ولكل بيئة ومجتمع، وفي كل بلد ومدينة وقرية؛ وأما المجالات المتغيرة، فمن أهمها: ما كان سبيل التجارب البشرية أو العادات والتنظيمات الاجتماعية، وهذه الأخيرة تخضع لاجتهاد الفقهاء ضمن ضوابط الشريعة^{٢٣٩}.

وقد فرّق الدهلوي^{٢٤٠} بين نوعين من أفعال النبي ﷺ: الأول: ما كان في سبيل تبليغ الرسالة، وهو وحي أو اجتهاد معصوم، والثاني: ما كان من غير سبيل التبليغ، كالأفعال الجبلية أو ما جرى به العرف، ويُستدل على ذلك بقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»^{٢٤١}.

وقد قُسمت السنة من حيث علاقتها بالتشريع إلى ما هو تشريعي وما ليس كذلك، ومن حيث نطاق التشريع عند محمود شلتوت إلى تشريع عام وتشريع خاص. أما السنة من حيث علاقتها بالتشريع، فتتقسم إلى ثلاثة أقسام يجب التنبيه لها: الأول: ما كان من قبيل

^{٢٣٨} محمد أبو الليث الخير آبادي، علوم الحديث: أصيلها ومعاصرها، (الهند: مكتبة دار العلوم وقف ديوبند، ٢٠٢٣)، ٣٨٩-٤٩١.

^{٢٣٩} أبو الليث، علوم الحديث، ٤٩٠.

^{٢٤٠} ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة، تحقيق: السيد سابق (القاهرة: دار الجيل، ٢٠٠٥)، ١: ٢٢٤.

^{٢٤١} مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معاش الدنيا، ٣: ١٢، (٢٣٦١).

الحاجات البشرية، كالأكل، والشرب، والنوم، والمشي، والتزاور، والمصالحة بالطرق العرفية، والشفاعة، والمساومة في البيع والشراء؛ الثاني: ما كان من قبيل العادة الشخصية أو التجربة الاجتماعية، مثل ما ورد في شؤون الزراعة أو الطب، وطول اللباس أو قصره، الثالث: ما كان من قبيل التدبير الإنساني الناتج عن ظروف خاصة، كتوزيع الجيوش، وتنظيم الصفوف، واختيار أماكن النزول، وما شابهها. وهذه الأصناف الثلاثة لا تُعدّ من مصادر التشريع، ولا يتعلق بها طلب شرعي بالفعل أو الترك؛ لأنها من الشؤون البشرية التي لم يكن قصد الرسول ﷺ فيها التشريع، ولا تصلح أن تكون مصدرًا للتشريع^{٢٤٢}.

وأما السنة من حيث نطاق التشريع عند شلتوت، فتتقسم إلى ثلاثة أقسام مهمة: الأول: ما صدر عن النبي ﷺ بصفة التبليغ، كبيان الجمل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وبيان أحكام العبادات، والحلال والحرام، والعقائد والأخلاق. وهذا تشريع عام مستمر إلى يوم القيامة، لا يُشترط في الالتزام به سوى العلم به وبلوغه المكلف. والثاني: ما صدر عنه بصفته إمامًا للمسلمين، كقيادة الجيوش، وتوزيع الغنائم، وعقد المعاهدات، وتعيين الولاة، وهو تدبير مرتبط بسلطة الإمامة، لا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام. والثالث: ما صدر عنه بصفته قاضيًا، فيفصل في الخصومات بالبيّنات أو الأيمان. وهذا يُلزم المكلف فقط إذا صدر حكم قضائي، ولا يُباح للفرد أخذ حقه إلا بقضاء الحاكم^{٢٤٣}. ولذا، فإن معرفة الجهة التي صدر عنها التصرف النبوي أمر بالغ الأهمية؛ إذ إن كثيرًا مما نُقل عن النبي ﷺ صُوّر على أنه شرع، وهو في حقيقته لم يكن كذلك؛ وقد أدى الخلط في هذه الجهات إلى اضطراب الأحكام.

جاء عند القرضاوي معقبًا على تقسيم شلتوت للسنة إلى تشريعي وغير تشريعي؛ فقال: "ومن اهتم ببيان هذا الأمر في عصرنا، وأعطاه عنوانه الحالي - كما ذكرنا - شيخنا الشيخ محمود شلتوت، وقد استفاد مما كتبه الدهلوي ورشيد رضا والقراقي وغيرهم، وقسمه تقسيمًا حسنًا؛ ولا يفوتني أن أعقب هنا على كلام شيخنا شلتوت، وخصوصًا في القسم الأول الذي لم ير السنة فيه للتشريع، فأقول: ليس كل ما يتعلق بالأكل والشرب والنوم سبيله

^{٢٤٢} محمود شلتوت، الإسلام: عقيدة وشرعية، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٠)، ٥٠١.

^{٢٤٣} شلتوت، الإسلام، ٥٠١.

سبيل الحاجة البشرية؛ بل ينبغي التفريق بين ما ثبت بفعله النبي ﷺ، وما ثبت بقوله النبي ﷺ^{٢٤٤}. ثم بين القرضاوي بأن الفعل لا يدل في نفسه على وجوب أو استحباب ما لم يُقصد به القربة، بينما القول قد يدل على الاستحباب أو الإيجاب أو غيره تبعاً للقارئ، كما في النهي عن الأكل بالشمال أو الشرب في آنية الذهب والفضة، وهي مما دلت الأدلة على تحريمه؛ وأشار القرضاوي إلى أهمية النظر إلى النصوص التي وردت في سياقات العادات والتجارب، كالأحاديث الطبية أو ما يتصل باللباس، وبيّن أن منها ما يحمل طابع التجربة، ومنها ما هو توجيه وتشريع، كقوله ﷺ: «تداووا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً»^{٢٤٥}. وقال القرضاوي: "واعلم أن أشد الأحوال اختصاصاً برسول الله ﷺ هي حالة التشريع، لأنها هي المراد الأول من بعثته؛ فلذلك يجب اعتبار ما صدر عنه من الأقوال والأفعال - ما لم تقم قرينة - من باب التشريع؛ وقد نقل القرضاوي قول ابن عاشور عند تعداده لاثنتي عشرة حالة تصدر عنها أفعال أو أقوال النبي ﷺ، منها: التشريع، الفتوى، القضاء، الإمارة، الهدى، الصلح، النصيحة، التأديب، وغيرها^{٢٤٦}. وقد بين القرضاوي حقيقتين لا ينبغي الخلاف عليهما: أولاً: أن جمهور السنة - قولاً أو فعلاً أو تقريراً هو للتشريع، ويطلب فيه الاتباع، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^{٢٤٧} ثانياً: أن من السنة ما ليس للتشريع، وهو ما تعلق بأمور الدنيا المحضة، كما في حديث: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^{٢٤٨}، كما في قضية تأثير النخل^{٢٤٩}.

وأكد على أن الخلاف في هذا الموضوع هو في تطبيق هذا المبدأ على بعض الأحاديث، لا في أصله؛ ويظهر ذلك في أحاديث الأكل والشرب، والزينة، والاحتفال، والطب، وغيرها، وهل هي من الدين أم من الدنيا؟ وقال القرضاوي: "وكعادتنا في القضايا

^{٢٤٤} القرضاوي، السنة مصدر للمعرفة والحضارة، ٤٣.

^{٢٤٥} أحمد بن حنبل، المسند، ٣: ٢٢٣، (٣٨٦٥). قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

^{٢٤٦} القرضاوي، السنة مصدر للمعرفة والحضارة، ٤٣.

^{٢٤٧} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٥٨.

^{٢٤٨} القرضاوي، السنة مصدر للمعرفة والحضارة، ٤٧.

^{٢٤٩} مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي، ٤: ٣٤٣، (٢٣٦٣).

الفكرية نقف بين طرفي الإفراط والتفريط: فمن الناس من يخلع عن السنة رداء التشريع استنادًا إلى حديث: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»، ومنهم من ينكر أن يكون في السنة ما ليس للتشريع، محتجًا بوجوب اتباع كل سنة ثابتة^{٢٥٠}.

ولقد بيّن القرضاوي أن الصحابة والتابعين لم يغفلوا هذه المسألة، بل ناقشوها من خلال سؤال: هل هذا الفعل سنة أم لا؟ وليس تحت عنوان: تشريع أو غير تشريع. ومثال ذلك ما رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنه، حيث بين أن بعض أفعال النبي صلى الله عليه وسلم، وإن صدرت عنه، لم تكن سننًا تعبدية، بل لأسباب وقتية، فقال: «صدقوا وكذبوا»، أي: صدقوا في وقوع الفعل من النبي صلى الله عليه وسلم، وكذبوا في كونه سنة مطلقة، وبيّن أن رمل النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف، وركوبه في السعي، كان لأسباب تتعلق بظروف الزمان والمكان، وليس تشريعًا تعبديًا عامًا^{٢٥١}. قال القرضاوي: "هنا نرى أن ابن عباس رضي الله عنه وهو حبر الأمة، يرى أن أفعال النبي صلى الله عليه وسلم في الحج، منها ما هو سنة تطاع وتتبع، ومنها ما ليس بسنة، برغم ثبوتها عنه^{٢٥٢}.

وقد بيّن ابن عثيمين الفرق بين العادة والعبادة؛ فالأولى يُباح أصلها ما لم يرد دليل بمنعها، والثانية يُمنع أصلها حتى يرد دليل مشروعيتها، حيث قال: "الفرق بين العادة والعبادة أن العبادة هي ما أمر الله به ورسوله تقريبًا إلى الله وابتغاءً لثوابه، وأما العادة فهي ما اعتاده الناس فيما بينهم من المطاعم، والمشارب، والمسكن، والملابس، والمراكب، والمعاملات، وما أشبهها. وهناك فرق آخر: وهو أن العبادات الأصل فيها المنع والتحريم حتى يقوم دليل على أنها من العبادات، لقوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾^{٢٥٣}، أما العادات، فالأصل فيها الحل إلا ما قام الدليل على منعه^{٢٥٤}. ولذا، فإن العادة

^{٢٥٠} القرضاوي، السنة، ص ٤٧.

^{٢٥١} أحمد بن حنبل، المسند، ١١: ٤٤٥، رقم: ٢٧٠٧، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح؛ وانظر: ابن كثير،

تفسير القرآن العظيم، ٧: ١٤٩.

^{٢٥٢} القرضاوي، السنة مصدر للمعرفة والحضارة، ص ٥١.

^{٢٥٣} القرآن الكريم، سورة الشورى ٤٢: ٢١.

^{٢٥٤} محمد بن صالح العثيمين، الشرح الممتع على زاد المستقنع، (الرياض: دار ابن الجوزي، ط ٣، ٢٠٠٢م)، ١:

٣١-٣٢.

التي تضاد العبادة في باب النيات تعني عمل الشيء بغير نية العبادة؛ فالعبادة إذا عملت بغير نية صارت عادة^{٢٥٥}.

خلاصة القول:

إن "العادات" وإن لم يرد لفظها الصريح في القرآن الكريم والسنة النبوية، إلا أن مفهومها حاضر فيهما بقوة، سواء في الإقرار أو الإبطال أو التهذيب. وقد دلت الآيات القرآنية على أن الإسلام لم يرفض العادات لمجرد كونها موروثة، بل قسّمها بحسب معيار الشريعة إلى ما يُقرّر إن وافق الفطرة ومقاصد الشرع، وما يُعدّل إن كان قابلاً للإصلاح، وما يُبطل إن خالف التوحيد أو العدل أو الأخلاق. وفي السنة النبوية، تظهر العادات على مستويين: ما هو من قبيل السلوك الشخصي أو العرف الاجتماعي، وما هو من التشريع العام المرتبط بمقاصد الدين. ومن هنا؛ تظهر أهمية التمييز بين ما صدر عن النبي ﷺ بصفته مبلغًا عن الله، وما صدر عنه بصفته إمامًا أو قاضيًا أو بشرًا يتصرف وفق بيئته وزمانه. وعليه، فإن فهم العادات في ضوء الوحي يستلزم فقهًا دقيقًا للسياق الشرعي والاجتماعي، وتمييزًا بين ما هو ثابت تعبدية، وما هو متغير عرفي. وهذا الفهم هو ما يُمكن الفقيه والمصلح من التعامل مع عادات المجتمع بأدوات الشريعة ومقاصدها، تحقيقًا للعادات العلمية لمصالح الخلق، ودفعًا للمفاسد، في توازن دقيق بين الأصالة والتجديد.

رابعًا: أهمية طلب العلم النافع في بناء العادات الصالحة في ضوء القرآن والسنة

يُعَدّ طلب العلم النافع أحد الركائز الأساسية في بناء الفرد والمجتمع، لا سيما حين يقتزن ببناء العادات الصالحة التي تُشكّل سلوك الإنسان اليومي وتوجّه خياراته في الحياة. وقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية اهتمامًا بالغًا بهذا الجانب، إذ اعتُبر العلم طريقًا إلى العمل الصالح، والعمل الصالح سبيلًا إلى الفلاح في الدنيا والآخرة^{٢٥٦}.

^{٢٥٥} إقبال علي العنزي، 'قواعد تكوين العادات الحسنة من خلال السنة النبوية'، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

٣٧، العدد ١ (٢٠٢٢): ٩٣-١٣١. <https://doi.org/10.34120/jsis.v37i131.2947>

^{٢٥٦} ابن القيم، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق: محمد رشاد سالم (الرياض: مكتبة الرشد، ١٩٩٦)، ١: ٥٨.

وقد رفع الله سبحانه وتعالى منزلة الذين أوتوا العلم، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^{٢٥٧}، وقد فسر الطبري هذه الآية بأن أهل العلم يسبقون غيرهم بمراتب الإيمان والعمل^{٢٥٨}. كما أكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة"^{٢٥٩}. ولذا، فإن العلم النافع وسيلة لبناء العادات الصالحة؛ فمعرفة الخير والشر، والحلال والحرام، لا تُدرك إلا بالعلم. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^{٢٦٠}، وقد أوضح ابن عاشور أن العلم هو النور الذي يُبصر به الإنسان طريق الصلاح والرشاد^{٢٦١}. كما أوصى النبي ﷺ عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال لي: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك... تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»^{٢٦٢}. قال المباركفوري: قوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك»، أي: "احفظ حدود الله وشرائعه وأوامره ونواهيه، يحفظك الله في دينك ودنياك". وقوله ﷺ: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»، أي: الزم طاعته في حال الرخاء، يعرفك برحمته ولطفه عند الشدة^{٢٦٣}. وهذا يدل على أن التربية الإيمانية المبنية على العلم تُنتج التزاماً عملياً دائماً يتحوّل إلى عادات مستقرة. وقد ظهر أثر العلم جلياً في تزكية النفس وتهذيب السلوك، فطلبة العلم هم أول من ينبغي أن تتجسد فيهم العادات الصالحة؛ لأنهم أعلم بأوامر الله ونواهيه. وقد وصف الله المتقين بأنهم: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ

^{٢٥٧} القرآن الكريم، سورة المجادلة ٥٨: ١١.

^{٢٥٨} الطبري، جامع البيان، ٢٢: ٦١٠.

^{٢٥٩} مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ٣: ٣٤، (٢٦٩٩).

^{٢٦٠} القرآن الكريم، سورة الزمر ٣٩: ٩.

^{٢٦١} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٤: ١٢١.

^{٢٦٢} الترمذي، السنن، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب ما جاء في حفظ الله ﷻ، ٣: ٢٣٥، (٢٥١٦). خلاصة حكم الحديث: صحيح.

^{٢٦٣} محمد عبد الرحمن المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ٨: ٢٨٦.

الناس ٢٦٤ ، وهذه الصفات لا تُنال إلا بالتربية العلمية الإيمانية. وقد أشار الغزالي إلى أهمية العادة المكتسبة بالعلم، فقال: "النفس إن لم تُعوّد الخير اعتادت الشر، والعلم هو السبيل إلى تهذيبها" ٢٦٥. لذلك فإن العلم النافع، سواء كان مصدره الوحي أو التجربة، فقد فُرض طلبه بحسب مقتضيات الزمان والمكان ليُصبح من العادات الصالحة في البيئة العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. قال النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ٢٦٦. وقال النبي ﷺ: «سلوا الله علماً نافعاً، وتعودوا بالله من علم لا ينفع» ٢٦٧. جاء في الحديث دلالة على فضل طلب العلم وعلو منزلته، وأنه من أسباب النجاة والسعادة الأبدية؛ بل بلغ من تعظيم الإسلام للعلم أن أمر الله نبيه ﷺ بطلب الزيادة فيه، لا في المال أو السلطان، فقال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ ٢٦٨ قال ابن كثير: "وفيه دلالة على فضل العلم، فإنه لم يُؤمر بطلب الازدياد من شيء إلا منه" ٢٦٩. وكان من أول ما يسأله النبي ﷺ ربّه في الصباح بعد أداء صلاة الفجر، حيث روى ابن ماجه عن أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان إذا صلى الغداة قال ﷺ: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً» ٢٧٠.

وقد بيّن أهل العلم أن تخصيص "العلم النافع" في هذا الدعاء إشارة إلى أن ليس كل علم مطلوباً، بل ما كان يقرب إلى الله، ويثمر العمل الصالح، ويؤثر في السلوك والعادة ٢٧١.

٢٦٤ القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١٣٤.

٢٦٥ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار ابن حزام، ٢٠٠٥)، ٣: ٧٢.

٢٦٦ ابن ماجه، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المقدمة، باب فضل العلماء، ٤: ٥٦ (٢٢٤)؛ وقال الألباني: حسن، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، (الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٩٥)، ١: ٧٦، (١٨٤).

٢٦٧ ابن ماجه، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الزهد، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ٣: ٣٥٧، (٣٨٤٣)؛ وقال الألباني: صحيح، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ٢: ٤٤٤، (٣١٠٥).

٢٦٨ القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ١١٤.

٢٦٩ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ٣٠٨.

٢٧٠ ابن ماجه، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما يقول إذا انصرف من الصلاة، ٦: ٩٨ (٩٢٥)؛ حديث صحيح.

٢٧١ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، فضل علم السلف على علم الخلف، تحقيق بدر البدر (الكويت: دار ابن الجوزي، ١٩٩٤)، ٤-٦.

كما أن الربط بين العلم النافع والرزق الطيب والعمل المتقبل يعكس المنهج النبوي في بناء الإنسان المسلم بناءً شاملاً، يُؤسس عادات يومية تقوم على الإخلاص، والمعرفة، والإنتاج، لا على التقليد أو الجهل. قال ابن القيم: "العلم النافع هو ما باشر القلب فأصلحه، وربطه بالله تعالى، وأثمر خشيةً وإجابةً"^{٢٧٢}.

وبيّن الغزالي مفهوم "العلم النافع" بأنه: "ما يزيد في خوفك من الله، وبصيرتك بعيوب نفسك، ومعرفتك بعبادة ربك، ويقلل من رغبتك في الدنيا..."^{٢٧٣}. وقسمه إلى "فرض عين" و"فرض كفاية"، وبيّن أن العلوم الشرعيّة وهي ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه؛ مثل العقيدة والعبادات، ولا يرشد العقل إليه ولا التجربة؛ وأن العلوم غير الشرعيّة منها ما هو محمود إذا ارتبط بمصالح الناس كعلم الطب والحساب، وهي من فروض الكفايات، ومنها ما هو مذموم كعلم السحر والتلبيس^{٢٧٤}.

كما قسم الغزالي طلبه العلم إلى ثلاثة أقسام: أولاً: من طلب العلم للآخرة؛ وهو من الفائزين؛ ثانياً: من طلبه للدنيا ويشعر بتقصيره؛ وهو من المخاطرين؛ ثالثاً: من اتخذه وسيلة للجاه والمال مع الغفلة؛ وهو من الهالكين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^{٢٧٥}. وقد طرح إقبال العنزي قواعد عملية لبناء العادات الصالحة، بأنها: "أمر متكرر يفعله الإنسان دون تخطيط أو جهد زائد"؛ ومن أهم القواعد العملية لبناءها عنده: جعل الدافع للعادة ظاهراً وحاضراً، وربط العادات ببعضها، وهو ما يُسمى بتركيب العادات، وتغيير البيئة المثبطة للعادة الحسنة، كما تتكون العادة من خلال تجميع العادات بربط العادة الحسنة بعمل يحبه الإنسان، ومن خلال محاكاة المقربين والقديسين؛ وكذلك يمكن بناؤها بجعل العادة سهلة قدر المستطاع على الإنسان، وبمكافأة النفس وتحفيزها بشكل فوري عند القيام بالعادة، أو بما يقوم مقام المكافأة، بالإضافة إلى قضاء ما فات من العادات^{٢٧٦}.

^{٢٧٢} ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ١: ٤٥.

^{٢٧٣} أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ١: ١٦.

^{٢٧٤} أبو حامد الغزالي، بداية الهداية، ٢٦-٢٧.

^{٢٧٥} القرآن الكريم، سورة الصف ٦١: ٢.

^{٢٧٦} إقبال علي العنزي، 'قواعد تكوين العادات الحسنة من خلال السنة النبوية'، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

كما بيّن السباعي أن مقاصد التشريع في السنة تنقسم إلى: الضروريات: حفظ الدين، النفس، النسل، المال، العقل، والحاجيات: كإباحة الفطر في السفر والمريض، والتحسينيات: وهي مكارم الأخلاق ومحاسن العادات؛ وأن من أهدافها تفصيلاً للقرآن الكريم، لتحقيق السعادة للناس^{٢٧٧}.

ومن التطبيقات النبوية؛ تعويد الأطفال على الصلاة، ليصبح الالتزام بها سلوكاً طبيعياً في حياتهم المستقبلية. كما جاء في الحديث عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال: «عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ الصَّلَاةَ إِذَا بَلَغُوا سَبْعًا وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا إِذَا بَلَغُوا عَشْرًا»^{٢٧٨}. وقد جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: «حَافِظُوا عَلَى أَبْنَائِكُمْ فِي الصَّلَاةِ، وَعُودُوهُمْ خَيْرَ فَإِنَّ خَيْرَ عَادَةٍ»^{٢٧٩}. ولهذا، فإن تعويد الأطفال على العبادات منذ الطفولة يجعلها جزءاً من طبيعتهم، بحيث تُؤدى بسهولة واستمرارية.

ويُعدّ ارتباط المسلم بالمسجد نموذجاً للعبادات الصالحة، كأحد ميادين التربية الاجتماعية الأساسية لبناء البنية العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الصالحة؛ وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَتَعَاهَدُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»^{٢٨٠}، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾^{٢٨١}. وقد أشار محمد قطب إلى أن التربية الإسلامية تجعل العادة وسيلة لترسيخ العمل الصالح في النفس وهو جزء من طبيعة الإنسان، بحيث تُؤدى دون جهد أو مشقة؛ وفي الوقت ذاته، تُجنب الأداء الآلي الجامد من خلال التذكير المستمر بالهدف من العبادة وربط القلب بالله ﷻ؛ وأن العادة لها دور في

^{٢٧٧} مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٢)، ١: ٣٨٨.

^{٢٧٨} الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق مصطفی عبد القادر عطا، کتاب الصلاة، باب التأمین، ١: ٣١١، (٧٠٨)؛ قال المحقق: حديث صحيح.

^{٢٧٩} الطبرانی، المعجم الكبير، تحقیق حمدي بن عبد المجيد السلفي، باب العين، ٩: ٢٣٦، (٩١٥٥). خلاصة حكم الحديث: صحيح.

^{٢٨٠} الترمذی، السنن، تحقیق أحمد محمد شاکر وآخرین، أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، ٥: ١٢، (٢٦١٧). حديث غريب حسن.

^{٢٨١} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ١٨.

الحياة؛ لأنها من أسلوب التربية في الإسلام؛ تؤدي مهمة خطيرة في حياة البشرية، فهي توفر قسطاً كبيراً من الجهد البشري، بتحويله إلى عادة سهلة وميسورة، لينطلق هذا الجهد في ميادين جديدة من العمل والإنتاج والإبداع، ولولا هذه الموهبة التي أودعها الله في فطرة البشر، لفضوا حياتهم كما قلنا يتعلمون المشي، أو الكلام أو الحساب^{٢٨٢}. وتتجلى أهمية البيئة العلمية الصالحة، من صحبة العلماء ومجالس الذكر، في غرس العادات الصالحة، كما قال ﷺ: «مثل المجلس الصالح والمجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكير»^{٢٨٣}. ولذا؛ فإن العادات تُكتسب بالمجالسة والمداومة، وأصل ذلك التربية في بيئة صالحة^{٢٨٤}.

بناءً عليه، فإن طلبة العلم مسؤولون عن بث العادات الصالحة، فهم قدوة في السلوك قبل القول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^{٢٨٥}.

خامساً: أثر العلماء في ترسيخ العادات الصالحة

كان للعلماء الربانيين الدور الأبرز بعد الأنبياء في ترسيخ السنن النبوية وتحويلها إلى عادات مجتمعية صالحة، وذلك عبر العلم والتعليم والتزكية. وقد نوّه النبي ﷺ بمكانة العلماء؛ وفرّق ﷺ بين علماء الهدى وعلماء السوء، فقال ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^{٢٨٦}. وأكد ﷺ أن من تعلم علماً يُبتغى به وجه الله، فطلب به الدنيا، لم يجد عرف الجنة؛ فقال ﷺ: «من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»^{٢٨٧}.

^{٢٨٢} محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، (بيروت: دار الشروق، ١٩٩٣)، ١: ١١٦.

^{٢٨٣} البخاري، الصحيح، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، ٣: ٢٣٤، (٥٥٣٤).

^{٢٨٤} انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ٢: ٣٠٤.

^{٢٨٥} القرآن الكريم، سورة الرعد ١٣: ١١.

^{٢٨٦} أبو داود، السنن، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ١: ٣٤٥ (٣٦٤١). خلاصة الحكم الحديث:

صحيح..

^{٢٨٧} أبو داود، السنن، كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله ﷻ، (٣٦٦٤). خلاصة الحكم الحديث: صحيح.

حرص العلماء على تعليم الناس السنن العملية في حياتهم اليومية، مثل آداب الطعام والنوم، والوضوء، وذكر الله، والنظافة، والابتسامة، وإمالة الأذى عن الطريق، والالتزام بالصلاة، والتعامل بالأخلاق الحسنة. فكانوا قدوات حية لما دعا إليه النبي ﷺ. لقد قرّر القرآن الكريم قاعدةً تربويةً عظيمةً في الاقتداء بالنبي ﷺ، وجعل شخصه الكريم أُسوةً حسنةً لمن أراد رضا الله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^{٢٨٨}. وقد كان رسول الله ﷺ هو القدوة الأكمل في جميع العادات الصالحة التي تمثل نمطاً عملياً في التربية، كما روت عائشة رضي الله عنها في وصفه بقولها: «كان حُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^{٢٨٩}.

وقد جسّد النبي ﷺ العلم النافع في عاداته اليومية. وعليه؛ فإن العلماء الربانيون جمعوا بين تعليم الكتاب والحكمة وبين تزكية النفوس، كما في قول الله تعالى عن وظيفة النبي ﷺ: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^{٢٩٠} فكانوا امتداداً لهذا المنهج النبوي التربوي، يربّون طلبتهم وأتباعهم على الإخلاص، والتواضع، والأدب، والصدق، كما هو ظاهر في سيرة الأئمة الأربعة، ومثل مالك بن أنس الذي قال عن أدب العلم: "كان الرجل إذا أراد أن يطلب العلم يتأدب قبل ذلك عشرين سنة"^{٢٩١}.

ووردت قصة موسى عليه السلام مع فتاه يوشع بن نون؛ إذ نشأ هذا الأخير في كنف نبي وتربى على يده، وكان مرافقاً له في طلب العلم، حتى في سفره الطويل، كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ فقال: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل... فخرج موسى ومعه فتى يُقال له يوشع بن نون، فحمل موسى حوتاً في مكتل... وكان الحوت علامة لهما...»^{٢٩٢}. وقد علّق ابن حجر قائلاً: "يوشع بن نون كان خادماً لموسى وتلميذه، واختياره ليكون رفيقه في

^{٢٨٨} القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٣٣: ٢١.

^{٢٨٩} مسلم، الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب في حسن خلق النبي ﷺ، ٢: ٤٥ (٧٤٦)؛ انظر:

النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ٦: ٥٧٩.

^{٢٩٠} القرآن الكريم، سورة الجمعة ٦٢: ٢.

^{٢٩١} انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٨: ١٠٦.

^{٢٩٢} البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ﴾، القرآن الكريم، سورة الكهف ١٨:

٦٠، ٣: ١٢، (١٢٢)؛ مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام، ٤: ٢٢٤، (٢٣٨٠).

الرحلة يدل على أمانته وعلمه واستعداده لتحمل المشقة في سبيل العلم^{٢٩٣}. كما قال النووي: "يدل الحديث على فضل الخدمة في طلب العلم، وأن ملازمة العالم والصبر معه من صفات أهل الفضل، وقد تأهل يوشع بالعلم والصدق لأن يكون خليفة لموسى^{٢٩٤}. وقد دلّ ذلك على أن طالب العلم الحق لا يملّ في سبيل التحصيل والاقتداء^{٢٩٥}.

وقد سعى العلماء الربانيين في بناء المجتمع القيمي وتربية الأجيال على احترام الحرمات والحقوق، كحرمة الدماء، والأعراض، والأموال، وغرسوا ذلك في نفوس الناس، مصداقاً لحديث النبي ﷺ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»^{٢٩٦}. وكانت وصايا العلماء لطلبتهم تدور على الإخلاص، الخشية، والتواضع، كما قال الحسن البصري: "كانوا يقولون: من لم يكن له ورعٌ يردّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بسائر علمه شيئاً"^{٢٩٧}.

ومن الصالحين بعد الأنبياء؛ منهم لقمان الحكيم، الذي أورد الله تعالى وصايا لابنه، مما يدل على مركزية التعليم التربوي في بناء الشخصية الإيمانية، ومن أبرز وصاياهم: ترسيخ الإيمان، الإحسان إلى الوالدين، إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الصبر، التواضع، وحسن الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ...﴾ إلى آخر وصاياهم^{٢٩٨} وقد فصل السعدي معاني هذه الوصايا التربوية^{٢٩٩}.

وقد حذر النبي ﷺ من علماء السوء الذين يضلّون الناس، فقال: «أخوف ما أخاف على أمتي: كل منافق عليم اللسان»^{٣٠٠}. وقد مثل بلعم بن باعوراء نمودجاً لمن أوتي العلم فانسَلخ منه كما يظهر الله ﷻ الفرق بين العلماء الربانيين والعلماء السوء في قصة بلعم بن

^{٢٩٣} انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ١: ٢٣١.

^{٢٩٤} انظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٥: ١٣٨.

^{٢٩٥} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢١: ١٨٤.

^{٢٩٦} البخاري، الصحيح، كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ القرآن الكريم، سورة النساء

٤: ٩٣، ٥: ٩٠ (٦٥٣٣)؛ مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، ٤:

١٢٣، (١٦٧٨).

^{٢٩٧} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٦٢٧.

^{٢٩٨} القرآن الكريم، سورة لقمان ٣١: ١٣-١٩.

^{٢٩٩} انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤: ٥٨٦.

^{٣٠٠} أحمد بن حنبل، المسند، ٦: ١٢٢ (١٤٢١٩). خلاصة الحكم الحديث: حديث صحيح.

باعوراء، الذي أوتي علماً من آيات الله ﷺ، ثم مال إلى الدنيا، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾^{٣٠١} وقد فسّر ابن كثير هذه الآية بأنه "رجل من بني إسرائيل كان من العلماء، فمال إلى الدنيا واتبع هواه فهلك"^{٣٠٢}.

ومن الأحاديث العظيمة التي تُظهر خطر الرياء وأهمية الإخلاص في طلب العلم والعمل به، ما رواه مسلم عن النبي ﷺ: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلتَ لي قال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت لي قال: عالم، وقرأت القرآن لي قال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تُحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت لي قال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار»^{٣٠٣}. وهذا يدل على أن العلم النافع إن لم يُقصد به وجه الله، فإنه لا ينفع، بل يكون حجة على صاحبه. ومن هنا تبرز أهمية العناية بالتزكية والإخلاص لدى طلبة العلم، حتى يكون علمهم سبباً للنجاة لا للهلاك.

بدأ تأسيس البناء العلمي للعادات الصالحة في الإسلام من عهد النبوة، حيث بيّن النبي ﷺ منزلة العلم وأهمية حمّله، وخصّ العلماء العدول بهذه المهمة العظيمة وهذا الأثر مشهور ومروي عن النبي ﷺ بلفظ: «يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين»^{٣٠٤}. فبيّن ﷺ أن وظيفة أهل العلم

^{٣٠١} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٧٥.

^{٣٠٢} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣: ٥٠٠.

^{٣٠٣} مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٢: ٢٢٣ (١٩٠٥).

^{٣٠٤} أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الشهادات: باب: الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول: كفوا عن حديثه، لأنه يغلط أو يحدث بما لم يسمع، أو أنه لا يبصر الفتيا، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، ١٠: ٣٥٣ (٢٠٩١١). وهو حديث حسن كما قال ابن عبد

ليست مجرد الحفظ، بل التمحيص والتنقية، وهي مسؤولية حضارية في حفظ الدين من الانحراف. وفي بيان منزلة الطاعة والاتباع، قال رسول الله ﷺ: «كلّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي. قيل: ومن أبي؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبي»^{٣٠٥}. فدل الحديث على أن طاعة النبي ﷺ هي مدخل الجنة، وهي الأصل الذي بنى عليه العلماء منهجهم. وكان من دور العلماء مواجهة العادات الفاسدة؛ ومقاومة العادات السيئة والجاهلية، وذلك عبر خطبهم ومصنفاتهم ودروسهم، ونقل القرآن والسنة وتفسيرها وتطبيقها عملياً؛ مما جعل الناس يفهمون معانيها ويطبقونها.

ثم جاء جيل الصحابة والتابعين فكانوا أوفى الناس في نقل العلم والعمل به، حيث جمعوا بين حفظ النصوص وفهمها وتطبيقها في واقعهم اليومي، فمثّلوا الامتداد العملي لوظيفة النبوة في تعليم الكتاب والحكمة وتركيز النفوس. ومع تطور علم الرواية والدراية في القرون التالية، بدأ العلماء المسلمون يُظهرون منهجهم النقدي والعلمي في التعامل مع النصوص الشرعية، وبرزت قواعد التحقيق والتمحيص والتمييز بين الصحيح والضعيف، وبين ما هو ثابت وما هو مروي بطرق غير موثوقة.

وقد كان أئمة المذاهب الأربعة مثلاً حياً على المنهج القويم في اتباع الدليل وتقديم النص على الرأي، ورفض التقليد الأعمى، حيث أكدوا في أقوالهم أن مرجعية المسلم هي الكتاب والسنة. كما قال مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ): "كلّ يؤخذ من قوله ويُرد، إلا صاحب هذا القبر"، مشيراً إلى النبي ﷺ، في دلالة واضحة على تقديم السنة على أقوال البشر^{٣٠٦}. وقال الشافعي (ت ٢٠٤هـ): "إذا وجدت في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فاعملوا بالسنة، ودعوا ما قلت"، مما يؤكد على وجوب عرض أقوال العلماء على نصوص

البر وغيره، ويُستشهد به كثيراً في باب حماية السنّة وخصائص أهل الحديث. وانظر: ابن عبد البر، **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، (الرياض: دار ابن الجوزي، ١٩٩٤)، ٢: ١١٢٩، وانظر: الخطيب البغدادي، **شرف أصحاب الحديث**، تحقيق: أحمد بن فارس السلوم، (الرياض: دار أضواء السلف، ٢٠٠٠)، ٩١.

^{٣٠٥} البخاري، **الصحيح**، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ٣: ١١٢، (٧٢٨٠).

^{٣٠٦} ابن عبد البر، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي (الرباط: وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٩٥)، ١: ٢٨.

السنة النبوية^{٣٠٧}. أما أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، فقد قال: "لا تقلدني، ولا تقلد مالكا، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا"، في دعوة صريحة إلى اتباع المنهج الأصولي في الاستدلال، لا التقليد المذهبي الجامد^{٣٠٨}. وقد علّق عدد من العلماء على هذه الأقوال في مصنفاتهم، مبينين اتفاق الأئمة على رفض التقليد المذهبي المتعصب، ووجوب الرجوع إلى السنة الصحيحة عند تعارضها مع الأقوال، ومن أبرزهم ابن القيم الذي قال: "فهؤلاء الأئمة الأربعة قد نهبوا عن تقليدهم، وأمروا بالأخذ من السنة عند وجودها، وهم أبعد الناس عن التعصب لأقوالهم^{٣٠٩}".

وقد أكد الشاطبي المعنى ذاته في قوله إن التزام أقوال الرجال دون دليل يؤدي إلى الجمود والتقليد الأعمى الذي نهي عنه الشارع^{٣١٠}. كما أوضح الزركشي أن هذا هو المنهج الأصولي الصحيح الذي سار عليه السلف في التعامل مع النصوص والأقوال^{٣١١}. يُظهر هذا الموقف المنهجي من أئمة الإسلام أن التحرر من التعصب المذهبي والتمسك بالدليل يُعد من أسس العادات العلمية الصحيحة، إذ يغرس في الطالب والباحث روح النقد البناء، ويُرسى مبدأ التحقق من النصوص وفهمها وفق مقاصد الشريعة، لا مجرد تكرار الأقوال بلا وعي. وهذا النهج يُسهم في تكوين شخصية علمية مستقلة، لا تتبع الهوى، ولا تستكين للتقليد الأعمى، بل تبحث عن الحق بدليله، وتعتاد ممارسة الاجتهاد الموجه بالعلم والأمانة.

وقد أشار عدد من علماء التربية الإسلامية إلى أن هذه العادات العلمية لا تُكتسب إلا عبر مجاهدة النفس على التعليم والتعلم، ومن أهمها: الصبر على معاناة التعليم، وتقريب المعلومات إلى أذهان الطلاب بأساليب متنوعة، وتكرار الشرح دون ملل؛ لأن التفاوت بين القدرات يقتضي مراساً وتنوعاً في العرض، وتحملاً للمشقة؛ فلا يصح للمعلم أن يُسائر هوى نفسه، ويتعجل نتائج عمله قبل نضج المفاهيم في أذهان الطلاب، أو قبل تشكّل القنوات

^{٣٠٧} النووي، المجموع شرح المذهب، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٧)، ١: ٦٣.

^{٣٠٨} ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩١)، ٢: ٣٠٢.

^{٣٠٩} انظر: ابن القيم، إعلام الموقعين، ٢: ٣٠٢.

^{٣١٠} انظر: الشاطبي، الاعتصام، ١٦٥.

^{٣١١} انظر: الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، (القاهرة: دار الكتي، ١٩٩٤م)، ٦: ٢٨٥.

والسلوكيات التي تجعل العلم ذا أثر في الحياة والمجتمع؛ وعدم تفضيل أحد على أحد إلا بما يستحقه من اجتهاد ومهارة، فقد أمر رسول الله ﷺ، وهو قدوة المعلمين بالعدل؛ فقد كان النبي ﷺ قدوة في ترسيخ العدل في التعليم والدعوة. وهذه من أبرز صفات طلبة العلم النافع، وأنها تُنبئ فيهم ملكة التجرد العلمي والارتباط بالوحي قبل الأشخاص، مما يُهيئهم ليكونوا قادة في الإصلاح والتجديد^{٣١٢}.

ومن النماذج البارزة في العصر الحديث للعلماء الذين جسّدوا مفهوم العلم النافع في بناء العادات الصالحة، ما قام به أحمد دحلان (ت ١٩٢٣م)، مؤسس جمعية المحمدية في إندونيسيا^{٣١٣}؛ وقد عُرف عن أحمد دحلان أنه كان يُدرّس سورة الماعون لتلاميذه لأيام متتالية دون أن ينتقل إلى غيرها، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ • فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ • وَلَا يُخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾^{٣١٤}، وقد أصبح التكرار التربوي لهذه السورة عادةً تهدف لبناء نمط حياة اجتماعي نافع، تتجسّد فيه قيم العلم والإيمان والعمل. وتعد تجربة دحلان مثالاً عملياً لما يُعرف في التربية الحديثة بـ"التعلّم المتمركز حول القيم"، وقد اعتبره الباحثون نموذجاً ناجحاً في تفعيل وظائف الوحي لبناء مجتمع متماسك بالقيم لا بالشعارات.

*"Ahmad Dahlan repeatedly taught Surah al-Ma'un as part of a pedagogical strategy that moved students from understanding to action, inspiring the founding of social institutions in Java during the early 20th century"*³¹⁵.

^{٣١٢} انظر: النحلوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ١٤٤-١٤٢.

^{٣١٣} اسمه الكامل محمد دارويش، المولود في يوجياكرتا سنة ١٨٦٨م، والمعروف بلقب أحمد دحلان. تلقى تعليمه في الحجاز وتأثر بالحركات الإصلاحية الإسلامية، وأسس عام ١٩١٢م جمعية "المحمدية"، التي تُعد من أبرز الحركات الإصلاحية الإسلامية في إندونيسيا. ركزت هذه الجمعية على التعليم والصحة والعمل الخيري والاجتماعي، في ضوء فهم مقاصدي للنصوص الشرعية.

Andri Gunawan. "Teologi Surat Al-Ma'un dan Praksis Sosial dalam Kehidupan Warga Muhammadiyah." SALAM: Jurnal Sosial dan Budaya Syar-i 5, no. 2 (2018): 185-200.

^{٣١٤} القرآن الكريم، سورة الماعون ١٠٧: ١-٣.

^{٣١٥} "اعتمد أحمد دحلان على تعليم سورة الماعون بشكل متكرر بوصفه جزءاً من استراتيجية تربوية منهجية تهدف إلى نقل المتعلمين من الفهم النظري إلى الممارسة العملية، وقد أسهم هذا المنهج في إلهام نشأة مؤسسات اجتماعية في جزيرة جاوة مطلع القرن العشرين."

See: Alfian, Muhammadiyah: "The Political Behavior of a Muslim Modernist Organization under Dutch Colonialism", Yogyakarta: Gadjah Mada University Press, 1989, 45

قد اعتمد دحلان هذه السورة كمفتاح لإصلاح المجتمع، ففهم منها طلابه أن الإيمان الحق مرتبط بالعطاء الاجتماعي، وأن ترك المساكين ورفض إطعامهم هو شكل عملي من تكذيب الدين، لا مجرد تقصير شخصي^{٣١٦}.

ومن ثم، لم تكن جهود أحمد دحلان ذات أثر فردي فحسب، بل أثرت عن إنشاء جمعية المحمدية، التي أصبحت من أكبر المنظمات الإسلامية في العالم من حيث التوسع المؤسسي والاستقلال المالي. فقد جمعت المحمدية بين العقيدة، والعلم، والعمل المؤسسي المستدام، مما جعلها من أغنى المنظمات الإسلامية غير الحكومية في إندونيسيا^{٣١٧}.

ويُعزى هذا النجاح إلى المنهج التربوي الذي تأسس على ترسيخ القيم الدينية في العمل الجماعي المنظم. فوفق تقديرات وسائل إعلام اقتصادية، تبلغ قيمة أصول المحمدية ما يقارب ٢٧,٩٦ مليار دولار (أي نحو ٤٥٤,٢ تريليون روبية إندونيسية). وهذا ما يجعلها أغنى منظمة دينية إسلامية غير حكومية في العالم، ورابع أغنى منظمة دينية عالمياً. وهي تمتلك أكثر من ٢١٤ مليون متر مربع من الأراضي الوقفية، وتدير أكثر من ٥,٩٠٠ مؤسسة تعليمية مثل مدارس ابتدائية وجامعات، و٣٥٣ منشأة صحية؛ مثل مستشفيات وعيادات، و١٠,١٢ مؤسسة اجتماعية مثل المصارف والوكالات التمويلية والجمعيات المهنية المتنوعة، إلى جانب المئات من المؤسسات الاقتصادية والمصرفية والمهنية، التي تُمول جزئياً وتمول باقي النشاطات التعليمية والخيرية^{٣١٨}.

³¹⁶ Sopaat, Dedi Supriadi, and Usman Supendi. "Doktrin Teologi Al-Ma'un dan Perkembangan Muhammadiyah: Studi Naskah." *Historia Madania* 7, no. 2 (2023): 115–130.

³¹⁷ عارف سبحان، "المحمدية: أكبر وأغنى منظمة إسلامية في إندونيسيا"، جريدة ريوبليك الإلكترونية، ١٢ ديسمبر ٢٠١٩.

<https://republika.co.id/berita/q2a3s8320/muhammadiyah-organisasi-islam-terkaya-di-indonesia>

³¹⁸ محمد رضوان، "المحمدية تصبح أغنى منظمة إسلامية في العالم: إجمالي الأصول ٤٥٤,٢ تريليون روبية"، جاوا بوس، ١٩ مارس ٢٠٢٥،

<https://www.jawapos.com/nasional/015787446/muhammadiyah-jadi-organisasi-islam-terkaya-di-dunia-punya-total-nilai-aset-rp-4542-triliun-begini-rinciannya>;

سيتي سيدها، "هذا هو سر نجاح المحمدية: أغنى منظمة إسلامية في العالم"، ميديا إندونيسيا، ١٨ نوفمبر ٢٠٢٤، <https://mediaindonesia.com/humaniora/718841/ini-sumber-kesuksesanmuhammadiyah-organisasi-islam-terkaya-di-dunia>

إن هذا الواقع الصناعي والاقتصادي للمحمدية يُمثّل نموذجًا معاصرًا وتجريبيًا لما يذكره التربويون من أثر العادات الصالحة الناتجة عن العلم النافع والتطبيق العملي. ومن هنا، فإن ثراء المحمدية ليس مجرد وفرة مالية، بل هو إرث مؤسسي قيم، يُظهر كيف يمكن للعلم والإيمان أن يتحوّلا إلى منظومة عملية تصنع حضارة.

دلت السنة النبوية على أن من أعظم ما يبقى للإنسان بعد وفاته أثره في غرس العادات الصالحة، التي تتجلّى في العلم النافع والعمل الصالح الذي يُنتفع به، وتحديدًا في الأثر التربوي المتجدد الذي يثمره الابن الصالح، كما جاء في الحديث الصحيح، فقد قال النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»^{٣١٩}. وقد ورد لفظ «ولدٍ» نكرة في سياق الإثبات، ما يقتضي الإطلاق والعموم من جهة الجنس، وهو ما قرره ابن عقيل في شرحه على الألفية بقوله: "النكرة إذا وقعت في كلام مثبت دلت على الإطلاق، فتشمل كل ما صدق عليه اللفظ"^{٣٢٠}، وأكدّه السيوطي بقوله: "النكرة في هذا السياق تفيد الشيوع والإطلاق، ما لم تُقيد"^{٣٢١}.

بناءً على ذلك، فإن لفظ «ولدٍ» في هذا الحديث لا يقتصر على الابن الذكر، بل يشمل الابنة أيضًا، وكل من صدق عليه وصف الولد شرعًا من الذرية، سواء كان من الصلب، أو من النسل البعيد، أو حتى من وُلد بالرعاية والتربية. دل الحديث النبوي الذي رواه ابن ماجه على هذا المعنى حين شبه النبي ﷺ علاقته بأصحابه بعلاقة الأب بأولاده: «إنما أنا لكم مثل الوالد، أعلمكم»^{٣٢٢}. وهي إشارة إلى أن التعليم الرسالي لا ينفصل عن الرحمة الأبوية، وأن المعلّم حين يكون على نهج النبوة، فإنه لا يورث المعلومة فقط، بل يغرس في المتعلّم بنية الصلاح والبذل. وقد علق ابن القيم على هذا التشبيه النبوي بقوله: "جمع في هذه الكلمة بين الرحمة والتعليم، فكأنه يقول: أنا لست معلّمًا فحسب، بل أبٌ لكم يرحمكم ويرشدكم"^{٣٢٣}. وقد أشار ابن فارس إلى هذا العموم في اللغة، فقال: "الولد يقع على الذكر

^{٣١٩} مسلم، الصحيح، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ٣: ١١٢، (١٦٣١).

^{٣٢٠} عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦)، ١: ٦٦.

^{٣٢١} جلال الدين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦)، ١: ١٨١.

^{٣٢٢} ابن ماجه، السنن، كتاب الطهارة، باب الاستبراء من البول، ١: ١٠٠ (١). خلاصة الحكم الحديث: صحيح.

^{٣٢٣} ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ١: ٢٥٥.

والأثنى من الأولاد"^{٣٢٤}. وكذلك قال الراغب الأصفهاني: "الولد يُطلق على كل مولود، ذكراً كان أو أنثى" ^{٣٢٥}.

ولما جاء التنكير مقترناً بقيد "صالح"، دلّ على أن الدعاء النافع لا يصدر من كل ولد، بل ممن تحقّق فيه وصف الصلاح، وهو ما نبّه عليه النووي بقوله: "من كان مستقيماً في دينه، فإن غيره لا يُرتجى منه دعاء نافع"^{٣٢٦}، هذا القيد له دلالة تربوية بليغة، إذ لا يُرتجى النفع من دعاء الولد إلا إذا تحقّق فيه وصف الصلاح، وهو ما يكشف عن الصلة العميقة بين التربية الإيمانية وبين استمرار أثر العمل الصالح بعد الوفاة.

وهذا الفهم لا ينفصل عن المنظور القرآني، إذ يتجلى في قصة الخضر وموسى عليهما السلام التي نقلها الله عز وجل في سورة الكهف، حيث ورد: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾^{٣٢٧} قال عبد الله بن المبارك في أثر ما رواه عنه التابعون: "بلغني أن الأب الذي كان صالحاً كان يُكثر الصلاة، فحفظا به"^{٣٢٨}. وهو تأويل يظهر أن الصلاح الذي سبّب حفظ الأبناء لم يكن مجرد صلاح سلوكي، بل عبادة خفية ومداومة على الطاعة. ويؤكد هذا المعنى القرطبي في تفسيره، إذ قال: "في هذه الآية دليل على أن صلاح الآباء ينفع الأبناء، ويرفع الله به عنهم البلاء، ويحفظهم به"^{٣٢٩}. أما سعيد بن جبير فقد ذكر أن "بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء"، كما نقله ابن كثير^{٣٣٠} بما يشير إلى أن أثر الصلاح لا ينحصر في الأب المباشر، بل قد يمتد عبر الأجيال، وهو ما يعزز التصور بأن الصلاح الإيماني للفرد يؤسس لحماية إلهية متعدّية يتجاوز أثرها الزمان والمكان.

^{٣٢٤} ابن فارس، مقاييس اللغة، ٧: ٥٥٧٧.

^{٣٢٥} الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن؛ ٢: ١١٣.

^{٣٢٦} النووي، المنهاج، ١١: ٨٦.

^{٣٢٧} القرآن الكريم، سورة الكهف ١٨: ٨٢.

^{٣٢٨} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ١٨٦.

^{٣٢٩} القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١١: ٣٨٠.

^{٣٣٠} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ١٨٦.

لعلّ هذا العمق في التربية الإيمانية يفسّر كيف فهم السلف دور الوالد والمعلّم والقُدوة، لا بوصفهم مجرد ناقلين للعلم، بل بصفّتهم مصدرًا للبركة والرحمة الإلهية التي تنزل على الذرية، ويُفهم من ذلك أن المربي الذي يعمل على غرس الإيمان في نفوس طلابه يُسهم في بناء أمة موصولة بالهدي الإلهي.

وهنا تتجلى أهمية العادات الصالحة التي تتشكل عبر التعليم والتربية، إذ لا يكفي أن يخلف الإنسان ذرية، بل يجب أن يورثهم منهجًا، وقُدوةً، وسلوكًا، ودعاءً، يظل متجدد الأثر بعد موته. فليس عدد الأبناء هو الميزان فحسب؛ بل صلاح أحدهم المخلص، الذي يُثمر من الخير والدعاء والعمل ما لا تُثمره كثرة بلا هداية. وهذا المعنى يعيدنا إلى جوهر الرسالة النبوية في التربية، حيث يتمثّل الأثر التربوي الأعظم في بناء الفرد الصالح الذي يكون نواةً لمجتمع فاضل. لقد دلّ الحديث النبوي الشريف: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»^{٣٣١} على مقصدٍ نبوي تربوي عميق، يتمثّل في التوجيه إلى الزواج الذي يُثمر ذريةً صالحة تُبنى بها الأمة، لا لمجرد التناسل العددي، بل لغاية إيمانية تتعلّق بامتداد الرسالة فيمن يحملها. وقد صرّح ابن حجر العسقلاني هذا الحديث بقوله: "في الحديث دلالة على استحباب نكاح من يُرجى منها كثرة الولد الصالح، والحثّ على التناسل بقصد تكثير أمة محمد"^{٣٣٢}. وفسّر النووي ذلك بقوله: "المكاثرة هي المفاخرة يوم القيامة بكثرتهم وتمييزهم في الفضل"^{٣٣٣}. أما الملا علي القاري فقد بيّن أن المراد بقوله ﷺ «مكاثر بكم الأمم» أي: "كثرة من يدخل الجنة من أمته"^{٣٣٤}، لا مجرد عدد لا أثر له في ميزان الآخرة.

ويتجلّى هذا المعنى في ضوء قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾^{٣٣٥}، فقد فسّر ابن كثير هذه الآية بقوله: "كان إمامًا، قدوة، معلّمًا للخير، داعيًا إلى الله، صابرًا محتسبًا، فكان وحده أمةً كاملة في ذاته"؛ وهذا ما بيّنه مجاهد بقوله: "كان مؤمنًا وحده"، أي أنه مع قلّته العددية، حمل في نفسه أمانة الرسالة، وقام مقام جماعة، فيها دلالة على أن التأثير والقيادة لا

^{٣٣١} القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١١: ٣٨٠.

^{٣٣٢} ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٩: ١١٢.

^{٣٣٣} النووي، المنهاج، ٩: ١٦٠.

^{٣٣٤} الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١)، ٦: ٢٣٣٥.

^{٣٣٥} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ١٢٠.

يقتضيان الكثرة، بل يقومان على الصدق والصلاح^{٣٣٦}. ومن ثم، فليست العبرة في التربية النبوية بكثرة الأولاد، بل بتحقيق فردٍ واحدٍ يحمل جوهر الرسالة، ويثمر بعد موت والده دعاءً وعلمًا وعملاً صالحًا لا ينقطع.

وبذلك يظهر أن طلبه العلم النافع هم الامتداد الحقيقي لسنة النبي ﷺ، وهم الحلقة المتصلة في سلسلة الخير بين المعلمين والرسول، يتلقون العلم الرباني، ويطبّقونه، ثم يغرسونه في غيرهم بأفعالهم قبل أقوالهم. وهم الذين يمثلون القدوة في زمن الانقطاع، والربط في زمن التشييت، وبهذا يتحقق قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^{٣٣٧}.

المطلب الثاني: المدخل النظري لدراسة العادات التربوية عند أولي العزم من الرسل ﷺ

تبين للباحث من خلال ما اطلع عليه من المصادر السابقة، عدم وجود تعريف اصطلاحي خاص لكلمة: "عادات أولي العزم من الرسل ﷺ"؛ باعتباره مصطلحًا إضافيًا مركّبًا. غير أن معناه يمكن استنباطه من خلال الدلالة اللغوية، والتعريفات الاصطلاحية، والمفاهيم المرتبطة بمصطلح "العادات" كما سبق بيانه؛ فيمكن القول بأنها: الصفات الثابتة، والسلوكيات المتكررة، والنماذج المشتركة التي ظهرت في سير أولي العزم من الرسل ﷺ من مظاهر القدوة الصالحة في مجالات التربية والتأديب، وفق نهجٍ ووسيلةٍ وأسلوبٍ واحدٍ. ومن هنا، ولتحديد الإطار الدقيق لهذا المفهوم المركّب، كان لزامًا على الباحث أن يقدم شرحًا علميًا للتعريف المعتمد في هذا البحث، يُوضّح فيه المراد من مصطلح "عادات أولي العزم من الرسل ﷺ"، ويبين الفروق الدقيقة بينه وبين المصطلحات القريبة منه في المجال التربوي؛ كـ"الصفات" و"السلوكيات". كما كان من الضروري أيضًا تحديد الضوابط المنهجية التي تحكم التعامل مع هذا المصطلح، من حيث الاستنباط، والتحليل، والتمييز بين ما يمكن اعتماده من سيرة الرسول ﷺ كنموذج تربوي، وبين ما لا يدخل تحت هذا الإطار. بناءً على ما سبق، يتضمّن هذا المدخل النظري النقاط الآتية:

^{٣٣٦} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤: ٥٩٤.

^{٣٣٧} القرآن الكريم، سورة الفرقان ٢٥: ٧٤.

• شرح التعريف المعتمد في هذا البحث العلمي: ويتضمّن بيان المقصود بمصطلح "عادات أولي العزم من الرسل ﷺ"، من حيث المفهوم اللغوي والاصطلاحي، وتحليل مدلولاته التربوية والاجتماعية، مع التمييز المنهجي بين العادات والصفات في السياق التربوي.

• الضوابط المنهجية المعتمدة لدراسة العادات التربوية عند أولي العزم من الرسل بوصفهم نماذج للقدوة الصالحة: ويشتمل على جملة من المعايير العلمية المستنبطة من القرآن والسنة، ومن أدبيات الفكر التربوي الإسلامي، والتي تُسهم في ضبط مفهوم "العادات التربوية" وتحديد معالمه بدقّة في ضوء المقاصد الشرعيّة.

أولاً: شرح التعريف المعتمد في هذا البحث العلمي

الفرع الأول: المراد بمصطلح عادات أولي العزم من الرسل ﷺ في هذا البحث:

هو الصفات والسلوكيات الاجتماعية الثابتة والمتكررة التي ظهرت في حياة أولي العزم من الرسل، والتي شكّلت نماذج عملية راقية في التعامل الإنساني والتربوي، وتجلّت فيها معاني من الصفات الثابتة في الأدب، والرحمة، والعدل، والحكمة، وأما السلوكيات المتكررة، فقد تجلّت فيها معاني من الحرص على الإصلاح ضمن إطار تبليغ الرسالة، وتعليم الكتاب والحكمة، والتركيز والتأديب، وتحقيق العبودية لله تعالى في واقع المجتمع.

فكلمة "العادات" هنا لا يُراد بها معناها الاصطلاحي الفقهي في مقابل "العبادات"^{٣٣٨}، وإنما يُراد بها: ما اعتاده أولي العزم من الرسل ﷺ من أقوال وأفعال

^{٣٣٨} فكلمة "العادات" هنا لا يُراد بها معناها الاصطلاحي الفقهي المعروف في كتب الأحكام، الذي يُقابل "العبادات"، وإنما يُراد بها: ما اعتاده أولو العزم من الرسل ﷺ من أقوال وأفعال وسلوكيات عملية، في حياتهم الاجتماعية والتربوية، ممّا يدلّ على ثبات صفاتهم، واستمرار منهجهم في تكوين مجتمع صالح، ومواجهة الانحراف، وترسيخ القيم الربانية. وأما المعنى الفقهي لكلمة "عادة"، فقد تقدّم بيانه في هذا الفصل، ضمن المبحث الثاني الخاص بتعريف "العادات". ويمكن القول: أن المقصود بـ"العادات" في السياق الفقهي هو: ما اعتاده الناس في حياتهم اليومية، كالعرف، واللباس، والطعام، والتعاملات، وهو ما يُبنى عليه الحكم أحياناً في الفقه، ويُراعى في الفتوى؛ وأما في السياق التربوي والدعوي في هذا البحث، فالمقصود بها: ما داوم عليه الأنبياء من سلوكيات وأقوال تربوية واجتماعية متكررة، تُكوّن منهاجاً عملياً في الإصلاح والتربية الربانية.

وسلوكيات عملية في حياتهم الاجتماعية والتربوية، مما يدلّ على ثبات صفاتهم ومنهجهم الدائم في تكوين مجتمع صالح، ومواجهة الانحراف، وترسيخ القيم الربانية. وبهذا الفهم، فإن هذا البحث لا يعالج كل أقوال وأفعال أولي العزم من الرسل ﷺ، بل يركّز على العادات الاجتماعية والحلقة التربوية المداومة^{٣٣٩} التي ظهرت في حياتهم بوصفها نماذج حية للتربية الإيمانية والاجتماعية المتكاملة في ضوء القرآن والسنة.

الفرع الثاني: التمييز بين العادات والصفات في السياق التربوي

ومن المهم في هذا السياق التربوي التمييز بين مصطلحي العادات والصفات:

١. فالصفات تُشير إلى الخصائص النفسية والأخلاقية الثابتة في شخصية الرسل ﷺ، أي صفة قلبية نابعة من الإيمان كالشكر والتوكل واللجوء إلى الله ﷻ والصبر، والأمانة، والصدق، والعدل، والرحمة، وهذه الصفات تمثل الركائز القيمية الداخلية التي تُبنى عليها العملية التربوية^{٣٤٠}.

^{٣٣٩} كلمة "المداومة" مأخوذة من الجذر (د و م)، وتأتي بصيغة اسم الفاعل من الفعل "داوم"، وهي تدل على الاستمرار والثبات في الفعل مع تجدد الأداء واستمراره في الزمن، بخلاف ما لو قيل "الدوام" الذي يشير إلى البقاء أو الثبوت. وقد ورد في لسان العرب أن: "الدوام: الاستمرار والثبات على الأمر؛ بينما "داومَ على الشيء" تعني: واطب عليه والتزمه بلا انقطاع. وبالتالي، فإن استخدام مصطلح "الدائرة التربوية المداومة" أدق من "الدائمة"، لأنها تشير إلى دائرة فعلية وتربوية متجددة نابعة من سلوك فاعل هو المربي أو القدوة، لا مجرد استمرار آلي أو جامد. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (د و م): "والدوام: الثبوت والاستمرار على الأمر؛ ومنه: داوم على الشيء، أي: واطب عليه"، ١٥: ٣٩٦؛ وانظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مادة (د و م): "دام الشيء يدوم دوامًا ودُمُومًا: بقي وثبت، وداوم فلائًا على عمله: واطب". ١: ١٦٨؛ وانظر: مجمع اللغة العربية، معجم المصطلحات التربوية والنفسية (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥)، ١: ٢٨٩؛ "المداومة: المثابرة على أداء فعل تربوي معين بشكل منتظم ومتجدد". سيُعرض هذا المفهوم أنموذجًا في الفصل الثالث، ضمن المبحث الثالث، من خلال تناول دورة بعثات أولي العزم من الرسل في معالجة الانحرافات الاجتماعية.

^{٣٤٠} انظر تفصيل هذا المفهوم في هذا الفصل، في المبحث الثالث: حول مفاهيم العادات في القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد بيّن عبد الفتاح محمد أحمد خضر أن القرآن الكريم أقرّ بعض العادات، وهذّب بعضها، وأبطل أخرى، وذلك بحسب معيار الشريعة في بناء العادات القيمية الصالحة. كما أوضح محمد أبو الليث الخير آبادي، وغيرهم من العلماء البارزين، أن السنة النبوية تنقسم - بحسب تأثير البُعدين الزماني والمكاني - إلى مجالات ثابتة لا تتغيّر، وأخرى مرتبطة بالاجتهاد الزمني والمصلحة المتغيرة.

٢. أما العادات، فهي السلوكيات العملية المتكررة التي اعتادها الرسل في التعامل مع الخالق والخلق، أي سلوك عملي متكرر يدل على استمرار مثل مداومة الشكر ومداومة التوكل ومداومة اللجوء إلى الله ﷻ ومداومة الصبر، ومداومة الأمانة، ومداومة الصدق، ومداومة العدل، ومداومة الرحمة في تنظيم شؤون المجتمع، والتفاعل مع الأحداث، وهي التي تُجسّد القيم والصفات على أرض الواقع. وقد أشار الغزالي إلى هذا التمايز بقوله: "إن النفس تنهياً للخير إذا رآته في صورة عمل متكرّر يصدر من القدوة، لأن التخلّق لا يتم إلا بالفعل، وإن تكرار الأفعال يرسّخ المعاني في النفس" ٣٤١.

يمكن القول: "أن الصفة تؤسس للسلوك، والعادة تجسّد الصفة عبر التكرار والمداومة". مثل: تُعدّ صفة الشكر لله ﷻ من الصفات الصالحة في باب الأدب مع الله ﷻ، إذ تعبّر عن حالٍ قلبيٍّ من الاعتراف بالنعمة ومقام التواضع لله، وأما عادة دوام الشكر فهي من العادات الصالحة المتكررة في سلوك الأنبياء ﷺ، حيث يظهر أثرها في مداومة الذكر، والدعاء، والاستحضار الدائم لفضل الله ﷻ في مختلف الأحوال. ومن هنا، فإن الصفات تُعبّر عن البنية القيمية الداخلية، بينما العادات تُجسّد هذه القيم في الممارسة العملية، ما يجعل العادات أكثر أثراً ووضوحاً في تكوين السلوك التربوي العام، ونموذجاً تطبيقياً للتربية الاجتماعية.

ثانياً: الضوابط المنهجية المعتمدة في هذا البحث لدراسة العادات التربوية عند أولي العزم من الرسل ﷺ بوصفهم نماذج للقدوة الصالحة

إن دراسة "العادات التربوية" المستفادة من سيرة أولي العزم من الرسل ﷺ لا بد أن تخضع لجملة من الضوابط المنهجية التي تضمن سلامة الفهم ودقّة الاستنباط، وتمنع التوسّع غير المنضبط في نسبة الأفعال إلى القدوة، خاصة في مجال التربية والتوجيه.

سيُعتمد البحث في فهم النصوص الشرعيّة على هذا المفهوم، والذي يمكن إطلاق مصطلح "العادات التربوية من القدوة الصالحة" عليه. وهي: الصفات والسلوكيات والنماذج التربوية المتكررة التي يكتسبها المرّبون من القدوة الصالحة، والتي قد تُشكّل إطاراً تأسيسياً للتربية

٣٤١ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣: ٥١.

الاجتماعية في الإسلام، على أن يكون ذلك خاضعاً للتمييز بين ما هو من قبيل خصائص النبوة، وما هو من الهدى العام للأمة.

ومن أبرز الضوابط المنهجية المعتمدة في دراسة العادات التربوية من القدوة الصالحة لدى أولي العزم من الرسل ما يأتي:

أ. عرض المصطلحات التربوية المعاصرة في ضوء دلالات القرآن والسنة:

تقتضي الأمانة العلمية في الدراسات التربوية الإسلامية المعاصرة ضرورة تناول المصطلحات الحديثة من خلال عدسة التأصيل الشرعي، وذلك باستحضار دلالات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مع الرجوع إلى معاجم اللغة العربية وبلاغتها الأصيلة عند تحليل المعاني والمقاصد التربوية، لضمان سلامة توظيف المفهوم وحدوده. ويُعدّ هذا النهج ضرورة منهجية لحماية المفاهيم التربوية من الانزلاق إلى تأويلات دخيلة لا تنسجم مع النسق القيمي الإسلامي^{٣٤٢}.

ب. القدوة الصالحة كمحور تربوي متجدد:

ويؤلى اهتمام بالغ بتتبع الصفات التربوية والنماذج المتكررة من "القدوة الصالحة" كما وردت في كتب التربية الإسلامية المعاصرة، خاصة في ميدان التربية الاجتماعية، وذلك بربطها بمجالات البناء الحضاري كالبناء العلمي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، من خلال استقراء النصوص الشرعية في

^{٣٤٢} لقد سبقت الإشارة إلى هذا المفهوم من خلال بعض النماذج في هذا الفصل، وذلك في سياق بيان دلالات المصطلحات التربوية المعاصرة في ضوء النصوص الشرعية. مع الاستناد إلى كتب اللغة العربية وبلاغتها في تحليل المعاني والمقاصد، ومن أبرز الأمثلة قوله ﷺ: «أو ولي صالح يدعو له». مسلم، الصحيح، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم: ١٦٣١، كما سيُتناول الحديث تفصيلاً عن التحديات التربوية المعاصرة كالحلقة المفرغة (The Vicious Circle) وما يقابلها من نماذج القدوة الصالحة في التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل، وذلك في الفصل الثالث، بالاعتماد على كتب اللغة، وكتب المصطلحات الاجتماعية، والتربية الإسلامية المعاصرة. ومن أبرزها: انظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (بيروت: عالم الكتب، ٢٠٠٨) انظر: أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: إنجليزي-فرنسي-عربي، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٥)؛ وانظر: الجرجاني، التعريفات، (بيروت: دار المعرفة، ٢٠١٠)؛ وانظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان داوودي (دمشق: دار القلم، ٢٠٠٢)، وانظر: مجموعة من المؤلفين، معجم مصطلحات العلوم الشرعية، (مدينة: الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، ٢٠١٧).

مظاهرها المعتمدة: كتب التفسير، والحديث، والفقه وأصوله، والسيرة النبوية، وسير الأنبياء والمرسلين ﷺ، وقصص الأمم السابقة المثبتة في الوحي، بما يضمن استخلاصاً علمياً للمعاني التربوية الكامنة في هذه النصوص^{٣٤٣}. ومن أهم الضوابط التي أكد عليها المنهج النبوي في هذا الباب، وأبرزها أثراً في ترسيخ الوعي: الحذر من التقليد الأعمى واتباع الجماعة بلا بصيرة؛ فقد قال النبي ﷺ: «لا تكونوا إمعة^{٣٤٤}، تقولون: إن أحسن الناس أحسناً، وإن أسوأوا أسأناً، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أسأوا فلا تظلموا»^{٣٤٥}. كما حذر ﷺ من حال بعض أفراد أمته مع القرآن؛ فقد جاء في حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما أخاف على أمتي اثنتين: الكتاب واللبن»، قالوا: وما الكتاب واللبن؟ قال: «أما اللبن، فيحبونه فيخرجون من الجماعات ويتركون الجماعات، وأما الكتاب، فيتعلّمه المنافقون، فيتأولونه على غير ما أنزل الله، فيجادلون به المؤمنين»^{٣٤٦}. ولذا، فقد نبّه النبي ﷺ إلى خطر

^{٣٤٣} سيتناول هذا المفهوم بشيء من النماذج التربوية المتكررة للقدوة الصالحة كما وردت في كتب التربية الإسلامية المعاصرة، لا سيما في ميدان التربية الاجتماعية، وذلك في الفصلين الرابع والخامس، من خلال تحليل نماذج الآداب الاجتماعية ووسائلها وأساليبها عند أولى العزم من الرسل ﷺ، بالاستناد إلى مصادر التفسير والحديث والفقه والسيرة والتربية. مثل: ابن عاشور، **التحريم والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤)؛ وانظر: ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (بيروت: دار المعرفة، ٢٠١٥)؛ واطر: عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥)؛ وانظر: محمد خليل محسن الديسي، **التربية الاجتماعية في فكر الإمام الغزالي**، (الأردن: الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ١٩٩٩).

^{٣٤٤} قوله ﷺ: «إمعة» بأنها: الشخص الذي لا استقلال له في الرأي، يتابع الناس في خيرهم وشهرهم دون تمييز، وهي صفة مذمومة في التربية الإسلامية، لما فيها من ضعف التمييز وفقدان المبادرة الأخلاقية. وابن منظور، **لسان العرب**، مادة (إمع)، ١: ١٤٧؛ وانظر: المناوي، **فيض القدير** ٢: ٥١٥؛ وانظر: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق طاهر أحمد الزاوي (بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٦٣)، مادة: (إمع)، ١: ٩١.

^{٣٤٥} أبو داود، **السنن**، كتاب الأدب، باب في الإمعة، ٥: ٤٣٥ (٥٠٧٦). خلاصة حكم الحديث: حسن.

^{٣٤٦} أحمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١)، ٢٨: ٢١٩، (١٧٣٥٧). وقال المحقق: «إسناده حسن». وقد شرح عدد من العلماء هذا الحديث ببيان أن "الكتاب" فهو القرآن الكريم، وقد حذر النبي ﷺ من أن يتعلّمه المنافقون لا للعمل به، بل لاستعماله وسيلة للجدال والتأويل الفاسد، أما "اللبن" هنا يُمثّل لذات الدنيا وشهواتها التي تستهوي النفوس وتلهي عن العبادات، فيؤدي حب الراحة والتنعّم إلى ترك الجُمع

انحراف المقاصد في طلب العلم والتدوين، مما يؤدي إلى هلاك الأمة حين تُطلب الدنيا بالعلم، ويترك العمل بالقرآن وإن كان محفوظاً أو متعلماً.

ج. تأصيل النموذج التربوي في النصوص الشرعية من خلال الضوابط المنهجية

من الجدير بالذكر أنه لا يمكن إجراء استقراء تام لجميع الصفات والنماذج التربوية الواردة في النصوص الشرعية، نظراً لتنوعها وتشعبها، مما يقتضي ضرورة اعتماد ضوابط منهجية دقيقة لفهمها وتحليلها. ومن الأقوال البليغة للإمام الشافعي في ضبط منهج طلب العلم قوله: "العلم ما كان فيه قال: حدثنا، وما سوى ذلك فوسوسة الشياطين"^{٣٤٧}.

ويُعدّ اعتماد هذه الضوابط احترازاً ضرورياً من التسرّع في تعيين ما يُعتبر من النماذج التربوية الصالحة، إذ لا يصحّ الاعتماد على ظواهر النصوص بم عزل عن مقاصدها الكلية^{٣٤٨}؛ بل ينبغي عرض هذه النماذج وتحليلها في إطار الرؤية الشرعية الشاملة، بما يحقق سلامة الفهم، ودقة التأصيل، واتساق المقصد، وذلك وفق المقاصد العامة للقرآن الكريم والسنة النبوية، أو المقاصد الخاصة بالشرعية في ميدان التربية. ولذا، يمكن القول إن من أبرز هذه الضوابط ما يأتي:

والجماعات، وهو رمز سهل الفهم للعالم. كما جاء في لفظ «يتأولونه على غير ما أنزل الله»، وهو تحذير واضح من التلاعب بنصوص الوحي لأغراض فكرية أو سياسية أو دنيوية. قال المناوي: "شبه النبي ﷺ اللين بما تحواه الأنفس، والكتاب بما يُتخذ للمرء والخصومة، لا للزكاء والإصلاح". المناوي، **فيض القدير**، ٢: ٢٣٦. كما قال ابن رجب: "من طلب العلم ليُعرف به أو يماري به فهو من أهل النار". ابن رجب الحنبلي، **جامع العلوم والحكم**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١)، ٦٦.

^{٣٤٧} محمد بن إدريس الشافعي، **الرسالة**، تحقيق أحمد شاکر (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٤٠)، ص ٥٩٩.

^{٣٤٨} سيُتناول هذا المفهوم بشيء من النماذج في الفصل الثالث، المبحث الأول، ضمن المطلب الأول حول البعد المستقبلي لرسالة النبي ﷺ، ودور القيادات الأسرية والمجتمعية في تحقيق مقاصدها، انطلاقاً من حديث فتح القسطنطينية: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش». أحمد بن حنبل، **المسند**، ٣: ١١١، رقم الحديث: ٢٣٤٦٢؛ قال الهيثمي رجاله ثقات. انظر: الهيثمي، **مجمع الزوائد**، ٦: ٢١٨. خلاصة حكم الحديث: صحيح

- ثبوت العادة وكونها ممارسة متكررة: فلا يُعدّ الفعل عادة تربوية إلا إذا ثبت تكراره ودوامه من النبي ﷺ، وكان ظاهرًا في حياته الاجتماعية والدعوية^{٣٤٩}.
- وضوح البُعد التربوي في العادة: أي أن تكون العادة ذات بُعد تعليمي أو توجيهي يُقصد منه التأثير في السلوك أو بناء القيم، لا أن تكون عادة بشرية مجردة من دلالة تربوية^{٣٥٠}.
- عدم معارضة العادة لنص صريح أو قاعدة شرعية عامة: فلا يصح اعتماد عادة مخالفة لمقصد شرعي أعلى، أو متعارضة مع نص محكم في الكتاب أو السنة، لأن القدوة لا تُؤخذ إلا فيما وافق الهدى الرباني^{٣٥١}.
- اتساق العادة مع مقاصد الرسالة وأصول التربية النبوية: فالعادة التربوية يجب أن تكون منسجمة مع الوظائف الرسالية الكبرى، كالتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة، والإصلاح الاجتماعي، وتبليغ التوحيد، وإقامة العدل وغيرها^{٣٥٢}.

^{٣٤٩} وقد نبّه الشاطبي إلى أهمية التكرار في تحديد المقاصد، فقال: "الفعل إذا تكرر ظهوره من الشارع دلّ على مقصديته". انظر: الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، ٢: ٣٨٣. وسيتناول هذا المفهوم بشيء من النماذج في الفصل الثالث، في المبحث الثالث، ضمن موضوع: بعثات أولي العزم من الرسل ﷺ، مع التركيز على أبرز أدوار بعثة الخاتم محمد ﷺ في الجزيرة العربية. وقد تناول ذلك في كتب التاريخ وفقه السيرة. ومن أهمها: انظر: محمود بن عبد الرحمن قده، 'موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة'، **المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية**، السنة التاسعة والعشرون، العدد ١٠٧، (١٩٩٨): ٢٤٦ - ٣٠١؛ وانظر: محمد سعيد رمضان البوطي، **فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**، (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٦)، ١١٣-١٣٥. وانظر: امتياز أحمد، **دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث**، ترجمة: عبد المعطي أمين قلعجي، القاهرة: دار الوفاء، ١٩٩٠. هذا الكتاب ترجمة لرسالة الدكتوراه الأصلية باللغة الإنجليزية والتي قدمها المؤلف إلى جامعة إدنبرة سنة ١٩٧٤، ونال بها درجة الدكتوراه في الفلسفة.

Ahmed, Imtiyaz. "The Significance of Sunna and Hadith and Their Early Documentation". PhD diss., University of Edinburgh, 1974.

^{٣٥٠} يُقصد بالبُعد التربوي في العادة ما يتجاوز كونها سلوكًا بشريًا مجردًا، إلى كونها وسيلة تعليمية مقصودة لبناء القيم وتوجيه السلوك. ويتضح هذا المعنى في "المداومة التربوية" عند أولي العزم من الرسل، والتي تُعرض بتفصيل في المبحث الثالث من الفصل الثالث، ضمن الحديث عن بعثاتهم في معالجة الانحرافات الاجتماعية

^{٣٥١} سيتناول هذا المفهوم بشيء من النماذج في الفصل الثالث، في كلّ من المبحث الأول والمبحث الثالث، ضمن الحديث عن النتائج التربوية في ضوء المقارنة بين التربية الربانية والتربية الغربية.

● التفريق بين ما كان خاصاً بالرسول، وبين ما هو عام للأمة: وهذا من باب حفظ مقام النبوة، إذ ليس كل فعل نُقِلَ عن الرسل يكون مشروعاً للتابع، بل لا بد من تمييز ما هو من خصائصهم، وما هو من هديهم العام للأمة^{٣٥٢}.

● التمييز بين العادة التربوية وبين التصرف الطبيعي أو الجبلي: فالعادة التربوية ينبغي أن تُستخلص مما فعله النبي أو الرسول ﷺ قصداً للتعليم أو التأثير، لا من الأفعال التي تقع منه على وجه الجبلّة البشرية التي لا تحمّل دلالة تربوية مباشرة^{٣٥٤}.

بناءً على هذه الضوابط^{٣٥٥}، فإن هذا البحث يسعى إلى اختيار النماذج من الصفات الثابتة والسلوكيات المتكررة ذات البعد التربوي القائم على المداومة، والتي تتسق مع مقاصد الرسالة، لتكون منطلقاً لتحليل المنهج التربوي لأولي العزم من الرسل ﷺ في حياة المجتمعات.

^{٣٥٢} سيُتناول هذا المفهوم بشيء من النماذج في الفصل الثالث، في المبحث الأول، ضمن موضوع المطلب الأول: "مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية وتناسبها مع أهداف التربية الإسلامية"، ومن أبرز مجالاتها: التربية الاجتماعية.

^{٣٥٣} سيُتناول هذا المفهوم بشيء من النماذج في الفصل الثالث عن هذا المفهوم، ولا سيما بيان أهمية الجماعة ومنزلة أولي العزم من الرسل ﷺ في حياتهم الاجتماعية، مع التمييز بين ما هو من خصائص النبوة، وما هو من الهدي المشروع للأمة. للمزيد من النماذج حول خصائص النبوة، انظر: مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العقدية، إشراف علوي بن عبد القادر السقاف، (الرياض: دار الإمام مسلم، ٢٠٠٠)، ٣: ٤٧٢؛ انظر: الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٧)؛ انظر: أحمد بن محمد القسطلاني، خصوصيات الرسول ﷺ، تحقيق: عبد الله بن محمد بن أحمد الطواله، الرياض: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٢).

^{٣٥٤} للمزيد من النماذج حول العادات المكتسبة والتصرفات الجبلية والفرق بينهما؛ انظر: المبحث الثالث من هذا الفصل، "مفاهيم العادات في القرآن الكريم والسنة النبوية"، حيث يبيّن عبد الفتاح محمد أحمد خضر أن القرآن أقرّ بعض العادات وهذّب بعضها وأبطل أخرى وفق ميزان القيم الشرعية. كما أشار محمد أبو الليث الخير آبادي إلى أن السنة النبوية تميز بين ما هو ثابت وما هو متغير تبعاً للزمان والمصلحة.

^{٣٥٥} يمكن القول: إن هذه الضوابط تمثل إضافةً منهجيةً حديثةً في مجال التربية الصالحة المستنبطة من النصوص الشرعية، لا من حيث مضمون النماذج التربوية ذاتها، بل من حيث تأصيل منهجية الاستنباط، وبناء القواعد العلمية لاستخراج المعاني التربوية من نماذج الصالحين في الوحي. وتنبثق هذه الضوابط من أصول العلوم الشرعية، وقد بُنيت على استقراء وتحليل لما ورد في عدد من المؤلفات المعاصرة، من أبرزها ما كتبه يوسف القرضاوي: "كيف نتعامل مع القرآن"، و"كيف نتعامل مع السنة"، و"السنة مصدر للمعرفة والحضارة"، وغيرها؛ وكذلك كتاب "علوم الحديث" لمحمد أبو الليث الخير آبادي، وما كتبه نقيب العطاس في مفهوم التربية في الإسلام "The Concept of Education in Islam" وغيرها؛ وتكمن

المطلب الثالث: نماذج من القدوة الصالحة في العادات الاجتماعية لأولي العزم من الرسل



تمهيد

تمثل سيرة أُولي العزم من الرسل ﷺ إطاراً تربوياً واجتماعياً متكاملًا، يُستقى منه المنهج العملي في إصلاح الأفراد والمجتمعات، لما تضمّنته من مواقف تربوية وعادات اجتماعية أصيلة، تجلّت في تعاملهم مع مجتمعاتهم وسط مختلف السياقات التاريخية والدعوية. فقد واجه هؤلاء الرسل بيئاتٍ مليئةً بالتحديات، ونجحوا في غرس القيم، ومواجهة الانحرافات، وتثبيت المبادئ من خلال عادات تربوية أصيلة وسمات سلوكية فريدة.

وانطلاقاً من أهمية القدوة في التربية، فإن دراسة نماذج العادات الاجتماعية التي ظهرت في حياة أُولي العزم من الرسل تُعدّ مدخلاً مهمّاً لفهم أبعاد المنهج النبوي في البناء الاجتماعي. ولا سيما أن تلك النماذج لم تكن مواقف طارئة، بل كانت نابعة من منظومة عقدية راسخة، ومسيرة إصلاحية ممتدة، تحمل في طياتها أبعاداً تعليمية وسلوكية وإيمانية. وعليه، يتناول هذا المطلب ثلاثة نقاط أساسية: أولاً: عرض نماذج من القدوة الصالحة في الصفات التربوية لأُولي العزم من الرسل ﷺ. ثانياً: بيان نماذج من العادات الصالحة في مواجهة الانحرافات الاجتماعية عند أُولي العزم من الرسل، وكيف كانت مواجهتهم للفساد والانحراف قائمة على مبدأ الإصلاح الشامل، بالحكمة والموعظة الحسنة، والتدرج في المعالجة. ثالثاً: تحليل نماذج من القدوة الصالحة في منهج التربية الاجتماعية ومبادئها عند أُولي العزم من الرسل، من خلال ممارساتهم الواقعية في الدعوة والتعليم والتزكية، وكيف شملت الأسرة، والمجتمع، والسلطة، والبيئة.

أولاً: الصفات التربوية لأُولي العزم من الرسل ﷺ

إن أُولي العزم من الرسل ﷺ كانوا منشغلين بقضايا الأمة، ومع ذلك لم يغفلوا عن الجانب الاجتماعي المهم؛ فقد كانوا حريصين على كسب القلوب، ولذلك لم يكونوا يطلبون الأجر

جدة هذا البحث في سعيه إلى وضع منهجية علمية تضبط التعامل التربوي مع النصوص، بعيداً عن القراءات الجزئية أو الفهم المجتزأ، مع مراعاة السياق المقاصدي العام للقرآن الكريم والسنة النبوية.

من أحد، بل كانوا يقدمون العطاء بسخاء، ويبدلون كل ما في وسعهم لصالح أمهم؛ وهذه الصفة لا يتحلّى بها إلا من كان ذا قلب كبير ونفس سامية، لأنها تتطلب جهداً كبيراً ووقتاً ثميناً^{٣٥٦}. وقد أكد القرآن الكريم هذه الصفة في أكثر من موضع، منها قوله تعالى على لسان عدد من الأنبياء: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^{٣٥٧}، كما أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يجعل هذه الصفة معياراً لصدق الدعوة بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^{٣٥٨}، ورد في السيرة النبوية عندما عرضت قريش على رسول الله ﷺ المال والملك والنساء^{٣٥٩}. وقد تجلّت هذه الخصلة في سيرة النبي ﷺ، كما في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا»^{٣٦٠}. قال النووي رحمه الله: "في هذا كله بيان عظيم سخائه ﷺ وغبارة جوده، ومعناه: ما سئل شيئاً من متاع الدنيا"^{٣٦١}.

وقد جاءت رسالات الأنبياء متضمنة أبعاداً تربوية عظيمة، من بينها الثبات على الحق رغم الإعراض، كما قال نوح عليه السلام: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^{٣٦٢}. وبين الغيلي هذا المفهوم بقوله: "الثبات في طريق الدعوة سمة ملازمة للأنبياء جميعاً"^{٣٦٣}، وقد ورد في سورة ص وصف الله تعالى لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأنهم ﴿وَكُلٌّ مِّنَ الْآخِيَارِ﴾، دلالة على طهارة السلوك^{٣٦٤}.

^{٣٥٦} عبد المجيد الغيلي، كيف يرمج القرآن الحياة؟، ١٠٣.

^{٣٥٧} القرآن الكريم، سورة الشعراء ٢٦: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

^{٣٥٨} القرآن الكريم، سورة يس ٢٦: ٢١.

^{٣٥٩} محمد بن إسحاق بن يسار المظلي، السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨)، ١٥٤؛ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٢٩٣.

^{٣٦٠} البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب حسن الخلق ٢٦ والسخاء وما يكره من البخل، ٨: ١٣، (٦٠٣٤)؛ مسلم بن الحجاج، الصحيح، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا، وكثرة عطائه، ٤: ١٨٠٥، (٢٣١١).

^{٣٦١} النووي، المنهاج، ١٥: ٧١.

^{٣٦٢} القرآن الكريم، سورة يونس ١٠: ٧٢.

^{٣٦٣} عبد المجيد الغيلي، كيف يرمج القرآن الحياة؟، ٢٩٢.

^{٣٦٤} القرآن الكريم، سورة ص: ٨٦؛ انظر: الغيلي، كيف يرمج القرآن الحياة؟، ٢٩٤.

لقد امتاز أولو العزم من الرسل ﷺ بصفات راسخة تشكل أساساً في العملية التربوية، منها: الصبر والثبات، كما في قوله تعالى عن نوح ﷺ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^{٣٦٥}، فقد صبر ألف سنة إلا خمسين عاماً، مربياً أمته رغم عنادهم. والحلم والعفو، كما قال الله تعالى في قول إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾^{٣٦٦} حيث دعا لأبيه رغم شركه؛ بما يدل على مراعاة الحكمة واللين في الدعوة والتربية؛ والصدق في البلاغ والتبليغ، فقد قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^{٣٦٧} هذه الصفات تشكل أنماطاً تربوية مداومة تقتدى بها المجتمعات المسلمة، لما تحققه من توازن بين الإيمان والعمل والخلق.

ومن المعلوم أن أولي العزم من الرسل ﷺ أفضل من سائر الأنبياء؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾^{٣٦٨}، وقال أيضاً: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^{٣٦٩}. قال ابن كثير^{٣٧٠}: "وهذا لا يُنافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُفَضِّلُوا بين الأنبياء»^{٣٧١}، فإن المقصود النهي عن التفضيل على وجه العصبية والتشهي، أما إذا دلّ عليه الدليل فلا مانع منه. ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^{٣٧٢} وفي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا...﴾^{٣٧٣}. وكان أولو العزم من الرسل ﷺ يتصفون

^{٣٦٥} القرآن الكريم، سورة الإسراء ١٧: ٣.

^{٣٦٦} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٧٣.

^{٣٦٧} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٥١.

^{٣٦٨} القرآن الكريم، سورة الإسراء ١٧: ٥٥.

^{٣٦٩} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٥٣.

^{٣٧٠} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ٨٠.

^{٣٧١} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين، ٤: ١٥٩، (٣٤١٤).

ومسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، ٤: ١٨٤٣، (٢٣٧٣).

^{٣٧٢} القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٣٣: ٧.

^{٣٧٣} القرآن الكريم، سورة الشورى ٤٢: ١٣.

بجملة من الخصال الرفيعة والصفات المرئية، ومن أبرزها: الإخلاص، وبذل الجهد، والثبات في تبليغ رسالات الله تعالى. وقد عرض القرآن الكريم والسنة النبوية في قصصهم نماذج حيّة لهذه الصفات، حيث كانت دعوتهم خالصة لله تعالى، لا يُراد بها عرض الدنيا ولا يُتغنى منها منفعة شخصية؛ إذ إن الدعوة التي لا تصحبها نية خالصة لله تكون عديمة الأثر، منزوعة البركة، مهما بلغت من البيان والحجة^{٣٧٤}.

ثانيًا: الابتلاءات الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ

الابتلاء سنة كونية من سنن الله ﷻ في هذا الكون لعباده المؤمنين، وقد أشار الله تعالى في مواضع عديدة من القرآن الكريم إلى ضرورته وحتميته، فقال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾^{٣٧٥}، بل قد يكون الابتلاء دليلاً على محبة الله تعالى لعباده؛ فقال النبي ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»^{٣٧٦}. وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، أيُّ الناس أشدَّ بلاءً؟ قال ﷺ: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^{٣٧٧}.

ويكون الابتلاء بالحسنات والسيئات، وبالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^{٣٧٨} وقد ابتلى الله تعالى صفوة خلقه وأفضلهم، وهم أنبياءه ورسله؛ الذين تحملوا المشاق وصبروا على الأذى في سبيل تبليغ

^{٣٧٤} عبد العزيز بت ناصر الجليل، وقفات تربوية في ضوء القرآن، (الرياض: دار طيبة، ٢٠٠٤). ٣: ١٥٦.

^{٣٧٥} القرآن الكريم، سورة محمد ٤٧: ٣١.

^{٣٧٦} الترمذي، السنن، في كتاب الشهادات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٣: ٢٥٣، (٢٣٩٦). وقال: حديث حسن غريب.

^{٣٧٧} الترمذي، السنن، في كتاب الشهادات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٣: ٢٥٣؛ (٢٣٩٦). وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

^{٣٧٨} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٣٥.

دعوة الله تعالى وتوحيده. وكان من عادات أولي العزم من الرسل ﷺ التصدي لانحرافات مجتمعاتهم بوسائل تربوية وإصلاحية، منها:

المواجهة الفعلية عند استفاد السُّبُل، كما في موقف نوح ﷺ حين دعا على قومه بعد طول صبر؛ فقال الله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^{٣٧٩} وهو أسلوب لا يلجأ إليه إلا بعد فشل وسائل التربية والدعوة. ومن صور الابتلاء، ما تعرض له نوح ﷺ؛ إذ ابتلي بابنه الذي أعرض عن دعوته، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^{٣٨٠} كما ابتلي بامراته التي خانت خيانة العقيدة، قال تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا...﴾^{٣٨١} وأما الخليل إبراهيم ﷺ؛ فقد ابتلي بأبيه الذي عارض دعوته، وزوجته التي فارقتها، وابنه الذي أمره الله بذبحه. قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾^{٣٨٢} وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...﴾^{٣٨٣}

ومن سنن أولي العزم من الرسل ﷺ الإنكار العلني للمنكرات، كما في دعوة موسى ﷺ لفرعون: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزْكِيَ﴾^{٣٨٤} حيث ربط بين الإصلاح الداخلي والاجتماعي؛ وقد اتهم أخوه الذي استخلفه على قومه هارون ﷺ بصناعة العجل، حيث زعم بنو إسرائيل أنه هو الذي أنشأ لهم، وهذه تهمة باطلة افتروها عليه، قال تعالى على لسان موسى ﷺ: ﴿قَالَ يَهُودُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا؟﴾^{٣٨٥} وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بعبادته وحده، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا

^{٣٧٩} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٢٦.

^{٣٨٠} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٤٢.

^{٣٨١} القرآن الكريم، سورة التحريم ٦٦: ١٠.

^{٣٨٢} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٤.

^{٣٨٣} القرآن الكريم، سورة الصافات ٣٧: ١٠٢.

^{٣٨٤} القرآن الكريم، سورة النازعات ٧٩: ١٨.

^{٣٨٥} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٩٢.

تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...^{٣٨٦} ومع ذلك فقد بقيت في نفوسهم رواسب الوثنية، كما ظهر عندما طلبوا من موسى ﷺ اتخاذ أصنام، فقالوا: ﴿يُمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾^{٣٨٧} فأنكر عليهم وقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^{٣٨٨}، صبر موسى ﷺ على أذى قومه، حتى قال رسول الله ﷺ: «رحم الله موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر»^{٣٨٩}.

ومن سنن أولي العزم من الرسل ﷺ الدعوة بالحكمة والموعظة، كما في دعوة عيسى ﷺ التي قامت على الرحمة والتذكير: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾^{٣٩٠} وقد ابتلي عيسى ﷺ باتهام أمه الطاهرة مريم ﷺ بالفاحشة، حيث رماها اليهود زورًا وبهتانًا، وقد صانها الله ﷻ، وشهد ببراءتها في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾^{٣٩١} وهذا من أشد الابتلاءات التي مرت بعيسى ﷺ لما فيه من مساس بعرض أمه الطاهرة، ولذا برأها الله بنطق عيسى ﷺ وهو في المهد. وأما الخاتم محمد ﷺ، فقد ابتلي بوفاة أقرب الناس إليه؛ عمّه أبي طالب، الذي كان يحميه ويؤازره، وزوجته خديجة ﷺ التي كانت أول من آمن به وواسته بنفسها ومالها، ومات له جميع أبنائه في حياته، كما ابتلي في زوجته عائشة ﷺ الطاهرة العفيفة الصديقة بنت الصديق حينما اتهمها المنافقون زورًا بالفاحشة، فأنزل الله براءتها في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾^{٣٩٢}. وقد جعل الله ﷻ هذه الابتلاءات سببًا في رفع قدرهم وتمكينهم، إذ في الصبر على الأذى من المجتمع والبيئة المحيطة ترسيخٌ للثبات في وجه الانحرافات، وتربيةٌ للأمة على الصبر والتوكل، ومن أعظم ما يُرسخ هذا المعنى قوله تعالى:

^{٣٨٦} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٨٣.

^{٣٨٧} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٣٨.

^{٣٨٨} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٣٨.

^{٣٨٩} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾، القرآن الكريم، سورة النازعات ٧٩: ١٥، ١١١: ٣، (٦١٠١)؛ مسلم، الصحيح، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، ٣: ٣٤٥ (١٠٦٢).

^{٣٩٠} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٣١.

^{٣٩١} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٥٦.

^{٣٩٢} القرآن الكريم، سورة النور ٢٤: ١١.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَاثُهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ﴾^{٣٩٣} قال الطبري في تفسير هذه الآية: "أمر الله نبيه أن يقتدي بمن قبله من المرسلين في صبرهم على أذى أقوامهم، ووعده بنصره كما نصرهم"^{٣٩٤}. فكانت هذه الابتلاءات امتحاناً لصبرهم، وتمحيصاً لنفوسهم، ورفعة لدرجاتهم. قال ابن القيم: "والطريق طريق تعب فيه آدم ﷺ، ونوح لأجله نوح ﷺ، ورمي في النار الخليل ﷺ، واضطجع للذبح إسماعيل ﷺ؛ وسار مع الوحش عيسى ﷺ، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ"^{٣٩٥}.

قال الكشميري صاحب فيض الباري: "... وأما نوح ﷺ، فلم تكن زوجته مؤمنة، وأما إبراهيم ﷺ، فاضطر إلى الخروج من أجل الخصومة بين سارة وهاجر ﷺ، وكذلك ما وَقَعَ لموسى ﷺ في الخطبة، حيث قذفته امرأة، وكان قارون أمرها به، وقد ابتلي عيسى ﷺ من جهة أمه حيث اتهموها بما يعلم الله أنها كانت بريئة منه، فتلك سنة قد أتت على من قبله من الرسل أيضاً، ليرى الله ﷻ بها صبر أنبيائه، واستقامتهم على الحق، وثباتهم على الدين ﷺ"^{٣٩٦}. ولذا؛ فإن التركيز على التوحيد في مواجهة الانحرافات الاجتماعية؛ من أبرز سمات أولي العزم من الرسل ﷺ أنهم بدأوا دعوتهم بالتصريح بالتوحيد والعبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى، دون مجاملة أو مداينة؛ فالمواجهة الصريحة منذ اللحظة الأولى تدل على أن تقديم الأهم على المهم واجب شرعي، وهو ما ينبغي أن يدركه المرءون والدعاة؛ بأن أول واجب على المكلفين هو توحيد الله وإخلاص العباد له، لتتحرر نفوسهم من الخضوع لغيره. بناءً عليه؛ فإن هذه المواقف تظهر أن مواجهة الانحرافات الاجتماعية تبدأ بإصلاح العقيدة، وتثبيت التوحيد، ثم تتدرج في معالجة مظاهر الانحراف الأخرى، كما سار عليه أولوا العزم من الرسل ﷺ.

^{٣٩٣} القرآن الكريم، سورة الأنعام ٦: ٣٤.

^{٣٩٤} انظر: الطبري، جامع البيان، ١١: ٣٦٠.

^{٣٩٥} انظر: ابن القيم، الفوائد، ٤٢.

^{٣٩٦} انظر: محمد أنور شاه الكشميري، فيض الباري على صحيح البخاري، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥)،

ثالثاً: منهج التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ

إن منهاج الأنبياء في التربية يقوم على مراعاة قدرات الناس العقلية والمعرفية، وعدم تحميلهم ما لا طاقة لهم به من التفكرات الفلسفية أو الميتافيزيقية المعقدة؛ وهذا من أعظم ما يُستفاد من بيان الدهلوي^{٣٩٧}، إذ أنّ من أهم سنن الأنبياء في التربية والتعليم ما يأتي:

أ. عدم الأمر بالتفكر في ذات الله وصفاته، لأن ذلك لا يستطيعه جمهور الناس، بل وجه الأنبياء الناس إلى التفكير في خلق الله ونعمه، كما وردت عن ابن عباس رضي الله عنه بصيغة: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره»^{٣٩٨}.

ب. مخاطبة الناس على قدر عقولهم، لأن الإنسان له حدّ طبيعي في الإدراك، إلا من ارتقى بالرياضات الشاقة أو علوم المعقول، وهو ما لا يُطلب من عامة الناس؛ لذلك اقتصر الأنبياء على مخاطبتهم بما فُطروا عليه من الإدراك الساذج لا بطرائق الاستدلال العقلي المعقد.

ج. التركيز على تهذيب النفس وسياسة الأمة، دون الاشتغال بالتفصيلات الفلكية أو الكونية التي لا أثر لها مباشر في صلاح النفس أو المجتمع، مثل أسباب الكسوف

^{٣٩٧} انظر: الدهلوي، حجة الله البالغة، ١: ٢٩٥.

^{٣٩٨} تُعدّ العبارة المشهورة: "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله" من الآثار التي نُقلت عن السلف، وليست حديثاً مرفوعاً ثابتاً عن النبي ﷺ، بل وردت موقوفة في بعض الروايات؛ منها ما رُوي عن أبي ذر رضي الله عنه في مصنف ابن أبي شيبة. ابن أبي شيبة، المصنف، تحقيق كمال يوسف الحوت (بيروت: دار القبلية، ٢٠١١)، ٩: ٣٠٥، (٣٠٦١٤)؛ أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥)، ١: ٢٢٥. والمعنى الذي تضمنته هذه العبارة صحيح في ذاته، إذ يقرر أحد الضوابط العقدية في مجال التفكير، وهو: التفكير في خلق الله وآياته، لا في ذاته سبحانه، لما في ذلك من تجاوزٍ لحدود العقل البشري الذي لا يحيط بعظمة الخالق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ١١٠. وقد قرر هذا المعنى عددٌ من العلماء؛ فقال النووي: "التفكر في ذات الله ممنوع شرعاً"، انظر: النووي، المنهاج، ١٧: ٢٥. وأشار ابن تيمية إلى أن: "التفكر في المخلوق يدل على الخالق، أما التفكير في ذات الخالق فبإبه مسدود". ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٩١)، ٥: ٣٥٦. ومن ثم، فإن هذه العبارة تمثل أصلاً تربوياً وعقدياً يرسّخ منهج التأمل المشروع في مخلوقات الله تعالى، دون الخوض في ذاته ﷻ، بما يوافق مقاصد الشريعة في صيانة العقل والدين معاً.

أو عجائب النبات والحيوان، إلا في حدود ما تقبله العقول، وعلى سبيل التذكير
بقدره الله وآلائه، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ
لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾^{٣٩٩} وقد فسرهما ابن كثير بأنها تحويل للأنظار من سبب السؤال
إلى ما فيه نفع ديني واجتماعي^{٤٠٠}.

وقد أوضح ماجد الكيلاني أن مناهج التربية الإسلامية وميادينها تتجلى في قوله
تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^{٤٠١} ويبيّن أنها أربعة ميادين رئيسية: ميدان العقيدة: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ﴾، ميدان التركية: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ميدان الإعداد الفكري: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾،
ميدان الإعداد الوظيفي: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾^{٤٠٢}. وبالنظر إلى مجالات التربية الاجتماعية، يشير محمد
خليل محسن الديسي إلى أن الغزالي ركّز على أربعة ميادين: أولاً: الفرد، باعتباره محور هذه
التربية؛ ثانياً: الأسرة، لكونها أهم المؤسسات التربوية؛ رابعاً: المدرسة، التي توازي في تأثيرها
الأسرة؛ خامساً: المجتمع الكبير، بما فيه من مؤسسات وعلاقات وقيم وأفكار^{٤٠٣}.

وقد أولى أولو العزم من الرسل ﷺ أهمية بالغة لتحقيق أهداف التربية الاجتماعية،
حيث انطلقت دعوتهم من تحقيق التوحيد، وهو المهمة الأولى التي شكّلت جوهر دعوتهم.
قال ابن القيم: "التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك
إلى الله تعالى"^{٤٠٤}. قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ
اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^{٤٠٥}. "أي في كل قرن من الناس وطائفة رسولاً... إلى أن

^{٣٩٩} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٨٩.

^{٤٠٠} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١: ٤٩٢.

^{٤٠١} القرآن الكريم، سورة الجمعة ٦٢: ٢.

^{٤٠٢} انظر: ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط ٣، (الإمارات العربية

المتحدة: دار القلم، ٢٠٠٢)، ١٤٧ - وما بعدها

^{٤٠٣} انظر: محمد الديسي، التربية الاجتماعية في فكر الإمام الغزالي، ١٧٤.

^{٤٠٤} انظر: الديسي، التربية الاجتماعية، ١٠٥-١٢٠.

^{٤٠٥} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ٣٦.

ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب" ^{٤٠٦}. وقد فسر السعدي قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ^{٤٠٧}، بقوله: "العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، وتماه أن يعمل بمقتضاه... وهذا العلم فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد" ^{٤٠٨}.

وكان الناس منذ آدم ﷺ إلى نوح ﷺ أمة واحدة على الإسلام، كما في قول ابن عباس ﷺ: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام" ^{٤٠٩}. ويذكر أن أول انحراف وقع في الأرض هو القتل، لا الشرك، كما في قصة ابن آدم، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ^{٤١٠} وقد أرسل الله نوحًا ﷺ إلى قومه، فكان أول رسول بعث إلى الأرض بعد ظهور الشرك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ^{٤١١} وفسر السعدي هذه الدعوة بأنها "دعوة إلى عبادة الله وحده حين كانوا يعبدون الأوثان" ^{٤١٢}. أما الأصنام المذكورة في سورة نوح ﴿وَدًّا وَلَا سِوَاءًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ^{٤١٣} فقد كانت آلهة في قوم نوح ثم عُبدت في الجاهلية بين العرب، كما أوضح ابن عباس ﷺ ^{٤١٤}. وأما إبراهيم الخليل ﷺ، فقد كان حريصًا على التوحيد، حتى دعا الله سبحانه وتعالى أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام، كما قال: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ^{٤١٥} والمعنى: ثبّني على اجتناب عبادتها ^{٤١٦}. وأما موسى

^{٤٠٦} انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ١: ٦٣.

^{٤٠٧} القرآن الكريم، سورة محمد ٤٧: ١٩.

^{٤٠٨} انظر السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٧١٠.

^{٤٠٩} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٣: ٦٤.

^{٤١٠} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٣٠.

^{٤١١} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ٥٩.

^{٤١٢} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٣٠٢.

^{٤١٣} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٢٣.

^{٤١٤} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٨: ٢٦٢.

^{٤١٥} القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤: ٣٥.

^{٤١٦} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٥٠٨.

ﷺ وُصف بالإخلاص، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^{٤١٧} وفسره السعدي بأن الله ﷻ أخلصه لإخلاصه^{٤١٨}. وأما عيسى ﷺ، فقد صرح منذ المهد بأنه عبد الله ﷻ، بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^{٤١٩} وهو تأكيد لعبوديته ونفي لما ادعاه من نسبوا له الألوهية^{٤٢٠}. وأما خاتمهم محمد ﷺ، كان حريصًا على نشر التوحيد، وكانت دعوته امتدادًا لدعوة من سبق من الرسل ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا...﴾^{٤٢١} قال ابن كثير: "فلم يزل تعالى يرسل الرسل بذلك منذ قوم نوح إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ"^{٤٢٢}. بناءً عليه، إن أولي العزم من الرسل ﷺ كانت دعوتهم التربوية الاجتماعية تنطلق من ترسيخ التوحيد، وتحقيق العبودية لله وحده، ووقاية المجتمعات من الانحراف العقدي والسلوكي، وهو المنهج الوقائي الأصيل الذي اعتمده في بناء الإنسان وصلاح الأمة؛ كان لمنهجهم سمات رئيسية، منها: القدوة العملية، إذ كانت حياتهم تطبيقًا فعليًا لما يدعون إليه، والتركيز على بناء الإيمان قبل التشريع، كما في دعوة نوح وإبراهيم ﷺ، إذ بدأت بالتوحيد ثم تدرجت في بناء السلوك.

خلاصة الفصل:

من خلال ما سبق، يرى الباحث أن مفهوم التربية الاجتماعية في القرآن والسنة يتمثل في تنمية أفراد المجتمع بحيث يسلكون في المواقف الاجتماعية السلوك الذي يرغب فيه المجتمع المسلم، وفقًا للتوجيه الإسلامي. ويتم ذلك عبر تزويد الأفراد بالمهارات والقيم والمبادئ والاتجاهات والعلاقات والتعاملات وأنماط السلوك الإيجابي التي تُيسّر لهم حسن التفاعل مع البيئة الاجتماعية، مستندين في ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وتحتاج هذه التربية إلى تضافر جهود الفرد مع جهود إخوانه من المسلمين، انطلاقًا من الثقة واليقين بأن يد الله مع

^{٤١٧} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٥١.

^{٤١٨} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٤٢٧.

^{٤١٩} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٣٠.

^{٤٢٠} انظر: الزمخشري، الكشاف، ١٥٢: ٣.

^{٤٢١} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ٣٦.

^{٤٢٢} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥٢٩: ٤.

الجماعة. لذا، كانت الوحدة والتحام الصفوف والتناصر والتكافل وتحقيق الأخوة الإسلامية بمختلف متطلباتها من الأسس الجوهرية في بناء المجتمع الإسلامي. وبالنسبة إلى أولي العزم من الرسل ﷺ، فإن المقصود بهم في هذه الرسالة: نوح ﷺ، وإبراهيم ﷺ، وموسى ﷺ، وعيسى ﷺ، ومحمد ﷺ. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن أولي العزم من الرسل ﷺ هم هؤلاء الخمسة، مستدلين بأن "من" تبعية وليست ببيان. وممن ذهب إلى هذا الرأي: ابن كثير والشنقيطي وابن تيمية وهو مروي كذلك عن الصحابة كأبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما^{٤٢٣}. ويظهر من خلال البحث قلة التعريفات الدقيقة حول مصطلح "عادات أولي العزم من الرسل"، كمصطلح إضافي مركب. ويُقصد به في هذه الرسالة: السلوكيات الثابتة والمتكررة التي تميّز بها أولوا العزم من الرسل ﷺ، والتي اتسمت بالثبات في منهجهم، خاصة في مجالات التربية، والثبات على المبادئ والقيم الدينية. وسوف يستخدم الباحث هذا المفهوم بوصفه إطاراً تحليلياً لدراسة نماذج من القدوة الصالحة في التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ.



^{٤٢٣} انظر: المطلب الأول من هذا البحث، "التعريف بأولي العزم من الرسل"، ص ٤-٦.

الفصل الثالث

أهمية التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء مقاصد القرآن والسنة

تمهيد

إن أهمية التربية الاجتماعية في الإسلام تأتي من خلال توجيهات الفرد والأسرة والمجتمع، وتستند إلى مبادئ القرآن والسنة؛ خلافاً لما جاء في العلوم الاجتماعية الغربية؛ حيث ذكر عبد الرحمن حبنكة في كتابه "غزو في الصميم" من توصيات اللجنة في المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي في عام ١٩٧٧م بمكة المكرمة؛ منها: إن العلوم الاجتماعية الغربية تشمل فروع العلوم السياسية، وعلم الاجتماع، وعلم الإنسان، وعلم الاقتصاد، وعلم التاريخ وعلم الجغرافيا.^١ لقد قام العلماء الغربيون بتحديد موقع هذه العلوم بناءً على خصائصها الأساسية، مستندين إلى مناهج استقرائية مُستقاة من العلوم الطبيعية، مع استبعاد متعمد للعلوم الإنسانية. إذ يركّز المنهج الاستقرائي الغربي على البيانات التي يمكن ملاحظتها أو قياسها من خلال الوسائل الحسية المحضة. ولذا، تم اعتماد منهج العلوم الطبيعية كأساس للعلوم الاجتماعية الغربية^٢، بينما تم استبعاد مجال الإنسانيات، كالفلسفة، والأدب، والدين، والفنون الجميلة، باعتبارها فروعاً غير علمية^٣، تُتهم بعدم الموضوعية وغياب اليقين المعرفي^٤.

^١ إن العرب منذ القدم يجوبون البحار ويعملون في التجارة، مما شجعهم على تدوين معارفهم في كتب مكتوبة تضمنت أوصافاً وتقارير وافية عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية للبلدان. وقد أصبحت هذه الكتب مرجعاً أساسياً لدراسة علم الجغرافيا بفروعه المختلفة. وفي أوائل القرن الخامس عشر، وضع ابن خلدون في مقدمته الأسس الأولى لعلم الجغرافيا البشرية، ليكون بذلك رائداً أول للعلوم الاجتماعية في شكلها الحديث. وقد تمثلت إسهاماته في محاولاته لفهم تأثير البيئة الطبيعية من تضاريس ومناخ ونباتات على الحياة البشرية، وهو الأساس الذي قامت عليه الجغرافيا البشرية وعلوم الاجتماع فيما بعد؛ وقد سبق ابن خلدون من علماء الجغرافيا الحديثين في الإشارة إلى أهمية تأثير المناخ على الصفات الجسمية والعقلية للبشر وعلى سلوكهم، مما جعل أفكاره نقطة انطلاق لدراسات متقدمة في هذا المجال. انظر: عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، (القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٢)، ١١٠-١١٢؛ وانظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني؛ غزو في الصميم، ٣٠١.

^٢ ويلاحظ أن هناك تمايزاً بين مصطلحات العلوم الاجتماعية والدراسات الاجتماعية والتربية الاجتماعية؛ فيمكن أن يقال: إن العلوم الاجتماعية هي الحقول المعرفية المتخصصة التي تدرس المجتمع الإنساني وظواهره المختلفة مثل علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا، بينما تُعدّ الدراسات الاجتماعية اختياراً وتنظيماً لجزء

بناءً عليه، يمكن أن تكون قصص أولي العزم من الرسل ﷺ نموذجًا مهمًا في تأصيل القيم والآداب الاجتماعية والتي تعتبر قدوة للمسلمين في جميع جوانب الحياة، وتظهر آثار تربية أولي العزم من الرسل ﷺ في الميادين الاجتماعية. فقد كانوا يسهمون في بناء الفرد والمجتمع. ولذا؛ فإن الحديث في هذا الفصل سيكون من خلال المباحث الآتية: المبحث الأول: أهمية التربية الاجتماعية في ضوء مقاصد القرآن والسنة، والمبحث الثاني: مقاصد قصص أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن والسنة، والمبحث الثالث: أهمية الجماعة ومنزلة أولي العزم من الرسل ﷺ في حياتهم الاجتماعية من خلال القرآن والسنة.

المبحث الأول: أهمية التربية الاجتماعية في ضوء مقاصد القرآن والسنة

تمهيد

لقد نشأت التربية الاجتماعية نتيجةً للتربية الإيمانية والأخلاقية في سياق المجتمع الإسلامي؛ فهي تعني تعليم الفرد القيم؛ ليؤدي دوره في المجتمع، ودوره الديني والإنساني، حتى يكون صالحًا مصلحًا، وألا يكون منفردًا أو منعزلًا أو أنانيًا أو متعصبًا. وهي تشمل تربية الفرد أولاً، ثم الأسرة، ثم الجماعة، على نحو لا يُنجاهل فيه حق الفرد.

يتناول هذا المبحث بشكل شامل أهمية التربية الاجتماعية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث يبرز عدة مطالب، وذلك من خلال المطالب الآتية: المطلب الأول:

من هذه العلوم في صورة مواد تعليمية ذات أهداف تربوية ونفسية تُدرّس في المراحل التعليمية المختلفة، أما التربية الاجتماعية فهي أوسع دلالة من حيث ارتباطها بتكوين الفرد اجتماعيًا وقيميًا وسلوكيًا داخل المجتمع. ومن ثم فإن الدراسات الاجتماعية تُعدّ أداة تربوية مستمدة من العلوم الاجتماعية لتحقيق أهداف تعليمية محددة، وليست علمًا مستقلاً بذاته. انظر: زكي محمد إسماعيل، التأصيل الإسلامي للعلوم والدراسات الاجتماعية، (الرياض: دار المطبوعات الجديدة، ١٩٨٩)، ٩-١٠.

^٣ يقول السفاريني بأن العلمية عند الإسلام بثلاث طرق: "الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل؛ ووجهة الحصر أن السبب إن كان من خارج فالخبر الصادق، وإلا فإن كان آلة غير المدرك فالحواس وإلا فالعقل؛ وإن كان المؤثر في العلوم كلها في الحقيقة هو الله تعالى، لأنها بخلقه وإيجاده، والله أعلم". انظر: شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضيئة في عقد الفرقة المرضية، (دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ١٩٨٢)، ٢: ٤٤٠.

^٤ انظر: حبنكة الميداني؛ غزو في الصميم، ٣٠١.

أهداف التربية الاجتماعية وتناسبها مع مقاصد القرآن والسنة، والمطلب الثاني: مقارنة بين أهداف التربية الاجتماعية الإسلامية والغربية.

المطلب الأول: أهداف التربية الاجتماعية وتناسبها مع مقاصد القرآن والسنة

تمهيد

تُعَدُّ التربية الاجتماعية في الإسلام إحدى الركائز الكبرى في بناء الإنسان والمجتمع، لما لها من أثر مباشر في تشكيل القيم، وضبط السلوك، وتحقيق الانسجام بين الأفراد. ولأن الإسلام جاء بمنهج شامل ينظم حياة الإنسان في جميع جوانبها، فقد أولى اهتمامًا بالغًا للجوانب الاجتماعية، من خلال منظومة متكاملة من الأوامر والنواهي، والمفاهيم والعادات، التي تهدف إلى غرس الأخلاق الفاضلة، وتكوين المجتمع المتماسك.

ولذلك، تبرز الحاجة إلى تحديد أهداف التربية الاجتماعية في ضوء الرؤية الإسلامية، بوصفها استجابة للمقاصد العليا للقرآن والسنة. فقد جاءت الشريعة لتحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم، وهذه الغايات المقاصدية تنعكس بوضوح في بنية التربية الاجتماعية في الإسلام. ويُعَدُّ فهم العلاقة بين أهداف هذه التربية ومقاصد الوحي من الأسس التي تُعين الباحث على استيعاب البعد الحضاري والاجتماعي للدين الإسلامي، وتطبيقه في واقع الحياة.

وعليه، سيتناول هذا المبحث المحاور هذه: أولاً: بيان أهداف التربية الاجتماعية في الإسلام كما تنبثق من النصوص التأسيسية والتجربة النبوية. ثانياً: عرض موجز لمقاصد القرآن والسنة في التراث الإسلامي، كما فهمها العلماء من خلال مقولاتهم ومناهجهم. ثالثاً: إبراز أوجه التناسب والارتباط بين أهداف التربية الاجتماعية وهذه المقاصد، في إطار علمي وتربوي متكامل.

أولاً: أهداف التربية الاجتماعية في الإسلام

إن الأهداف وهي المقاصد النهائية التي يوجهها نحو غاية معينة، فكل عمل أو نشاط لا بد أن يصحبه أهداف، لكي نحقق النتائج المرجوة من ذلك العمل فلا بد من تحديد الأهداف.

لقد ذهب العلماء في مجال التربية إلى عدد من التعريفات؛ منها قول ماجد عرسان الكيلاني: "أنها تلك التغيرات التي يراد حصولها في سلوك الإنسان الفرد وفي ممارسات واتجاهات المجتمع المحلي أو المجتمعات الإنسانية"^٥.

وأورد الكيلاني^٦ أيضًا في موضع آخر جملةً من الأهداف، منها: "تتصف الأهداف العامة للتربية الإسلامية بأمرين: الأول، أنها تبدأ بالفرد وتنتهي بالمجتمع الإنساني عامة، والثاني، أنها تبدأ بالدنيا وتنتهي بالآخرة بأسلوب متكامل متناسق؛ وعرضه لهذه الأهداف كما تشتق من القرآن الكريم والسنة الشريفة، منها: تعريف الإنسان بخالقه وبناء العلاقة بينهما على أساس من ربانية الخالق وعبودية المخلوق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾"^٧.

قال ماجد الكيلاني: "ولبناء هذه العلاقة على أساس من العبودية الخالصة شددت هذه الأهداف على توجه الفرد بكل عمل يمارسه إلى الله ﷻ، فربطت بين السلوك والاتجاه وهو ما يعرف في الإسلام باسم النية، كما جاء في الحديث النبوي ﷺ^٨؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»"^٩.

بدءًا تهدف التربية الإسلامية الاجتماعية إلى تنشئة وإعداد الإنسان الذي يعبد الله ويخشاه حق الخشية؛ فيكون مسلمًا، عابدًا، عالمًا، عاملًا، مؤتمرًا بأوامر الله، منتهيًا عن نواهيه، وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^{١٠}. يرى سليمان بن عبد الرحمن الحقيقل أن تحديد أهداف التربية الإسلامية يأتي بعد تحديد الغاية من

^٥ ماجد عرسان الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية، (المدينة: مكتبة دار التراث، ١٩٨٧)، ١٣.

^٦ ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية: دراسة منهجية في الأصول التاريخية للتربية الإسلامية، (المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، ١٩٨٥)، ٣٤.

^٧ القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٢٥.

^٨ ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ٣٤.

^٩ البخاري، الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ١: ١٧٩، (١).

^{١٠} القرآن الكريم، سورة الذاريات ٥١: ٥٦.

التربية والتعليم؛ فالهدف النهائي من التربية والتعليم عنده هو "تحقيق العبودية لله وحده في حياة الإنسان على مستوى الفرد والجماعة"^{١١}.

وللتربية الاجتماعية أهداف عظيمة في الإسلام والباحث في هذا المجال سوف يقوم بعرض أهداف التربية الاجتماعية في الإسلام، ويورد جملة من آراء بعض المربين المسلمين، وقد اختلفوا في تحديد الأهداف؛ ويرجع سبب ذلك إلى تحديد مفهوم التربية الاجتماعية عند كل باحث منهم؛ بحسب ما تيسر له.

وبما أن التربية الاجتماعية جزء من التربية الإسلامية عمومًا، وجانب من جوانبها، فعلى هذا الأساس فإن أهداف التربية الاجتماعية منبثقة منها، فالفرع من الأصل؛ لأن المتبع لأهداف التربية الإسلامية على سبيل الإجمال يكاد يجدها تنحصر في ثلاثة أهداف رئيسة هي: "تربية الفرد المسلم، وإخراج الأمة الإسلامية، والدعوة إلى الإسلام في العالم؛ أي توجيه الأمة حين يكتمل إعدادها إلى حمل دعوة الإسلام إلى العالم كله"^{١٢}.

وتهدف التربية الإسلامية إلى تهذيب الفرد والمجتمع والإصلاح والهداية إلى الطريق الصحيح في الدنيا والآخرة؛ فقد وضع الإسلام أساسًا اجتماعيًا متينًا. وتتعلق هذه الأهداف بالإنسان في جميع جوانبه؛ لأنه كائن اجتماعي بطبيعته. وتُعدّ التربية الاجتماعية في الإسلام أحد أهم جوانب التربية الإسلامية. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^{١٣}. ذكر الزنتاني هدفًا مهمًا وهو: "إكساب الأفراد الآداب الاجتماعية التي تقوي ترابطهم، وتمن تعاطفهم، وترسخ تكافلهم، وتجعلهم أسرة واحدة؛ يظللها الوئام، والمودة، والأمن، وتترف عليها السعادة والطمأنينة والهناء"^{١٤}. ويرى النحلاوي أن هدف الجانب الاجتماعي في التربية الإسلامية يختلف عن أهداف التربويات الأخرى؛ حيث جعلت تلك التربويات همها تربية

^{١١} سليمان بن عبد الرحمن الحقييل، التربية الإسلامية، ٣٠.

^{١٢} ماجد عرسان الكيلاني، الفكر التربوي عند ابن تيمية، (المدينة: مكتبة دار التراث، ١٩٨٧) ١٠٧.

^{١٣} القرآن الكريم، سورة الحجرات ٤٩: ١٣

^{١٤} عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، (ليبيا، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤)،

المواطن الصالح؛ حيث قال: "تربية المواطن الصالح المؤمن والمجتمع المسلم، الذي تتحقق فيه عبودية الله وحده، وتتحقق بتحقيقها كل فضائل الحياة الاجتماعية من تعاون وتكافل وتضامن ومحبة، كما تروي الحاجة إلى الأُنس بالمجتمع عند الناشئ والحاجة إلى الانتماء، والميل إلى التقليد والاعتزاز بالأمة، تروي ذلك كله بدون انحراف أو استهتار أو انقياد أعمى أو فقدان للمواهب وللذاتيات والمقومات شخصية؛ أي إنها تجمع بالتوازن بين تربية الذاتية الفردية وتربية الاجتماعية من غير أن تطغى إحداها على الأخرى أو تنحرف أي منهما عن الخير، وعن طاعة الله وتحقيق شريعته، وعن جادة الصواب والاستقامة في الحياة"^{١٥}. ويحمل مقدار يالجن أهداف التربية الاجتماعية الإسلامية في عدة أمور: "تنمية روح المحبة للخير، والكره للشر، وتنمية روح الأخوة الإنسانية الإسلامية، وتنمية الوعي بأهمية وحدة الحياة الاجتماعية، وتنمية روح الخضوع للنظام الأخلاقي الاجتماعي، وتنمية روح التعلق بالمجتمع أو الأمة، وتكوين شخصية اجتماعية قوية متحدة ذات"^{١٦}. وكما أنه يذكر في موضع آخر جملة أهداف منها: "تكوين الوعي بوحدة حياة الأمة وبوحدة مصالحها العامة، وتكوين روح العدالة الاجتماعية الإسلامية، وتكوين روح التعاطف والتراحم والمحبة والمودة الإسلامية، وتكوين روح التعاون والتناصح والتواصي بالحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"^{١٧}.

ومن أهداف التربية الاجتماعية: "تمكين نمو الفرد ونضجه الاجتماعي على النحو السليم الذي يكفل التوازن والاعتدال بين جميع شخصيته الإنسانية... وتعميق لية شعور الفرد بالانتماء الاجتماعي، وذلك نتيجة إحساسه بروح المسؤولية الاجتماعية منذ نشأته الأولى، وترسيخ دوره الإيجابي الفعال في تطوير الحياة الاجتماعية، وتحسين مستواها، وأن يكون عضوًا مفيدًا في المجتمع وبناء العلاقات الاجتماعية السليمة بين الأفراد على أساس قوي من الالتزام الذاتي النابع من نفوسهم، والمستمد من القيم الروحية والفضائل الأخلاقية التي تحدد حقوقهم وواجباتهم، ومسؤولياتهم تجاه بعضهم بعضًا"^{١٨}.

^{١٥} النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ١٠٢.

^{١٦} يوسف مصطفى القاضي ومقداد يالجن. علم النفس التربوي في الإسلام، (الرياض: دار المريخ، ١٩٨١)، ٣٦٣.

^{١٧} مقدار يالجن، منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر، ودور التربية الإسلامية وقيمها في معالجتها، (الرياض: دار عالم الكتب، ١٩٩٠)، ٦٢.

^{١٨} عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص ٨٢٧.

ومن أهداف التربية الاجتماعية المرتبطة بالقيم الإسلامية تربية الإنسان المسلم على حب الآخرين، والتعاون معهم، ومساعدتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^{١٩}، فهي تربية المسلم على أساس البعد عن الانفعالات المضارة بالجسم والعقل التي تثير العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^{٢٠}. يرى سليمان الحقيلى أن التربية الاجتماعية تسعى إلى تحقيق أربع أهداف رئيسية، منها: تربية الإنسان المسلم على تحمل المسؤولية الفردية؛ وتربية الإنسان المسلم على حب إخوانه المسلمين والتعاون معهم؛ وتربية الإنسان المسلم تربية اجتماعية متكاملة أي: تكتمل فيها أدوار المنزل والأقارب والمجتمع بكافة مؤسساته؛ وغرس القيم الإنسانية في التفاهم والتعاون مع المجتمعات الأخرى في ضوء تعاليم الإسلام. وهذه الأهداف تعمل على إعداد الشخصية المسؤولة اجتماعياً من وجهة نظر الإسلام؛ وأن تحقيق أهداف التربية الاجتماعية في الإسلام يوجب علينا نحن معاصر المعلمين والآباء أن نغرس في نفوس أولادنا وطلابنا عقيدة الإيمان والتقوى وفضيلة الأخوة والمحبة، ومعاني الإيثار والرحمة والحلم وخلق الأقدام والجرأة في الحق وغيرها من القيم الإسلامية السامية، حتى إذ شب الأولاد عن الطوق، وبلغوا السن التي تؤهلهم أن يخوضوا الحياة، أدوا ما عليهم من واجبات ومسؤوليات اجتماعية دون تواكل أو تردد أو قنوط، وقاموا بكل الالتزامات نحو الآخرين دون إهمال في الحق أو تقصير في الواجب^{٢١}.

ويختتم الباحث هذه المفاهيم التي تضمن جملة من أهداف التربية الاجتماعية في القرآن كما ذكره بلغيث الغانمي في بحثه وهي إيجاد الوسط الاجتماعي المستقر، وتحقيق الفاعلية الاجتماعية، وتحقيق الأمن الاجتماعي، وضبط العلاقات الاجتماعية وتوجيه السلوك الاجتماعي^{٢٢}.

^{١٩} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥ : ٢

^{٢٠} القرآن الكريم، سورة ال عمران ٣ : ١٣٤.

^{٢١} سليمان بن عبد الرحمن الحقيلى، التربية الإسلامية: مفهومها ومصادرها وأسسها وأهدافها ومبادئها وأساليبها وخصائصها ودورها في مكافحة جريمة المخدرات ومتطلبات تعميمها، (الرياض: د.ن، ١٩٩٦)، ٤٩.

^{٢٢} بلغيث بن أحمد بن عبد الله الغانمي، منهج التربية الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم وتطبيقاته من خلال البيئة المدرسية، (رسالة الماجستير، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ٢٠١٠)، ٤٥.

ومّا تقدّم يتّضح أن الهدفَ الأعظمَ من التربية الاجتماعية في الإسلام ثلاثة، وهي: إعداد العابد الصالح، وإقامة المجتمع المسلم، وبناء الأمة الإسلامية. وتندرج تحت كل هدفٍ منها ثمارٌ طيبةٌ من الأهداف، تسعى إلى بناء مجتمعٍ مترابطٍ يعيش فيه الأفراد وفقًا للقيم الإسلامية، ويسهمون في تحقيق العدل والخير والسلام. وتسوده الروابط الحميمة، والآداب الاجتماعية، والعلاقات القائمة على الوُدِّ والتآلف، ونشر الخير بين أفرادها، وتحقيق التكافل الاجتماعي؛ ليحيا حياةً طيبةً في الدنيا، وينعم برضا الله في الآخرة. تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^{٢٣}.

ثانيًا: مقاصد القرآن والسنة في التراث الإسلامي

بدأت المقاصد كمفهوم مع بداية نزول الوحي الكريم على الرسول ﷺ؛ كانت هذه المقاصد متضمنة في نصوص الكتاب والسنة، وكانت تظهر في أحكامها وتعاليمها بشكل متفاوت بين التصريح المباشر والإشارة الضمنية. ومع ذلك، لم تكن هذه المقاصد موضوعة بشكل بارز وواضح في مرحلة التأليف والتدوين، ولم تكن لها تسمية خاصة كعلم له تعريفاته ومصطلحاته ومناهجه^{٢٤}. فأما المراد بمقاصد القرآن هي الغايات التي أنزل الله القرآن لأجلها؛ تحقيقاً لمصالح العباد العاجل والآجل^{٢٥}. وأما المراد بمقاصد السنة: فينبغي أن يكون فهمًا شاملاً، بمعنى أنه يشمل أيضًا مقاصد القرآن الكريم، وتُقدم شرحًا وتفصيلًا للمفاهيم القرآنية، كما جاء عند الشاطبي حيث يُبين أن القرآن يقدم الأصول التي يُرجع إليها، والسنة أتت بها للتوضيح والتوسيع والتبين لفهم محتويات القرآن الكريم^{٢٦}.

قد يحدث سوء استخدام السنة عندما يتم استخدامها بطرق لا تتناسب مع مقاصدها، وقد يكون ذلك سببًا للضرر والفساد في المجتمع، وينبغي أن يكون استعمال السنة

^{٢٣} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ٩٧.

^{٢٤} نور الدين بن مختار الحادمي، علم المقاصد الشرعية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٠)، ٥٣.

^{٢٥} عبد الكريم الحامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، (بيروت: دار ابن حزام، ٢٠٠٨)، ٢٩.

^{٢٦} الشاطبي، الموافقات، ٤: ٣٤٦.

في سياقه الصحيح وفقاً للسنة النبوية ومقاصدها؛ ذكر عند ابن قيم الجوزية في بيانه لعلاقة السنة بالقرآن الكريم: "والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه: أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه؛ فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتظاferها، والثاني: أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له، الثالث: أن تكون مُوجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو مُحَرِّمة لما سكت عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام، فلا تُعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تحبُّ طاعته فيه، ولا تحلُّ معصيته، وليس هذا تقديمًا لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله ﷺ^{٢٧}. بناءً عليه، أن مقاصد السنة تُعرف بأنها الغايات والحكم التي جاءت بها السنة النبوية، وتتمثل في التناغم والتفصيل لما ورد في القرآن الكريم. تلك المقاصد تشكل مبادئ توجيهية مفصلة وموجزة، تُلخص حكم القرآن وتوضح ما سكت عنه فيه.

يتطور مصطلح المقاصد الجزئية والكلية للقرآن والسنة عند العلماء المتقدمين والمعاصرين مع تقدم الزمن وتتكيف مع تحديات واحتياجات المجتمع، ويظهر فوائد كثيرة لمن خلفهم.

ومن أقدم العلماء الذين استخدموا هذا المصطلح الغزالي في كتابه "جواهر القرآن"، وقد ذكر ستَّ نقاطٍ رئيسية في بيان مقاصد القرآن، ثلاثة منها تُعدّ من السوابق والأصول المهمة. وثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتّمة؛ أما ثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه (وهو التوحيد)، وتعريف الصراط المستقيم الذي تحب ملازمته في السلوك إليه (وهي الشريعة والتكاليف الشرعية)، وتعريف الحال عند الوصول إليه (ويقصد بالمعاد)، وأما ثلاثة المغنية المتّمة فهي: تعريف أحوال المحييين للدعوة وهو القصص، ولطائف صنع الله فيهم وسره ومقصده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الجاحدين، وتعريف عمارة منازل الطريق وهو التشريع وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد^{٢٨}. وذكر عبد العظيم الزرقاني ثلاثة مقاصد

^{٢٧} ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، ٤: ٨٥.

^{٢٨} أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، جواهر القرآن، تحقيق محمد رشيد رضا القباي، (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٦)، ٢٣-٢٤. انظر: أبو يوسف محمد زايد، فيض الرحمن في تفسير جواهر القرآن، ٣: ١؛ وانظر: أحمد الريسوني، مقاصد المقاصد: الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، (بيروت: الشبكة العربية، ٢٠١٣)، ١٤.

قرآنية رئيسية: "أن يكون هداية للثقلين، وأن يقوم آية لتأييد النبي ﷺ، وأن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس"^{٢٩}.

وذكر ابن عاشور ثمانية مقاصد للقرآن الكريم؛ وهي: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، تهذيب الأخلاق، التشريع، وهو الأحكام خاصة وعامة، وسياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن والقصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها، والقصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصلاح أحوالهم وللتحذير من مساوئهم، التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، والإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول^{٣٠}.

وذهب يوسف القرضاوي في كتابه "كيف نتعامل مع القرآن" إلى ذكر وهي سبع نقاط رئيسية؛ وهي: تصحيح العقائد والتصورات، وتقدير كرامة الإنسان وحقوقه، وعبادة الله وتقواه، والدعوة إلى تزكية النفس البشرية، وتكوين الأسرة وإنصاف المرأة، وبناء الأمة الشهيدة على البشرية، والدعوة إلى عالم إنساني متعاون^{٣١}.

وجاء طه جابر العلواني في بيان مقاصد القرآن فقال: "إن المقاصد القرآنية العليا الحاكمة هي ثلاثة، التوحيد هي حق الله تبارك وتعالى على خلقه، والتزكية هي تعتبر المؤهل للإنسان لحمل رسالة القرآن، والعمران حق الكون"^{٣٢}.

وقال عدنان زرزور في المدخل عن مقاصد القرآن: "إقامة الشخصية الإسلامية، وبناء أمة لها خصائصها ومميزاتها، وإنشاء جيل على قواعد من التربية الربانية تجعله صورةً ناطقةً عن الحق الذي نزل به القرآن"^{٣٣}. وقال أحمد الريسوني فيما يلي جملة من مقاصد إنزال الكتاب العزيز، كما هي منصوبة ومثبتة في كل أنحاء القرآن: مقصد توحيد الله وعبادته، ومقصد

^{٢٩} محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ٢: ١٢٤.

^{٣٠} محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٥٧: ٣.

^{٣١} يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٨)، ٧٣-١١٥.

^{٣٢} طه جابر العلواني، التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، (هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٦)، ٧.

^{٣٣} عدنان زرزور، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠١)، ٢٥٣.

الهداية الدينية والدنيوية للعباد، ومقصد التزكية وتعليم الحكمة، ومقصد الرحمة والسعادة، ومقصد إقامة الحق والعدل^{٣٤}.

يرى الباحث أن بعض العلماء المعاصرين قد وسّعوا في معاني مصطلح "المقاصد" في القرآن والسنة، فأضافوا مقاصد جديدة مثل: مقصد القصص، ومقصد الترغيب والترهيب، ومقصد التربية والتعليم، ومقصد الإعجاز القرآني. غير أن هذه ليست مقاصد مستقلة بذاتها، وإنما تُعدّ وسائل وأدوات لخدمة المقاصد العليا للتشريع، التي تتمثل في: تقرير العقيدة والتوحيد، وإصلاح العبادات والأحكام، وتزكية النفس.

وأما ما يُذكر من مقاصد كبرى مثل تقرير كرامة الإنسان وحقوقه، وتكوين الأسرة، وإنصاف المرأة، والدعوة إلى عالم إنساني متعاون، وتحقيق الرحمة والسعادة، وإقامة العدل والحق، فكلها تُعدّ ثمارًا مترتبة على تحقيق المقاصد العليا الثلاثة، فهي: العقيدة والتوحيد، والتزكية، والصلاح العمراني^{٣٥}.

ثالثًا: من أوجه التناسب بين أهداف التربية الاجتماعية الإسلامية ومقاصد القرآن والسنة
إذا كان القرآن الكريم والسنة النبوية هما من المناهج الأساسية للتربية الإسلامية، فمن المناسب أن نسعى إلى تحديد ما يمكن أن يرشدنا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية من الأهداف العليا للوجود الإنساني في هذه الحياة؛ وقد حاول كثير من الباحثين القيام بذلك عن طريق تصنيف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى فئاتٍ حسب الموضوع الذي تعالجه.

ومن أوجه التناسب التربية الاجتماعية، إذ تمثل جانبًا مهمًا من وسائل تحقيق مقاصد القرآن والسنة العظمى. حيث يشير القرآن والسنة إلى عدة أهداف ومقاصد تتعلق بتوجيه من الفرد والمجتمع وإلى الصلاح العمراني؛ لأن هذه الرسالة الإلهية تُعدّ هدايةً من الله ﷻ ليكون مرشدًا لصلاح شؤون الناس، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ

^{٣٤} أحمد الريسوني، مقاصد المقاصد: الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٣)، ٧-١٤.

^{٣٥} انظر: فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية، (هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠)، ١٠ وما بعدها.

وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ^{٣٦}، قال ابن عاشور: "فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال: الفرديّة، والجماعيّة، والعمرانيّة؛ فالصلاح الفرديّ يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها؛ ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد، لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريّة الخاصّة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالخلق بترك الحسد والحقد والكبر.

وأما الصلاح الجماعيّ: فيحصل أولاً من الصلاح الفردي؛ إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك، وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات وموثابة القوى التفسانيّة، وهذا هو علم المعاملات، ويُعبّر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنيّة. وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك؛ إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع^{٣٧}.

ولتحقيق الثمار الطيبة لمقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية في تكوين شخصية الإنسان وكيف أنّها تتأثر بمعتقدات وقيم المجتمع الذي ينشأ فيه؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^{٣٨}. قال الزمخشري: "والفطرة: الخلقة؛ ألا ترى إلى قوله ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوفاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن؛ ومن المشركين الذين بدّلوا وفرّقوا دينهم وتركوا دين الإسلام^{٣٩}.

جاء في الحديث الذي يشير إلى فكرة أساسية في التربية الاجتماعية وتأثير المحيط الاجتماعي على الفرد قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو

^{٣٦} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ٨٩.

^{٣٧} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١: ٣٨.

^{٣٨} القرآن الكريم، سورة الروم: ٣٠.

^{٣٩} الزمخشري، الكشاف، ٣: ٤٧٩.

بمحسّانه»^{٤٠}. بناءً على ذلك الحديث الشريف، أن الإنسان يولد في حالة "فطرية"، أي أنه يعيش في حالة طبيعية ونقية، دون أي مؤثرات خارجية معينة، ولكنه يشير إلى أن تأثير البيئة الاجتماعية يبدأ بعد الولادة، فبمجرد أن يتفاعل الطفل مع أسرته ومجتمعه الصغير يتأثر بتعاليمهم ومعتقداتهم. ويذكر الحديث الشريف ثلاثة أمثلة لأديان أو مجتمعات مختلفة: اليهودية والمسيحية والمجوسية؛ لبيان تنوع المؤثرات الاجتماعية، ويشير إلى أن المعتقدات والتصورات التي يكتسبها الإنسان ليست ثابتة، بل تعتمد على البيئة التي يعيش فيها. قال الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾^{٤١}، وهذه الآية توضح لنا أن التربية لا تتم إلا في إطار اجتماعي وداخل مجتمع مسلم نظيف لأن الطفل لا يمكن تربيته بعيداً عن المؤسسات الاجتماعية مثل البيت والمسجد والمدرسة ووسائل الإعلام وغيرها لما لهذه المؤسسات من أثر تربوي فعال ولما للعادات والتقاليد والأخلاقيات الاجتماعية من تأثير على الطفل والسلوك الإنساني عبارة عن التفاعل بين الظروف الاجتماعية البيئية والطبيعة الإنسانية^{٤٢}.

وبهذا يتبين لنا أن أهمية التربية الاجتماعية في ضوء مقاصد القرآن والسنة فهي وسيلة في بناء الفرد وتوجيهه نحو التفاعل الإيجابي في المجتمع وتحمل المسؤوليات الاجتماعية؛ ويتجلى المقصود الأعلى للقرآن الكريم والسنة النبوية، وهو صلاح العمران وذلك بإقامة نظام عادل؛ يستند إلى القيم والأخلاق الإسلامية، بهدف تحقيق الاستمرار والثبات في هذا العالم؛ فالفرد والمجتمع لا يمكن فصلهما، إذ لا يمكن للفرد أن يعيش من دون التفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه، كما جاء في الأثر ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد^{٤٣}، فقال: حدثنا موسى قال: حدثنا حمزة بن نجيح أبو عُمارة قال: سمعت الحسن يقول: «لقد عهدت المسلمين، وإن الرجل منهم ليصبح فيقول: يا أهليه!، يا أهليه! يتيكم يتيكم، يا أهليه!، يا أهليه!

^{٤٠} البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز: باب ما قيل في أولاد المشركين، ٢: ١٠٠ (١٣٨٥).

^{٤١} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ٥٨.

^{٤٢} عباس محبوب، 'بيئات التربية الإسلامية'، مجلة الجامعة الإسلامية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة ١٢، العدد ٤٦ (١٩٨٠)، ١١٦.

^{٤٣} محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٩٦٠)، ٦١، (١٣٩) قال المحقق: "ضعيف".

مسكينكم مسكينكم، يا أهليه!، يا أهليه! جاركم جاركم، وأسرع بخياركم وأنتم كل يوم تزدلون»^{٤٤}.

ولذا فإن تقرير كرامة الإنسان وحقوقه، وهو من ثمار المقاصد العليا للقرآن والسنة، يؤكد أن الإسلام يقرر المساواة بين الناس في إطار الإنسانية؛ مع التنبيه على وجوب الابتعاد عن احتقار بعضهم بعضاً؛ إذ هم متساوون في الشرف بالنظر إلى أصلهم من طين، ويعودون إلى آدم وحواء، ويتفاوتون في المسائل الدينية المرتبطة بطاعة الله واتباع رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^{٤٥}.

إن الإسلام ينظر إلى حقوق الفئات الضعيفة في المجتمع من حيث تحملهم المسؤولية لخدمة اليتامى والمساكين والجيران، ويدعو إلى الإحسان إليهم وتقديم الخير لهم فوراً؛ جاء في الحديث روي عن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم، وإنما أنتم بنو آدم أكرمكم عند الله أتقاكم»^{٤٦}. بناءً على ما سبق؛ يبين لنا أهمية التربية الاجتماعية في الإسلام وعلاقتها بالمقاصد القرآن والسنة فهي وسيلة من الوسائل التربوية لتحقيق القيم الإسلامية العليا ولإظهار أهدافها ومبادئها.

خلاصة القول: تُعدّ التربية الاجتماعية إحدى اللبنات الأساسية في البناء الحضاري للأمة، إذ تهدف إلى تشكيل شخصية المسلم المتوازن في علاقاته الاجتماعية، وفق مبادئ العدل، والتكافل، والرحمة، والحوار، واحترام الآخر. وتنبع أهمية هذه التربية من كونها جزءاً لا يتجزأ من التصور الإسلامي الشامل للإنسان، الذي جعله الله خليفة في الأرض، وجعل من مجتمعه ساحةً للتزكية والتكامل والتعاون على البر والتقوى، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا

^{٤٤} ومعنى «يا أهلية! أهلية!» بفتح ياء المتكلم وهاء السكينة، وفي بعض النسخ «يا أهلاه! أهلاه!» أي ينادي أهله ويستحثهم، ويحرضهم إلى خدمة اليتيم والمساكين والجار؛ ويقدمونهم على أنفسهم احتساباً وطلباً لمرضاة الله ﷻ. انظر: فضل الله الجيلاي، الأدب المفرد لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٩٥٩)، ٢٣٤.

^{٤٥} القرآن الكريم، سورة الحجرات ٤٩: ١٣.

^{٤٦} مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ٤: ١٩٨٧ (٢٥٦٤).

عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى^{٤٧}. وفي ضوء هذا، تبرز أهداف التربية الاجتماعية في الإسلام باعتبارها مرتكزة على غايات شرعية عميقة؛ من أهمها: بناء الأفراد على المسؤولية، وتعزيز قيم الانتماء، وتحقيق التوازن بين الحقوق والواجبات، وإرساء قواعد التعايش الاجتماعي الآمن والمثمر. وهذه الأهداف لا تنفصل عن مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية، التي تمثل الإطار الكلي الذي تنتظم تحته مختلف أبعاد التشريع، والتي من أبرزها: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، بالإضافة إلى المقاصد العليا كالتركية، والرحمة، وإقامة العدل، وال عمران. ومن هنا، تظهر أوجه التناسب والتكامل بين أهداف التربية الاجتماعية في الإسلام وبين مقاصد القرآن والسنة، إذ تنسجم هذه الأهداف مع روح الشريعة ومقاصدها، وتصبّ في تحقيق الغاية الكبرى من إرسال الرسل ﷺ، وهي تزكية الإنسان، وبناء مجتمع يقوم على الحق والعدل والخيرية، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^{٤٨}. وسيتم في هذا المبحث تسليط الضوء على هذه الجوانب الثلاثة، ضمن عرض متكامل يبيّن العلاقة العضوية بين التربية الاجتماعية ومقاصد الوحي.

المطلب الثاني: مقارنة بين أهداف التربية الاجتماعية الإسلامية والغربية

تمثل التربية الاجتماعية أحد المحاور الجوهرية في بناء الأفراد والمجتمعات، سواء في التصور الإسلامي أو في الفكر التربوي الغربي، إذ تهدف إلى تكوين الشخصية، وتنظيم العلاقات، وتحقيق التوازن في الحياة الاجتماعية. غير أن الفروق المنهجية والعقدية بين المنظومتين الإسلامية والغربية تُفضي إلى اختلاف جذري في الأهداف والمضامين والغايات النهائية لهذه التربية.

لقد أورد حبنكة بياناً من توصيات اللجنة في المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي في عام ١٩٧٧م بمكة المكرمة؛ أن المناهج الغربية للعلوم الاجتماعية المأخوذ من العلوم الطبيعية واستبعاد الإنسانيات فيترتب على ذلك استبعاد القيم الدينية والأخلاقية والجمالية التي يمكن إدراكها مسبقاً، حتى وإن لم تكن قابلة للإدراك الحسية؛ وهذا يؤدي إلى قصور في تقديم صورة

^{٤٧} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٢.

^{٤٨} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١١٠.

شاملة عن الإنسان؛ وقد أدى هذا الاستبعاد إلى جعل الإنسانيات في الغرب عرضة للفردية والنسبية والتشكك؛ وعن اقتناعها بأن تقسيم المعارف الإنسانية إلى (علوم اجتماعية) يمكن أن تتسم بالموضوعية واليقين و(إنسانيات) تفتقر إلى ذلك تقسيم خاطئ؛ ولا يتفق مع الإسلام؛ فالمنهج الإسلامي للحقيقة يتطلب أن تخضع جميع أشكال المعارف جميعاً لنفس معايير الموضوعية واليقين، فهو يأخذ في الاعتبار على السواء المعطيات الحسية أو المادية؛ والمعطيات التي تعتمد على معايير محددة مسبقاً^{٤٩}.

وكما قدم حبنكة من توصيات اللجنة أيضاً؛ بأن تقسيم العلوم في الإسلام بناءً على مضمونها وليس منهجها فحسب، مع الاعتراف بأن الأمور الغيبية لا يُمكن معرفتها إلا بما علمنا الله ﷻ ورسوله ﷺ منها فحسب؛ ولذا من الضروري رفض النظريات الغربية في العلوم الاجتماعية التي تتعارض مع مبادئ الإسلام؛ وأن التأصيل لهذه العلوم في ضوء المبادئ والمقاصد الإسلامية بتوجيه التعليم نحو تحقيق الحضارة الإسلامية والغاية السماوية؛ كما ورد في القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^{٥٠}، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^{٥١}؛ قال حبنكة: إن الاقتداء بهذا المثل الأعلى يقتضي ألا يقتصر العالم الاجتماعي المسلم على فرع واحد من فروع العلم، كما يفعل بعض علماء الغرب؛ بل يتعين عليه أن يكون ملماً بالعديد من هذه الفروع في آن واحد^{٥٢}.

^{٤٩} فقد بين الفاروقي في كتابه "التوحيد"؛ بأنه يرفض التشكيك التي تزداد سوءاً في العالم المعاصر، وخاصة في الغرب؛ وكان هذا الاتجاه مبنياً على انتصار العقل التجريبي الحسي على العقل الديني، لأن العقل الديني تم تعريفه بأنه الملتزم بتعاليم الكنيسة، التي فقدت في نظر التجريبيين سلطتها في تعليم الحق؛ ويعتبر العقل التجريبي كل معرفة غير قابلة للإثبات بالتجربة الحسية وهي بالضرورة مشكوك فيها وزائفة، ويتنقد الفاروقي هذه النظرة؛ حيث يرفض التسليم وأن كل الطرق للوصول إلى الحقيقة يجب أن تكون تجريبية الحسية بحتة، مما يؤدي إلى الشك في كل ما لا يمكن إثباته بالتجربة الحسية؛ ولذا تبين لنا أن نبذ التشكيك المفرط وعدم القبول بالتعميمات الكاذبة التي تساوي بين فشل الكنيسة المسيحية مع سائر المعتقدات الدينية. انظر: الفاروقي، التوحيد، ٩٥. وانظر: حبنكة الميداني؛ غزو في الصميم، ٣٠١.

^{٥٠} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١٠٤.

^{٥١} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٤٣.

^{٥٢} انظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني؛ غزو في الصميم، ٣٠٢.

على الجانب الآخر، أشارت أغوستينا باغليان في كتابها إلى أن الهدف النهائي من التربية الاجتماعية الغربية هو تكوين المواطنة الصالحة^{٥٣} (Good Citizenship) في المستقبل، يطيعون الدولة ويلتزمون قوانينها^{٥٤}؛ بينما الهدف النهائي من العلوم الإسلامية وتربيتها، كما أوضح نقيب العطاس، فإن الغاية من التربية والتعليم في الإسلام هي تكوين الإنسان الصالح، ويُعدّ الصلاح العنصر الأساسي في المفهوم الإسلامي للتربية والتعليم، ويتمثل في غرس الأدب^{٥٥}، قال العطاس: "ولا نعني بذلك أن تكوين المواطنة الصالحة ليس هدفاً، بما أن المجتمع يتكوّن من أفراد، فإن جعل جميع أفرادهم أو معظمهم صالحين يؤدي بالضرورة إلى تكوين المواطنة الصالحة"^{٥٦}.

بناءً على ما سبق فإن الاستراتيجية الصحيحة التي يلزم اعتمادها عند العطاس في ظل الظروف التي نعيشها اليوم من المهم أن تؤكد أهمية الفرد بدل المجتمع والدولة في البحث عن حل صحيح لمشكلاتنا^{٥٧}. وقد أشار بعض الباحثين الغربيين إلى مصدر قوة الإسلام الحقيقية، لا سيما حينما يكون الحديث عن الاستمرارية الروحية والتماسك الإيماني لدى المسلمين، حيث قال ج. هـ. جيسين:

"What is convincing is that we know that throughout these 600 years the ordinary Muslim in Marrakesh or Cairo or Peking lived his daily life in accordance with the precepts of Islam because he knew in his heart that his faith was a living force, as the overwhelming majority of Muslims still do, and as an increasing number of adherents to other world religions no longer do. During those centuries the forms and institutions of Islamic government and society and even of the religious establishment may have been rigid and lifeless, but beneath them the current of faith flowed on, strong and brimming. It still does, not

^{٥٣} يُقصد بالمواطنة الصالحة: "قدرة الفرد على فهم قوانين الحياة الاجتماعية، والانتماء الواعي لوطنه وأمته، والشعور بالالتزام تجاه مجتمعه المحلي والوطني والإنساني، مع المشاركة الإيجابية في بناء المجتمع". ويُلاحظ أن التصور الغربي للمواطنة الصالحة يغلب عليه الطابع العلماني؛ إذ يركز على الانتماء والمشاركة الاجتماعية دون ربط واضح بالقيم الدينية، بينما يربط التصور الإسلامي المواطنة بالقيم الإيمانية والتعاليم الشرعية باعتبارها أساساً للسلوك وبناء المجتمع. انظر: زكي محمد إسماعيل، التأسيس الإسلامي للعلوم والدراسات الاجتماعية، ٩.

^{٥٤} Agustina S. Paglayan, *Raised To Obey: The Rise And Spread Of Mass Education* (United States of America: Princeton University Press, 2024), 2.

^{٥٥} انظر: نقيب العطاس، مُدخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ١٧٠.

^{٥٦} Syed Muhammad Naquib al-Attas, *The Concept of Education in Islam* (Kuala Lumpur: ISTAC, 1999), 25.

^{٥٧} انظر: العطاس، مُدخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ١٣٥.

perhaps quite as strongly, but strongly enough. A religion is as old or as young, as moribund or alive as its believers think and feel it is"⁵⁸.

يؤكد يانسن أن مصدر قوة الإسلام الحقيقي ينبع من إيمان الأفراد أنفسهم، لا من الهياكل الرسمية للدولة أو المؤسسات الدينية. فرغم أن تلك المؤسسات قد تُوصَف بالجمود أحياناً، إلا أن تيار الإيمان ظل يجري بقوة في أعماق قلوب المسلمين. وهذا هو ما يميّز الإسلام، في نظره، عن كثيرٍ من الأديان الأخرى التي فقدت أتباعها الحيوية الروحية والإحساس الداخلي بالحياة الإيمانية. ولذا؛ فإن الهدف من التربية الاجتماعية الإسلامية هو إعداد الإنسان الصالح، الذي يكون صالحاً في كل الأحوال والأماكن، لأن الدين هو أساس الصلاح الذي عُرس فيه الإسلام وليس ما يملئه المجتمع أو الدولة^{٥٩}؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^{٦٠}. وقد قدّم نقيب العطاس شرحاً تقويمياً لأهداف العلوم الغربية القائمة على الفلسفة بدلاً من الدين، وأوضح أن أحد المصادر الأساسية للمعرفة في الإسلام هو الوحي الإلهي، حيث قال: "ولهذا السبب، لا يوجد في النفس الغربية ثبات أو يقين فيما يتعلق بالعقيدة الدينية، فهم لا يُقرّون إلا بأسس نظرية، أي العلم أو نتائج الاستدلال العقلي القائم على التخمينات والافتراضات والملاحظات المادية المنطقية، التي قد تكون صحيحة وقد لا تكون، ولذلك، فإن هذا الأساس للعلم والموقف الحيائي الناتج عنه لا يمكن أن يؤدي إلى الإيمان"^{٦١}. عندما يبدأ أفراد المواطنين في العيش بصورة فردية، دون إدراك أهمية الالتزام بالقيم والآداب الإسلامية التي تحكم حياتهم، فإن

⁵⁸ Gerrit Hendrik Jansen, *Militant Islam* (London: Pan Books, 1979), 47

نصّ منقولٌ عن ج. هـ. يانسن، مترجم إلى العربية: "إنّ ما يُثبت حقاً حيوية الإسلام، هو ما نعلمه من واقع أنّ المسلم العادي، في مراكش أو القاهرة أو بكين، قد عاش طيلة ستمائة عام ملتزماً في حياته اليومية بتعاليم الإسلام؛ لأنه كان يؤمن في قرارة نفسه بأنّ إيمانه يمثل قوة حيّة. ولا يزال غالبية المسلمين يؤمنون بذلك، بخلاف أتباع كثيرٍ من الديانات الأخرى الذين فقدوا تلك الحيوية الروحية. وخلال تلك القرون، قد تكون أشكال الحكم ومؤسسات المجتمع الإسلامي، بل وحتى المؤسسة الدينية ذاتها، قد اتّسمت بالجمود والخنول، لكنّ تيار الإيمان ظلّ يجري في أعماقها بقوة وامتلاء. ولا يزال كذلك، وإن لم يكن بالقوة ذاتها، إلا أنّه لا يزال قوياً بما يكفي. فالدين يكون حياً أو ميتاً، قديماً أو حديثاً، بمقدار ما يؤمن به أتباعه ويشعرون بحضوره في وجدانهم" انظر: يانسن، *الإسلام الثوري*، ٤٧.

^{٥٩} سليمان بن عبد الرحمن الحقيّل، *التربية الإسلامية*، ٣٠.

^{٦٠} القرآن الكريم، سورة الرعد ١٣: ١١.

^{٦١} Syed Muhammad Naquib al-Attas, *Risalah Untuk Kaum Muslimin*, (Kuala Lumpur: ISTAC, 2001), 19.

المواطنين يواجه تحديات اجتماعية عديدة، إذ يصبح الأفراد أقل اهتمامًا وتعاطفًا مع الآخرين، مما يؤدي إلى غياب الحساسية تجاه القضايا الاجتماعية، وعدم الشعور بالمسؤولية الاجتماعية. من هنا يتبن لنا أهمية التربية الاجتماعية في الإسلام، تدعو إلى تعليم شامل يجمع بين الغايات الدنيوية والأخروية، كما قال حبنكة: "إن القصد النهائي من عمله هو الوصول إلى العبد الصالح وتقدم الأمة الصالحة، وهذا يوجب عليه أن يتحلى بالكفاءة الأكاديمية في علوم التوحيد والقرآن والسيرة وسنة نبينا ﷺ بالإضافة إلى تخصصه"^{٦٢}. وعليه، يُظهر اختلاف المرجعيات بين الإسلام والفكر الغربي تباينًا جوهريًا في أهداف التربية الاجتماعية ومقاصدها؛ فالتربية الإسلامية تنطلق من الوحي، وتهدف إلى تزكية النفس وتحقيق العدل والتكافل، وإعداد الإنسان العابد الصالح لخلافة الأرض وفق منهج الله تعالى. في المقابل، تركز التربية الغربية على أسس مادية وإنسانية، وتركز على الفرد ونجاحه بمعزل عن الإطار الإلهي، وتسعى إلى إعداد المواطن وفق مصالح الدولة، بغض النظر عن مرجعيتها. ويبرز من ذلك أهمية العودة إلى التصوّر الإسلامي الأصيل في بناء الفرد والمجتمع^{٦٣}.

خلاصة المبحث:

يتناول هذا المبحث أهمية التربية الاجتماعية في بناء الفرد والمجتمع، ويؤكد ضرورة الالتزام بالقيم والأخلاق الاجتماعية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية. كما يبرز أن لمقاصد القرآن والسنة أهمية كبرى في توجيه التربية الاجتماعية، إذ تُعد وسائل وأساليب لإبراز أهداف الشريعة ومبادئها العليا. وتشترك مقاصد القرآن والسنة في تصورات العلماء المتقدمين والمعاصرين في ثلاثة محاور كبرى: مقصد العقيدة والتوحيد، ومقصد التزكية، ومقصد الصلاح العمراني، وهي المقاصد العليا الجامعة. وتدلل قصص أولي العزم من الرسل ﷺ في القرآن والسنة على إرشاد الناس إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، مما يجعلها منهاجًا اجتماعيًا رباتيًا يُحمّل الإنسان مسؤولية تحقيق تلك المقاصد العليا في واقع الحياة.

^{٦٢} انظر: حبنكة الميداني؛ غزو في الصميم، ٣٠٢.

^{٦٣} سوف يتناول المبحث الثالث من الفصل الرابع مقارنةً منهجية بين التربية الاجتماعية الربانية والتربية الغربية، وبيان مقاصدهما التربوية والاجتماعية، وذلك من خلال تحليل نماذج واقعية مستنبطة من قصص أولي العزم من الرسل ﷺ، لإبراز الفروق الجوهرية في التصور والممارسة بين المنهجين.

المبحث الثاني: مقاصد قصص أولي العزم من الرسل ﷺ

تمهيد

تكتسب قصص أولي العزم من الرسل ﷺ في القرآن والسنة أهمية بالغة لما تحمله من مقاصد تربوية وإيمانية واجتماعية، تسهم في بناء الفرد والمجتمع، وتُرشد الدعاة والمربين إلى منهج الأنبياء في الإصلاح. وتكشف هذه القصص عن أبعاد عميقة في الدعوة والتزكية والصبر، وتُبرز البعد المستقبلي للرسالة النبوية، ودور القادة في الأسرة والمجتمع في تحقيق مقاصدها المستمرة عبر الزمان.

تمثل قصص أولي العزم من الرسل ﷺ في القرآن والسنة مصدراً تربوياً غنياً بالهداية والعبر، لما تحمله من مضامين إيمانية وتربوية واجتماعية. وتكمن أهمية دراستها في ثلاثة مطالب مترابطة: المطلب الأول: في التعريف بمقاصد القصص القرآني والنبوي، بوصفها وسيلة ربانية لبناء الإيمان وترسيخ القيم. المطلب الثاني: في استخلاص المقاصد التربوية من القصص في القرآن والسنة، من خلال إبراز الأدوار التعليمية والتزكية والدعوية التي نهض بها الرسل ﷺ. المطلب الثالث: في تجلّي البعد المستقبلي لرسالة النبي ﷺ، ودور القيادات الأسرية والمجتمعية في تحقيق تلك المقاصد، تأسيساً بأنبياء الله في ربط الوحي بالإصلاح العملي والقيادة الأخلاقية.

المطلب الأول: التعريف بمقاصد القصص القرآني والنبوي

القصص القرآني في اصطلاح العلماء هو: "إخبار الله تعالى عما جرى للأمم السابقة مع أنبيائهم، وما دار بينهم وبين غيرهم من البشر أو غيرهم من الكائنات، بحقّ وصدق، بقصد الهداية والعظة والاعتبار"^{٦٤}. وهذا ما جعله أداةً تربوية فاعلة في صياغة الفكر والسلوك.

وأما القصص النبوي الذي ورد على لسان النبي ﷺ يسير في ذات الاتجاه، فهي تسير في نفس مسار القصص القرآنية، وتقتفي أثره؛ إذ كلاهما من عند الله ﷻ^{٦٥}؛ لأن السنة وحي من عند الله تعالى، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^{٦٦}

^{٦٤} عبد الباسط بلبول، القصص القرآني، (القاهرة: دار الفتح للإعلام العربي، ١٩٨٠م)، ٣٦.

^{٦٥} انظر: عمر سليمان عبد الله الأشقر، صحيح القصص النبوي، (الأردن: دار النفائس، ١٩٩٨)، ٥.

وقد تتميز القصص القرآنية بأنها كلها حقٌ وصدقٌ، لا كذب فيه ولا افتراء، ولا مجال فيه للخيال أو الوهم أو المبالغة؛ لأنه من كلام الحكيم الخبير؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾^{٦٧} وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾^{٦٨}، وتكرار بعض القصص في القرآن والسنة له الحكيم وفوائد، منها: بيان أهمية تلك القصة؛ لأن تكرارها يدل على العناية بها؛ وتوكيد تلك القصة لتثبت في قلوب الناس، وبيان بلاغة القرآن في عرض هذه القصص على هذا الوجه، وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال^{٦٩}.

ولذا، فإن من الحكيم التي تتضمنها إعادة سرد بعض القصص في أكثر من موضع في القرآن: التأكيد على أهميتها، وترسيخ معانيها في القلوب، وبيان بلاغة القرآن في تنوع عرضها بحسب المقام والمخاطب.

المطلب الثاني: القصص في القرآن والسنة ومقاصدها التربوية

القصص في القرآن الكريم لها مقاصد عظيمة وأبعاد تربوية عميقة، من أبرزها^{٧٠}:

أولاً: الإخبار عن أحوال الأمم السابقة التي لا يعلمها إلا الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾^{٧١}.

ثانياً: الاعتبار والتدبر في سير الأنبياء وأقوامهم، وما نالوه من نصر أو عقاب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^{٧٢}.

ثالثاً: تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتسكين قلبه في مواجهة التكذيب والإيذاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^{٧٣}.

^{٦٦} القرآن الكريم، سورة النجم ٥٣: ٤-٣.

^{٦٧} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٦٢.

^{٦٨} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٩٩.

^{٦٩} محمد بن صالح بن محمد العثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة، (السعودية: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٢)، ١: ٥٩.

^{٧٠} انظر: سعيد عطية علي مطاوع، الإعجاز القصصي في القرآن، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٦)، ص ٤٥ وما بعدها؛ وانظر: عبد الكريم بلبول، القصص القرآني: دراسة لغوية فنية تحليلية، (الرباط: دار الثقافة، ١٩٨٦)، ٣٦.

^{٧١} القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤: ٩.

^{٧٢} القرآن الكريم، سورة يوسف ١٢: ١١١.

رابعًا: بيان فضل الله على عباده المؤمنين بنجاتهم في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾^{٧٤}.

خامسًا: تحذير الكافرين من عاقبة الكفر والكذب والفساد، كما في قوله تعالى: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهُمْ﴾^{٧٥}. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ • فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ • وَلَا يُخْصُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾^{٧٦}.

ويشير صالح طه في كتابه^{٧٧} من أهم مقاصد إرسالهم ﷺ مما وردت في القرآن الكريم، منها: لدعوة العباد إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فما من نبي إلا قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^{٧٨}؛ وإخراج العباد من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^{٧٩}؛ ولهداية العباد وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، قال تعالى لرسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^{٨٠}؛ ولتبشير المؤمنين الطائعين، وإنذار العصاة المجرمين، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^{٨١}؛ ولتزكية النفوس وتطهيرها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^{٨٢}؛ وليبينوا للعباد حقيقة هذه الحياة الدنيا حتى لا يغتروا بها، قال تعالى: ﴿وَمَا

^{٧٣} القرآن الكريم، سورة هود ١١ : ١٢٠.

^{٧٤} القرآن الكريم، سورة القمر ٥٤ : ٣٤.

^{٧٥} القرآن الكريم، سورة محمد ٤٧ : ١٠.

^{٧٦} القرآن الكريم، سورة الماعون ١٠٧ : ١-٣.

^{٧٧} انظر: صالح طه عبد الواحد، البرهان من قصص القرآن: قصص أولي العزم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، (الأردن: مكتبة الغرباء، ٢٠١٠)، ١٣ وما بعدها.

^{٧٨} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧ : ٥٩.

^{٧٩} القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤ : ١.

^{٨٠} القرآن الكريم، سورة الشورى ٤٢ : ٥٣.

^{٨١} القرآن الكريم، سورة الأنعام ٦ : ٤٨.

^{٨٢} القرآن الكريم، سورة الجمعة ٦٢ : ٢.

هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ^{٨٣}؛ وليكونوا قدوة حسنة للعباد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^{٨٤}. بالإضافة على ذلك؛ أن قصص الأنبياء فهي أحسن القصص؛ كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^{٨٥}؛ ففيها العبر والعظات والحكمة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^{٨٦}؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ • حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التَّنْذِرُ﴾^{٨٧}. وإذا كان القرآن الكريم كلام الله ﷻ فإن القصص الواردة في السنة النبوية وحي من الله ﷻ، فمصدره ومقصده واحد؛ أي المقصود بالقصص في السنة النبوية هو نفس مقصود القرآن في قصصه، وكلاهما يراد به إمداد الدعاة والمربي وأهل الصلاح بما يمدهم به القصص من غذاء روحي، ويسقي في نفوس المؤمنين، كما أن قصص القرآن الكريم والسنة النبوية تجري على الناس مجرى لطيفاً نقياً في قلوبهم وعقولهم، وفيها من العبر والحكم والفوائد، ما يهدي إلى ما يصلح ويمنع المؤمن من الانحراف والضلال^{٨٨}. ويرى حافظ محمد بادشاه بأن من مقاصد القصص في السنة النبوية باعتباره زمنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع؛ منها: القصص التاريخية، والقصص الذاتية الشخصية، والقصص الغيبية المستقبلية^{٨٩}.

أولاً: القصص التاريخية: ويتضمن قصص الأنبياء السابقين وقصص بني إسرائيل، والوقائع التي قصّها النبي ﷺ لأصحابه للعظة والاعتبار، فيمكن تصنيف القصص النبوية إلى ثلاثة أنواع: قصص الأنبياء والمرسلين، وقصص بني إسرائيل، وقصص لم يحدد زمانها ولا مكانها ولا أقوامها^{٩٠}؛ ومن مقاصدها إذ تُصوّر وقائع وأحداثاً قد يتصوّر وقوعها، وقد تقع على أرض

^{٨٣} القرآن الكريم، سورة العنكبوت ٢٩: ٦٤.

^{٨٤} القرآن الكريم، سورة الممتحنة ٦٠: ٦.

^{٨٥} القرآن الكريم، سورة يوسف ١٢: ٣.

^{٨٦} القرآن الكريم، سورة يوسف ١٢: ١١١.

^{٨٧} القرآن الكريم، سورة القمر ٥٤: ٤-٥.

^{٨٨} انظر: سليمان الأشقر، صحيح القصص النبوي، ٥.

^{٨٩} حافظ محمد بادشاه، 'القصة النبوية: خصائصها وأهدافها التربوية'، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب: لاهور،

باكستان ١، العدد ٢٢ (٢٠١٥): ١٣٥-١٧٦.

^{٩٠} حافظ محمد بادشاه، 'القصة النبوية: خصائصها وأهدافها التربوية'.

الواقع ويستسيغ العقل وقائعها؛ كقوله النبي ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة...»^{٩١}. وكثيراً ما كان ﷺ يُعَلِّم أصحابه بطريق القصص والوقائع التي يُحَدِّثُهُمْ بِهَا عن الأَقْوَامِ المَاضِينَ، فهذا النوع يضربُه الرسول ﷺ مثلاً للفكرة المطروحة أو القضية المقررة، سواء وقع هذا المثل على أرض الواقع أو لم يقع، وتأتي القصة النبوية وسيلة من وسائل التصوير، ثُمَّ إن التصوير بالقصة من أجمل الأساليب وأعمقها أثراً في النفس^{٩٢} والجامع بينهما كلها أنها وقعت في الزمن الماضي مما لم يشهده رسول الله ﷺ ولا صحابته رضي الله عنهم فجاء خبره إلى النبي ﷺ عن طريق الوحي فقصّه وبينه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ • إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^{٩٣}؛ ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ^{٩٤}. **ثانياً: القصص الذاتية الشخصية**، هو ما حكاه النبي ﷺ عن تجاربه الشخصية قبل البعثة أو بعدها، توصلاً لغرض تربوي أو دعوي^{٩٥}، وقد شبّهه محمد بن حسن الزبير بـ"المذكرات" التي تنتخب أبرز المواقف المؤثرة في ترسيخ الرسالة وتعميق الإيمان، فقال محمد بن حسن الزبير: "وهذه القصص أشبه ما تكون بالمذكرات التي يسجلها الإنسان عن بعض ما يمر به في حياته، والرسول ﷺ في هذا النوع ينتخب أهم تجاربه الذاتية، ويتخير أكثرها إثارة ليجعلها مادة قصصية، ينسج منها ما يقصه على أصحابه، مستهدفاً من وراء ذلك ما يحققه غرض هذه التجارب من تعميق إيمان الصحابة بالرسول والرسالة"^{٩٦}.

ثالثاً: القصص الغيبية المستقبلية: القصص الغيبية المستقبلية الواقعة للرسول ﷺ منها القصة الغيبية التي تتناول أحداثاً ووقائع من صميم الغيب، مستمدة من مشاهد الآخرة، وهي غيب سواء وقعت في الماضي البعيد، أو ستقع في المستقبل في نهاية الحياة، وهي بالنسبة للإنسان غيب مجهول، كخبر الدجال وحال يوم القيامة وغيرها^{٩٧}. جاء وصية النبي ﷺ بأهل مصر

^{٩١} البخاري، الصحيح، كتاب: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ٣: ١٣٩، (٢٤٩٣).

^{٩٢} محمد بن لطيفي الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٣)، ٤٩٨-٤٩٩.

^{٩٣} القرآن الكريم، سورة النجم ٥٣: ٤-٣.

^{٩٤} السعدي، تفسير كلام المنان، ٨١٨.

^{٩٥} حافظ محمد بادشاة، 'القصة النبوية: خصائصها وأهدافها التربوية'.

^{٩٦} محمد بن حسن الزبير، القصص في الحديث النبوي، (الرياض: د.ن، د.ط، ١٩٨٥م)، ص ٣٣١.

^{٩٧} حافظ محمد بادشاة.

خيرًا لأجل هاجر ﷺ، من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة فآخرج منها»^{٩٨}.

وعليه، فإن القصص في القرآن الكريم والسنة النبوية ليس مجرد التسلية، بل يحمل أبعادًا تربوية ومقاصد دعوية عظيمة، منها: تثبيت العقيدة، والاعتبار بسير المرسلين، والتحذير من عواقب الكفر، وترسيخ القيم الإيمانية والاجتماعية. فالقرآن يروي القصص لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتثبيت فؤاد النبي ﷺ، وهداية المؤمنين، بينما السنة النبوية جاءت مؤكدة لهذه المقاصد، وامتازت بأنواعها الثلاثة: التاريخي، والذاتي، والغيبى المستقبلي، وكلها تسعى لبناء الشخصية المؤمنة وتعميق الفهم الرسالي للواقع والغيب، مع إبراز القدوة العملية في حياة الأنبياء والمرسلين ﷺ.

المطلب الثالث: البعد المستقبلي لرسالة النبي ﷺ ودور القيادات الأسرية والمجتمعية في تحقيق مقاصدها

ومن القصص النبوية الغيبية ما يشير إلى مسؤوليات مستقبلية تقع على عاتق الأمة بعد النبي ﷺ، ومنها مسؤولية فتح "رومية" بعد فتح "القسطنطينية"، كما في الحديث الصحيح، وفيه إشارة إلى مهمة للأمة في مستقبل الإسلام.

يمكن أن يقال: مسؤوليتان في آخر الزمان من رسول الله ﷺ، لا لصحابة النبي ﷺ، ولا لأجيال المسلمين العظماء قبلنا؛ من حديث أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي ﷺ وسئل أي المدينتين تفتح أولًا القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابا قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولًا أفسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل تفتح أولًا» يعني قسطنطينية^{٩٩}. وهذا يُلقي على الأمة، لا سيما الأسرة المسلمة، مسؤولية إعداد الأجيال الصالحة وفق منهج النبوة، تحقيقًا لوعده الله بعودة

^{٩٨} مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، ٣: ٩٧٠، (٢٥٤٣).

^{٩٩} أحمد بن حنبل، المسند، المحقق: شعيب الأرنؤوط، ٦: ٢٠٢، (٦٦٤٥). قال المحقق: إسناده صحيح.

الخلافة الراشدة، كما أشار النبي ﷺ إلى أهم الأحوال والخصائص لتفتح مدينة قسطنطينية، يقول النبي ﷺ: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية^{١٠٠}.

قال الألباني^{١٠١}: " و(رومية) هي روما كما في «معجم البلدان» وهي عاصمة إيطاليا اليوم؛ وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح، وسيحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولابد، ولتعلمن نبأه بعد حين. ولا شك أيضًا أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة^{١٠٢}. وهذا مما يبشرنا به النبي ﷺ بقوله في الحديث: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاصًا فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا

^{١٠٠} أحمد بن حنبل، المسند، المحقق: شعيب الأرنؤوط، ٣١: ٢٨٧، (١٨٩٥٧). قال المحقق: إسناده ضعيف.

^{١٠١} محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، (الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٩٥)، ١: ٦ (٦)؛ وانظر: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، جامع تراث العلامة الألباني في المنهج والأحداث الكبرى، (اليمن: مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، ٢٠١١)، ٢: ٦٠.

^{١٠٢} فيما يتعلّق بالبشارة النبوية المشار إليها أعلاه، فقد وردت آراء متعددة حول تحديد المقصود بها. فثمة من يرى أن الحديث عن فتح القسطنطينية لا يُنسب بالجزم إلى زمن السلطان محمد الفاتح، بل إن المقصود به قد يكون فتحًا يقع في آخر الزمان، كما أشار إلى ذلك شهاب الدين الألوسي، حيث قال: "وهذا الفتح يحتمل أن يكون هو الذي من إمارات الساعة ويحتمل أن لا يكون كذلك ويكون الفتح الذي هو من إماراتها ما يقع ومن المهدي ﷺ. وإنكار مجيء المهدي أشبه شيء بإنكار المتواتر". انظر: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب، (د.م: د.ن، د.ط، د.ت)، ٥٦. كما جاء في كتاب فقه أشراف الساعة، أن أحمد شاكر - من العلماء المعاصرين - رجّح أن فتح القسطنطينية الذي بُشِّر به في الحديث سيكون في مستقبل قريب أو بعيد، يعلمه الله ﷻ وهو الفتح الحقيقي حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه. وأما الفتح الأول الذي وقع على يد الأتراك، فإنه كان تمهيدًا للفتح الأعظم، خصوصًا أن المدينة قد خرجت من أيدي المسلمين بعد أن أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية، ووالد الكفار أعداء الإسلام، وحكمت الأمة بقوانين وضعية كافرة، وسيعود الفتح الإسلامي لها إن شاء الله كما بشر به رسول الله ﷺ. انظر: محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، فقه أشراف الساعة، ط ٦ (د.م: الدار العالمية، ٢٠٠٨م)، ٢٦٨. من هنا، يمكن القول إن تعيين زمن الحديث لا ينبغي أن يُبت فيه بتسرع، بل ينبغي إبقاؤه ضمن إطار الاحتمالات التي دلّت عليها النصوص.

فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافةً على منهاج النبوة»؛ ثم سكت^{١٠٣}.

وهذه من المبشرات الإيمانية بعودة القوة إلى المسلمين واستثمارهم الأرض استثماراً يساعدهم على تحقيق الغرض، وتنبيء عن أن لهم مستقبلاً باهراً حتى من الناحية الاقتصادية والزراعية قوله النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»^{١٠٤}.

بناءً على ذلك، يمكن أن يقال بأن إخبار النبي ﷺ عن مسؤولية الأسرة في آخر الزمن بالقصة الغيبة المستقبلية للإسلام؛ وذلك لإعداد الأجيال الصالحين على منهاج النبوة، لقد جاء الحديث الذي ذكر عن فتح المدينة التي جانب منها في البر وجانب في البحر، دون قتال، يُعدّ من الأحاديث العظيمة ذات الدلالات العميقة في فهم وظيفة الإيمان والكلمة الطيبة في التغيير الاجتماعي والفتح الحضاري، دون اللجوء إلى السلاح. وهذا الحديث يحمل قيمة تربوية عميقة، لأن تدمج في بحثنا التربوي عن الدوامية التربوية لأولي العزم من الرسل ﷺ. جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «سمعتُ بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق، فإذا جاءوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها، قال ثور: لا أعلمه إلا قال: الذي في البحر، ثم يقولون الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولون: لا إله إلا الله والله أكبر، فيفرج لهم، فيدخلوها، فيغنموا، فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ»^{١٠٥}. قال النووي في شرحه هذا الحديث: أي: "معجزة من معجزات النبي ﷺ، وفيه بيان فضل التوحيد، وأن الله يفتح به الأرض، ويُجري به السنن، ولو دون سلاح"^{١٠٦}.

من هنا، يمكن القول إن البعد المستقبلي لرسالة النبي ﷺ يقدم أنموذجاً واقعياً وتربوياً راقياً في بناء القوة الروحية، والأسرة، والمجتمع، دون اللجوء إلى العنف. وهو ما ينسجم مع

^{١٠٣} أحمد بن حنبل، المسند، المحقق: شعيب الأرناؤوط، ٣: ٣٥٥ (١٨٤٠٦). قال المحقق: إسناده حسن.

^{١٠٤} مسلم، الصحيح، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً، ٣: ١٢٣ (١٥٧).

^{١٠٥} مسلم، الصحيح، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب فتح قسطنطينية، ٣: ١٣٠ (٢٩٢٠).

^{١٠٦} نووي، المنهاج، ١٧: ٤٤.

منهج أولي العزم من الرسل ﷺ، الذين جمعوا بين الوحي والعمل الصالح، والدعوة والكلمة الطيبة، كأساس في التغيير والإصلاح، لا بالسلاح ابتداءً، بل بالدعوة القائمة على التربية الإيمانية^{١٠٧}.

بناءً عليه، يتبين أنّ الناس لا يستطيعون الانفصال عن سنن الله تعالى في الحياة، لذلك أرسل الله تعالى رسله، ومنهم أولو العزم من الرسل ﷺ، الذين يرشدون الناس إلى الهدى بمنهاج النبوة والشرائع. وكانت مهمة الرسل ﷺ هي الإرشاد والتوجيه عن طريق التربية بالكتاب والحكمة إلى ما فيه صلاح الإنسان والمجتمع؛ فهذه المصالح هي غاية النبوة ومقصد الشريعة^{١٠٨}. ويستشهد القرآن والسنة بأثلة مهمة من حياة هؤلاء الأنبياء والرسل ﷺ منهم أولي العزم من الرسل ﷺ في المجال الاجتماعي، كما قال علّال الفاسي: "إن الغاية من إرسال الأنبياء والرسل وإنزال الشرائع هو إرشاد الخلق لما به صلاحهم وأداؤهم لواجب التكليف المفروض عليهم"^{١٠٩}. وهذا المقصد من إرسال الأنبياء والرسل ﷺ، قدوة في صبرهم وعندهم العزم المحمود في تحمل المسؤولية لصلاح الأمة، وقد فسر ابن عاشور قول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^{١١٠}، أي العزم المحمود في الدين: العزم على ما فيه تركية النفس وصلاح الأمة، وقوامه الصبر على المكروه وباعث التقوى، وقوته شدة المراقبة بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبته نفسه؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^{١١١}، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^{١١٢}؛ وهذا قبل هبوط آدم إلى عالم التكليف، وعلى هذا تكون من في قوله: ﴿مَنْ

^{١٠٧} وسوف يأتي الحديث في الفصل الرابع عن أهم الأعمال التي يقوم بها عيسى ﷺ والبركات الظاهرة التي تعم الأرض في زمنه في آخر الزمان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها». البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم ﷺ، ٣: ٦٧ (٣٤٤٨).

^{١٠٨} علّال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣)، ٢٠.

^{١٠٩} علّال الفاسي، مقاصد الشريعة، ٤٨.

^{١١٠} القرآن الكريم، سورة الأحقاف ٤٦: ٣٥.

^{١١١} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١٨٦.

^{١١٢} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ١١٥.

الرُّسُلُ ﴿تبعيضية. وعن ابن عباس ؓ أنه قال: كل الرسل أولو عزم، وعليه تكون من بيانية؛ وهذه الآية اقتضت أن محمداً ؐ من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنه مثلهم لأنه ممثّل أمر ربه، فصبره مثيل لصبرهم، ومن صبر صبرهم كان منهم لا محالة^{١١٣}.

تبين من خلال الدراسة أنّ قصص أولي العزم من الرسل ؓ ليست مجرد سرد تاريخي، بل تمثّل منهجاً تربوياً متكاملًا في العقيدة والسلوك والإصلاح الاجتماعي، قائماً على مقاصد الوحي وتوجيهاته. كما تبرز هذه القصص دور الأنبياء في ترسيخ القيم الإيمانية ومواجهة الانحرافات، وتؤكد على البعد المستقبلي لرسالة النبي ﷺ، وما يترتب عليه من مسؤوليات تربوية تقع على عاتق القيادات الأسرية والمجتمعية. لذا، فإن إعادة قراءة هذه القصص بمنهج مقاصديّ تربويّ معاصر تُعدّ ضرورة لبناء الأمة في ضوء الوحي ومقاصده العليا.

خلاصة المبحث:

يتّضح من خلال هذا المبحث أنّ قصص أولي العزم من الرسل ؓ لم تُسّق في القرآن الكريم والسنة النبوية لمجرد التسلية أو السرد التاريخي، بل جاءت لتحقيق مقاصد عظيمة متعددة الأبعاد، تربوية وإيمانية واجتماعية، تنسجم مع طبيعة الرسالة الإسلامية الخالدة. وقد بيّنت الدراسة أن هذه القصص تمثل منهجاً متكاملًا في بناء الإيمان، وترسيخ معاني الصبر والتوكل والتزكية، وبيان كيفية مواجهة الانحرافات العقدية والاجتماعية. كما أبرز المبحث الأثر البالغ لهذه القصص في توجيه الدعاة والمربين إلى سبل الإصلاح من خلال الاقتداء بهؤلاء الرسل ؓ في مواقفهم التربوية والقيادية. وتجلّى من خلال التحليل أنّ هذه القصص تؤسس لبعْدٍ مستقبليّ في الرسالة النبوية يتمثّل في استمرار وظيفة القيادة الأخلاقية والدعوية، ودور القيادات الأسرية والمجتمعية في تحقيق مقاصد الوحي عبر الأجيال، تأسيًا بمنهج أولي العزم من الرسل ؓ.

^{١١٣} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٦: ٦٧.

المبحث الثالث: أهمية الجماعة ومنزلة أولى العزم من الرسل ﷺ في حياتهم الاجتماعية

تُعَدُّ الجماعة في الإسلام محوراً مهماً في تربية الأفراد وبناء المجتمع؛ وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية أهمية التكافل والتعاون بين المسلمين، بوصفهم جماعة، لتعزيز القيم الاجتماعية. وكان أولو العزم ﷺ ممن اصطفاهم الله تعالى، وكانت لهم مكانة عالية في حياتهم الاجتماعية؛ وقد قدّموا نماذج في الثبات والتحمل والصبر، في الدعوة والتربية والموعظة، لترسيخ الإيمان الحق في نفوس الأفراد. فسلامة الإيمان والالتزام بمقتضياته هما السبيل لتحقيق التربية الاجتماعية الصالحة^{١١٤}. وهذه القضية هي محور البحث في المطالب الآتية: المطلب الأول: فضل الجماعة والاجتماع في القرآن والسنة، والمطلب الثاني: منزلة أولى العزم من الرسل ﷺ في حياتهم الاجتماعية من خلال القرآن والسنة.

المطلب الأول: فضل الجماعة والاجتماع في القرآن والسنة

تشدد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أهمية الجماعة في بناء المجتمع الإسلامي، يحث القرآن الكريم على الاتحاد وعدم التفرق لتحقيق الجماعة. قال الله تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^{١١٥}، أي أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة^{١١٦}. جاء حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وإن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال»^{١١٧}.

إن الدعوة إلى الالتزام بالجماعة والتحذير من التفرق واضحة في السنة النبوية، ورد في الحديث ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «عليكم بالجماعة وإياكم

^{١١٤} انظر: محمد خليل محسن الديسي، التربية الاجتماعية في فكر الإمام الغزالي، (عمان: دار عمار، ط ١، ٢٠٠١)، ٩٣.

^{١١٥} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١٠٣.

^{١١٦} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١: ٣٩٦.

^{١١٧} مسلم، الصحيح، كتاب الأقضية: باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه، ٣: ١٣٤١ (١٧١٥).

والفرقة»^{١١٨}، قرره ابن العربي في تفسير الجماعة: "يتحمل معنيين: يعني أن الأمة إذا اجتمعت على قول فلا يجوز لمن بعدهم أن يحدث قولاً آخر. والثاني: إذا اجتمعت على إمام فلا يحل منازعته ولا خلافه"^{١١٩}.

ومن حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تلزَم جماعة المسلمين وإمامهم»^{١٢٠}. قال ابن حجر العسقلاني: "قالوا في هذا الأمر: اختلفوا، فقال قوم: هو للوجوب، والجماعة السواد الأعظم، وقال قوم: الجماعة الصحابة، وقال بعضهم: الجماعة أهل العلم؛ قال الطبري: والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأييد، فمن نكث عن بيعته خرج عن الجماعة؛ يظهر في حديث عمر رضي الله عنه الأمر الصريح بضرورة الالتزام بالجماعة، وفي حديث حذيفة رضي الله عنه يأتي التأكيد على هذا الأمر بصيغة الخبر، مما يظهر أن الالتزام بالجماعة واجب كما قاله ابن بطال، ويحمل تحذيراً شديداً؛ قال ابن بطال: فيه حجة لجماعة الفقهاء في وجوب لزوم الجماعة المسلمين، وترك الخروج على أئمة الجور"^{١٢١}. ونظراً لأهمية الالتزام بالجماعة وخطورة الانحراف عن الطاعة، يظهر أن تأثيرات الالتزام بالجماعة تكون عظيمة وإيجابية، بينما تكون تأثيرات الانحراف عنها خطيرة وسلبية. سنعرض بعض تلك التأثيرات لتعزيز الإدراك حول أهمية الالتزام بالجماعة والابتعاد عن الانحراف، منها:

أ. **الوقاية التامة والمحافظة والرعاية من الله ﷻ للجماعة**، جاء حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يد الله مع الجماعة»^{١٢٢}. يقول ابن الأثير في معنى

^{١١٨} الترمذي، السنن، أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ : باب ما جاء في لزوم الجماعة، ٤: ٣٨. (٢١٦٥). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

^{١١٩} عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، ٩: ١٠.

^{١٢٠} البخاري، الصحيح، كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام، ٤: ١٩٩ (٣٦٠٦).

^{١٢١} ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ١٣: ٣٧.

^{١٢٢} الترمذي، السنن، كتاب الفتن، ٤: ١١١ (٢٩٥٨). وقال الترمذي حديث غريب.

الحديث: "أي أن الجماعة المتفقة من أهل الإسلام في كنف الله ووقايته فوقهم، وهم بعيد من الأذى والخوف، فأقيموا بين ظهرانيهم" ^{١٢٣}.

ب. الرعاية الإلهية للجماعة عصمتها من الضلالة التي هي سبب كل شر وبلاء،

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عليه السلام قال: «إن الله لا يجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة» ^{١٢٤}؛ ولا شك أن الملازم للجماعة مشمول بتلك الرعاية داخل في تلك العصمة من الضلالة. ومن فوائد لزوم الجماعة استصلاح القلوب وتطهيرها من الغل، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث لا يُغل عليهن قلب مسلم؛ إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» ^{١٢٥}. يقول ابن الأثير رحمته الله: "والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والغل والشر" ^{١٢٦}. وقال ابن القيم رحمته الله: "أي لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة فإنها تنفي الغل والغش وفساد القلب وسخائه" ^{١٢٧}.

ج. لزوم الجماعة هي رحمة الله التي لا تفارق الجماعة، إن مفارقة الجماعة تخرج بأصحابها من تلك الرحمة إلى العذاب، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب» ^{١٢٨}. فملازمة العذاب للفرقة مثل ملازمة الرحمة للجماعة، وهذا أيضاً مفهوم من المقابلة بينهما في الحديث، وربما كانت مفارقة الجماعة والخروج من الطاعة سبباً لسوء الخاتمة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه

^{١٢٣} أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٨٠)، ٢٣.

^{١٢٤} الترمذي، السنن، كتاب الفتن، ٤: ١١٤ (٢١٦٧). وقال الترمذي هذا حديث غريب.

^{١٢٥} الترمذي، السنن، كتاب العلم، ٤: ٢٣٥ (٢٩٥٨). وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

^{١٢٦} ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ٣: ٣٨١.

^{١٢٧} ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ٧٩.

^{١٢٨} أحمد بن حنبل، المسند، المحقق: شعيب الأرئوط وأخرون، ٣٥: ٤٦٧ (٢١٥٩٠) قال المحققون: صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف.

ﷺ قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية»^{١٢٩}، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربطة الإسلام من عنقه»^{١٣٠}. كما تنتهي الرحمة بالملزم للجماعة إلى بحبحة الجنة؛ فقد ينتهي العذاب بالملزم للفرقة بأهل الفرقة إلى نار جهنم، فقد قال ﷺ: «إن الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ في النار»^{١٣١}.

بناءً عليه، فإن الالتزام بالجماعة يحمل تأثيرات إيجابية عظيمة، منها: الرعاية التامة من الله ﷻ، والعصمة من الضلالة وصلاح القلوب والرحمة من الله ﷻ؛ وعلى الجانب الآخر، يمكن أن يؤدي الانحراف عن الجماعة إلى تأثيرات سلبية، مثل العزلة الاجتماعية وفقدان التوجيه، وزيادة فرص الانحراف والعذاب وهي سبباً لسوء الخاتمة والعياذ بالله. لذا، تظهر أهمية التربية الاجتماعية في بناء الفرد والمجتمع، وتأكيد أهمية الالتزام بالقيم والأخلاق الاجتماعية التي يحددها القرآن والسنة.

ثانياً: مزايا المجتمع المسلم في القرآن والسنة

يتمثل المجتمع المسلم في القرآن والسنة بمزايا عديدة تجعله يحقق التكامل والتطور على المستويات الدينية والاجتماعية؛ يظهر ذلك في التربية الاجتماعية في الإسلام التي تحث على الوحدة والتعاون، ومن بين المزايا البارزة عنها:

أ. أن اجتماع المسلمين الكامل لا يكون إلا على الهدى، قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ

^{١٢٩} مسلم، الصحيح، كتاب الإمامة: باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، ٣: ٤٧٦ (١٨٤٨).

^{١٣٠} أبو داود، السنن، المحقق: شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي، أول كتاب السنة: باب في الخوارج، ٧: ١٣٦ (٤٧٥٨). قال المحقق: حديث صحيح لغيره.

^{١٣١} الترمذي، السنن، أبواب الفتن عن رسول الله: باب ما جاء في لزوم الجماعة، ٤: ٣٩ (٢١٦٧). وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

سَيَرَحْمَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^{١٣٢}، أي في الاجتماع على الهدى^{١٣٣}. وقد دل الحديث الدس رواه أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أجاركم من ثلاث خلال: أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكون جميعاً، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق وأن لا تجتمعوا على ضلالة»^{١٣٤}. ومما يسهم في المحافظة على وحدة الأمة، ويظهر النص أن التمايل نحو الضلالات والمفاسد يشكل تهديداً للتماسك والوحدة في الأمة الإسلامية، ويدعو إلى تجنب هذا لضمان القوة والاستقرار، وتعتبر مرجعاً لتحديد الضلالات والتهديدات التي تواجه الأمة الإسلامية أمران اثنان، وهما صحة الفهم وحسن القصد. قال ابن قيم الجوزية: "صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم على عبده، ما أعطي عبد عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجلّ منهما؛ بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد مقصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهمهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذي أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة. وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفساد والحق والباطل"^{١٣٥}.

ب. وأن الأصل في اجتماع المسلمين هو الحب في الله في منزلة الأخوة الإيمانية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^{١٣٦}. واستعمال أداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ بليغ الدلالة على استحكام الأخوة بين المؤمنين وانتفاء غيرها. قال السعدي في تفسير الآية: "هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض

^{١٣٢} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ٧١.

^{١٣٣} أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص، أحكام القرآن، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥)، ١٣.

^{١٣٤} أبو داود، السنن، المحقق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، أول كتاب الفتن: ذكر الفتن ودلائلها، ٦: ٣٠٧، (٤٢٥٣)؛ خلاصة حكم الحديث: قال المحقق: هذا الحديث إسناده ضعيف.

^{١٣٥} ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١: ٨٧.

^{١٣٦} القرآن الكريم، سورة الحجرات ٤٩: ١٠.

ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون، ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له، ما يكرهون لأنفسهم^{١٣٧}. ولهذا قال النبي ﷺ: «أمرًا بحقوق الأخوة الإيمانية، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبيع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره»^{١٣٨}. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن، كالبنيان يشد بعضه بعضًا وشبك ﷻ بين أصابعه»^{١٣٩}.

ولقد أمر الله ورسوله، بالقيام بحقوق المؤمنين، بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتودد، والتواصل بينهم^{١٤٠}. يتم التأكيد على أهمية العلاقات الاجتماعية بين المؤمنين وكيف يلعب الإيمان بالله دورًا حيويًا في تعزيز تلك العلاقات؛ ويظهر النص أن قوة الروابط الاجتماعية تنبع من محبة الله التي تتجذر في قلوب الأفراد وتجمعهم في روح الأخوة والتضامن، والتركيز على الإيمان بالله والاعتصام به يعزز الأخوة ويؤدي إلى تكوين علاقات متينة ومترابطة، وذلك بأن هذه الروحانية والترابط الاجتماعي يمكن أن يكونا سببًا للتكريم في الحياة الدنيا والآخرة؛ فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلمهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجلان تحابا في الله...»^{١٤١}. وتحقيق وحدة المسلمين وتعزيز التلاحم والتكاتف بينهم يعتبران أمورًا أساسية تنبع من الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ حيث تبرز قيم الأخوة في الله وتستند إلى محبة الله سبحانه؛ فهناك مقتضيات اجتماعية تتعلق بحب الله واتباع التوجيهات الدينية، من أهمها: عدم التفرق والتنازع، لأن الاعتصام بالله تعالى والاستقامة بدينه يشكل أساسًا للتقارب بين المؤمنين وهو نعمة من الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ

^{١٣٧} السعدي، تيسير الرحمن، ٨٠٠.

^{١٣٨} مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ٤: ٩٨٦، (٢٥٦٤).

^{١٣٩} البخاري، الصحيح، كتاب المظالم باب نصر المظلوم، ٣: ١٢٩ (٢٤٤٦).

^{١٤٠} السعدي، تيسير الرحمن، ٨٠٠.

^{١٤١} البخاري، الصحيح، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود باب فضل من ترك الفواحش، ٨: ١٦٣، (٦٨٠٦).

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا^{١٤٢}، والتعاون والتناصر، قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ^{١٤٣}﴾، قال الطبري: "فإن صفتهم أن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم"^{١٤٤}.

بناءً عليه، وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية على أهمية الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية وتمسك الأفراد والجماعات بالعقيدة الصحيحة والفهم الصحيح، وضرورة التمسك بالهدى النبوي وتجنب الانحراف والفساد والتفرق، كما حذر الله ﷻ ورسوله ﷺ من خطر التفرق والاختلاف نتيجة انحراف بعض الجماعات عن القيم والآداب الإسلامية والعلاقات الاجتماعية الصحيحة.

المطلب الثاني: منزلة أولي العزم من الرسل ﷺ في حياتهم الاجتماعية
تظهر منزلة عظيمة لأولي العزم من الرسل ﷺ في حياتهم الاجتماعية وتبين تلك المنزلة من خلال هذه الصفات:

أولاً: الأئمة في الدين

كلمة الأئمة مأخوذة من الإمام وهو كل من اقتدي به، وقدّم في الأمور، وأم القوم أي تقدمهم، والجمع أئمة والنبي ﷺ له إمام الأمة، والخليفة إمام الرعية^{١٤٥}. وهي تعني المؤتم به، كأن يقتدي بقوله أو فعله، أو غير ذلك محققاً كان أو مبطلاً^{١٤٦}. وقد استخدمت النصوص القرآنية مصطلح الإمامة ومرادفاته المتعددة للتعبير عن جماعة الصفوة التي تتولى قيادة المجتمعات وتوجيهها نحو الإيمان أو الكفر، كما أكدت النصوص ما للأئمة من أدوار مؤثرة وفعالة في حياة الجماعات والمجتمعات التي ينتمون إليها، يقول الله عن دعاة الكفر: ﴿وَإِنْ

^{١٤٢} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١٠٣.

^{١٤٣} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ٧١.

^{١٤٤} الطبري، تفسير الطبري، ١٤: ٣٤٧.

^{١٤٥} انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١: ٢٨؛ وانظر: ابن منظور، لسان العرب، ٣: ٢٧٠.

^{١٤٦} انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، ١: ٨٧.

نَكَلُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ^{١٤٧}. وتحدد النصوص القرآنية طبيعة مسعى أئمة الكفر حيث يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ^{١٤٨}﴾. أما من يدعو منهم إلى الإيمان فإن ذلك لا يتم إلا بوحى من الله وتوفيقه حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ^{١٤٩}﴾. كما أن الله هو الذي يختار الأئمة كما في قوله تعالى: ﴿وَوَرِّدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ^{١٥٠}﴾.

بناءً على ما سبق؛ أن من مهمة الأئمة في الدين هي إرشاد الناس للهداية، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا^{١٥١}﴾، وأشار الألوسي إلى أن الأئمة في الدين قادة يملكون الأرض والسلطان، دعاة إلى الخير مقتدى بهم في الدين والدنيا^{١٥٢}. والأئمة في الدين وسيلة للحصول على المعرفة، لأن العلم قد يأتي من السؤال الجاهل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^{١٥٣}﴾، ووسيلة لتحصن المجتمع بالأئمة في الدين بالرجوع إليهم عند الاختلاف والتنازع وقيهم من الوقوع في مسالك الفساد والذيلة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا^{١٥٤}﴾. إذاً يمكن القول أن مصطلح الأئمة ما هو إلا تعبير عن جماعة الرؤساء التي تهدى

^{١٤٧} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ١٢.

^{١٤٨} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ٤١.

^{١٤٩} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٧٣.

^{١٥٠} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ٥.

^{١٥١} القرآن الكريم، سورة السجدة ٣٢: ٢٤.

^{١٥٢} انظر: شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المحقق: على عبد الباري عطية (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥)، ١: ٧٥؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٠: ٧١؛ وانظر: اللجنة من علماء الأزهر، تفسير المنتخب (القاهرة: مؤسسة الأهرام للطباعة والنشر، ١٩٩٥)، ٢: ١٧٥.

^{١٥٣} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٧.

^{١٥٤} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ٨٣.

قومها إلى الخير أو ترديهم في الشر، لذلك فهي "تتفق مع كل من الملائ والبطانة كإحدى جماعات الصفوة داخل المجتمع وإن كان هناك اختلاف في دور وشكل كل منها"^{١٥٥}. وأما معنى الإمامة هنا فهي الإمامة في الخير والدين، كما فسر الطبري عندما أراد جل ثناؤه بقوله لإبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^{١٥٦}، أي: "إني مصيرك تؤم من بعدك من أهل الإيمان بي وبرسلي، تتقدمهم أنت، ويتبعون هديك، ويستنون بسنتك التي تعمل بها، بأمرى إياك ووحىي إليك"^{١٥٧}.

وأما صفات الإمام فهي كما ذكرها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ • شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^{١٥٨}. ذكر ابن القيم بأن مدح الله خليله بأربعة صفات، وهي: العلم، والعمل بموجبه، وتعليمه، ونشره، وهذه الآية تضمنت أربع صفات للإمام المتميز بقدرات وطاقات خاصة موظفة في طاعة الله ﷻ؛ أولاً: أنه ﷺ أمة؛ القدوة الذي يؤتم به وقد جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقي فيها فرادى وحده^{١٥٩}؛ ثانياً: أنه ﷺ قانتاً لله؛ القنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة^{١٦٠}؛ ثالثاً: أنه ﷺ حنيفاً؛ والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه^{١٦١}، ورابعاً: أنه ﷺ شاكراً لأنعمه؛ الشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان؛ وهي: الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب^{١٦٢}.

^{١٥٥} انظر: صلاح مصطفى الفوال، التصوير القرآني للمجتمع نظرية الإسلام الاجتماعية، (القاهرة: دار الفكر العربي د.ط، ١٩٨٥)، ١٤٣.

^{١٥٦} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٤.

^{١٥٧} الطبري، جامع البيان، ٢: ١٨.

^{١٥٨} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ١٢١-١٢٠.

^{١٥٩} الأمة هي الطائفة العظيمة من الناس التي تجمعها جهة جامعة. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٤: ٣١٥-٣١٦.

^{١٦٠} القانت هو المطيع. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٤: ٣١٥-٣١٦.

^{١٦١} الحنيف هو المجانب للباطل. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٤: ٣١٥-٣١٦.

^{١٦٢} انظر: ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ٢: ٣٢-٣١.

ثانيًا: خيار الأمة

لفظ الخيار أو الخير أصله العطف والميل، ثم يحمل عليه. فالخير خلاف الشر، لأن كل أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه والخير: الكرم^{١٦٣}. قال الراغب الأصفهاني: "الخير: ما يرغب فيه الكل، كالعقل مثلاً، والعدل والفضل والشيء النافع وضده الشر"^{١٦٤}.

وقد أطلقت النصوص القرآنية مصطلح الأخيار على من اصطفاهم الله ﷻ له من البشر ليحملوا رسالات ربهم إلى الناس مبشرين ومنذرين قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ • إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ • وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾^{١٦٥}. ذكر صلاح الفوال أن هذا النص القرآني يوضح أن أنبياء الله ورسله قد تم اصطفاؤهم من بين خلق الله تعالى جميعاً حتى ينالوا شرف تبليغ رسالات ربهم للناس، وأن لذلك الاصطفاء أسماء ومقومات منها ثباتهم على عبادة الله تعالى؛ وكذلك توحيدهم الله ومعرفتهم بأنه لا شريك له في الملك ولا في الحمد حتى استحقوا أن يرسلهم الله إلى أقوامهم أو إلى العالمين كما هو الشأن في نبوة سيد الخلق محمد ﷺ^{١٦٦}.

مما تقدم يتبين لنا أن أولي العزم من الرسل ﷺ هم الأخيار والصفوة من الناس الذين اصطفاهم الحق تبارك وتعالى واختارهم ليلغوا رسالاته إلى الناس لصلاح الأمة.

ثالثًا: الأسوة والقدوة في المجتمع

كلمة الأسوة مأخوذة من سوى يدل على استقامة واعتدال بين شيئين^{١٦٧}. وهي: "الواقع الحي الملموس الذي يدعو إلى الامتثال بالعمل قبل القول"^{١٦٨}. وأيضًا: اتباع المرئي والتأسي به في جميع أقواله وسلوكه حتى تتحول لديه تلك الأقوال وذلك السلوك إلى أخلاق مكتسبة^{١٦٩}.

^{١٦٣} انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢: ٢٣٢

^{١٦٤} الراغب الأصفهاني، المفردات، ١: ٣٠٠.

^{١٦٥} القرآن الكريم، سورة ص ٣٧: ٤٥ - ٤٨.

^{١٦٦} انظر: صلاح الفوال، التصوير القرآني للمجتمع، (القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩)، ١٣٦-١٣٧.

^{١٦٧} انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٣: ١١٢

^{١٦٨} بريكان بركي القرشي، القدوة ودورها في تربية النشء، (مكة: المكتبة الفيصلية، بدون تاريخ، ١٩٨٤)، ٥٩.

وقد جاءت في القرآن الكريم كلمة أسوة مضافة إليها كلمة حسنة، كما في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^{١٧٠}، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، تحدد النصوص القرآنية من خلال الآية أن الهدف من الأسوة الحسنة، هو الوصول إلى طاعة الله والفوز برضوانه^{١٧١}.

والأسوة الحسنة ممتدة من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى خير البرية محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^{١٧٢}، قال الشعراوي: "كأن الأسوة الحسنة مكانها كل رسول الله، فهو ﷺ ظرف للأسوة الحسنة في كل عضو فيه، ففي لسانه أسوة حسنة، وفي عينه أسوة حسنة، وفي يده أسوة حسنة إلخ، كله أسوة حسنة"^{١٧٣}. وهو الله ﷻ الذي قال فيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^{١٧٤}، قال الصابوني: "وقد كان من خلقه العلم والحلم، وشدة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء، والصبر والشكر، والتواضع والزهد والرحمة والشفقة، وحسن المعاشرة والأدب، إلى غير لك من الخلال العلية، والأخلاق المرضية"^{١٧٥}. ولا يتحقق اقتداء الفرد برسول الله ﷺ إلا باتباعه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^{١٧٦}، وذلك لأن طاعة الرسول في جوهرها طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^{١٧٧}، وكذلك محبة له، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^{١٧٨}، والاتباع ليس اتباعاً في القول فقط، وإنما هو كذلك سلوكك تتجسد من خلاله خشية الله والاحتكام إليه وإلى الرسول

^{١٦٩} أحمد سعيد علي الغامدي، دراسات في التربية الإسلامية، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٥)، ٧ - ٥٧.

^{١٧٠} القرآن الكريم، سورة الممتحنة ٦٠: ٦.

^{١٧١} انظر: صلاح الفوال، التصوير القرآني للمجتمع، ٤٣٦.

^{١٧٢} القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٣٣: ٢١.

^{١٧٣} الشعراوي، خواطر، ١٤: ٨٩٥٨.

^{١٧٤} القرآن الكريم، سورة القلم: ٤.

^{١٧٥} محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ٣: ٤٢٥.

^{١٧٦} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ٦٤.

^{١٧٧} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ٨٠.

^{١٧٨} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٣١.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ • وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^{١٧٩}.

وبهذا يتبين لنا أن أولي العزم من الرسل ﷺ يُعد الأسوة والقدوة للمجتمع نظرًا لأنهم يحاكونهم سلوكًا وخلُقًا؛ قولًا وعملاً، لذا عليهم الالتزام بتعاليم الشريعة الإسلامية وأن يكونوا قدوة حسنة لمجتمعهم ومثلاً أعلى لهم بالتمسك بمبادئ وقيم الشريعة السمحة.

مما سبق يمكن القول بأن القدوة الحسنة هي المثال الواقعي للسلوك الإنساني المتحلية بالفضائل الممتازة فتعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل إنما هي من الأمور الممكنة، التي هي في متناول القدرات الإنسانية وبناء على ذلك فأولى باتباع هدي أولي العزم من الرسل ﷺ في حسن خلقهم، فهم الدعاة ومن حذا حذوهم استجابة لحث الله لهم، وترجمة لما يحملون ويدعون إليه من قيم وأخلاق إسلامية عالية.

رابعاً: أهل الشفاعة

كلمة الشفاعة مأخوذة من الشفع؛ وفي هذا يقول الراغب الأصفهاني: "الشفع: ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصر له وسائله عنه وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى مرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة"^{١٨٠}. وسميت الشفاعة بذلك لأن المشفوع له يأتي بالشافع ليطلب له مصلحة، فبعد أن كان واحداً دخل معه الشافع فأصبحا شفعاً، فكان الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له^{١٨١}.

مما سبق، يظهر لنا أن كلمة الشفاعة ومشتقاتها تحتوي على معنى الطلب والسؤال، والضم والإعانة والوسيلة فالطلب يكون في الغالب عن طريق السؤال، وتكون نتيجته بضم شيء إلى آخر، وفيه زيادة وإعانة وتوسل.

^{١٧٩} القرآن الكريم، سورة التور ٢٤: ٥١-٥٢.

^{١٨٠} الراغب الأصفهاني، المفردات، ٤٥٧.

^{١٨١} انظر: السفاريني، لوايح الأنوار البهية، ٢: ٢٠٤.

ويقصد بالشفاعة اصطلاحًا: "التوسط للغير يجلب منفعة أو دفع مضرة، فتكون الشفاعة دائرة على أمرين: جلب المنفعة ودفع البلاء"^{١٨٢}. ولا بد فيها من شافع، ومشفوع له، ومشفوع فيه، ومشفوع إليه^{١٨٣}، فهذه الأربعة هي تعتبر أركان الشفاعة^{١٨٤}. ولقد أشارت النصوص القرآنية إلى أن مصطلح الشفاعة يشير إلى أمرين هما: وساطة الناس فيما بينهم، وكذلك الوساطة بين الناس وبين الله تعالى^{١٨٥}، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^{١٨٦}، ذكر الزمخشري أن هذه الآية الكريمة تدل على ثبوت شفاعة الشفيع بإذن الله، فلا أحد يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن الله له في الكلام^{١٨٧}. وبهذا يظهر لنا أنه لا يمكن لأحد أن يشفع لأحد إلا بإذنه الله ﷻ. فلا يملك أحد الولاية والقدرة على الشفاعة إلا الله تعالى. ومن شروط الشفاعة التي ذكرها الله على الإذن من الله للشافع والمشفوع، والرضا من الله عن الشافع والمشفوع^{١٨٨}، وزاد إبراهيم الحازمي شرطين آخرين، هما: الموت على التوحيد من المشفوع يقينًا وصدقًا، والعهد ويقصد به العمل الصالح^{١٨٩}.

وقد أشارت النصوص القرآنية إلى الشفاعة فيما بين الناس بعضهم لبعض في الدنيا، واعتبرت ذلك عملاً يستحق الثواب إن كان في طاعة الله تعالى، وعملاً يستحق العقاب إن كان مخالفًا لشريعة الله تعالى^{١٩٠}، فقال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ

^{١٨٢} محمد بن الصالح العثيمين، شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، خرج أحاديثه واعتنى به سعد بن فواز الصميل، ط٧ (الرياض: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٣)، ٤٠٦.

^{١٨٣} انظر: القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، شرح الأصول الخمسة، تعليق أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، حققه وقدم له: عبد الكريم عثمان (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٦)، ٦٨٨.

^{١٨٤} انظر: العثيمين، شرح العقيدة الواسطية، ٤٠٦.

^{١٨٥} انظر: صلاح الفوال، التصوير القرآني للمجتمع، ١٤٧.

^{١٨٦} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٥٥.

^{١٨٧} انظر: الزمخشري، الكشاف، ١: ٤٨١.

^{١٨٨} انظر: السيد سابق، العقائد الإسلامية، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢)، ٢٧٤.

^{١٨٩} انظر: إبراهيم بن عبد الله الحازمي، الشفاعة وبيان الذين يشفعون كما ورد في القرآن والسنة، (الرياض دار الشريف، ١٩٩٣)، ١٢.

^{١٩٠} انظر: صلاح الفوال، التصوير القرآني للمجتمع، ١٤٧.

مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا»^{١٩١}. أي وسائطهم بينهم في حوائجهم، فمن يشفع لينفع فله نصيب وثواب لشفاعته الحسنة، ومن يشفع ليزر، فله كفل، أي نصيب. فهي تتضمن التحريض على الشفاعة في أمور الخير، كبناء مسجد، أو مشفى، أو مدرسة، أو جهاد في سبيل الله أو إحسان إلى المحتاجين أو إنقاذ الضعفاء والمساكين أو تحقيق مصلحة عامة للمجتمع في القرية أو المدينة أو الدولة؛ والشفاعات في هذا الاتجاه مطلوبة، لأنها تعاون على البر والتقوى، وإبعاد للناس عن الشر والضرر، وتحقيق البناء الاجتماعي المتين. ولهذا قال النبي ﷺ: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء»^{١٩٢}.

وأما الشفاعة السيئة في الأمور الضارة، فقد نهي القرآن الكريم عنها، لضررها وإفسادها الضمائر والنفوس، والإساءة فيها للمصلحة العامة، ومن أمثلة الشفاعة السيئة: التوسط لإيذاء شخص، أو الاعتداء على عرضه أو ماله، أو السعي بالإفساد بين الناس، أو دفع الرشاوى لتضييع الحقوق أو الاستيلاء على مال الآخرين، أو محاولة تعطيل حد من حدود الله، أو تبرئة ظالم أو جان أو متهم باختلاس أو تزوير أو محاولة إهدار أو إنقاص حق من الحقوق المالية أو الأدبية، كتجاوزات الجيران بعضهم على بعض في الأرض أو السكن أو العمل، فكل هذه الأمثلة من أنواع الشفاعة السيئة، ومن شفع شفاعة سيئة فقد وقع في الإثم الكبير وعرض نفسه لسخط الله تعالى^{١٩٣}.

وشفاعة الناس فيما بينهم لا تقتصر على أمور الدنيا فقط، بل يشمل ذلك أمور الآخرة أيضاً، فهناك منازل أُولي العزم في الشفاعة؛ من الحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتى رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه. فنهس منها نحسه فقال: "أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بما ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟

^{١٩١} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ٨٥.

^{١٩٢} البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، ٢: ١١٣ (١٤٣٢)؛ ومسلم،

الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب استجابة الشفاعة فيما ليس بحرام، ٤: ٢٠٢٦، (٢٦٢).

^{١٩٣} وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير الوسيط للزحيلي، (دمشق: دار الفكر، ط ١، ٢٠٠١)، ١: ٣٥٥.

ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا في ربك! ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري! اذهبوا إلى غيري! اذهبوا إلى نوح! ١٩٤. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً. اشفع لنا إلى ربك! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ! ١٩٥. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم! أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك! ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وذكر كذباته؛ نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري!، اذهبوا إلى موسى! ١٩٦. فيأتون موسى ﷺ فيقولون: يا موسى! أنت رسول الله، فضلك الله، برسالاته وبتكليمه، على الناس. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. وإني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها. نفسي. نفسي. اذهبوا إلى عيسى ﷺ! ١٩٧. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى! أنت رسول الله، وكلمت الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنباً؛ نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري!، اذهبوا إلى محمد ﷺ! ١٩٨. فيأتوني فيقولون:

١٩٤ مسلم، الصحيح، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١: ١٨٣، (١٩٣).

١٩٥ مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١: ١٨٣، (١٩٣).

١٩٦ مسلم، ١: ١٨٥، (١٩٣).

١٩٧ مسلم، ١: ١٨٥، (١٩٣).

١٩٨ مسلم، الصحيح، ١: ١٨٦، (١٩٣).

يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء. وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح له لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا رب! أمتي، أمتي، فيقال: يا محمد! أدخل الجنة من أمتك، من لا حساب عليه، من الباب الأيمن من أبواب الجنة؛ وهو شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب؛ والذي نفس محمد بيده! إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر. أو كما بين مكة وبصرى»^{١٩٩}.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول بأن أولي العزم من الرسل ﷺ يوم القيامة لهم منازل عظيمة دون باقي الخلق، وأخبرنا الله ﷻ ورسوله ﷺ أن الرسل تميز بعضهم على بعض من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، بإيحائه وإرساله للناس، ومنهم من كلمه الله ﷻ، ومنهم من رفعه درجات، وفضل بعضهم على بعض أيضاً فيما بينهم بإعطائهم الأوصاف الحميدة، والأفعال الصالحة، والنفع العامة للناس، ويستدل على ذلك بما ورد في الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^{٢٠٠}. قال ابن كثير: "هذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله»^{٢٠١}. فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، وإن أولي العزم من الرسل ﷺ هم الأعلى درجة، وهم الخمسة المذكورون في النصوص القرآنية، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور^{٢٠٢}؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم

^{١٩٩} مسلم: ١٨٦، (١٩٣).

^{٢٠٠} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٥٣.

^{٢٠١} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين، ٣: ١٥٩ (٣٤١٤)؛ مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام، ٧: ١٠٠ (٢٣٧٣).

^{٢٠٢} انظر: السفاريني، لوايح الأنوار، ٢: ٢٩٩؛ وانظر: سعيد حوى سعيد بن محمد، الأساس في التفسير، (القاهرة: دار السلام، ١١٦، ١٩٨٩)، ٦: ٣٠٩٧.

القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»^{٢٠٣}. وانطلاقاً من هذا كانت مسؤوليتهم عظيمة في الدنيا والآخرة، لعظم قدرهم، ولهذا أكرمهم الله تعالى إذ أذن لهم بالشفاعة للمؤمنين.

تبين مما سبق أن أولي العزم من الرسل ﷺ يتمتعون بمنزلة رفيعة، وخصائص عظيمة، كما ورد في أوصافهم التي أثبتها الله تعالى ورسوله ﷺ؛ فهم أئمة في الدين، وخيار من خيار الأمة، وهم الأسوة والقدوة لغيرهم من عامة الناس، وأهل الشفاعة يوم الدين.

خلاصة الفصل:

يتبين من خلال النصوص الشرعية أنّ التربية الاجتماعية في الإسلام تحتل مكانة جوهرية في بناء الفرد والمجتمع، وتنسجم تماماً مع مقاصد القرآن والسنة. وقد كان لوجود أولي العزم من الرسل ﷺ في هذا المجال أثرٌ عظيم في تحقيق تلك المقاصد، ومن أبرزها: التوحيد، وتبليغ الرسالة وبيانها، وتعليم الكتاب والحكمة، والتزكية والتأديب، وتحمل أمانة الاستخلاف في الأرض، وعمارتها بالعدل. وفي المقابل، فإن غياب هذا الدور أو الانحراف عنه يؤدي إلى اضطراب اجتماعي وأخلاقي، ويُفضي إلى انتشار الظلم، والجشع، والفساد. وسوف يأتي الحديث عن جهود أولي العزم من الرسل ﷺ في ميادين التربية الاجتماعية وأثرها في الوقاية من الانحرافات في ضوء مقاصد القرآن والسنة في الفصل الرابع.

^{٢٠٣} مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، ٤: ١٧٨٢ (٢٢٧٨).

الفصل الرابع

جهود أولي العزم من الرسل ﷺ في ميادين التربية الاجتماعية

تمهيد

لقد جاءت بعثات أولي العزم من الرسل ﷺ نموذجًا تطبيقيًا للتصدي لهذه الانحرافات من خلال منهج تربوي متكامل. فقد واجهوا الاستخفاف والإنكار والعناد الاجتماعي؛ ليس بالقُدوة وحدها، بل ببناء الناس من الداخل، وتصحيح المفاهيم العقدية والاجتماعية، مما أضفى على دعوتهم طابعاً تربوياً جذرياً ودائماً.

وانطلاقاً من ذلك، يسعى هذا الفصل إلى تحليل جهود أولي العزم من الرسل ﷺ في ميادين التربية الاجتماعية، من خلال المباحث الآتية: المبحث الأول: اهتمامات أولي العزم من الرسل ﷺ في ميادين التربية الاجتماعية، والمبحث الثاني: التحديات المعاصرة في ميادين التربية الاجتماعية، والمبحث الثالث: جهود أولي العزم من الرسل ﷺ في مواجهة الانحرافات الاجتماعية، والمبحث الرابع: المقارنة المنهجية بين التربية الاجتماعية الربانية والتربية الغربية ومقاصدهما من خلال قصص أولي العزم من الرسل ﷺ.

المبحث الأول: اهتمامات أولي العزم من الرسل ﷺ بميادين التربية الاجتماعية

سيتناول هذا المبحث مطلبين رئيسيين: المطلب الأول: ميادين التربية الاجتماعية في دعوات أولي العزم من الرسل ﷺ، والمطلب الثاني: مسؤولية أولي العزم من الرسل ﷺ في ميادين التربية الاجتماعية.

المطلب الأول: ميادين التربية الاجتماعية في دعوات أولي العزم من الرسل ﷺ

تُعَدُّ ظاهرة إنكار بشرية الرسل ﷺ من أخطر الانحرافات العقدية والسلوكية التي واجهت دعوات الأنبياء، وقد شكّلت حاجزاً نفسياً وفكرياً أغلق على كثير من الأقوام أبواب الهداية. وقد عبّر القرآن عن هذه العلة العقدية بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ

أَهْدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا^١، علّق ابن عاشور على هذه الآية بأنها تمثل قاعدة عامّة لردود فعل المكذّبين تجاه دعوة الرسل ﷺ، إذ جهلوا حكمة الله تعالى في إرسال بشرٍ يكون قدوةً وأُسوةً للناس في التبليغ والتزكية والتعليم، لأن القدوة كما يؤكّد؛ لا تتحقّق إلا من جنس المقتدي^٢. فكان استغرابهم من بشرية الرسول مانعًا عن الاتّباع والطاعة، وكأنّ الرسالة لا تليق بالإنسان. وقد أصلت السنة النبوية هذا المفهوم من خلال قاعدة التوازن بين الطاعة والحق، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «فقال النبي ﷺ: «من أمر بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة»^٣، وهو ما يبيّن أن الطاعة ليست خضوعًا أعمى، بل مسؤولية مقيدة بحدود الشرع، كما بيّن النووي في شرحه للحديث، موضحًا أن السلطة لا تستوجب الطاعة إلا في طاعة الله^٤. وهذا التوجيه يُنشئ تربية واعية لا تُسلّم بقيادة بلا حق، ولا تنقاد لحاكم دون ميزان الشريعة، بل تجعل الولاء مرتبطًا بالقيم لا بالمظاهر.

يتضح إذًا أن بشرية الرسل ﷺ كانت سببًا في إحياء القدوة الواقعية، وأن الطاعة عندهم قائمة على مضمون الحق لا مجرد الهيبة، وهذا أحد أركان التربية الاجتماعية الإيمانية التي تصنع حصانة فكرية ضد الانحرافات، وتجعل الأمة في وعي دائم تجاه مصدر التشريع والاتّباع.

جاءت بعثات أولى العزم من الرسل ﷺ في بيئات مشوبة بالانحراف العقدي والاجتماعي، وشكّلت دعواتهم، وتكرّر حلقاتها: من انحراف المجتمع، ثم المواجهة بالوحي، يليها الصدود والتكذيب، ثم إعادة البناء من جديد عبر التزكية والتعليم والتبليغ، كما بيّن ماجد عرسان الكيلاني ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^٥، حيث حدّد أربعة ميادين رئيسية للتربية: أولًا: ميدان العقيدة الإسلامية التي

^١ القرآن الكريم، سورة الإسراء ١٧: ٩٤.

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١١: ١٧٦.

^٣ البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة في غير معصية الله، ٣: ٤٥٦ (٧١٤٥).

^٤ النووي، المنهاج، ١٣: ٢٢٦.

^٥ القرآن الكريم، سورة الجمعة ٦٢: ٢.

تُعبّر عنها في الآية بـ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾. ثانيًا: ميدان تزكية أو تعديل السلوك التي تُعبّر عنها في الآية بـ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾. ثالثًا: ميدان الإعداد الفكري وتقديم المعارف الإسلامية التي تُعبّر عنها في الآية بـ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾. رابعًا: ميدان الإعداد الوظيفي الذي يُعبّر عنه في الآية بـ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾^٦. وإذا كانت مجالات العقيدة، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة من أبرز ميادين ومناهج التربية الإسلامية، فإنّ التربية الاجتماعية تُعدّ أحد مجالاتها التي تحتل موقعًا جوهريًا ضمن هذا البناء المتكامل^٧.

وقد توسّع المفكرون المسلمون في بيان مجالات التربية الاجتماعية. فمثلاً، أشار محمد خليل محسن الديسي إلى أن أهم ميادين التربية الاجتماعية عند الغزالي تتوزع على الفرد، والأسرة، والمدرسة، والمجتمع الكبير؛ حيث يبدأ الفرد بصفته محورًا رئيسيًا في العملية التربوية، يجب أن يتكيف مع مجتمعه تكيفًا سليمًا مبنياً على العلم والقيم؛ ثم تأتي الأسرة باعتبارها المؤسسة التربوية الأولى، ثم المدرسة بموقعها الموازي للأسرة في التأثير، وأخيرًا المجتمع العام الذي يتضمن الأصدقاء والبيئة الاجتماعية المؤثرة في تنشئة الأفراد^٨. وفي الاتجاه ذاته، عدّ محمد بن عبد الله الحازمي أن هذه المجالات تشكل ما يُعرف بمؤسسات التربية الاجتماعية، مشيرًا إلى أن أبرز هذه المؤسسات التي أحدثت أثرًا في المجتمع الإسلامي، خاصة في عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، تشمل: المساجد، والكتاتيب، ومجالس الخلفاء، ومنازلهم، والأسرة، حيث تُعدّ الأخيرة النواة التربوية الأولى في بناء الإنسان والمجتمع^٩.

ومن خلال هذا المطلب، يتبيّن أن هذه المؤسسات والميادين تُشكّل مرتكزًا رئيسيًا لنجاح التربية الاجتماعية الصالحة، حيث تقوم بوظائف التعليم، والإصلاح، وحلّ المشكلات، وتنمية الوعي الجماعي، وهو ما يسهم في حفظ وحدة المجتمع واستقراره.

^٦ ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية: دراسة منهجية في الأصول التاريخية للتربية الإسلامية، (المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، ١٩٨٥)، ٣٥-٥٥.

^٧ بين عمر أحمد عمر عن مجالات التربية الإسلامية: "فهي تشمل التربية البدنية والعقلية، والتربية الروحية والتربية الاجتماعية، والتربية الانفعالية والتربية الجمالية". انظر: عمر أحمد عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، ص ٣١.

^٨ انظر: محمد الديسي، التربية الاجتماعية في فكر الإمام الغزالي، ص ١٧٤.

^٩ محمد بن عبد الله بن حسين الحازمي، "منهج الخلفاء الراشدين في التربية الاجتماعية وتطبيقاتها في الواقع التربوي المعاصر"، (رسالة الدكتوراه، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ٢٠٠٩)، ص ١٢٩.

المطلب الثاني: مسؤولية أولي العزم من الرسل ﷺ في ميادين التربية الاجتماعية
وقد أولى أولو العزم من الرسل ﷺ عنايةً بالغة بتحقيق أهداف التربية الاجتماعية، انطلاقاً من دعوتهم، وسعيهم إلى تزكية النفس البشرية وتعليمها التعاليم الربانية في الميدان الاجتماعي. كما يتناول هذا المبحث بعض مسؤوليات أولي العزم من الرسل ﷺ في ميادين التربية الاجتماعية ذات الأهمية.

أولاً: مسؤوليتهم ﷺ في مجال تبليغ الرسالة

كلمة "التبليغ" مأخوذة من الجذر "بَلَّغَ" أي الوصول إلى الشيء، تقول: "بلغتُ المكان" إذا وصلت إليه، وقد تُطلق المشاركة على الشيء باسم البلوغ أيضاً^{١٠}.
وقد عرّف الراغب الأصفهاني البلوغ بقوله: "البلوغ والبلاغ؛ أي: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكاناً كان أو زماناً، أو أمراً من الأمور المقدّرة، وربما يُعبّر به عن المشاركة عليه وإن لم ينتهِ إليه"^{١١}.

هذا المفهوم يرتبط بمهمة الأنبياء ﷺ في إيصال الوحي إلى الناس، وهي مسؤولية عظيمة دلّت عليها نصوص صريحة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^{١٢}، وقد علّق رشيد رضا على هذه الآية بقوله: "هذا نصٌّ قاطع في حصر وظيفة الرسول في البلاغ عن الله تبارك وتعالى"^{١٣}.

وقال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^{١٤}، ذكر السعدي أن: "هذا تحقيق لوظيفة النبي ﷺ في أداء الرسالة دون أن يتحمل نتائج القبول أو الرفض، فهي

^{١٠} انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١: ٣٠١.

^{١١} الراغب الأصفهاني، المفردات، ١: ١٤٤.

^{١٢} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٢: ٢٠.

^{١٣} انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: المشهور بتفسير المنار، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٢٥)،

٣: ٢٦١.

^{١٤} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٩٢.

على العباد لا عليه" ^{١٥}. أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ^{١٦}، فقد فسّره ابن كثير بقوله: "أي بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك، فلا تخف أحداً" ^{١٧}. إن وظيفة أولي العزم من الرسل ﷺ في سبيل التبليغ التربوي والإيماني لم تكن مجرد نقل معلومات، بل هي تربية وتزكية وإصلاح للنفوس؛ ففي دعاء إبراهيم عليه السلام يظهر ترتيب الأفعال بحسب التدرج التربوي؛ فالتلاوة أولاً، ثم التعليم، ثم التزكية كنتيجة حتمية؛ قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ^{١٨}، قال ابن عاشور: "وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها، لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه؛ والعلم تحصل به التزكية وهي في العمل بإرشاد القرآن" ^{١٩}.

وهذا يبيّن أن التبليغ عند أولي العزم يؤسس لبناء الإنسان عقائدياً وأخلاقياً، وهو ما أكّده ابن القيم بقوله: "التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى" ^{٢٠}. والعلم بالتوحيد فرض عين على كل إنسان، وهو علم لا ينفك عن العمل؛ وقد فسّر السعدي قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ^{٢١}، بقوله: "العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طُلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه؛ وهذا العلم الذي أمر الله به وهو العلم بتوحيد الله فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائناً من كان، بل كل مضطر إلى ذلك" ^{٢٢}.

^{١٥} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ١: ٢٤٣.

^{١٦} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٦٧.

^{١٧} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢: ٨١.

^{١٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٩.

^{١٩} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١: ٧٢٣.

^{٢٠} انظر: ابن قيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي،

(بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٦)، ٣: ٤١١.

^{٢١} القرآن الكريم، سورة محمد ٤٧: ١٩.

^{٢٢} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٧٨٧.

تظهر شمولية تبليغ الرسالة في تاريخ النبوة، حيث جاءت رسالة جميع الأنبياء بتوحيد الله ونبذ الشرك، وكل أمة جاءها رسول يدعو لعبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^{٢٣}، قال ابن كثير: "في كل قرن من الناس وطائفة رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل ﷺ بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ﷺ، وكان أول رسول بعثه الله ﷻ إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب"^{٢٤}. فكان الناس منذ آدم إلى بعثة نوح ﷺ أمة واحدة مدة عشرة قرون؛ كما ثبت عن ابن عباس ﷺ أنه قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام"^{٢٥}. ولذلك، لا يُعرف عدد هذه الفترات الزمنية بدقة، وإنما كان لكل جيل عمر طويل كعمر النبي نوح ﷺ. وخلال كل هذه الفترات لم يكن هناك شرك، وإنما وقع فيها ذنب القتل كما في قصة ابن آدم الذي قتل أخاه، قال الله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^{٢٦}. لقد جاء نوح ﷺ في تبليغ الرسالة إلى قومه؛ قال الله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ • أَوْ عَجِبْتُمْ أَنِ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^{٢٧}، وقد أوضح محمد علي طه الدرة مصطلح ﴿رسالات﴾، بصيغة الجمع إلى تعدد الموضوعات التي تضمنتها رسالة نوح ﷺ، والتي تشمل العقائد، والمواظ، والأحكام الشرعية، وأن الجمع هنا يُعبر عن تكرار الرسائل عبر فترات مختلفة، أو عن تنوعها في مضامينها الدينية والتشريعية، وبما أوحى إليه، وإلى الأنبياء قبله، كصحف شيث، وإدريس^{٢٨}. وجاء في تفسير البغوي في معنى قوله تعالى: ﴿ذِكْرٌ﴾، أي: "الموعظة والرسالة والبيان"^{٢٩}.

^{٢٣} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ٣٦.

^{٢٤} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣: ٥٨٠.

^{٢٥} ابن كثير، قصص الأنبياء، ٤٧.

^{٢٦} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٣٠.

^{٢٧} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ٦٢.

^{٢٨} انظر: محمد علي طه الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعراجه وبيان، (دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٩)، ٣: ٥٣٤.

^{٢٩} البغوي، معالم التنزيل، ٢: ١٩٥.

قسّم عبد الرحمن حللي رسالات الأنبياء إلى مرحلتين أساسيتين: الرسالات السابقة، والرسالة الخاتمة. أما الرسالات السابقة فهي تنقسم إلى قسمين: الرسالات الأولى من آدم إلى موسى ﷺ، والرسالات الكتابية من موسى إلى عيسى ﷺ. ويؤكد حللي أن مضمون هذه الرسالات يتمحور حول التوحيد والتشريع والأخلاق، وليست المعجزة جزءاً من مضمونها، إذ إن المعجزة ليست من صلب الرسالة بل هي تأييد للرسول تأتي غالباً بعد فترة من دعوته، حين يجحد القوم دعوته ويطالبونه بآية خارقة تأييداً لصدقه، فتكون المعجزة استجابة إلهية لذلك التحدي^{٣٠}.

قال عبد الرحمن حللي: "يمكن ملاحظة ذلك من خلال أبرز المعجزات الكبرى المذكورة في القرآن والمتداولة بين أهل الأديان، فذلك ينطبق على نجاة إبراهيم من إعدامه بالنار، وإنقاذ نوح ﷺ من الطوفان، وموسى ﷺ من كيد فرعون وتهديده حياة المؤمنين، والآيات الأخرى كانت من باب التكريم لبعض الرسل ﷺ وهو ما عبر عنه القرآن بالتسخير كما حصل لداود وسليمان، وجاءت آيات أخرى امتحاناً للأقوام أكثر منها استدلالاً كمناعة صالح وبقرة بني إسرائيل، أو تأتي عذاباً للأقوام على طغيانهم وظلمهم وجحدهم للرسالات كما حصل مع بني إسرائيل، فالموضوع ليس مضمون الرسالة إنما الموقف منها ومن الرسول، فهي تأييد أو تكريم للرسول أو تهديد أو عقاب وتخويف للأقوام"^{٣١}. وأما الرسالة الخاتمة فهي القرآن؛ هو كلام الله المعجز المتعبد بتلاوته، المنزل على محمد ﷺ، فهو كلام الله الذي أعجز به البشر أن يأتوا بمثله أو بآية أو بسورة منه^{٣٢}.

وقد قال الزركشي: "هو الكلام المنزل للإعجاز بآية منه، المتعبد بتلاوته، فخرج به (المنزل) الكلام النفسي، والألفاظ وإن كانت لا تقبل حقيقة النزول، ولكن المراد المجاز الصوري. وقولنا: (لإعجاز) خرج به المنزل على غير النبي ﷺ كموسى وعيسى ﷺ، فإنه لم يقصد به الإعجاز، والأحاديث النبوية. وقد صرح الشافعي في (الرسالة) بأن السنة منزلة

^{٣٠} انظر: عبد الرحمن حللي، رسالات الأنبياء، ٣١١.

^{٣١} انظر: عبد الرحمن حللي، رسالات الأنبياء، ٣١١.

^{٣٢} انظر: مناع بن خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ١٧.

كالكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^{٣٣}. وخرج بقولنا: (المتعبد بتلاوته) ما نسخت تلاوته^{٣٤}.

ويؤكد عبد الرحمن حللي أن معجزة القرآن عقلية وليست حسية، فهي لا تقتزن بتحدٍ حسي مباشر، كما أن إنزال الملائكة أو الإسراء والمعراج لم يكن معجزات متحدى بها، وإنما كانت إكراماً أو دعماً للرسول، وهي جميعاً من قبيل السمعيات التي لا تُجبر السامع على التصديق بها دون إيمان سابق^{٣٥}. وهذا ما أشار إليه السيوطي بقوله: "المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة... وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم... لأن هذه الشريعة باقية إلى يوم القيامة فحُصِّت بالمعجزة العقلية الباقية"؛ ولهذا فإن القرآن مستمر معجزة في بلاغته وأخباره وحقائقه، بخلاف المعجزات السابقة التي انقرضت بانقراض أعصارها^{٣٦}. وقد فصل في ذلك الرسالة الخاتمة كل من محمد بن محمد الغزي، ومالك بن نبي، حيث ربطا بين ختم النبوة وطبيعة المعجزة القرآنية العقلية التي تتناسب مع نضج البشرية واستمرارية الشريعة^{٣٧}.

من هنا يتبين لنا أن الله ﷻ بعث محمداً ﷺ في وقت كانت فيه العرب في ذروة الفصاحة والبلاغة، فدعاهم إلى توحيد الله وتصديق رسالته، بالحجة والبرهان. فلما لم يبق لهم عذر، وصار الذي يمنعهم من الإقرار هو نفس لا الجهل، أقام عليهم الحجة بالقرآن، متحدياً إياهم أن يأتوا بسورة منه، فقال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾^{٣٨}، فلما عجزوا ظهر ضعفهم، وتبين صدقه ﷺ^{٣٩}.

^{٣٣} القرآن الكريم، سورة النجم ٣: ٥٣-٤.

^{٣٤} انظر: الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، ٢: ١٧٨.

^{٣٥} انظر: عبد الرحمن حللي، رسالات الأنبياء، ص: ٣١٧.

^{٣٦} انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٤: ٤-٦.

^{٣٧} انظر: نجم الدين محمد بن محمد الغزي، إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١٩٩٥)، ٢: ٣١١؛ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة: الظاهرة القرآنية، (بيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٠) ٦٧-٦٨.

^{٣٨} القرآن الكريم، سورة يونس ١٠: ٣٨.

^{٣٩} انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٤: ٦.

ولقد أشار عمر سليمان الأشقر إلى أن الكتب السابقة جميعًا جاءت من مصدر واحد، وأنها تُصدق بعضها بعضًا، كما قال تعالى في حق الإنجيل: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾^{٤٠}، وقال: "ونحن نؤمن بما جاء في الكتب السماوية السابقة... ونؤمن بأن الكتب السماوية يصدق بعضها بعضًا، ولا يكذب بعضها بعضًا"^{٤١}. ومن مقتضى هذا الإيمان أن من أنكر شيئًا مما أنزله الله فقد خرج عن ملة الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^{٤٢}. وعلق الأشقر بأن هذا يدل على أن الكفر بأي كتاب من كتب الله ﷺ هو كفر مخرج من الملة. ومع إيماننا بجميع الكتب، فإننا نُقرّ بأن الشرائع قد تُنسخ كليًا أو جزئيًا، كما نُسخت أحكام شرعية سابقة في التوراة والإنجيل، ثم جاء القرآن ناسخًا لها، قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^{٤٣}.

وفيما يتعلق بالإيمان بالرسالة الخاتمة، فإن الإيمان بها لا يقتصر على مجرد التصديق، بل يشترط العمل بمقتضى هذا التصديق، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾^{٤٤}. وقد نقل الأشقر في هذا السياق حديث النبي ﷺ: «أبشروا، فإن هذا القرآن بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبدًا»^{٤٥}. ويبيّن البوطي أن بعثة كلّ رسول تتضمن وحدة الدين، وهو الإسلام، فهي تقوم على عقيدة واحدة ثابتة، في حين يختلف التشريع باختلاف الزمان والأحوال؛ فالعقيدة لا تتغيّر، أما الشريعة فقد تُنسخ، إلا ما أُقرّ أو سُكّت عنه، وهو ما يدلّ على وحدة الدين وتعدد الشرائع^{٤٦}؛ والدين الحق الذي بُعث به جميع الأنبياء هو الإسلام، كما قال تعالى:

^{٤٠} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٤٦.

^{٤١} عمر سليمان الأشقر، *الرسائل والرسالات*، ص: ١٠٥.

^{٤٢} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٣٦.

^{٤٣} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٥٧؛ انظر: عمر سليمان الأشقر، *الرسائل والرسالات*، ص: ١١٠.

^{٤٤} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ٣.

^{٤٥} الطبراني، *المعجم الكبير*، ٢: ١٢٦ (١٥٣٩). خلاصة حكم الحديث: صحيح.

^{٤٦} وما استقرّ عليه الفقهاء من قواعد: "شرعٌ من قبلنا شرعٌ لنا، ما لم يرد في شرعنا ما ينسخه". ابن تيمية، *اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم*، ٦: ٤٦٢.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^{٤٧}؛ وقد أكّد البوطي أن الأنبياء جاؤوا بالإسلام، ولكن أهل الكتاب اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم، بغيًا بينهم^{٤٨}.

ومن ثمّ، فإن تبليغ الرسالة عند أولي العزم من الرسل ﷺ كان وسيلةً لبناء الإنسان الموحد أخلاقياً واجتماعياً، لا مجرد تقرير للمعتقدات، إذ ارتبط التبليغ بإصلاح الانحرافات الاجتماعية، وتقويم الممارسات الجماعية، وترسيخ قيم العدل والتكافل، والدعوة إلى نبذ الشرك والفساد، بما يحقق استقامة المجتمع. ويتأكد بذلك أن التبليغ النبوي يمثل المدخل الأساس للتربية الاجتماعية في المنهج الإلهي، وأن أثره لا ينفصل عن بناء الجماعة المؤمنة وإصلاح واقعها.

ثانياً: مسؤوليتهم ﷺ في مجال تعليم الكتاب والحكمة

يُعَدّ تعليم الكتاب والحكمة من أعظم مقاصد بعثة الرسل ﷺ، وخاصة أولي العزم منهم، الذين حملوا أمانة البلاغ والتعليم والتزكية في أشد البيئات انحرافاً وعناداً. وقد قرر القرآن الكريم هذه الوظيفة التعليمية بوضوح، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^{٤٩}. وقد ورد هذا المصطلح أيضاً في الحديث الصحيح، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^{٥٠}. وجاء في معنى التعليم أنه: "تنبيه النفس لتصور المعاني"^{٥١}. والمراد بـ"الكتاب" هو ما أنزل من الوحي الإلهي، أما "الحكمة" فهي الفهم السديد، والفقه في الدين، والعمل به. وقد بيّن الطبري أن المراد بالكتاب: كتاب الله الذي أنزله على رسوله، وأما الحكمة فهي السنّة التي تُبَيّن مجمل الكتاب وتفصّل أحكامه^{٥٢}. وعند الرازي، الكتاب يُطلق

^{٤٧} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١٩.

^{٤٨} انظر: محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، ص: ٥٢-٥٥.

^{٤٩} القرآن الكريم، سورة الجمعة ٦٢: ٢.

^{٥٠} البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ٦: ١٩٢، (٥٠٢٧).

^{٥١} انظر: عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان،

(مصر: عالم الكتب، ١٩٨٩)، ١٠٢.

^{٥٢} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢: ٥٣١.

على ما جُمع من المعاني والعلوم؛ وسمي كتابًا لأن "المعاني اجتمعت فيه"، وهو أحد أسماء القرآن التي أحصاها فبلغت اثنين وثلاثين اسمًا^{٥٣}. وأما الحكمة، فقليل فيها أقوال متعددة: العدل، والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن، والإنجيل، والسنة، والفقه في الدين والعمل به^{٥٤}. قال الشافعي: "فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن، ويقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ؛ لأن القرآن ذُكر وأُتبعَتْ به الحكمة، فدلّ ذلك على أن الحكمة هي سنة الرسول ﷺ"^{٥٥}. وقال ابن تيمية: "الرسول ﷺ أنزل الله عليه الكتاب والحكمة، كما ذكر ذلك في غير موضع"^{٥٦}. وقال ابن عاشور: "الحكمة هي معرفة الشريعة ومعرفة عللها ومقاصدها، وذلك لا يحصل إلا بالوحي وتعليم الأنبياء"^{٥٧}.

ومن أهم المهام التي بُعث بها الأنبياء، وخاصة أولي العزم منهم، تعليم الناس الكتاب والحكمة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾^{٥٨}، وهذا يدل على أن الأنبياء مكلفون بتعليم ما أنزل إليهم من كتب وهدى، والحكمة تشمل الفهم العميق للحقائق الدينية وتطبيقها في الواقع. قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^{٥٩} أي: "يعلمهم كتاب الله الذي أنزله عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه؛ والسنة التي سنّها الله للمؤمنين على لسان رسول الله ﷺ، وبيانه لهم"^{٦٠}. فمهمة الأنبياء، وخاصة أولي العزم منهم ﷺ، لا تقتصر على التبليغ فحسب، بل تشمل التعليم

^{٥٣} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢: ٢٦٠؛ وتقي الدين أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية، مقدمة التفسير، ط ٣ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣)، ١٣: ٩.

^{٥٤} انظر: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز، المحقق: محمد علي النجار، (القاهرة: لجنة إحياء التراث العربي، ١٩٩٦)، ٢: ١٤٨٧؛ وانظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، ١: ١١٢٨؛ وانظر: الطبري، جامع البيان، ١: ٥٥٧-٥٥٨؛ وانظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢: ٣٤٧-٣٤٨.

^{٥٥} الشافعي، الرسالة، ١٧٣؛ وانظر: وعامر سعيد الزبياري، كيف تكون فقيهاً، (بيروت: دار ابن حزم، ١٩٩٥)، ٤٧.

^{٥٦} ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٩: ١٧٥.

^{٥٧} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١: ٦٩٥.

^{٥٨} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٨١.

^{٥٩} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٢٦٤.

^{٦٠} الطبري، جامع البيان ٧: ٣٦٩.

المنهجي، والتربية الربانية، والنقل التطبيقي للمعاني الإلهية، وترسيخها في النفوس والسلوك، كما قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً، فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾^{٦١}، أي مبادئ مستقيمة ومناهج قويمه؛ كما بين الرازي بأن الرسل ﷺ لم يُبعثوا بتلاوة فحسب، بل بعلم ومعرفة وإفهام، وهذا معنى تعليم الكتاب والحكمة^{٦٢}. ويؤكد ذلك أن النبي ﷺ كان يعلم الصحابة الآية مع معناها، والسنة مع الحكمة العملية، كما جاء عن أبي عبد الرحمن رضي الله عنه قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ «أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل»^{٦٣}.

ومن هنا، فإن تعليم الكتاب والحكمة في منهج أولي العزم من الرسل ﷺ أدّى وظيفة اجتماعية واضحة، تمثلت في بناء الوعي الجماعي، وضبط العلاقات، وربط العلم بالعمل، وتحويل القيم المجردة إلى ممارسات واقعية داخل المجتمع. وقد تجسّد ذلك عملياً في منهج النبي ﷺ في تعليم أصحابه، حيث كان يربط بين تلقي النص وفهمه وتطبيقه. وعليه، فإن تعليم الكتاب والحكمة ليس مقصداً معرفياً مجرداً، بل هو أداة مركزية في التربية الاجتماعية، به تُبنى الجماعة الصالحة، وتُحفظ تماسكها، وتُصان من الانحراف الفكري والسلوكي.

ثالثاً: مسؤوليتهم ﷺ في مجال التزكية

تعدّ التزكية من أعظم المسؤوليات التربوية التي اضطلع بها أولو العزم من الرسل ﷺ، لما لها من أثر مباشر في إصلاح الفرد وانعكاسه على صلاح المجتمع. فالتزكية في التصور القرآني ليست حالة فردية معزولة، بل عملية تربوية متكاملة تُعنى بتطهير النفوس من الانحرافات، وتنمية القيم الإيمانية والأخلاقية التي تضبط السلوك الاجتماعي.

^{٦١} القرآن الكريم، سورة البينة ٩٨: ٢-٣.

^{٦٢} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٢: ٥٦.

^{٦٣} أحمد بن حنبل، المسند، المحقق: شعيب الأرنؤوط، ٣٨، ٤٦٦، (٢٣٤٨٢). قال المحقق: إسناده حسن.

والتزكية مأخوذة من "زَكَّى"؛ أي: نَمَّى وطَهَّر، قال ابن فارس: "الزاي والكاف والحرف المعتل أصلٌ يدلُّ على الطهارة والنماء"^{٦٤}. فالمعنى يدور على الإصلاح والتطهير والنماء؛ أي: تطهير النفس من الأدناس، وتنميتها بالفضائل. يُقال: "يزكِّي من يشاء" أي يُصلِّح، و"تزكِّيهم بها" أي تُطهِّرهم، والزكاة: هي الطهارة والنماء والبركة^{٦٥}. وقد وردت مشتقات التزكية في القرآن الكريم والسُّنة النبوية بمعانٍ متعددة، منها تزكية الإنسان لنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾^{٦٦}. قال الألوسي: "النهي عن تزكية النفس؛ أي: لا تُثَنُّوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصي أو بزكاء العمل، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته"^{٦٧}. وقال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾^{٦٨}، نزلت في اليهود لما زكَّوا أنفسهم وادَّعوا أنهم "أبناء الله وأحبَّاءه"، وأنَّ أبناءهم لا ذنوب لهم، وقدَّموا صغارهم للإمامة لهذا السبب^{٦٩}. والمقصود بذلك: النهي عن المبالغة في المدح إلى حدِّ الادعاء الباطل، ودفعًا لما قد يترتب عليه من الكِبَر والعُجب. وقد ورد في الحديث: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَات: شُحٌّ مُطَاع، وَهَوَى مُتَّبَع، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^{٧٠}. وفي مثل هذا المقام يُوجَّه الناس إلى التورَّع عند مدح الغير، كما في حديث أبي بكرة، عن أبيه، قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ، فقال: «ويلك! قطعتَ عنقَ صاحبك» مرارًا، ثم قال: «من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أُزكِّي على الله أحدًا، أحسبه كذلك، إن كان يعلم ذلك منه»^{٧١}.

^{٦٤} أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ٩٨٩.

^{٦٥} ابن منظور، لسان العرب، ١٤: ٣٥٨.

^{٦٦} القرآن الكريم، سورة النجم: ٣٢.

^{٦٧} الألوسي، روح المعاني، ١٤: ٦٣.

^{٦٨} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ٤٩.

^{٦٩} الماوردي، تفسير الماوردي، ١: ٤٩٥.

^{٧٠} الطبراني، المعجم الأوسط، باب من اسمه: محمد، ٥: ٣٢٨، (٥٤٥٢). خلاصة الحكم على الحديث: قال

الألباني: حسن. انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٤: ٤١٦، (١٨٠٢).

^{٧١} البخاري، الصحيح، كتاب الشهادات، باب: إذا زكى رجل رجلاً كفاه، ٢: ٩٤٦، (٢٥١٩).

وقد نُسبت التزكية إلى العبد نفسه؛ لأنه يُزَكِّي نفسه بالإيمان والمجاهدة، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^{٧٢}، قال السعدي: "أي طَهَّر نفسه من الذنوب، ونَقَّاهَا من العيوب، ورقَّاهَا بطاعة الله، ورفعها بالعلم النافع والعمل الصالح"^{٧٣}.

ومن معانيها كذلك تزكية المال، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوهَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾^{٧٤}، قال السعدي: "الزكاة تُطهر النفس من الأخلاق الذميمة، وتُطهر المال من البخل، وتزيد في دفع حاجة المعطى"^{٧٥}. ونُسبت التزكية إلى الرسول ﷺ لأنه المرَبِّي والمرَكَّب لِأُمَّتِهِ، كما في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^{٧٦}، قال الطبري: "يُزَكِّيهِمْ: يَطَهِّرُهُمْ مِنَ الشَّرِكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيُتِمِّمُهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ"^{٧٧}. وجاء في دعاء النبي ﷺ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم عذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزَكِّها أنت خيرٌ من زَكَّاهَا، أنت وليُّها ومولاهَا، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^{٧٨}. قال النووي: "زَكَّاهَا؛ أي طَهَّرَهَا، ولفظ «خير» ليس للتفضيل؛ بل بمعنى: لا مُرَكَّبِي لها إلا الله تعالى"^{٧٩}.

ومن الجدير بالذكر أن التزكية المقصودة في هذا المقام ذات دلالة شاملة^{٨٠}، وهذا يتضمن التربية الصالحة والإعداد النافع للجيل الناشئ بالتركيز على تقوية الإيمان وتنمية

^{٧٢} القرآن الكريم، سورة الشمس ٩١: ٩.

^{٧٣} السعدي؛ تيسير الكريم الرحمن، ج ١، ص ٩٢٦.

^{٧٤} القرآن الكريم، سورة الروم ٣٠: ٣٩.

^{٧٥} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ١: ٦٤٢.

^{٧٦} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٩.

^{٧٧} الطبري، جامع البيان، ١: ٥٥٨.

^{٧٨} مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل

٤: ٢٠٨٨، (٢٧٢٢).

^{٧٩} النووي، المنهاج، ٩: ٤١.

^{٨٠} جميلة تلوت، الأسرة في التصور القرآني، ٨٩ وما بعدها.

المهارات العقلية وغرس معاني الدعوة، وبذلك يجمع بين معاني العلم والمعرفة وكلاهما مما يثري الإيمان ويوجهه.

إن التزكية جزء من التربية في الإسلام، فهو خاص بالتربية وفق القواعد والآداب الدينية، والتربية في الإسلام هي التربية على الدين والأخلاق؛ ومما ذكر طه عبد الرحمن أن المقصود بالتربية تعاليم الدين؛ وأنها في السياق القرآني من معانيها الرعاية؛ ومنها التنمية الكاملة^{٨١}. قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^{٨٢}، هكذا علّمتم، وبهذا أمرتم، خذوا تعليم الله وأدبه^{٨٣}.

لقد بين الشعراوي معنى كلمة ﴿رَبَّيَانِي﴾ أي أدخلت هذه الكلمة كل مُربٍّ للإنسان في هذا الحكم، وإن لم يكن من الوالدين، لأن الولد قد يُربّيه غير والديه لأبيّ ظرف من الظروف، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً، فإن ربّك غير والديك فلهما ما للوالدين من البرّ والإحسان وحُسن المعاملة والدعاء. وهذه بشرى لمن ربّي غير ولده، ولاسيما إن كان المربّي يتيمًا، أو في حكم اليتيم^{٨٤}. جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»^{٨٥}. قال المهرري: "أي: إنما أنا ناصح لكم كنصيحة الوالد لولده، ومشفق عليكم كإشفاق الوالدة على ولدها"^{٨٦}.

ولذا؛ فإن دعاء الولد لوالديه في الكبر مبني على تربية والديه في الصغر، والتربية هنا لا تعني مجرد الأكل والشرب ونحو ذلك لأن هذه الأمور مشتركة بين جميع المخلوقات، ولكن

^{٨١} طه عبد الرحمن، من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر، ط ٢، (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ٢٠١٦)، ٣٩.

^{٨٢} القرآن الكريم، سورة الإسراء ١٧: ٢٤.

^{٨٣} الطبري، جامع البيان، ١: ٥٥٨.

^{٨٤} الشعراوي، الخواطر، ١٤: ٨٤٦٨.

^{٨٥} ابن ماجه، السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الطهارة وسننها: باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمّة، ١: ١١٤، (٣١٣). قال المحقق: حكم الألباني حسن صحيح.

^{٨٦} محمد الأمين بن عبد الله بن يوسف بن حسن الأرمي العلوي الأثيوبي المهرري الكري البؤيطي، شرح سنن ابن ماجه المسمى: مرشد ذوي الحجا والحاجة إلى سنن ابن ماجه والقول المكتفى على سنن المصطفى، مراجعة لجنة من العلماء برئاسة: الأستاذ الدكتور هاشم محمد علي حسين مهدي، (جدة: دار المنهاج، ٢٠١٨)، كتاب الطهارة وسننها: باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمّة، ٣: ١٦٩، (٣١٣).

خصوصية التربية الإسلامية تكمن في تركيزها على المجال الأخلاقي وخاصة التزكية، فهي جوهر التربية الإسلامية^{٨٧}.

بالإضافة إلى أن التزكية من مقاصد بعثة الأنبياء، وقد جاء في دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^{٨٨}، لذلك كان من أهم أهداف الإسلام تحقيق وإيجاد إنسان التزكية القادر على تحقيق التوحيد، وإقامة العمران^{٨٩}.

وردت لفظة التزكية في سياق مهم يتعلق بتطهير النفوس وتهيئتها لتلقي العلم والحكمة، ويأتي التقديم والتأخير بين لفظة التزكية ولفظة التعليم في بعض الآيات؛ لتظهر المقاصد والاعتبارات المتعلقة بكل سياق؛ يقول البقاعي عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^{٩٠}، أي "ولما كان ظاهر دعوته عليه السلام أن البعث في الأمة المسلمة كانوا إلى تعليم ما ذكر أحوج منهم إلى التزكية فإن أصلها موجود بالإسلام فأخر قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي يطهر قلوبهم بما أوتي من دقائق الحكمة، فترتقي بصفائها، ولطفها من ذروة الدين إلى محل يؤمن عليها فيه أن ترتد على أديارها وتحرف كتابها كما فعل من تقدمها، والتزكية إكساب الزكاة، وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم..؛ ولما ذكر سبحانه في سورة الجمعة بعثه في الأميين عامة اقتضى المقام تقديم التزكية التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر ليقبلوا ما جاءهم من العلم، وأما تقديمها في آل عمران مع ذكر البعث للمؤمنين فلاقتضاء الحال بالمعاتبة على الإقبال على الغنائم الذي كان سبب الهزيمة لكونها إقبالا على الدنيا التي هي أم الأدناس"^{٩١}.

^{٨٧} جملة تلوت، مقاصد الأسرة، من الإنسان إلى العمران، ٢٧٨.

^{٨٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٩.

^{٨٩} انظر: طه جابر العلواني، التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، ١١٩ - ١٢٠.

^{٩٠} القرآن الكريم، سورة الجمعة ٦٢: ٢.

^{٩١} إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ط، د.ت)، ٢٠: ٤٩.

فقد ذهب ابن عاشور في بيان قول الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^{٩٢}، وقدمت جملة ويزكيكم على جملة ويعلمكم الكتاب والحكمة هنا يظهر ما في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين فقدم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماماً بها وبعثاً لها بالحرص على تحصيل؛ وسائلها وتعجيلاً للبشارة بها؛ فأما في دعوة إبراهيم عليه السلام فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنن؛ وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، تعميم لكل ما كان غير شريعة ولا حكمة من معرفة أحوال الأمم وأحوال سياسة الدول وأحوال الآخرة وغير ذلك^{٩٣}. قال المسيري في كتابه "دلالة التقديم والتأخير في القرآن الكريم": "وأما لفظة التزكية في سورة الجمعة، فهي نزلت بشأن بعض من الصحابة الذين تركوا أهم المطالب الإيمانية بعد الإيمان؛ ألا وهو صلاة الجمعة حيث شغلوا عنها بقافلة التجارة التي وردت إلى المدينة، وكان أولى بهم ألا يذهبوا عن نبي الله؛ وهو يخطب فيهم مريباً ومعلماً، ومن ثم ابتدأت السورة في الآية الثانية بالتزكية قبل التعليم، لأنه بدون إزالة العوائق والأمراض النفسية والذهنية لن يكون هناك محل طيب لتلقي علماً أو الانتفاع بموعظة، فكلما كثرت الحشائش في أرض القلوب كلما منعت أو أضعفت الماء أن يصل إلى شجرة الهمة والإرادة فلا تنبت ابتداءً أو تذبل سريعاً فلا يظهر لها أثر، أولاً ينضج لها ثمر، ومن هنا قال علماء السلوك التخلية مقدمة على التحلية"^{٩٤}. وعليه، أن هذا التقديم أو التأخير يعتمد على الحالة والمقام؛ فأما في سورة الجمعة، كانت الأمة ﷺ تحتاج أولاً إلى التزكية في إزالة العوائق النفسية والذهنية حتى تتمكن من الاستفادة الكاملة من التعليم لاحقاً؛ وأما في دعوة إبراهيم عليه السلام، فالتعليم جاء أولاً؛ بينما الأمة الإسلامية كانت تحتاج إلى المعرفة الشرعية أولاً؛ يمكن

^{٩٢} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٥١.

^{٩٣} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١: ٤٩.

^{٩٤} منير محمود علي المسيري، دلالة التقديم والتأخير في القرآن الكريم: دراسة تحليلية، (القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٥)، ٦٥٠.

القول أن التزكية تسبق التعليم في بعض السياقات التي تستدعي تطهير القلوب أولاً، أما في حالات أخرى، فيأتي التعليم أولاً إذا كانت هناك حاجة لمعرفة أصول الدين والشرائع قبل أن يتم الارتقاء بالنفس عبر التزكية.

وبهذا يتبين لنا؛ أن لفظة التزكية من معانيها في القرآن والسنة قسمان، منهما التزكية الحمودة، فهي تزكية النفسية بالإيمان والعلم والعمل الصالح، وتزكية الله للإنسان بقبول عمله، وتزكية الأمة بالتربية وتزكيتها بتطبيق الشريعة فهي من مسؤولية الرسل ﷺ، وتزكية المال بدفع الصدقات العامة أو الخاصة كزكاة المال والفطر؛ وأما التزكية المذمومة، فهي مبالغة في مدح الإنسان لنفسه أو لغيره. وقد فهم الصحابة هذا المقصد النبوي حق الفهم؛ فكانوا يعتنون بتربية القلب، ومحاسبة النفس، وإصلاح العمل، كما في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر".^{٩٥} وهذا يدل على إدراكهم لأثر التزكية في إعداد النفس للوقوف بين يدي الله ﷻ.

وقد أكدت السنة النبوية على هذا المعنى في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^{٩٦}. فإصلاح القلب هو جوهر التزكية؛ لأنّ فساد القلب ينعكس على كل أعمال الجوارح؛ ومن مظاهر اهتمام النبي ﷺ بالتزكية أنه كان يُعلم أصحابه دعاءً يتضمن هذا المعنى، كما في حديث زيد بن أرقم، أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها»^{٩٧}. ولذا؛ فإن التزكية ليست بالجهد البشري وحده، بل هي توفيق إلهي، يُطلب من الله ﷻ.

^{٩٥} أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤)، ١: ٥٢؛ وانظر: أحمد بن حنبل، الزهد، تحقيق محمد عبد السلام شاهين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦)، ١٢٠. قال أبو إسحاق الحويني: "وهذا سند رجاله ثقات لكنه منقطع بين ثابت بن الحجاج وعمر بن الخطاب فلم يدركه". أبو إسحاق الحويني، تخرّيج تفسير ابن كثير، تحقيق أبي إسحاق الحويني (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د. ط، د. ت)، ١: ٤٧٨.

^{٩٦} البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١: ٢٠، (٥٢).

^{٩٧} مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، ٤: ٢٠٨٨، (٢٧٢٢).

ولقد كانت التزكية عملاً منهجياً متدرجاً في حياة النبي ﷺ، بدءاً من غرس التوحيد، ثم تطهير القلوب من أمراضها، كالرياء والحسد والكبر، ثم تنمية الخصال الإيمانية كالإخلاص، والصبر، والتواضع، والخشية. وكان يربط بين القول والعمل؛ حتى لا تكون التزكية نظريةً مجردة. ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»^{٩٨}، وهذه شهادة عملية بأن النبي ﷺ جسّد التزكية في نفسه وسلوكه.

وكانت هذه الوظيفة النبوية لم تنقطع بوفاة النبي ﷺ، بل بقي أثرها في أتباعه من العلماء والدعاة والمصلحين، الذين حملوا مشعل التزكية من بعده، وساروا على نهجه في إصلاح القلوب وتزكية النفوس، وقد فسّر قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾^{٩٩}، أي: بأنهم غير العرب من الأعاجم، وقيل: التابعون ومن بعدهم، ويشمل في الجملة كلّ من دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة^{١٠٠}، ولأهمية هذه الوظيفة، أثنى الله على من يقوم بها، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^{١٠١}. قال السعدي: "أي: من طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وزكّاها بالأخلاق الجميلة، فقد فاز ونجح"^{١٠٢}.

وبهذا يتبين أن التزكية وظيفة جوهرية من وظائف أولى العزم من الرسل ﷺ، وهي ليست غايةً مستقلة، بل هي جزء من منظومة متكاملة تشمل التلاوة، والتعليم، والحكمة. إلا أن التزكية هي الأساس الذي تُبنى عليه تلك الأركان؛ فالعلم بلا تزكية قد يكون حجةً على صاحبه، كما في الحديث: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه علمه»^{١٠٣}. وعليه، فإن التزكية التي اضطلع بها أولو العزم من الرسل ﷺ تُعدّ ركيزةً أساسيةً في إصلاح المجتمعات؛ إذ تُصلح النفوس، وتُقوم السلوك، وتمهّد لتحقيق العدل والقيم ومقاصد الاستخلاف.

^{٩٨} البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ٤: ١٨٨ (٣٥٤٩).

^{٩٩} القرآن الكريم، سورة الجمعة ٦٢: ٣.

^{١٠٠} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٨: ١٠٩؛ وانظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٠: ٥٣٩.

^{١٠١} القرآن الكريم، سورة الأعلى ٨٧: ١٤.

^{١٠٢} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٨٨٩.

^{١٠٣} الطبراني، المعجم الكبير، ٣: ٢٤٥ (١٢٣٤). خلاصة حكم الحديث: صحيح.

رابعاً: مسؤوليتهم ﷺ في مجال تحمّل أمانة الاستخلاف في الأرض وإعمارها

الاستخلاف في اللغة يعني التعاقب والنيابة^{١٠٤}. والخلافة: "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية، والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة الشرع في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به"^{١٠٥}. والخليفة: "اسم لكل من انتقل إليه تدبير أهل الأرض والنظر في مصالحهم"^{١٠٦}. وهو السلطان الأعظم^{١٠٧}.

وفي الاصطلاح الشرعي يدلّ على تمكين الإنسان في الأرض للقيام بمهمة العبادة والإعمار ضمن منظومة هادفة إلى تحقيق العدل والصلاح. قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^{١٠٨}، أي مستخلفاً له مهمته في الأرض، لا باعتباره مالئاً، بل مؤتمناً على ما فيها^{١٠٩}.

وقد تجلّت هذه المسؤولية بأسمى صورها في سيرة أولي العزم من الرسل ﷺ، الذين اختارهم الله تعالى لحمل الرسالة وتطبيق شريعته في واقع الناس. وأن الاستخلاف في الأرض من مقاصد بعثة الرسل؛ جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض، وقد عبّر القرآن عن هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^{١١٠}، أي: أن الله فوّض إليه إصلاح الأرض وعمارتها بما يتوافق مع منهجه، وقد فسّر الطبري هذه الآية بأن المقصود بالخليفة هو "من يقوم مقام غيره في تنفيذ أوامره"^{١١١}. وهذا الاستخلاف لا يكون عبثاً، بل مشروطاً بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

^{١٠٤} انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢: ٢١٠.

^{١٠٥} عبد الرحمن محمد بن خلدون، مقدمة، المحقق عبد الله محمد الدروشي، (دمشق: دار يعرب، ٢٠٠٤)، ١٧٩.

^{١٠٦} أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحیط، دراسة وتحقيق: عادل بن أحمد عبد الموجود، وآخرون،

(بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣)، ١: ٢٨٨.

^{١٠٧} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٩: ٨٤.

^{١٠٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٣٠.

^{١٠٩} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١: ٢٠٥.

^{١١٠} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٣٠.

^{١١١} انظر: الطبري، جامع البيان، ١: ٤٥٧.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ... ﴿١١٢﴾، وقد قال سيد قطب في تفسير هذه الآية: "هذا الوعد مرتبط بتحقيق الإيمان والعمل الصالح، فليست الخلافة مجرد سلطة دنيوية، بل هي أمانة إلهية" ^{١١٣}.

وقد حمل الله هذه الأمانة للإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ... وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ ^{١١٤}، قال الرازي: "الأمانة تشمل التكليف الإلهية، وما يتفرع عنها من تبعات الخلافة في الأرض" ^{١١٥}. وقد ورد في قول مأثور عن سلمان الفارسي له عندما سُئل عن أوصاف الخليفة، قال: "الخليفة الذي يعدل في الرعية، ويقسم بينهم بالسوية، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله، والوالد على الولد، ويقضي بينهم بكتاب الله ﷻ" ^{١١٦}. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ^{١١٧}. وقد جعل الله الإنسان خليفة له على هذه الأرض، فهو إذا مسؤول عنها، وذلك لأنه قادر على القيام بكثير من المهام، بحكم ما منحه الله من عقل وقدرة وإرادة، وبالتالي فهو محاسب على حسن اختياره وإساءته ^{١١٨}. ذكر سيد قطب مقصد خلق الإنسان ليكون مستخلفاً في الأرض، مالكاً لما فيها، فاعلاً مؤثراً فيها؛ وأن الإيمان هو منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به؛ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض؛ أمانة الاستخلاف؛ فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض؛ دينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله ﷻ من ثروة، ومن رصيد، ومن طاقة، مع

^{١١٢} القرآن الكريم، سورة النور ٢٤: ٥٥.

^{١١٣} انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤: ٢٥٢٥.

^{١١٤} القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٣٣: ٧٢.

^{١١٥} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٥: ٢٠٩.

^{١١٦} محمد بن سعد بن منيع الهاشمي المعروف بابن سعد، الطبقات الكبرى، المحقق زياد محمد منصور، ط ٢ (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٧)، ٣: ٣٠٦؛ وانظر: الألوسي، روح المعاني، ١٧: ٤١٠؛ وجلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، المحقق: حمدي الدمرداش، (د.م: مكتبة نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٤)، ١٤٠.

^{١١٧} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٣٠.

^{١١٨} انظر: خالد محمد محرم، التربية الإسلامية للأولاد: منهج وميادين، دمشق: دار يعرب، ٢٠٠٤، ٦٣.

التوجه بكل نشاط فيها إلى الله ﷻ وقد جعل الله الإنسان خليفة له على هذه الأرض، فهو إذا مسؤول عنها، وذلك لأنه قادر على القيام بكثير من المهام، بحكم ما منحه الله من عقل وقدرة وإرادة، وبالتالي فهو محاسب على حسن اختياره وإساءته^{١١٩}.

ويشير القرآن الكريم والسنة النبوية إلى العمران بأنه مسؤولية الإنسان فهي الصفة التي تميز الإنسان عن المخلوقات التي لم توهب العقل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^{١٢٠}. فالإنسان هو الذي تصدى لحمل الأمانة، وقد أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال، وواضح أن عرض هذه الأمانة عليهن، وإشفاقهن منها وإبائهن أن يحملنها، إنما هو على سبيل المجاز، بياناً لصعوبة الأمانة وباهظ عبئها، وتكون هذه الأمانة ابتلاء بتبعة التكليف وحرية الإرادة ومسؤولية الاختيار^{١٢١}. قال النبي ﷺ: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^{١٢٢}.

أما كلمة العمران مأخوذة من عمر يعمر، العمارة فهي نقيض الخراب: يقال: عمر أرضه: يعمرها عمارة، وأعمرته الأرض واستعمرته إذا فوضت إليه العمارة^{١٢٣}. وعمرت الخراب أعمره عمارة، فهو عامر أي معمور، مثل دافق أي مدفوق، وعيشة راضية أي مرضية. وعمر الرجل ماله وبيته يعمره عمارة وعمورا وعمرانا: لزمه^{١٢٤}. يدل العمران في اللغة على معنى ضد الفراغ، والعمارة نقيض الخراب، وقد عد طه جابر العلواني العمران من المقاصد الحاكمة، معتبراً إياه: "محق الأرض التي كانت الملائكة تحشى عليها من خلافة من يفسد فيها ويسفك الدماء فيعمرها الخراب بدل العمران"^{١٢٥}.

^{١١٩} انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤: ٢٥٢٩.

^{١٢٠} القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٣٣: ٧٢.

^{١٢١} عائشة عبد الرحمن، القرآن وقضايا الإنسان، ط ٢ (بيروت: دار العلم للمليين، ١٩٧٥)، ٦٣.

^{١٢٢} البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، ٩: ٦٢، (٧١٣٤).

^{١٢٣} الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (عمر). ٥٨٦.

^{١٢٤} ابن منظور، لسان العرب، مادة (عمر)، ٤: ٦٠٤.

^{١٢٥} طه جابر العلواني، التوحيد والتركية والعمران، ص ٢٣.

العمارة لا تقتصر على البناء المادي، بل تشمل تحقيق العدالة، واستثمار الموارد، وحماية البيئة، والقيام بحقوق الله والخلق، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^{١٢٦}. قال القرطبي: "أي طلب منكم عمارتها، بالزراعة والبناء والصناعة وسائر وجوه الإصلاح"^{١٢٧}. ويشير ابن عاشور إلى أن هذه العمارة لا تكون إلا ضمن منظومة أخلاقية تُحقق المقاصد الشرعية، فليست الحضارة هدفاً في ذاتها، بل وسيلة لعبادة الله وإقامة العدل^{١٢٨}. وقد وردت مشتقات كلمة العمران بكثرة في القرآن الكريم والسنة النبوية، منها: جاءت متعلقة بعمران المساجد وبنائها وخدمتها والإقامة فيها؛ قال الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآلَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾^{١٢٩}، ذكر الرازي بأن معاني عمارة المساجد تكون على قسمين: إما عمارتها بلزومها وكثرة إتيانها؛ وإما عمارتها بالبناء والإصلاح: أي بناء المسجد وصيانتها، وهذا العمل يجب أن يتصف من يقوم به بصفات أربعة، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، وخشية الله وحده^{١٣٠}.

وجاء في الحديث من معاني عمران المساجد أي بناؤها المادي أو حضور الصلاة وحلقات العلم فيها؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه كنت عند منبر رسول الله ﷺ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتهم، فزجرهم عمر وقال: «لا ترفعوا أصواتهم عند منبر رسول الله، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت عليه واستفتيته فيما اختلفتم فيه»، فأنزل الله ﻋَﻠَﻴْهِ: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^{١٣١}. إن للمسجد في

^{١٢٦} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٦١.

^{١٢٧} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩: ٣٩.

^{١٢٨} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٢: ١٣٧.

^{١٢٩} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ١٨.

^{١٣٠} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٩: ١٦.

^{١٣١} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ١٩؛ مسلم، الصحيح، كتاب الإمامة باب فضل الشهادة في سبيل الله، ٣: ٧٨٣،

(١٨٧٩).

المجتمع المسلم عدة وظائف، وأهمها الوظيفة الدينية، ثم الوظيفة التربوية، ثم الوظيفة الاجتماعية؛ وقد كان المسجد يؤدي كل تلك الوظائف في صدر الإسلام، إضافة إلى بعض الأدوار الأخرى في الجانب العسكري، حيث تنعقد فيه ألوية الجهاد، والجانب القضائي حيث يتم فيه الفصل بين المتخاصمين وما شابه ذلك^{١٣٢}. فقد بين الرازي من الصفات الأساسية لعمارة المساجد كالوظيفة الاجتماعية منها: "وإيتاء الزكاة في عمارة المسجد كأنه يدل على أن المراد من عمارة المسجد الحضور فيه، وذلك لأن الإنسان إذا كان مقيماً للصلاة فإنه يحضر في المسجد فتحصل عمارة المسجد به، وإذا كان مؤتياً للزكاة فإنه يحضر في المسجد طوائف الفقراء والمساكين لطلب أخذ الزكاة فتحصل عمارة المسجد به"^{١٣٣}.

وقد ميز الله ﷺ به النبي ﷺ على سائر الأنبياء، بأن لا يشترط أن تكون الصلاة في مسجد بل أن تكون طهارة المكان؛ وكانت الأمم المتقدمة لا يصلون إلا في كنائسهم وبيعهم^{١٣٤}. من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي ﷺ يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة»^{١٣٥}.

ولقد جاءت مشتقات كلمة العمران في القرآن الكريم والسنة النبوية بمعنى الإقامة والاستقرار في الأرض، قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾^{١٣٦}. قال علال الفاسي: "عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع"^{١٣٧}. والله ﷻ استعمر الإنسان في الأرض فطلب منها إعمارها

^{١٣٢} انظر: عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، ١١٩ - ١٢١.

^{١٣٣} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٩: ١٦.

^{١٣٤} أبو سليمان حمد بن محمد الخطّابي، معالم السنن، (د.م، د.ن؛ ١٩٩٥)، ١: ١٤٦.

^{١٣٥} البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ٩٥: ١ (٤٣٨).

^{١٣٦} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٦١.

^{١٣٧} علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ٤٨.

وعمرانها، جاءت في الحديث من معاني العمران؛ هو عمر أرضاً وتولى عمارتها أي إصلاحها واستخدامها؛ عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها»^{١٣٨}. وأوضح البخاري معنى العمرى في الحديث الذي بدأ فيه الباب بقوله: باب ما قيل في العمرى والرقى، أعمرته الدار فهي عمرى، جعلتها له، استعمركم فيها جعلكم عماراً؛ من حديث جابر رضي الله عنه قال: «قضى النبي بالعمرى أنها لمن وهبت له»^{١٣٩}.

إن أولى العزم من الرسل ﷺ أدوا مسؤولية تحمل أمانة الاستخلاف والعمران في الأرض من خلال دعوتهم، وسلوكهم، وبناء المجتمعات الصالحة، وتحقيق مقاصد الشريعة. وقد ربطوا بين العبادة والتعمير، وبين الدين والتنمية، في نموذج حضاري متكامل يظل نبراساً للمجتمعات الإسلامية إلى يوم الدين.

وبذلك يتبين أن تحمُّل أمانة الاستخلاف عند أولى العزم من الرسل ﷺ كان إطاراً تربوياً شاملاً، أسهم في بناء التربية الاجتماعية على أسسٍ شرعية متوازنة، تجمع بين العبادة، والأخلاق، والمسؤولية الاجتماعية، والعمران الحضاري، في نموذجٍ إصلاحي متكامل.

خلاصة المبحث:

تبيّن هذه الدراسة أن ميادين التربية الاجتماعية في دعوات أولى العزم من الرسل ﷺ لم تقتصر على التوجيهات الأخلاقية العامة، بل جاءت في إطار منهج إصلاحي متكامل، يرتبط فيه تبليغ الرسالة ارتباطاً وثيقاً بالتربية الاجتماعية؛ إذ لم يكن التبليغ مجرد نقلٍ للأحكام، وإنما وسيلة تربوية فاعلة لبناء الفرد وتكوين السلوك الجماعي، وترسيخ القيم العقدية والاجتماعية في واقع الناس. وقد أسهم هذا المنهج في تحقيق التوازن بين تربية الفرد وإصلاح المجتمع، وبين الجانب العقدي والسلوكي، بما يجعل تجربة أولى العزم من الرسل ﷺ نموذجاً تربوياً أصيلاً صالحاً للاستلham في معالجة قضايا المجتمع المعاصر في ضوء التصور الإسلامي.

^{١٣٨} البخاري، الصحيح، كتاب الحرت والمزاعة، باب من أحيا أرضاً مواتاً، ٣: ١٠٦، (٢٣٣٥).

^{١٣٩} البخاري، الصحيح، كتاب الهبة وفضلها، باب ما قيل في العمرى والرقى، ٣: ١٦٥، (٢٦٢٥).

المبحث الثاني: التحديات المعاصرة في ميادين التربية الاجتماعية

شهدت الحضارة الإسلامية أوج عظمتها خلال القرون السبعة الأولى، حيث ازدهرت فيها العلوم الشرعيّة والعقلية، وتماسكت أركان الدولة، وتوسعت التجارة، وانطلقت حركة العمران في أرجاء العالم الإسلامي من الأندلس غربًا إلى الهند شرقًا؛ غير أن هذا الازدهار لم يكن أبدئيًّا^{١٤٠}.

وقد أشار ج. ه. يانسن إلى دراسةٍ مشتركة أجراها الإنجليز والفرنسيون بعد انهيار الدولة العثمانية، استنتجوا فيها أن سبب التفوق العقلي للمسلمين يعود إلى نظام الكتاتيب، حيث يبدأ الطفل المسلم من سنّ ٣ إلى ٦ سنوات في حفظ القرآن الكريم، ثم من سنّ ٦ إلى ٧ سنوات يدرس "ألفية ابن مالك"، التي تحتوي على ألف بيت تشمل قواعد اللغة العربية. وبذلك، يكون الطفل المسلم - من الناحيتين اللغوية والعقلية - متفوقًا بمراحل على الطفل الغربي، إذ يُقدّر عدد كلمات القرآن الكريم، وفقًا لتفسير ابن كثير، بـ (٧٧,٤٣٩) كلمة. وقد خلص المختلون إلى أن سرّ قوة الفرد المسلم يكمن في هذه المنظومة التعليمية المتينة؛ ولذا، قامت فرنسا بإلغاء نظام الكتاتيب في إفريقيا والمدارس الواقعة تحت سيطرتها، بهدف إحداث صدمة لغوية للطفل العربي عند التحاقه بالتعليم الرسمي الذي يُدرّس بالعربية الفصحى، وهي تختلف عمّا تلقّاه من لهجات عامية في المنزل، مما يؤدي إلى فقدانه لأكثر من سبعة وسبعين ألف كلمة لغوية في سنّ مبكرة. ويُعزى في رأي بعض الباحثين التراجع الحضاري والثقافي للأمة إلى هذا التمزق في البناء التعليمي المبكر^{١٤١}.

بناءً على ذلك، تبرز أهمية ما توصّل إليه الباحثون الإنجليز والفرنسيون كما نقله يانسن، إذ يتّضح أن سرّ التفوق الحضاري والمعرفي للمسلمين عبر التاريخ يكمن في التربية الإسلامية المبكرة، ولا سيما من خلال نظام الكتاتيب، الذي يُرسّخ حفظ القرآن الكريم وأصول اللغة العربية منذ الصغر. وقد أدرك الاستعمار خطر هذا النظام في تشكيل الوعي الإسلامي وبناء القوة العقلية، فسعى إلى تقويضه.

^{١٤٠} ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد القادر عثمان، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٦)، ٢٧٢.

^{١٤١} See. Jansen, *Militant Islam*, 125-127.

لقد أشار ابن خلدون في مقدمته الشهيرة إلى أن معالم الانحطاط بدأت تتسلل إلى جسد الأمة مع تفكك البنية السياسية، وتراجع الوازع الأخلاقي، واختلال الموازين الاجتماعية والاقتصادية؛ حيث قدّم نموذجًا تحليليًا متماسكًا يُبرز أن الترف والفساد، إذا تسلّلا إلى جسد الدولة، أفسداها من الداخل ومهدّدا لسقوطها من الخارج؛ حيث يقول: "إذا توفرت أسباب الترف والنعيم وكثرت عوائد الترف والدعة، فسدت أخلاقهم، وذهبت عصبيتهم، لما يقع فيهم من التنافس والتنازع، وينكسر سلطانهم وتضعف دولتهم"^{١٤٢}. فإذا انشغل الحُكّام بجمع الأموال بدلًا من إقامة العدل، انهار الإنتاج وتراجعت موارد الدولة. ويُشير ابن خلدون إلى أن رفع الضرائب يكون عادةً مؤشرًا على ضعف الدولة لا على قوتها، وهو محاولة يائسة لتغطية نفقات الترف، مما يؤدي إلى عزوف الناس عن الزراعة والصناعة والتجارة؛ ويقول: "أول ما يبدأ به عند ذهاب الدولة تزايد الضرائب والمكوس... فيضعف الرعايا وتقل رغبتهم في العمل، فتتقص الجباية وتذهب الدولة"^{١٤٣}.

كما حلّل ابن خلدون مظاهر الفساد الأخلاقي والعلمي التي تُصيب رؤوس المجتمع، فتكون نذيرًا بزوال الحضارة؛ وقد مثّل ذلك باجتياح المغول لبغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، الذي شكّل نقطة تحوّل فاصلة في تاريخ الحضارة الإسلامية؛ حيث انهارت مراكز العلم، وأُحرقت المكتبات، وقُتل العلماء، وتوقّف نبض الإنتاج الحضاري. ولم يكن هذا الاجتياح السبب الوحيد، بل جاء تنويجًا لمسار داخلي من التدهور السياسي، والفساد الإداري، وانحيار المؤسسة العلمية. قال ابن خلدون: "فإذا فسد العالم فسدت الأمة، وإذا فسد الأمير فسدت السياسة، وإذا اجتمع الفساد في الطرفين، سقطت الدولة وذهبت الحضارة".^{١٤٤} هذا المعنى نفسه؛ أكدّه المفكر المعاصر سيد محمد نقيب العطاس، إذ يرى أن الأمة الإسلامية اليوم تواجه مآزق تعود إلى أسباب؛ منها، أسباب خارجية ذات أبعاد دينية، وثقافية، واجتماعية، وسياسية. والثاني، أسباب داخلية تنبع من واقع الأمة، وأهمها عند العطاس أمران خطيران: أولهما: التشويش والخطأ في المعرفة (*Confusion of Knowledge*)، وثانيهما: فقدان الأدب

^{١٤٢} ابن خلدون، المقدمة، ٢٧٢.

^{١٤٣} ابن خلدون، المقدمة، ٢٧٦.

^{١٤٤} ابن خلدون، ٢٧٨.

(The Loss of Adab) على مستوى الأمة^{١٤٥}. وهذان السببان في رأيه أدّيا إلى ظهور قادة غير مؤهلين، يفتقرون إلى المؤهلات الأخلاقية والفكرية، ويسعون للهيمنة على الأمة في مختلف المجالات^{١٤٦}.

إنّ التربية السليمة لا تقتصر آثارها على الإطار الفردي أو الأسري فحسب، بل تمتد لتشكّل لبنة أساسية في الحصانة المجتمعية أمام التحديات الفكرية والسلوكية والأمنية. وإنّ من أبلغ صور ذلك ما أشار إليه الحكماء في الموروث التربوي الإسلامي بقولهم: «من أحسن أدب ولده أرغم أنف عدوه»^{١٤٧}، أي أن من ربّى ابنه على الأدب والخلق، فقد أقام في نفسه حصانة ترد كيد الأعداء وتبني مجد الأسرة والأمة؛ لأن المربّي هو حجر الزاوية في إصلاح التعليم وتطويره، فإن تلقّى علماً منحرفاً انعكس ذلك على تربيته للجيل القادم، ومما ذكره العطاس:

*“All the above roots of our general dilemma are interdependent and operate in a vicious circle. But the chief cause is confusion and error in knowledge; and in order to break this vicious circle and remedy this grave problem, we must first come to grips with the problem of loss of adab, since no true knowledge can be instilled without the precondition of adab in the one who seeks it and to whom it is imparted.”*¹⁴⁸

^{١٤٥} المقصود بانعدام الأدب عند العطاس يعني انعدام النظام والانضباط (Discipline) على مستوى الجسم والعقل والروح، ذلك النظام والانضباط الذي يستطيع كل أحد بمقتضاه أن يعرف ويدرك مقامه المناسب في علاقته بنفسه وبالمجتمع وبالأمة، وأن يدرك قدر نفسه من حيث إمكاناته واستعداداته المادية والذهنية والروحية، وأن يدرك حقيقة أن هناك ترابطاً وتدرجاً في المعرفة والوجود. وبما أن الأدب يتصل بالإدراك (Recognition) والمعرفة (Aknowledgement) لما مناسب وصحيح مقاماً (Place) وموقعاً (Position) ووضعاً (Condition) في الحياة. انظر: العطاس، *مُدْاخِلَاتُ فلسفة في الإسلام والعلمانية*، ترجمة: محمد الطاهر الميساوي، ١٢٧؛ وانظر:

Al-Attas, *The Concept of Education in Islam*, 27.

^{١٤٦} انظر: العطاس، *مُدْاخِلَاتُ فلسفة في الإسلام والعلمانية*، ترجمة: محمد الطاهر الميساوي، ١٢٧. وانظر: Syed Muhammad Naquib al-Attas, *Risalah Untuk Kaum Muslimin* (Kuala Lumpur: ISTAC, 2001), 137-138; see. Syed Muhammad Naquib al-Attas, *Prolegomena to The Metaphysics of Islam, an Exposition of The Fundametal Elements of The Wordview of Islam* (Kuala Lumpur: ISTAC, 1995), 15-17.

^{١٤٧} ابن حبان، *روضة العقلاء ونزهة الفضلاء*، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤)، ١٢٠.

¹⁴⁸ Al-Attas, *The Concept of Education in Islam*, 24.

والترجمة العربية: "جميع جذور معضلتنا العامة المذكورة أعلاه مترابطة وتعمل ضمن دائرة مفرغة؛ ولكن السبب الرئيس هو الارتباك والخطأ في المعرفة؛ ولكي نكسر هذه الحلقة المفرغة ونعالج هذه المشكلة الخطيرة، لا بدّ لنا أولاً من التصدي لمشكلة فقدان الأدب، إذ لا يمكن غرس المعرفة الحقيقية دون وجود الأدب كشرط مُسبق فيمن يطلبها وفيمن يُبلّغها".

وهو ما يسميه العطاس بالدائرة المُفرغة^{١٤٩} (*The Vicious Circle*) من الانحراف العلمي والتربوي، التي تنتج أجيالاً من القادة الذين يفتقرون إلى الأدب، ولا يحسنون فهم الوقائع ولا التصرف الرشيد فيها، بما يليق بكرامة الإنسان كما قدّرها الله تعالى. يرى العطاس أن جذر الأزمة الحضارية هو اختلال مفهوم العلم وغياب الغاية السامية من تحصيله؛ إذ بات الناس يطلبون العلم لأهداف دنيوية فحسب. وهذا ما أدّى إلى انفصالٍ خطيرٍ بين العلم والأدب، وبين المعرفة والدين، حتى ظهر متعلمون يستخدمون علمهم في الفساد لا في الإصلاح، ولا يخطر ببالهم حدودُ الله وشريعته؛ قال العطاس: "إنَّ فقدان الأدب يؤدي إلى اختلال ترتيب الأولويات في النفس، وبالتالي إلى وضع العلم في غير موضعه، وفصله عن علاقته الصحيحة بالله، وهو الخالق والمصدر والغاية"^{١٥٠}.

وقد سبق أن أشار الغزالي إلى هذه الفكرة، حين قسّم طلاب العلم إلى ثلاثة أصناف: من طلب العلم للآخرة؛ فهو من الفائزين؛ ومن طلبه للدنيا وهو يشعر بتقصيره؛ فهو من المخاطرين، من طلبه للدنيا غافلاً؛ فهو من الهالكين^{١٥١}.

فالأزمة الجوهرية عند العطاس هي فقدان الأدب، وهذا فقدان يستتبع بالضرورة فقدان العدل^{١٥٢}، إذ إن العدل هو وضع الشيء في موضعه، أما الظلم فهو نقيضه. ويؤدي

^{١٤٩} التعريف بالحلقة المُفرغة في اللغة والاصطلاح: المفرغة مأخوذة من الجذر (ف ر غ)، يقال: "أفرغ يفرغ إفراغاً، فهو مُفرغٌ، والمفعول مُفرَغٌ". ومنه: "أفرغ الوعاء" أي أخلاه مما فيه. ويُقال: "حلقة مفرغة": أي حلقة متصلة لا انقطاع فيها، فارغة الجوف غير مقطوعة الجوانب، كما يُقال: "دار في حلقة مفرغة" أي لم يخرج بنتيجة، وعمل عملاً دون فائدة. انظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، (بيروت: عالم الكتب، ٢٠٠٨)، ٣: ٣٧٤٢، مادة: (ف ر غ). وأما في الاصطلاح: تشير إلى مصلحة "دائرة الفقر المفرغة" (*vicious circle of poverty*) إلى حقيقة وجود مجموعة من العوامل التي تتفاعل مع بعضها البعض وتُثقي الناس في حالة فقر؛ فالفقر يؤدي إلى ضعف في الصحة والتعليم، مما ينعكس سلباً على الإنتاج، ويؤدي بالتالي إلى انخفاض الدخل، وهو ما يتسبب في مزيد من الفقر، فيتكرر المسار نفسه في حلقة مغلقة. انظر: أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: إنجليزي-فرنسي-عربي**، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٥م)، ٤٥٩. ويمكن القول: إن "الدائرة المفرغة" أو "الحلقة المفرغة" مصطلح يُستخدم لوصف حالة أو منظومة يصعب الخروج منها، بسبب تشابك الأسباب بالنتائج؛ أي إن كل مشكلة تؤدي إلى أخرى، مما يُفاقم الأزمة ويزيد من تعقيد سُبل حلّها. وتُعد هذه الظاهرة من أبرز التحديات في ميادين متعددة، كعلم الاقتصاد، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية.

^{١٥٠} انظر: العطاس، **مُدخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية**، ترجمة: محمد الطاهر الميساوي، ص ١٢٤.

^{١٥١} انظر: ابن القيم، **مفتاح دار السعادة**، ١: ٥٨.

هذا الخلل إلى ظهور قادة مزيفين، وانتشار الظلم، وشيوع الجهل، بل والحق والجنون، نتيجة غياب الرؤية الإسلامية الكلية^{١٥٣}. أما الحق والجنون فقد فصل بينهما الغزالي بقوله: "بأن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض؛ وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدًا"^{١٥٤}. وعن الجهل، ذكر الراغب الأصفهاني أنه على ثلاثة أضرب؛ الأول: وهو خلل النفس من العلم، هذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضيا للأفعال الخارجة عن النظام، كما جعل العلم معنى مقتضيا للأفعال الجارية على النظام؛ والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه؛ والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا^{١٥٥}، ثم نقل الراغب قول الشافعي في موضع آخر: "ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس"^{١٥٦}.

وقد جاء التحذير النبوي ﷺ من العلم غير النافع في الحديث: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية»^{١٥٧}. ويؤكد هذا المعنى الحديث، بقوله ﷺ: «لا يكون المرء عالمًا حتى يكون بعمله عاملاً»^{١٥٨}. قال الغزالي: "العلم إن لم يثمر خشية الله والعمل بطاعته، فوباله أكثر من نفعه، وصاحبه أحرى أن يكون مغرورًا"^{١٥٩}. وقال ابن القيم: "العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس بمستنكر أن تسمع بالعلم ولا ترى له ثمرة،

^{١٥٢} انظر: العطاس، مُداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص ١٢٦.

^{١٥٣} انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٥٣٧، وانظر: ابن منظور، لسان العرب، ١٢: ٣٧٣،

وانظر: الفيومي، المصباح المنير، ٢: ص ٣٨٦. وانظر: الجرجاني، التعريفات، ١٤٤.

^{١٥٤} الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣: ٥٤.

^{١٥٥} انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٢٠٩.

^{١٥٦} انظر: جلال الدين السيوطي، صون المنطق والكلام عن في المنطق والكلام، ط ٢ (الإسكندرية: مجمع البحوث

الإسلامية، ١٩٧٠)، ص ١٥. وانظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٣٤.

^{١٥٧} مسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، ٣: ٢٣٤ (٢٩٨٩).

^{١٥٨} الترمذي، السنن، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ٤: ٢٤٥ (٢٦٤١).

^{١٥٩} انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ١: ٥٤.

ولكن اعلم أنه علم لا ينفع، وعلم لا ينفع كدواء لا يشفي، وطعام لا يُغذي"^{١٦٠}. ومن ذلك قول السلف: "من ازداد علمًا ولم يزد هدى، لم يزد من الله إلا بعدًا"^{١٦١}.

ولذا، فإن تحليل ابن خلدون ونقيب العطاس لأسباب سقوط الحضارات لا يقتصر على الجانب السياسي أو الاقتصادي، بل يتضمن أبعادًا تربوية عميقة. فحين يغيب العالم المري، وتفقد القيادة الأدبية والأخلاقية دورها، وتتحول غايات العلم إلى أغراض مادية، تنهار القيم ويتفكك المجتمع من داخله.

ومن هنا، فإن هذا البحث العلمي المتواضع في العادات التربوية للقدوة الصالحة من أولي العزم من الرسل ﷺ يُعدّ استعادةً للمفاتيح الأصلية لبناء الحضارة، لأنه يُظهر أن أعظم وسائل النهوض تكمن في التربية الصحيحة والاقتداء العملي. فبينما يُحلل ابن خلدون والعطاس نتائج الانحراف التربوي، فإن الأنبياء يُقدّمون النموذج العملي للوقاية منه. والجمع بين النموذجين يُتيح فهمًا تكامليًا لسنن النهوض والانحيار، من زاويتين: التحليل الحضاري والتوجيه النبوي التربوي.

المبحث الثالث: دور بعثات أولي العزم من الرسل ﷺ في مواجهة الانحرافات الاجتماعية تمهيد

لقد اصطفى الله تعالى أولي العزم من الرسل ﷺ لحمل أعظم الرسالات، وتحمل أثقل التكاليف، فكانوا النماذج الأعلى في الإصلاح والتغيير، وقادة التربية الإيمانية والاجتماعية في أحلك البيئات انحرافًا وظلمًا. وقد بعثهم الله في أقوام غلبت عليهم الأهواء، واستفحل فيهم الشرك، واستشرى الظلم، وانحلت منظومتهم الأخلاقية والاجتماعية، فكان لا بد من بعثات

^{١٦٠} ابن القيم، الفوائد، ٩٦.

^{١٦١} أبو منصور الديلمي، مسند الفردوس، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦)، ٥: ٧٢ (٧٤٧٢)، من طريق موسى بن جعفر عن أبيه عن جده. وهو أثر ضعيف سندًا، لكنه صحيح معنى. انظر: ابن عراق الكناي، تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، (القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٦٩)، ١: ٦٤، حيث حكم عليه بأنه ضعيف جدًا، ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ.

إلهية ترسي معالم الهداية، وتقوّم السلوك، وتعيد بناء الإنسان والمجتمع على أسس التوحيد والعدل والفضيلة.

لم تكن رسالاتهم مجرد خطابات وعظية أو شعائر روحية، بل كانت مشاريع تغيير متكاملة، تتصدى للانحرافات الفكرية والعقدية والسلوكية، وتقيم مجتمعات تقوم على القسط، وقد أشار القرآن والسنة إلى أن أعظم صور الانحراف التي واجهتها دعوات الرسل كانت في العدول عن التوحيد، وظلم النفس والغير، واختلال البنية الأخلاقية للمجتمع. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^{١٦٢}. وهذا التكليف الجليل لا يتحقق إلا بتزكية النفوس، وهداية العقول، ومقاومة أسباب الانحراف، وعلى رأسها الجهل والظلم واتباع الهوى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^{١٦٣}. قال السعدي: "وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط أي قيامًا بدين الله، وتحصيلًا لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها، وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواثيث وغير ذلك"^{١٦٤}. قال ابن عاشور: "الظلم سبب للحرمان من التوفيق إلى الهداية عقابًا لكل من ظلم، فيذرهم الله في طغيانهم يعمهون، لا يهديهم إلى طريق الحق، ولا يلهمهم حجة ولا برهانًا بسبب هذا الظلم، والمراد بالظالمين الكاملون في الظلم وهو ظلم الأنفس، وظلم الناس، وأعظمه الإشراك، وإتيان الفواحش والعدوان، فإن الله لا يخلق في نفوسهم الاهتداء عقابًا منهم على ظلمهم، فهم باقون في الضلال، يتخبطون فيه، فهم أضل الضالين"^{١٦٥}. وجاء في الحديث عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه: أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنّازة، فقال ﷺ: «مستريح ومستراح منه»؛ قالوا: يا رسول الله!، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله،

^{١٦٢} القرآن الكريم، سورة الحديد ٥٧: ٢٥.

^{١٦٣} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ٥٠.

^{١٦٤} انظر: السعدي، تفسير كلام المنان، ٨٤٢.

^{١٦٥} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢: ١٤١.

والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»^{١٦٦}. ولذا، تُبرز الدراسة نماذج عملية من جهود أولي العزم من الرسل ﷺ في معالجة الانحرافات الاجتماعية في بيئاتهم المختلفة، ثم توضح الأدوار الجوهرية التي قامت بها دعواتهم في مواجهة الجهل والانحراف، تأسيسًا لمنهج رباني دائم يصلح كل زمان ومكان.

المطلب الأول: نماذج من جهود أولي العزم من الرسل ﷺ في مقاومة الانحرافات الاجتماعية

لقد تعددت صور الانحرافات الاجتماعية في المجتمعات التي بُعث فيها أولو العزم من الرسل ﷺ، وتراوحت بين الشرك، والظلم، والانحلال الأخلاقي، والاستكبار، والترف، والإفساد في الأرض. وقد جاءت بعثاتهم لتقويم هذه الانحرافات، وإنقاذ الإنسان من الانحطاط العقدي والسلوكي، وبناء مجتمعات تقوم على التوحيد والعدل والطهارة.

وفيما يلي عرض لأبرز جهودهم في هذا الميدان من خلال النماذج الآتية: بعثة نوح ﷺ في معالجة الانحرافات العقدية والاجتماعية، وبعثة إبراهيم ﷺ في ترسيخ قيم التوحيد ومواجهة الوثنية، وبعثة موسى ﷺ في مقاومة الظلم والطغيان، وبعثة عيسى ﷺ في تصحيح الانحرافات الروحية والاجتماعية، وبعثة محمد ﷺ في تأسيس المجتمع المدني النبوي، وبناء أمة التوحيد على منهج متكامل يجمع بين الهداية والإصلاح الاجتماعي.

أولاً: بعثة نوح ﷺ ودورها في معالجة الانحرافات العقدية والاجتماعية

شكّلت بعثة نوح ﷺ نقطة تحول حاسمة في مسار التاريخ الإنساني، إذ جاءت عقب الانزلاق العقدي والاجتماعي العميق الذي شهدته البشرية بعد قرون من الغفلة والانحراف عن منهج التوحيد. لم تكن دعوة نوح ﷺ مجرد نداء روحي، بل مشروعًا إصلاحيًا شاملاً استهدف تصحيح العقيدة، وإعادة بناء الإنسان والمجتمع على أسس الفطرة والعبودية لله تعالى.

^{١٦٦} البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، ٧: ١٠٧ (٦٥١٢).

وقد بين القرآن أن مجتمع نوح ﷺ كان يعيش في ظل عبادة الأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنْ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنْ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^{١٦٧}. ويذكر الطبري أن هذه الأسماء تعود إلى رجال صالحين من قوم نوح ﷺ، فلما ماتوا عظمهم الناس حتى آل الأمر إلى عبادتهم، وهو ما يُظهر كيف يتدرج الانحراف العقدي من التقديس الرمزي إلى الشرك الصريح^{١٦٨}.

وقد بنى نوح دعوته على التزكية والتوبة والاستغفار، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾^{١٦٩}، وفي هذه الآية ربط بين صفاء التوحيد ونزول البركة، مما يدل على أن العقيدة السليمة هي أساس الإصلاح الشامل، لا سيما حين يعقبها وعد إلهي بالرخاء في قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا • وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾^{١٧٠}. ويؤكد الرازي أن هذا الربط بين الاستغفار والخير المادي دليل على تكامل الدين والدنيا في الرؤية القرآنية، حيث يؤدي الاستقامة في الدين إلى البركة في المال والولد^{١٧١}.

غير أن الانحراف لم يقتصر على البعد العقدي، بل تجاوز إلى الانحرافات الاجتماعية العميقة، حيث غلب على الناس الاستكبار والتكذيب، وتحولت البيوت إلى مصانع للانحراف، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَفَّارًا﴾^{١٧٢}. وهذا الوصف يكشف عن انخيار منظومة الأسرة، وتحولها من بيئة للتربية إلى وعاء لإنتاج الفجور. وقد أشار عبد الحميد بن باديس إلى أن معركة نوح ﷺ كانت أول مواجهة حقيقية بين التوحيد والشرك، ومنها انطلقت معارك الإصلاح في التاريخ الإنساني^{١٧٣}.

أما من الجانب السياسي، فقد واجه نوح ﷺ منظومة من رموز الاستكبار والتكذيب، قابلت دعوته بالسخرية والإعراض. كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي

^{١٦٧} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٢٣.

^{١٦٨} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٢: ٥٣٣.

^{١٦٩} القرآن الكريم، نوح ٧١: ١٠.

^{١٧٠} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ١١-١٢.

^{١٧١} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٠: ٨٣.

^{١٧٢} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٢٧.

^{١٧٣} انظر: عبد الحميد بن باديس، الآثار، تحقيق وتعليق: عمار الطالبي، (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٧)، ٣: ١٩٧.

آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ»^{١٧٤}، وقد فسر سيد قطب هذه الآية بأنها "مشهد متكرر للنفور الجسدي والنفسي من الدعوة، ومحاولة يائسة لحجبها كلياً عن الأسماع والبصائر، مما يكشف عن طبيعة الاستكبار حين يُقابل الوحي بوسائل المنع لا بالحوار"^{١٧٥}. وهي صورة بليغة لانغلاق الطغاة أمام صوت الحق، إذ لا يكتفون بالسكوت، بل يتعمدون الصدّ والمقاطعة، بما يشبه الحصار النفسي والدعائي؛ لم يقابل نوح هذا العناد بالقوة، بل بالصبر والمثابرة، ما يشير إلى أن دعوته كانت مدرسة في التربية السياسية التي تقوم على الثبات وعدم الانجرار إلى الاستفزاز^{١٧٦}. وفي البعد الاقتصادي، يظهر الخطاب القرآني تأكيداً على أن بركات السماء متوقفة على صلاح الأرض، من خلال الاستغفار والتوبة، وهو ما جعل دعوة نوح ﷺ ذات أبعاد اقتصادية تنموية، وليست فقط دينية مجردة. وهذا ما أكد عليه الرازي حين قال: "الاستقامة الدينية تؤدي إلى استقامة دنيوية، والعكس صحيح، إذ الانحراف العقدي يورث اختلالاً اقتصادياً واجتماعياً"^{١٧٧}.

أما الطوفان، فلم يكن مجرد عقوبة، بل كان تطهيراً للبيئة الإنسانية من الفساد الشامل، وتهيئة لعهد جديد يقوم على التوحيد، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^{١٧٨}. وقد أورد البغوي تفصيلات دقيقة عن السفينة ومن فيها، مشيراً إلى أن ذلك كان تأسيساً جديداً لحضارة نقية من الانحراف العقدي والاجتماعي^{١٧٩}. وعبر القرآن عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^{١٨٠}، وعلق القرطبي على ذلك بأن نوحاً أصبح بمنزلة آدم الثاني، وأن ذريته هم حملة الوحي الجديد وممثلوا العهد التوحيدي المتجدد^{١٨١}.

^{١٧٤} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٧.

^{١٧٥} انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (دار الشروق، بيروت، ٢٠٠٣م)، ٦: ٣٩٠٤.

^{١٧٦} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٣: ٥٣١.

^{١٧٧} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٠: ٨٥.

^{١٧٨} القرآن الكريم، سورة العنكبوت ٢٩: ١٥.

^{١٧٩} انظر: البغوي، معالم التنزيل، ٢: ٤٤٩.

^{١٨٠} القرآن الكريم، سورة الصافات ٣٧: ٧٧.

^{١٨١} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٥: ٨٢.

يتضح من ذلك أن بعثة نوح ﷺ كانت نموذجًا تأسيسيًا في مواجهة الانحرافات الكبرى، حيث تداخلت العقيدة مع التربية، والاقتصاد مع السياسة، في منظومة إصلاحية واحدة، تركز على الإيمان والعمل، وتعيد الإنسان إلى فطرته السليمة. وقد شكّل هذا النموذج أصلًا مرجعيًا لبقية دعوات أولي العزم من الرسل، وأسس لرسالة التغيير الاجتماعي الشامل المبني على التوحيد والتركية والعدل.

ثانيًا: بعثة إبراهيم ﷺ ودورها في ترسيخ قيم التوحيد ومواجهة الوثنية

يُعَدّ إبراهيم ﷺ من أولي العزم من الرسل ﷺ، وقد مثّل نموذجًا ربانيًا متكاملًا في دعوته الإصلاحية التي واجه بها الانحرافات العقدية والاجتماعية والسياسية، في بيئات متعددة امتدت من بابل إلى حران، ثم مصر، وفلسطين ومكة، حيث تنقل حاملًا رسالة التوحيد، مؤسسًا لمجتمع عقائدي جديد يركز على الإيمان، والهجرة، والطهارة القلبية، وبناء الأسرة الصالحة.

بدأت بعثة إبراهيم ﷺ في قلب المجتمع البابلي^{١٨٢} الغارق في عبادة الأصنام، بل كان أقرب الناس إليه أبوه آزر من صنّاعها، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾^{١٨٣}، وهو خطاب يجمع بين الأدب والنقد الفكري. وقد وصف الطبري هذا الموقف بأنه من أوائل مظاهر الجهر بالحق داخل بنية أسرية ملوثة بالشرك^{١٨٤}.

تميّزت محاور إبراهيم ﷺ لأبيه بالأسلوب العقلي اللين، فائلاً: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾^{١٨٥}، وقد علّق القرطبي بأن هذا النداء المتكرر "يا أبت" يعكس أسلوبًا تربويًا عاطفيًا في الإصلاح العقدي^{١٨٦}. جاء في الحديث عن حال والد إبراهيم ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة

^{١٨٢} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، حقيق مصطفى عبد الواحد، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ١: ١٩٢.

^{١٨٣} القرآن الكريم، سورة الأنعام ٦: ٧٤.

^{١٨٤} انظر: الطبري، جامع البيان، ١١: ٢٢٠.

^{١٨٥} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٤٤.

^{١٨٦} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١١: ٧٩.

فيقول له إبراهيم ﷺ: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون فأني خزي أخرى من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين؛ ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار^{١٨٧}. وفي موقف عملي حاسم، كسر إبراهيم ﷺ الأصنام بعدما خرج قومه إلى عيدهم، فقال الله تعالى: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾^{١٨٨}. ثم واجههم بمنطق الاستدلال فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾^{١٨٩}، واعتبر الفخر الرازي ذلك نموذجًا لثورة فكرية تستخدم الدليل العكسي^{١٩٠}. وقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، كلهن في ذات الله ﷻ»: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾^{١٩١}، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾^{١٩٢}، وقوله لسارة: «هي أختي»^{١٩٣}. كما أورد أبي حاتم: عن الحسن البصري قال: "خرج قوم إبراهيم ﷺ إلى عيد لهم وأرادوا إبراهيم ﷺ على الخروج، فاضطجع على ظهره فقال إني سقيم لا أستطيع الخروج، وجعل ينظر إلى السماء، فلما خرجوا أقبل على آلهتهم فكسرها"^{١٩٤}.

^{١٨٧} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٢٥، ٤: ١٣٩ (٣٣٥٠). قوله ﷺ: «بَذِيخ: هو ذكر الضبع، وقيل: الكثير الشعر. وقوله: ﷺ: «ملتطخ»: أي المتسخ، إما بالدم أو الروث أو الطين. وقوله ﷺ: «بقوائمه» أي بأطرافه التي يمشي بها، ويُراد بها هنا اليدان والرجلان على سبيل التغليب. انظر: الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح، ٨: ٣٥١٦.

^{١٨٨} القرآن الكريم، سورة الصافات ٣٧: ٩٣.

^{١٨٩} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٦٣.

^{١٩٠} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢١: ١٢٣.

^{١٩١} القرآن الكريم، سورة الصافات ٣٧: ٨٩.

^{١٩٢} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٦٣.

^{١٩٣} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٤١، ٣: ٣٣٤ (٣٣٥٨).

^{١٩٤} الرواية ليست حديثًا نبويًا مرفوعًا، وإنما أثرٌ موقوف على الحسن البصري، ورد في كتب التفسير بالماثور مثل الطبري والدر المنثور، وتُقبل للاستئناس في بيان سياق قصة إبراهيم ﷺ، لا في الأحكام الشرعية. انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٣: ٧٥؛ وانظر: ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ١٠: ٣٢٢٠؛ وانظر: السيوطي، الدر المنثور، ٧: ٣٧٢.

بلغ الاضطهاد السياسي والاجتماعي ذروته حين قُضي عليه بالحرق، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾^{١٩٥}، فجاء الرد الإلهي المعجز: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾^{١٩٦}. وقد أشار ابن عطية إلى أن هذا التسخير للنار يعكس ذروة التوكل والثقة بالله ﷻ^{١٩٧}. كما ورد في رواية عن أم شريك رضي الله عنها: «أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزغ، وقال: كان ينفخ على إبراهيم»^{١٩٨}. وقد نُقل عن بعض العلماء، كما ذكر ابن حجر في فتح الباري، أن الحيوانات كانت تسعى لإطفاء النار عن إبراهيم عليه السلام إلا الوزغ فإنه كان ينفخ فيها^{١٩٩}. غير أن الحكم بقتل الوزغ لا يُبنى على هذه القصة وحدها، بل يُفهم في ضوء علة عامة هي الإيذاء، إذ إن إدراج بعض الحيوانات في حكم (الفواسق) مرتبط بكونها مؤذية بطبعها. ومع أن الوزغ لم يُذكر في حديث الخمس الفواسق، إلا أن النصوص الخاصة جاءت بالأمر بقتله وبيان ثوابه، مما يدل على مشروعية دفع أذاه. وقد جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب كلهن فواسق، يُقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»^{٢٠٠}. وثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل وزغة في أول ضربة فله كذا وكذا حسنة»^{٢٠١}. وقد قال النووي: اتفق العلماء على أن الوزغ من الحشرات المؤذية، وجاءت الأحاديث الصحيحة بالأمر بقتله والحث عليه وبيان ثوابه، وهو ما يدل على استحباب قتله ودفع أذاه^{٢٠٢}.

^{١٩٥} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٦٨.

^{١٩٦} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٦٩.

^{١٩٧} انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ٣: ٢٢١.

^{١٩٨} البخاري، الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب قتل الفأرة، ٣: ١٩٠ (٣٣١٤)؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الحج، ٤: ٢٣٥ (١١٩٨).

^{١٩٩} انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٦: ٣٤٩.

^{٢٠٠} البخاري، الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب قتل الفأرة، ٣: ٢٣١ (٣٣١٤)؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الحج، ٣: ٢١١ (١١٩٨). النووي، المنهاج، ١٤: ٢٣٦.

^{٢٠١} مسلم، الصحيح، كتاب السلام، باب استحباب قتل الوزغ، ٤: ١٧٥٨ (٢٢٤٠).

^{٢٠٢} انظر: النووي، المنهاج، ١٤: ٢٣٦. يمكن القول: يدل مجموع الأحاديث وشروح العلماء أن قتل الوزغ مشروع لسببين: عداوته للأنبياء، وخاصة مشاركته في أذية إبراهيم عليه السلام، وكونه من المؤذيات والفواسق، التي أمر الشرع بقتلها لدفع ضررها.

كما ناظر إبراهيم ﷺ ملك بابل نمrod^{٢٠٣} الذي ادّعى الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾^{٢٠٤}، فرد عليه إبراهيم ﷺ بالحجة العقلية القاطعة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾^{٢٠٥}. وقد رأى الرازي في ذلك نموذجًا لمواجهة الاستبداد العقدي بمنطق العقل^{٢٠٦}. وأورد ابن كثير أن النمرود دام ملكه ٤٠٠ سنة وأهلكه الله ﷻ بعبوضة^{٢٠٧}. ثم هاجر إبراهيم ومعه لوط ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾^{٢٠٨} قال الطبري: "البشرى هنا بإسحاق، ثم أخبروه بمهمتهم الثانية، وهي إهلاك قوم لوط"^{٢٠٩}. قال الله ﷻ: ﴿فَأَمِّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾^{٢١٠} وقال القرطبي: "الهجرة كانت من العراق إلى الشام، وهاجر معه لوط لأنه كان ابن أخيه أو ابن أخ زوجته"^{٢١١}. قال الطبري: "آمن له لوط: أي صدّقه في نبوّته، وكان أول من آمن به من قومه"^{٢١٢}. ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾^{٢١٣}. وقال القرطبي: "القرية هي سدوم، وذكر الإهلاك بعد البشرى دليل على الجمع بين الرحمة والعقوبة في مهمة واحدة"^{٢١٤}. ثم انتقل إبراهيم إلى حران^{٢١٥} حيث واصل محاجة

^{٢٠٣} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ١: ١٩٢.

^{٢٠٤} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٥٨.

^{٢٠٥} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٥٨.

^{٢٠٦} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٦: ١٥٩.

^{٢٠٧} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١: ٦٨٦.

^{٢٠٨} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٧٤.

^{٢٠٩} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٠: ١٤٥.

^{٢١٠} القرآن الكريم، سورة العنكبوت ٢٩: ٢٦.

^{٢١١} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٣: ٣٣٣.

^{٢١٢} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٠: ١٣١.

^{٢١٣} القرآن الكريم، سورة العنكبوت ٢٩: ٣١.

^{٢١٤} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٣: ٣٤٤.

^{٢١٥} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ١: ١٩٢.

عبدة الكواكب، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾^{٢١٦}، وأشار ابن عاشور إلى أن الهجرة من بابل إلى حران؛ تمثل انتقالًا من بيئة استبدادية إلى بيئة تصلح لبذر التوحيد^{٢١٧}. وقد فسرهما ابن كثير بأنها حُجج تعليمية لإثبات أن هذه الأجرام لا تصلح للإلهوية^{٢١٨}. ثم انتقل إلى مصر حيث واجه نظامًا استبداديًا حاول الاعتداء على زوجته سارة^{٢١٩}، فقال النبي ﷺ: «ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات...» وذكر منها قوله «هي أختي»^{٢٢٠}. وذلك حين قال ذلك اتقاءً لشَرِّ الملك الذي أراد سارة. وقد حفظ الله تعالى سارة ﷺ زوج إبراهيم ﷺ عندما أراد الملك الجبار الاعتداء عليها، فقام إبراهيم ﷺ إلى الصلاة متضرعًا إلى الله ﷻ، وفي هذه الأثناء أدخل الملك يده نحوها، فقبضت قبضة شديدة، فأدرك أنه لا حول له، فطلب منها الدعاء، فدعت، فانفكت يده، ثم أعاد الكرة، فقبضت يده ثانية، حتى أصابه شبه الغشي أو الصرع، كما جاء في رواية البخاري عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «هاجر إبراهيم بسارة، فأعطوها أجر، فرجعت فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر، وأخدم وليدة» وقال ابن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: فأخدمها هاجر^{٢٢١}؛ وكانت نواة للأسرة الإبراهيمية المباركة^{٢٢٢}. وبعدما وُلد له إسماعيل من هاجر، أسكنهما في مكة، وقال: ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾^{٢٢٣}.

^{٢١٦} القرآن الكريم، سورة الأنعام ٦: ٧٦.

^{٢١٧} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٥: ص ٢٦٧.

^{٢١٨} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢: ص ١٥٠.

^{٢١٩} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ١: ١٩٨.

^{٢٢٠} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٤١، ٢: ٢٣٤ (٣٣٥٨).

^{٢٢١} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: وهبنا له إسحاق ويعقوب، ٢: ١٢٢ (٣٣٥٨). وقد وردت في رواية الأعرج زيادة مهمة، حيث قالت سارة: «اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليّ الكافر»، فجاء دعاؤها تضرعًا وتوسلًا إلى الله ﷻ ما يعلمه من صدق إيمانها وطهارتها، وإن كانت فاطعةً بعلم الله ﷻ بذلك، إلا أن تعبيرها بـ "إن كنت تعلم" جاء على سبيل هضم النفس والتواضع، كما أشار إليه الحافظ ابن حجر في شرحه. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٦: ٢٩٣.

^{٢٢٢} وهذا الملك كان قد أُصيب بالعجز كلما حاول من سارة، حتى طلب منها أن تدعو الله ليفك عنه، ثم أكرمها خوفًا وخضوعًا وأعطاهما هاجر هدية. ويقال: إن أبا هاجر كان من ملوك القبط؛ وإنها من حفن، بفتح المهملة وسكون

وعلق الطبري هذه الآية أن مكة لم يكن بها زرع يومئذ^{٢٢٤}. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أخذ إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنها إسماعيل، وكان رضيغاً، فجعلت هاجر تُرضعه، فجاء بها إبراهيم وولدها إسماعيل، وهي تُرضعه، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحه فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس فيها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟! فجعلت تقول له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يُضَيِّعُنَا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه، فقال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾^{٢٢٥} إلى آخر الآية^{٢٢٦}. قال الطبري: "وإنما سماه البيت لأنه كان بيتاً قبل الطوفان الذي كان في زمن نوح عليه السلام، ثم دثر فرعه إبراهيم عليه السلام قواعد بعد الدثور، وكانت قواعد ثابتة معروفة^{٢٢٧}. ثم رفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت مع ابنه إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾^{٢٢٨}، وهو مشهد يجمع بين العبادة والعمران. وقد أكد الزمخشري أهمية النية الصالحة في البناء^{٢٢٩}.

قال الطبري: "وكانت الملائكة هي أول من بنى البيت، ثم رفعه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بعدما اندثر، وكان الناس يعرفون مكانه ويعظمون^{٢٣٠}. ثم بُشر بإسحاق بعد كبر، فقال

الفاء، قرية بمصر. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٦: ٢٩٤؛ ومعنى أخدمها هاجر أي: أعطاهما أمة (جارية) لتكون في خدمتها. انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ١: ١٩٨؛ انظر: العيني، عمدة القاري، ١٢: ٣١.

^{٢٢٣} القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤: ٣٧.

^{٢٢٤} انظر: الطبري، جامع البيان، ٨: ٥٦٧.

^{٢٢٥} القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤: ٣٧.

^{٢٢٦} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤: ٣٧. (٣٣٦٤).

^{٢٢٧} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٣: ١٢٥.

^{٢٢٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٧.

^{٢٢٩} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٣: ١٢٥.

^{٢٣٠} انظر: الزمخشري، الكشاف، ١: ١٩٨.

تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾^{٢٣١}. وقد بين ابن كثير هذه الآية أن ولادة إسحاق عليه السلام كانت بعد ١٤ سنة من ولادة إسماعيل^{٢٣٢}، بينما أورد الطبري رواية أخرى أنها كانت بعد ١١٧ سنة^{٢٣٣}. وفي مشهد الذبح، تظهر قمة التربية على الطاعة: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾^{٢٣٤}، وعلق ابن كثير هذه الآية بأن هذه الطاعة العميقة تمثل ذروة التزكية النبوية^{٢٣٥}.

بهذا، شكّلت بعثة إبراهيم عليه السلام نموذجًا تربويًا متكاملًا، يجمع بين الثبات على المبدأ، التربية بالحكمة، الدعوة بالحوار، والهجرة من بيئة الانحراف إلى فضاء الرسالة. وقد جعله الله قدوة للأمم، ورمزًا في مقاومة كل صور الانحراف، بما يجعله نموذجًا تربويًا خالدًا في سجل الأنبياء والمرسلين.

ثالثًا: بعثة موسى عليه السلام ودورها في مقاومة الظلم والطغيان وبناء أمة التوحيد

بُعث نبي الله موسى عليه السلام في سياق اجتماعي بالغ التعقيد، سادت فيه مظاهر الاستبداد السياسي والانحراف العقدي والاجتماعي، تحت سلطة فرعون الذي بلغ في طغيانه حدًا عظيمًا، حتى إنه كان كما قال الله ﷻ: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَكُمْ﴾^{٢٣٦}، وقد ذكر ابن كثير أن فرعون رأى رؤيا تشير إلى زوال ملكه على يد غلام من بني إسرائيل، فأمر بقتل الذكور منهم، تهيئةً لسلطانه وقمعًا للتهديد المحتمل^{٢٣٧}.

وحين اشتد خطر فرعون على المواليد من بني إسرائيل، تولّى الله تعالى بنفسه توجيه أم موسى عليه السلام، في موقف بالغ الحساسية، إذ قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِّنْ

^{٢٣١} القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤ : ٣٩.

^{٢٣٢} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ١ : ٢٠٠.

^{٢٣٣} انظر: الطبري، جامع البيان، ٦ : ٣٠٨.

^{٢٣٤} القرآن الكريم، سورة الصافات ٣٧ : ١٠٢.

^{٢٣٥} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ١ : ١٩٣.

^{٢٣٦} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢ : ٤٩.

^{٢٣٧} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦ : ٢٢١.

الْمُرْسَلِينَ^{٢٣٨}. وقد تناول ابن كثير هذه الآية ببيان دقيق، مؤكداً أن هذا الإلهام جاء في وقتٍ كانت فيه نفس أم موسى مشحونة بالخوف، فأمرها الله أن تُرضعه أولاً مطمئنة، ثم إذا خافت عليه أَلْقَتْ به في النيل، مع نهي إلهي عن الخوف والحزن، مقرون بوعدين إلهيين: الرِّد إليه، وجعله من المرسلين^{٢٣٩}. وهذه الآية تمثل نموذجاً ربّانياً في التربية الإيمانية، حيث تتجلى العناية الإلهية في لحظة الأزمة، وتُزرع الطمأنينة في قلب الأم، مع ربط الأسباب بالمسببات دون قطع صلتها بالله، مما يُعد منهجاً قرآنيّاً في تعليم الثقة والتوكل والثبات التربوي. وفي خضمّ البيئة الفرعونية الطاغية، تجلّى تدبير الله تعالى بأن نشأ موسى ﷺ في قصر الطاغية نفسه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾^{٢٤٠}.

وقد أوضح القرطبي أن المقصود ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾: "أعوانه وخاصته من رجاله ونسائه أو من جواريه وبناته"^{٢٤١}. ومن أبرز تلك الشخصيات من ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾: امرأة فرعون، آسية بنت مزاحم، التي قالت حين رأت موسى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكْ لَا تَقْتُلُوهُ﴾^{٢٤٢}، فكانت أداة من أدوات الرحمة الإلهية وسط بيت الجبروت^{٢٤٣}؛ وجاءت العناية الإلهية ظاهرة في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾^{٢٤٤}.

^{٢٣٨} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ٧.

^{٢٣٩} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ٢: ٥.

^{٢٤٠} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ٧.

^{٢٤١} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام، ١٥: ٣١٩.

^{٢٤٢} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ٩.

^{٢٤٣} وأما الشخصيات الأخرى من آل فرعون في القرآن الكريم، مثل امرأة فرعون والرجل المؤمن من آل فرعون، فتُعدّ من أبرز النماذج المتنوعة داخل بيت الطغيان. فأولها: الطاغية نفسها، فرعون، الذي أعلن طغيانه بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ القرآن الكريم، سورة النازعات ٧٩: ٢٤. وثانيها: الرجل المؤمن من آل فرعون، الذي قال تعالى في شأنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ القرآن الكريم، سورة غافر ٤٠: ٢٨. وقد كان يكتُم إيمانه، فلما هم فرعون بقتل موسى، جهر بالحقّ ودافع عنه. ووصفه القرطبي بأنه "كان قريباً لفرعون، وكنتم لإيمانه فترة، ثم جهر به لما اشتد الظلم، فصار من رموز الإصلاح من داخل النظام". انظر: القرطبي، الجامع لأحكام، ١٥: ٣١٩.

^{٢٤٤} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٣٩.

فكانت نشأة موسى ﷺ تحت رعاية ربانية مباشرة، إعدادًا لنبوته ومهمته الكبرى^{٢٤٥}. فكانت هذه النشأة بداية لبناء نفسي وتربوي لنبيٍّ سيحمل أمانة عظيمة؛ وقد أدت هذه الثنائية بين البيئة الفرعونية الظالمة والانتماء الفطري لبني إسرائيل إلى تشكّل شخصية متميزة قادرة على إدراك الظلم والتمرد عليه؛ وقد ظهرت بوادر ذلك حين أنقذ موسى مستضعفًا من ظلم أحد جنود فرعون، وانتهى الموقف بقتله؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^{٢٤٦}. جاء عقب قتله لرجلٍ من قوم فرعون، لا بسبب عقيدته، بل لأنه اعتدى على رجل من بني إسرائيل؛ وقد أقر موسى ﷺ بخطئه وعدّ ما فعله "ظلمًا للنفس"، رغم أن القتل كان من الكافرين^{٢٤٧}. ثم خرج موسى ﷺ من مصر متجهًا إلى مدين^{٢٤٨}، بعد أن تبين أمره في قتل القبطي^{٢٤٩}، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا

^{٢٤٥} تبرز آيات القرآن الكريم في سورة القصص ٢٨: ١٠-١٣؛ نموذجًا فريدًا لقوة الإيمان الأمومي حين يخاطبه اليقين بوعده الله؛ فقد بلغ القلق في قلب أم موسى حدًا شديدًا حتى كادت تُفصح عن سره، لولا أن الله ربط على قلبها ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ١٠. ثم أوصت أم موسى ابنتها بتتبع أخيها موسى ﷺ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ١١، أي راقبته من بعد، ومن غير أن يُشعر بوجودها. وقد بين الطبري أن المعنى: "نظرت إليه من جانب وهي تتخالف، ولا تُظهر أنها تعرفه". انظر: الطبري، جامع البيان ١٨: ١٤؛ وجاء التحريم الإلهي للمراضع لئلا يرضع موسى من أي امرأة غير أمه، قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ١٣. وهكذا تجلّت سنن الله في رعاية الأفراد داخل أحلك البيئات، تأكيدًا أن التربية الإيمانية تبدأ من لحظة الثقة بوعده الله، لا من توازنات الأرض ولا استقرار الأنظمة. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٣: ٢٥٠-٢٥١.

^{٢٤٦} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ١٦.

^{٢٤٧} يُستفاد من ذلك درس تربوي جوهري في احترام الإنسان لحقوق النفس البشرية، حتى لو كانت تلك النفس على غير الإسلام؛ فالقتل في التصور النبوي لا يُبنى على مجرد الكفر، وإنما يُبنى على العدوان المحض، أو كونه في سياق حرب مشروعة. وقد قسم ابن القيم الكفار إلى أربعة أقسام: حربي، ذمي، معاهد، ومستأمن، وبين أن القتل لا يجوز إلا بحق الحربي المعتدي، أما الذمي والمعاهد والمستأمن فإن قتلهم حرام وبعد خيانة للعهد، ومن فعل ذلك فقد ارتكب كبيرة من الكبائر؛ حيث قال: "فأما أهل الذمة والمعاهدون والمستأمنون فلا يحل التعرض لهم ولا إيذاؤهم، فضلًا عن قتلهم، ما داموا على عهدهم وأمانهم، فإن دماءهم معصومة شرعًا، ومن قتلهم فقد خفر ذمة الله وذمة رسوله". انظر: ابن القيم، أحكام أهل الذمة، تحقيق نبيل السندي، (الرياض: دار عطاءات العلم، ٢٠٢٠)، ٢: ٨٧٣-٨٧٤.

^{٢٤٨} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ٢: ٥ وما بعدها؛ وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١: ٢٢١.

^{٢٤٩} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦: ٢٥٢.

يَتَرَقَّبُ ﴿٢٥٠﴾. وهناك بدأت مرحلة جديدة من الإعداد التربوي الإلهي، حيث وصل إلى بئر مدين، ووجد امرأتين تذودان، فسقى لهما، ثم تولى إلى الظل، ودعا ربه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿٢٥١﴾.

وبعدها، جاءت إليه إحداها تدعوه لمقابلة أبيها، فلما قصَّ عليه القصص طمأنه، وزوجه إحدى ابنتيه، على أن يعمل لديه ثماني حجج، فإن أتمَّ عشرًا فمن عنده، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ﴾ ﴿٢٥٢﴾. وقد قيل إن هذا الشيخ الصالح هو شعيب ؑ، وقيل غيره، كما رجَّح الطبري وكانت هذه السنوات العشر التي قضاها موسى ؑ في مدين بمثابة إعداد نفسي وروحي وعملي، جمع فيها بين تحمُّل المسؤوليات العملية (كالرعي والعمل) وتركية النفس (بالحياة البسيطة والصبر)، تمهيدًا لتحمل أعباء الرسالة فيما بعد. وقد علّق ابن عاشور على هذه المرحلة بقوله: "كانت هذه المرحلة إعدادًا إلهيًا لموسى ليعود نبيًا وقائدًا لأمة مضطهدة" ﴿٢٥٣﴾. ثم جاء التكليف الإلهي لموسى ؑ في طور سيناء، وابتدأ بالتهيئة الروحية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿٢٥٤﴾، ليعدّ للنبوّة والاصطفاء، الذي جاء تصريحه بقوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ ﴿٢٥٥﴾، وقد أشار القرطبي إلى أنه اصطفاء خاص لا يُمنح إلا لمن بلغ مقام الكليم ﴿٢٥٦﴾. ثم أُسِّست الرسالة على أصل التوحيد، كما في قوله تعالى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿٢٥٧﴾ وبين ابن كثير أن ذلك يوضح أن الذكر والعبادة هما أساس كل بعثة إلهية ﴿٢٥٨﴾. ثم هيأه الله لمواجهة

٢٥٠ القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨ : ٢١.

٢٥١ القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨ : ٢٤.

٢٥٢ القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨ : ٢٧.

٢٥٣ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٠ : ١٧٠.

٢٥٤ القرآن الكريم، سورة طه ٢٠ : ١٢.

٢٥٥ القرآن الكريم، سورة الذاريات ٥١ : ٥٦.

٢٥٦ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٧ : ٢٤٢.

٢٥٧ القرآن الكريم، سورة طه ٢٠ : ١٤.

٢٥٨ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥ : ٢٩٢.

الطغيان العملي، بدءًا من السؤال التربوي: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى﴾^{٢٥٩}، فأجابه موسى ﷺ بتفصيل يدل على استعداده النفسي، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفِي بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾^{٢٦٠}، ويُضيف الطاهر بن عاشور بأن هذا الأسلوب القرآني يبرز التدرج في إعداد موسى ﷺ لتلقي المعجزة، كما أن ذكره لمنافع العصا دون تفصيل في "المآرب الأخرى" يوحي بكثرة استعمالها، وقال: "في قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ إبهام مقصود لتكثير المنافع، وتقديم ﴿لِي﴾ لإفادة الاختصاص^{٢٦١}. بعد ذلك جاء الأمر الإلهي بالتوجه لفرعون: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^{٢٦٢}، وفيه بيان أن الرسالة تشمل إصلاح المجتمع ومواجهة الاستبداد، لا العبادة الفردية فقط. وقد نبّه القرطبي إلى أن الدعوة لا تتم إلا بعد إعداد داخلي وتزكية^{٢٦٣}. وأمر بالحكمة والرفق: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾^{٢٦٤}. وقد علّق ابن كثير أن موسى ﷺ أراد أن يشد أزره بأخيه، صرح ﷺ بسبب هذا الطلب بقوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾^{٢٦٥}. لما عرفه منه من الفصاحة وقوة البيان، ليكون أقوى في تبليغ الحجة، وأقدر على إقامة البرهان^{٢٦٦}.

^{٢٥٩} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ١٧.

^{٢٦٠} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ١٨.

^{٢٦١} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦: ٢٤٧.

^{٢٦٢} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٢٤.

^{٢٦٣} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١١: ٢٤٦.

^{٢٦٤} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٤٤.

^{٢٦٥} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ٣٤.

^{٢٦٦} يمكن القول إن من أبرز دلائل تواضع موسى ﷺ وحرصه على أداء الرسالة على أكمل وجه، دعاؤه ربه أن يُشرك معه أخاه هارون في مهمة الدعوة. فرغم أن النبوة أوكلت إليه، فقد طلب العون من أخيه، إدراكًا لحاجة الرسالة إلى التعاون والتكامل. ومن اللافت أن القرآن الكريم غالبًا ما يذكر موسى ﷺ في مقام الخطاب دون هارون، كما في قوله: ﴿فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٤٤، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٥١، مما يدل على تصدّره للموقف، وأن طلبه لمشاركة هارون لم يكن تراجعًا عن المهمة، بل تواضعًا وحرصًا على نجاحها. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦: ٢٤٦. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦: ١٢٨.

لكن فرعون عاند وتكبر، فردّ الله عليه بالآيات: العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والقمل، والضفادع، حتى إذا أدركه الغرق، قال تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾^{٢٦٧}، وأبقى جسده آية لمن بعده: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾^{٢٦٨}.

وبعد الخروج من مصر^{٢٦٩}، واجه موسى ﷺ انحرافات داخلية في قومه، تمثلت في ميلهم إلى الشرك، كما في قولهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^{٢٧٠}، وفي عبادتهم العجل أثناء غيابهم، وقد وصف السعدي هذا الحدث بأنه "من أعظم الانحرافات العقيدية بعد نعمة النجاة"^{٢٧١}.

ورغم كثرة المعجزات، كإنزال المنّ والسلوى، وتفجير العيون من الصخر، وظلال الغمام، بقي بنو إسرائيل في حالة من التمرد والاعتراض، قال تعالى: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^{٢٧٢}. ولما أمرهم الله بدخول الأرض المقدسة^{٢٧٣}، امتنعوا بحجة وجود الجبارين، وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^{٢٧٤}، فعاقبهم الله بالتّيه^{٢٧٥} أربعين سنة: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً

^{٢٦٧} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٣٦.

^{٢٦٨} القرآن الكريم، سورة يونس ١٠: ٩٢.

^{٢٦٩} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ٢: ٧.

^{٢٧٠} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٣٨.

^{٢٧١} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٢٦٣.

^{٢٧٢} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٥٧.

^{٢٧٣} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ٢: ٧.

^{٢٧٤} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٢٤.

^{٢٧٥} فسّر القرطبي استجابة الله تعالى لدعاء موسى ﷺ، فعاقب قومه بالتّيه أربعين سنة. وأصل "التّيه" في اللغة: الحيرة والانقطاع عن الطرق؛ وهو أنهم مُنعوا من المقصود، وانقطعوا في أرض لا يهتدون إلى الخروج منها؛ وقد اختلف العلماء: هل كان موسى وهارون ﷺ مع بني إسرائيل في التّيه أم لا؟ فقيل: لا؛ لأن التّيه عقوبة، وكان عدد سنوات التّيه (أربعين سنة) بعدد أيام عبادة العجل، فعوقبوا على كل يوم بسنة، وقد قال الله تعالى على لسان موسى ﷺ: ﴿فَأَفَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٢٦؛ وقيل: كانوا معهم، لكن سهّل الله لهما الأمر، كما جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ﷺ. أما معنى "محزّمة"، أي: ممنوع عليهم دخول الأرض المقدسة، كما يُقال: "حرّم الله وجهك على النار"، و"حرّمْتُ عليك دخول الدار"؛ أي هو تحريم منع لا تحريم شرع. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٦: ١٢٩.

يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ^{٢٧٦}، وعلق الطبري بقوله: "فيه دليل على تهريبهم من التكليف وعدم استعدادهم للقيادة الحضارية"^{٢٧٧}.

لقد واجه موسى ﷺ أربعة أنماط من الانحرافات: عقديًا بعبادة العجل، واجتماعيًا بالتذمر، وسياسيًا برفض الجهاد، واقتصاديًا بتفضيل الأطعمة الدنيوية على المرق والسلوى. وقد تعامل مع تلك الانحرافات بالتركية والتعليم، وبتوازن بين الحزم والرحمة، فأمرهم حين عبدوا العجل بتوبة بالغة الشدة، قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^{٢٧٨}، تأكيدًا لأهمية صيانة العقيدة وضرورة العقوبة في حالات الانحراف الجسيم^{٢٧٩}.

وهكذا تُعد بعثة موسى ﷺ أنموذجًا تطبيقيًا لعادات أولي العزم من الرسل ﷺ في مقاومة الانحرافات، من خلال الدمج بين التعليم والتركية، والجمع بين الصبر والمحاسبة، والتدرج في التربية من التحرير إلى التمكين؛ في مشهد إصلاحى يبرز أن النهضة لا تتحقق إلا ببناء جيل واعٍ، متحرر من عقد الذل والتبعية، مستعد لتحمل أمانة الرسالة.

رابعًا: بعثة عيسى عليه السلام ودورها في تصحيح الانحرافات الروحية والاجتماعية لبني إسرائيل تمهيد

مثّلت المسيرة الدينية لبني إسرائيل بعد عهد موسى ﷺ سلسلة متكررة من الانحرافات العقدية والفساد الاجتماعي، تتخللها بعثات نبوية متتالية لإصلاح ما أفسدته الأهواء والشهوات. وقد حفلت هذه المسيرة بتحويلات سياسية ودينية عميقة، من دخول الأرض المقدسة إلى عصر الملوك، ثم الشتات والانحيار الكامل.

وفي خضم هذا الانحدار، تجلّت سنة الله في إرسال عيسى عليه السلام، ليعيد الوحي إلى صفائه، ويصحح المسار العقدي لبني إسرائيل، ويكون آية للعالمين في نقاء الدعوة وروحانيتها.

^{٢٧٦} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥ : ٢٦.

^{٢٧٧} انظر: الطبري، جامع البيان، ٦ : ١٨١.

^{٢٧٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢ : ٥٤.

^{٢٧٩} انظر: ابن كثير، قصص الأنبياء، ٢ : ٩.

هذه الدراسة تحاول الوقوف عند أبرز مراحل الانحراف، وتحليل أسبابه وآثاره، من خلال النصوص القرآنية والتاريخية الموثقة.

الفرع الأول: الانحرافات العقدية والاجتماعية لدى بني إسرائيل بعد عصر موسى ﷺ حتى زمن بعثة عيسى ﷺ

بعد وفاة موسى ﷺ، تولى يوشع بن نون ﷺ قيادة بني إسرائيل تنفيذًا للأمر الإلهي بدخول الأرض المقدسة^{٢٨٠}، كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ...﴾^{٢٨١}. وقد أيدته الله بآية كونية خارقة عندما حبست له الشمس حتى أتم فتح بيت المقدس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن الشمس لم تُحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس»^{٢٨٢}. وذكر ابن كثير أن هذه المعجزة دليل على أن الفتح تم على يد يوشع عليه السلام، وأنها من دلائل تأييد الله لأنبيائه^{٢٨٣}.

لكن بني إسرائيل ما لبثوا أن قابلوا هذا النصر بالاستهزاء والتحريف، كما جاء في الحديث: «فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا: حطة حبة في شعرة»^{٢٨٤}. وقد سجل القرآن هذا التمرد بقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾^{٢٨٥}، مما يعكس نمطًا متكررًا من الانحراف العقدي لدى بني إسرائيل. وقد رصد محمود بن عبد الرحمن قدح هذه الانحرافات من خلال تسلسل زمني دقيق، تتبّع فيه أبرز المراحل التي مرّ بها بنو إسرائيل، ابتداءً من عهد موسى، ثم عصر القضاة، فالملوك، فالانقسام، فالسبي البابلي، فالشتات، وانتهاءً بالتجمع الحديث في فلسطين. وأكد

^{٢٨٠} ابن كثير، البداية والنهاية، (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٩٧)، ٢: ٢٣٦.

^{٢٨١} القرآن الكريم، سورة المائدة: ٢١.

^{٢٨٢} أحمد بن حنبل، المسند، ١٤: ٦٥، ٦: ٣٤٤٥ (٨٣١٤). قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

^{٢٨٣} ابن كثير، البداية والنهاية، ١: ٣٢٣.

^{٢٨٤} البخاري، الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾،

القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٥٨، ٦: ١٨ (٤٤٧٩).

^{٢٨٥} القرآن الكريم، سورة البقرة: ٥٩.

أن هذا التاريخ يعكس خللاً بنيوياً في التكوين العقدي والسلوكي لبني إسرائيل، يتجلى في نقض العهود، وقتل الأنبياء، والتورط في الفساد، رغم كثرة ما أُرسل إليهم من الرسل^{٢٨٦}.

في مرحلة القضاة، تولى الحكم شخصيات من الأسباط الاثني عشر بعد يوشع، وكان آخرهم صموئيل، وقد اتسمت هذه المرحلة بالفوضى الدينية والاجتماعية، حيث انتشرت الفواحش، وتكررت مظاهر الشرك، كما ورد ذلك تفصيلاً في سفر القضاة، الإصحاح الثاني، وكان من مظاهر الانحطاط أن بعض القضاة قبلوا الرشوة وجاروا في الحكم. وبسبب هذا الاضطراب، طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يُقيم عليهم ملكاً يوحدهم ويقودهم في الجهاد^{٢٨٧}، وهو ما صوّره القرآن بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِمَالِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَفَبَعَثَ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^{٢٨٨}.

ثم بدأ عصر الملوك بشاؤول، ثم داود عليه السلام الذي جمع بين النبوة والسيادة السياسية، فأسس دولة قائمة على العدل والوحي، تهيأت في عهده الظروف لقيام ملك ابنه سليمان عليه السلام، الذي بلغت في أيامه الدولة أوجها في البناء والحضارة، وأتم بناء بيت العبادة. ومع ذلك، لم تسلم هذه المرحلة من محاولات التحريف والتشويه، حيث نُسب إلى داود وسليمان في بعض نصوصهم المحرفة ما يتناقض مع صفات النبوة، مما استوجب الرد الإلهي الصريح كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾^{٢٨٩}، وقوله: ﴿نَعَمْ أَلْعَبُدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^{٢٩٠}. وأكد محمود قدح أن هذا التحريف في حق الأنبياء كان صورة من صور الانهيار العقدي العميق لدى بني إسرائيل، بالرغم من وجود الوحي والأنبياء بينهم^{٢٩١}.

بعد وفاة سليمان عليه السلام، انقسمت المملكة إلى إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب، فاختل التوازن السياسي والديني، وبدأت الوثنية بالظهور، وتحولت التوراة إلى أداة

^{٢٨٦} انظر: محمود بن عبد الرحمن قدح، 'موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة'، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ٢٩، العدد ١٠٧، (١٩٩٨): ٢٤٦ - ٣٠١.

^{٢٨٧} انظر: محمود قدح، موجز تاريخ اليهود، ٢٢٤ وما بعدها.

^{٢٨٨} القرآن الكريم، سورة النور: ١٦.

^{٢٨٩} القرآن الكريم، سورة البقرة: ١٨٦.

^{٢٩٠} القرآن الكريم، سورة ص: ٣٠.

^{٢٩١} انظر: محمود قدح، موجز تاريخ اليهود، ٢٣٥ وما بعدها.

للتحريف؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^{٢٩٢}. أدى هذا الانحياز إلى السبي البابلي وتدمير الهيكل الأول، ثم تتابعت الكوارث السياسية، حتى تدمير الهيكل الثاني سنة ٧٠م على يد الرومان، لتبدأ مرحلة الشتات، حيث تفرقت جماعات اليهود في أرجاء الأرض، وسُبيت نخبهم، وانهار كيانهم السياسي والاجتماعي^{٢٩٣}.

وقد صَوّر القرآن هذا التيه بأنه جزاء لمخالفة الميثاق، فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدُوتَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾^{٢٩٤}، وأكدته وعيده السابق: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾^{٢٩٥}. في خضم هذا الانحطاط، ظهر انحراف عقائدي صارخ، كقولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾^{٢٩٦}، وادعائهم أن يد الله مغلول، كقولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^{٢٩٧}، مما يعكس انخياراً كاملاً في التوحيد، واستحقاقاً للعقوبات المتكررة. وقد علّق الطبري على تكذيبهم وقتلهم الأنبياء بقوله: "كانوا يطلبون الدين موافقاً لأهوائهم، فإذا خالفهم النبي قتلوه"^{٢٩٨}. وبلغ التدهور ذروته حين تحولت القيادة الدينية إلى سلطة كهنوتية فاسدة، يتزعمها الأحرار، يستخدمون الدين للسيطرة والربح، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ﴾^{٢٩٩}. وفي ظل هذا الانحراف، جاءت ولادة عيسى عليه السلام خارقةً للمألوف، لتحطم التصورات العرقية المتمركزة حول النسب القومي. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾^{٣٠٠}. وقد علّق ابن عاشور على ذلك بقوله: "خلق عيسى

^{٢٩٢} القرآن الكريم، سورة البقرة: ٧٩.

^{٢٩٣} انظر: محمود قدح، موجز تاريخ اليهود، ٢٥٦ وما بعدها.

^{٢٩٤} القرآن الكريم، سورة المائدة: ٦٤.

^{٢٩٥} القرآن الكريم، سورة الأعراف: ١٦٧.

^{٢٩٦} القرآن الكريم، سورة التوبة: ٣٠.

^{٢٩٧} القرآن الكريم، سورة المائدة: ٦٤.

^{٢٩٨} انظر: الطبري، جامع البيان، ١: ٣٦٤.

^{٢٩٩} القرآن الكريم، سورة المائدة: ٦٢.

^{٣٠٠} القرآن الكريم، سورة آل عمران: ٤٥.

من غير أب هو دعوة لهدم أسطورة الوراثة في النبوة، وترسيخ أن الرسالة وحي إلهي لا امتياز عرقي^{٣٠١}. وهكذا، فإن بعثة عيسى عليه السلام لم تكن مجرد واقعة دينية معزولة، بل كانت سنة من سنن الله في إعادة تصحيح المسار العقدي والاجتماعي حين تنحرف الأمة عن منهج الوحي، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^{٣٠٢}. وقد لخص محمود بن عبد الرحمن قدح هذا المسار بقوله إن تاريخ بني إسرائيل هو سلسلة من الخيانات المتكررة للميثاق، تستوجب الاستبدال وسنة العقاب الإلهي، كما بينته كتب السماء والتاريخ معاً^{٣٠٣}.

ومنذ اللحظة الأولى لنطقه، أعلن عيسى عليه السلام توحيد الله وبراءته من الألوهية والسلطة البشرية، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^{٣٠٤}، فكانت رسالته بمثابة ثورة تصحيحية ضد المؤسسة الدينية المنحرفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِغَضِ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^{٣٠٥}. هذه البعثة النبوية جاءت لتعلن نهاية زمن التحريف، وابتداء مرحلة التصفية العقدية.

الفرع الثاني: الدور الإصلاحي لبعثة عيسى عليه السلام في مواجهة تلك الانحرافات إلى آخر الزمن

وُلد عيسى عليه السلام في بيئة عقدية مشوشة، تداخل فيها الانحراف العقدي مع الجهل بحقائق النبوة، وكانت ولادته نفسها سبباً في إثارة شبهات خطيرة من اليهود والنصارى على السواء؛ فقد رمى اليهود مريم عليها السلام بالزنا^{٣٠٦}. لقد جاء القرآن الكريم ليرد على كلا الزعمين، ويبين

^{٣٠١} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٤: ١٩٨.

^{٣٠٢} القرآن الكريم، سورة محمد: ٣٨.

^{٣٠٣} انظر: محمود قدح، موجز تاريخ اليهود، ٢٣ وما بعدها.

^{٣٠٤} القرآن الكريم، سورة مريم: ٣٠.

^{٣٠٥} القرآن الكريم، سورة آل عمران: ٥٠.

^{٣٠٦} كان اليهود قد ادّعوا أن مريم عليها السلام زنت بيوسف النجار، بينما زعمت بعض الطوائف النصرانية أنها كانت زوجته. وقد كانت البيئة الدينية والقانونية في بني إسرائيل تتشدد في مسائل الطهارة والنكاح، حيث حرّمت بعض الأيام والأنساب، فكان من السهل على اليهود أن يتذرّعوا بهذه الأعراف لاتهم مريم بالزنا، خاصة وأنهم كانوا يتربصون

الحقيقة الناصعة لولادة عيسى ﷺ، من غير أب، معجزةً من الله، كما خلق آدم من تراب من غير أب ولا أم، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^{٣٠٧}، وقال تعالى على لسان مريم ﷺ: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾^{٣٠٨}؛ إلى أن قال سبحانه وتعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾^{٣٠٩}؛ لقد أنكر اليهود هذه المعجزة، وأنكروا نبوة عيسى ﷺ، وطعنوا في نسبه، وهو ما أشار إليه الله في قوله: ﴿وَبِكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾^{٣١٠}. بل زادوا على ذلك حين رموه بالفتنة السياسية، مدّعين أنه يدعو إلى الملك، فوشوا به إلى السلطة الرومانية، واتهموه بالتحريض على الثورة والانقلاب،^{٣١١}. رغم أن رسالته كانت روحية إصلاحية، جاءت لتحل لهم بعض ما حرّم عليهم، وتدعوهم للتركية والإصلاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِعَصِ الْأَذَىٰ حُرْمَ عَلَيْكُمْ﴾^{٣١٢}، ولقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾^{٣١٣}.

قد كانت رسالته إصلاحية، ترفض الظلم السياسي والفساد الاجتماعي والانحراف العقدي، مما جعل الأحزاب الدينية والسياسية تختلف فيه اختلافاً شديداً، قال الله تعالى:

بالأنبياء والمصلحين، ولهذا قال الله تعالى عنهم: ﴿وَبِكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾، القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٥٦. انظر: محمود قدح، موجز تاريخ اليهود، ٢٢٣ وما بعدها.

^{٣٠٧} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٥٩.

^{٣٠٨} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ١٨.

^{٣٠٩} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٢٢.

^{٣١٠} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٥٦.

^{٣١١} كانت بعثة المسيح عيسى ﷺ في قلب صراعٍ سياسي حاد بين بني إسرائيل والرومان، وكان الرومان يسيطرون على فلسطين بقبضة من حديد، ما جعل بعض اليهود ينتظرون نبياً يكون على شاكلة الملوك المحاربين ليقود ثورة سياسية ويحررهم من الرومان. فلما جاءهم عيسى ﷺ بدعوة روحية إصلاحية، لا تحمل السيف، بل تُعيد تفسير الشريعة وتدعو إلى التركية والتوحيد، كفروا به واتهموه بالفتنة السياسية، وزعموا أنه يدّعي الملك ليتحدى سلطان الروم. انظر: محمود قدح، موجز تاريخ اليهود، ٢٥٦ وما بعدها.

^{٣١٢} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٥٠.

^{٣١٣} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٤٩.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ﴾^{٣١٤}. وقد استمر الإنكار حتى بلغت الخصومة ذروتها في ادعاء اليهود أنهم صلبوه وقتلوه،^{٣١٥}. بينما الحقيقة التي جاء بها القرآن أن الله نجّاه ورفعته إليه، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ﴾^{٣١٦}، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾^{٣١٧}. بعد رفعه، انطلقت انحرافات جديدة، تمثلت في ابتداع عقيدة التثليث، وادعاء الألوهية لعيسى عليه السلام، فقالوا: هو ابن الله، أو هو ثالث ثلاثة، وهي دعاوى باطلة ردّها الله سبحانه وتعالى في مواضع عدة من كتابه، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾^{٣١٨}، وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا • لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾^{٣١٩}، وقد كذب الله هذه النسبة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾^{٣٢٠}. لم تخل تلك المرحلة من ظهور دُعاة الضلال الذين افتروا على الله منهم بولس أو شاول^{٣٢١}، الذي ادّعى أن الله أوحى إليه بنبوة خاصة بعد عيسى عليه السلام، فجاء التحذير الإلهي الصارم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾^{٣٢٢}. أما عن عيسى عليه السلام في آخر الزمان، فإن بعثته الثانية تُعدُّ علامة من علامات الساعة الكبرى، وله دورًا بارزًا في إعادة تصحيح الانحرافات العقديّة الكبرى التي علقت برسالته، وذلك حين ينزل من السماء كما ورد في الحديث النبي ﷺ عن

^{٣١٤} القرآن الكريم، سورة الزخرف ٤٣: ٦٥.

^{٣١٥} فشل اليهود في إسقاط دعوته بالعنف الاجتماعي والافتراء الأخلاقي، وسعوا إلى التخلص منه سياسيًا، فأوهمو السلطة الرومانية بأن عيسى يدعو إلى التمرد وإقامة ملكٍ جديد، فدبروا مكيدة لصلبه، لكن الله ﷻ أبطل كيدهم ونجّى نبيه. انظر: محمود قدح، موجز تاريخ اليهود، ٢٥٦ وما بعدها.

^{٣١٦} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٥٧.

^{٣١٧} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٥٨.

^{٣١٨} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٧٣.

^{٣١٩} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٨٨-٨٩.

^{٣٢٠} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٣٥.

^{٣٢١} بعد رفع عيسى عليه السلام، ظهرت انحرافات أخرى على يد شاؤول (بولس)، الذي ادّعى الوحي لنفسه وأضاف إلى المسيحية مفاهيم وثنية، فكانت فتنة ألوهية المسيح من أكبر الانحرافات التي حدّر منها القرآن. انظر: محمود قدح، موجز تاريخ اليهود، ٢٥٧ وما بعدها.

^{٣٢٢} القرآن الكريم، سورة الأنعام ٦: ٩٣.

نزول المسيح ﷺ علامة من علامات الساعة في مجموعة آخر الزمن؛ منها حديث ابن عباس
عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ﴾^{٣٢٣}؛ قال: «نزول عيسى ابن مريم
من قبل يوم القيامة»^{٣٢٤}.

وبهذا سيقوم عيسى ﷺ بأعمال جليلة وخطيرة، من أهم الأعمال التي يقوم بها
عيسى ﷺ استئصال عبادة النصرانية وانتشار البركات الظاهرة التي تعم الأرض؛ ومنها
حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم
ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا
يقبله أحد»^{٣٢٥}. فسر ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^{٣٢٦} أي: بأن النقص في الثمار والزروع بسبب المعاص؛ ونقل قول أبي
العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء
بالطاعة^{٣٢٧}.

إن بعثة عيسى ﷺ، بما تضمنته من تكذيب وشبهات من اليهود والنصارى ثم رفع
وعودة، تمثل تجلياً فريداً لمسار النبوة في مواجهة الانحرافات العقدية والاجتماعية والسياسية
عبر العصور، وتؤكد أن الحق الإلهي ماضٍ إلى غايته، وأن الله ناصر أنبيائه ولو بعد حين، قال
تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^{٣٢٨}، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُنَصِّرُ اللَّهُ مَن
يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^{٣٢٩}.

وقد فصل أهل العلم المهام الكبرى التي سيقوم بها عيسى ﷺ في آخر الزمان، كما
لخصها إبراهيم محمد علي في كتابه "الأحاديث الصحيحة من أخبار الأنبياء"، وهي تشمل:
كسر الصليب، وقتل الخنزير، واستئصال النصرانية، وقتل الدجال، ومقاتلة أعوانه من اليهود،

^{٣٢٣} القرآن الكريم، سورة الزخرف ٤٣: ٦١.

^{٣٢٤} أحمد بن حنبل، المسند، المحقق: شعيب الأرناؤوط، ٥: ٨٦ (٢٩١٧). قال المحقق: إسناده حسن.

^{٣٢٥} البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، ٣: ٨٢ (٢٢٢٢).

^{٣٢٦} القرآن الكريم، سورة الروم ٣٠: ٤١.

^{٣٢٧} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦: ٣٢٠.

^{٣٢٨} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٣٨.

^{٣٢٩} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٤٠.

حتى لا يبقى منهم أحد، والدعوة إلى الإسلام وحده دون غيره، ومقاتلة يأجوج ومأجوج، والصلاة خلف إمام المسلمين، ووقف الجزية لانتهاه الكفر، والحج من فج الروحاء، وزيارة النبي ﷺ في الروضة الشريفة، والدعوة إلى القرآن والسنة^{٣٣٠}.

ومن خلال هذا التحليل، يكشف محمود قذح زيف المزاعم اليهودية المعاصرة، مثل مقولة "شعب الله المختار^{٣٣١}" أو "النقاء العرقي^{٣٣٢}" أو "الحق الديني في فلسطين"، مؤكداً أن التاريخ والنصوص السماوية كليهما ينقضان هذه الادعاءات^{٣٣٣}. كل ذلك يبين أن بعثة أولي العزم من الرسل ﷺ لم تكن دعوة إصلاحية في زمنه فحسب، بل امتدت لتكون موعظة خالدة ومهام تصحيحية للعقيدة إلى قيام الساعة وهي البشارة الإيمانية في آخر الزمن، كما

^{٣٣٠} انظر: إبراهيم محمد علي، الأحاديث الصحيحة من أخبار و قصص الأنبياء ﷺ، (دمش: دار القلم، ١٩٩٥) ٢٣١ وما بعدها.

^{٣٣١} قال محمود قذح: "لقد بين القرآن الكريم بطلان دعوى اليهود والنصارى بأنهم أبناء الله وأحباؤه، بأدلة واضحة دامغة، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾، القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ١٨. وقد فند الله تعالى أصل هذه الدعوى، وبين الحق الذي يجب أن يُتبع، وهو أن بني إسرائيل بشر كسائر الخلق، لا يمتازون على غيرهم إلا بالإيمان والعمل الصالح؛ فمن آمن وعمل صالحاً نال الثواب، ومن كفر واستكبر استحق العقاب. فلا فضل لأحد على أحد عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح". انظر: محمود قذح، موجز تاريخ اليهود، ٢٧٣- وما بعدها.

^{٣٣٢} يطل محمود قذح دعوى نقاء الجنس اليهودي بعدة أدلة؛ منها: أولاً: نصوصهم تثبت التزاوج والاختلاط، كما في سفر القضاة [٣: ٥-٦]. ثانياً: تفاوت أشكال اليهود المعاصرين دليل على التمازج العرقي. ثالثاً: علماء الأجناس كـ كيتار وريمان ينفون وجود "جنس يهودي نقي". رابعاً: دخول أقوام كالخزر في اليهودية يؤكد أن أكثر اليهود متهودون لا من نسل يعقوب ﷺ. فالزعم بنقاء الجنس خرافة تُفندها النصوص والواقع والتاريخ. انظر: قذح، ٢٨٢- وما بعدها.

^{٣٣٣} يزعم اليهود حقهم في فلسطين استناداً إلى دعاوى تاريخية ودينية، غير أن هذه المزاعم مردودة من وجوه: أولاً: بطلان "الحق التاريخي"، فوجود بني إسرائيل في فلسطين لم يتجاوز ٣٠٠-٥٠٠ سنة، بينما الوجود العربي سابق له ويمتد بعده، وقد أثبتت المصادر التاريخية أن يهود اليوم لا ينحدرون بالضرورة من بني إسرائيل، مما يسقط دعوى "الحق الأبدي" بأرض أقاموا فيها زمناً وجيزاً فقط؛ ثانياً: بطلان "الحق الديني"، إذ إن إبراهيم ﷺ لم يكن يهودياً، بل نفى القرآن ذلك صراحةً: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٦٧. كما أن كتبهم قد طالها التحريف، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ١٣. ثم إن "الوعد الإلهي" قد تحقق لهم في عهد موسى ويوشع وداوود وسليمان ﷺ، وانتهى بسقوطهم نتيجة كفرهم، فلا يستند عليه حق دائم. بل إن وعد الله بوراثة الأرض مرتبط بالصالح والإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ١٠٥، انظر: محمود قذح، ٢٨٦ وما بعدها.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^{٣٣٤}.

خامساً: بعثة الخاتم محمد ﷺ ودورها في تأسيس المجتمع المدني النبوي

وُلد النبي محمد ﷺ في بيئة غارقة في انحرافات متعددة تشمل الانحراف العقدي من عبادة الأوثان وتحكيم الكُفَّان، والانحراف الاجتماعي مثل وأد البنات والعصبية القبلية، والانحراف الأخلاقي كتعاطي الخمر وانتشار الربا والزنا وقطيعة الرحم^{٣٣٥}. قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾^{٣٣٦}، أي ضالًّا في وسطٍ مضلل، فهذاك الله لتقودهم إلى الصراط المستقيم، كما أوضح ابن عاشور بأن المراد بالضلال هنا سياق المجتمع وليس عقيدة النبي، إذ لم يكن من عبدة الأصنام^{٣٣٧}. وفي هذا المجتمع المتأزم، بزغ نجم محمد ﷺ، فشهد له قومه قبل أتباعه بالصدق والأمانة، وهي أولى لبنات القدوة التربوية العملية^{٣٣٨}.

وقد فصل البوطي في فقه السيرة النبوية أن الجزيرة العربية رغم جهلها، كانت أنسب بيئة لاستقبال الرسالة، لما تمتعت به من صفاء فطري وحياد حضاري، خلافاً لما شهدته الأمم الكبرى من انحرافات فكرية وأخلاقية؛ ففارس غرقت في فلسفات إباحية كالمزدكية، والروم تقلبت بين الاستبداد الديني والسياسي، والهند تدهورت دينياً وأخلاقياً، أما اليونان فكانت غارقة في جدليات عقلية غير عملية. هذه الحضارات، رغم تقدمها الظاهري، كانت تفتقر إلى الهداية الربانية، فغدت أدوات للهدم لا للبناء^{٣٣٩}.

^{٣٣٤} القرآن الكريم، سورة النور ٢٤: ٥٥.

^{٣٣٥} انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٨٣؛ وانظر: الزرقاني، شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦)، ١: ١١٤؛ وانظر: السباعي، السيرة النبوية: دروس وعبر، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩٢)، ٢١-٢٤.

^{٣٣٦} القرآن الكريم، سورة الضحى ٩٣: ٧.

^{٣٣٧} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠: ٤٦٧.

^{٣٣٨} انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٨٩.

^{٣٣٩} انظر: محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، ٦١-٦٤.

أما الجزيرة العربية، فرغم أميتها، فقد احتفظت بفطرتها الإنسانية التي لم تفسدها الفلسفات ولا الحضارات. ظهرت فيها خصال كالشجاعة والكرم والنجدة، لكنها كانت تحتاج إلى توجيه رباني. وهذا ما تحقق ببعثة النبي ﷺ، حيث كانت الأمية بيئة محايدة تجعل بروز الرسالة دليلاً على صدقها، إذ لا يمكن نسبتها إلى إرث فكري أو حضاري سابق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾^{٣٤٠}. وهكذا، كانت البيئة الجغرافية والحضارية التي بُعث فيها النبي ﷺ شاهداً على صفاء المصدر وصدق الرسالة، ومفتحةً لنهضة حضارية إنسانية شاملة، انطلقت من أمية الفطرة إلى قمة البناء الإنساني والتربوي^{٣٤١}.

كانت مكة قبل البعثة النبوية تعيش في أفق مغلق فكرياً وروحياً، تطغى عليها العصبية القبلية والجمود على التقاليد الموروثة من غير وعي، مما جعلها نموذجاً للضلالة الجاهلية التي وصفها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾^{٣٤٢}. وقد فسر محمد سعيد رمضان البوطي هذا الضلال بأنه "ضلالة الجهل الفطري" الذي يختلف عن انحرافات المجتمعات المتحضرة التي يغلب عليها التخطيط الواعي للفساد، مثل الحضارات الرومانية والفارسية التي كانت تغرق في الفجور المؤسسي^{٣٤٣}.

وفي هذه البيئة الجاهلية القائمة على الجهل المركب والانحراف الأخلاقي، جاءت الرسالة المحمدية لتباشر مشروعاً إنسانياً عظيماً في إعادة بناء الإنسان وترميم فطرته، وتصحيح انحرافاته، ورفع الظلم الاجتماعي، خاصة في حقوق المرأة. ومن أبرز مظاهر هذا الإصلاح إبطال عادة وأد البنات التي كانت سائدة بدافع الخوف من العار، فحرّمها الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ • بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^{٣٤٤}. وقد بيّن الطبري أن هذه الآية

^{٣٤٠} القرآن الكريم، سورة العنكبوت ٢٩ : ٤٨.

^{٣٤١} انظر: البوطي، فقه السيرة النبوية، ٦١-٦٤.

^{٣٤٢} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢ : ١٩٨.

^{٣٤٣} انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١ : ٤١٩-٤٢١.

^{٣٤٤} القرآن الكريم، سورة التكاوير ٨١ : ٨-٩.

تنكر بشدة تلك الممارسة الجاهلية، فقال: "كان أهل الشرك من العرب يدفنون البنات خشية الفقر أو العار، فجاء الإسلام بإكرام المرأة بنتاً وزوجةً وأمّاً" ^{٣٤٥}.

إن البعد الإنساني العميق في المشروع التربوي النبوي يتجلى في معالجة هذه الممارسات لا بالعنف ولا بالتقويض الفجائي للعادات، بل بإحياء الفطرة وتوجيه الوجدان العام نحو الرحمة والتكريم. وقد كان النبي ﷺ قبل البعثة يتأمل هذا الواقع المظلم ويعتزل الناس في غار حراء، حيث تجلّت بداية النور بقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ^{٣٤٦}، وهي دعوة للعلم الذي يحرّر العقول من أسر الجهل والوراثة العمياء.

ومع أن دعوة النبي ﷺ واجهت في بدايتها صدىً شديداً من قريش، فإن موقفه في الطائف يُظهر مدى صبره وحلمه ورحمته في الدعوة، فقد قصدها طلباً للنصرة بعد اشتداد الأذى في مكة، لكنه وجوبه بالصدّ والسخرية، بل أغرى به أهلها سفهاءهم حتى رموه بالحجارة وأدموا قدميه الشريفتين. ومع ذلك، لم ينتقم منهم، بل لجأ إلى الله بدعاءٍ مؤثّرٍ ملؤه الأمل والإصلاح ^{٣٤٧}.

كانت البيئة السياسية في مكة قبل بعثة النبي ﷺ تقوم على نظام قبلي تقليدي يُكرّس سلطة النخبة القرشية، ويُعزّز الامتيازات الطبقية والاجتماعية. فقد احتكر زعماء قريش النفوذ السياسي والاقتصادي، وسخّروا الدين والبيت الحرام لتعزيز هيمنتهم، فجعلوا من خدمة الأصنام وسيلةً لحفظ مصالحهم وبسط سيطرتهم. وقد وصف الله تمسّكهم الوثني هذا بقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ ^{٣٤٨}، إذ لم يكن التشبث بالأصنام نابغاً من قناعة دينية، بل من رغبة في الحفاظ على امتيازاتهم السياسية والاجتماعية ^{٣٤٩}. في هذا السياق الفاسد، جاء نداء النبي ﷺ الجريء والمباشر: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» ^{٣٥٠}، دعوة مختصرة في لفظها، عظيمة في مضمونها، تهدف إلى اقتلاع جذور الجاهلية، وبناء مجتمع قائم على التوحيد

^{٣٤٥} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٤: ١٢٦.

^{٣٤٦} القرآن الكريم، سورة العلق ٩٦: ١.

^{٣٤٧} انظر: البوطي، فقه السيرة النبوية، ٩٩.

^{٣٤٨} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٢٣.

^{٣٤٩} انظر: عبد الحليم محمود، محمد ﷺ نبي الحرية، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٠)، ٤٩-٥١.

^{٣٥٠} أحمد بن حنبل، المسند، ٦: ٥٦٢ (٢١٩٦١)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وقال: إسناده حسن.

والمساواة والعدل، حيث يكون الولاء لله وحده لا للقبيلة أو الطبقة. ومن هنا، شكّل التوحيد الأساس الذي بُني عليه المشروع التربوي النبوي، باعتباره المحور الذي يُصحّح المفاهيم، ويقوّم السلوك، ويُعيد بناء الإنسان من الداخل؛ لكن هذه الدعوة قوبلت بممانعة شديدة من قادة مكة، لا لكونها مرفوضة دينيًا، بل لأنها تهدد النظام القائم، وتُفكك بُنى السيطرة التقليدية.

وقد صوّر القرآن هذا الرفض بقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إلهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾^{٣٥١}، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾^{٣٥٢}. وقد فسّر ابن عاشور هذا الاستكبار بأنه استعلاء سياسي واجتماعي، نابع من استخفافهم بأن تصدر هذه الدعوة من رجل واحد لا يملك سلطة دنيوية، وهو ما يُبرز البُعد السياسي والاجتماعي لمعارضتهم، لا مجرد اعتراض على مضمون التوحيد ذاته^{٣٥٣}.

إن فهم هذه البيئة السياسية يوضح لنا كيف كانت بعثة النبي ﷺ ثورة تربوية شاملة، استهدفت تحرير الإنسان من كل أشكال الاستعباد لغير الله، وانطلقت من مبدأ توحيدي يُعيد بناء القيم والمفاهيم، ويمهّد لقيام مجتمع إنساني تسوده العدالة والكرامة، بدلًا من العصبية والطبقية والاستكبار. شكّل التوحيد الذي دعا إليه النبي ﷺ تهديدًا مباشرًا لبنية النظام السياسي الجاهلي القائم على تعدد الآلهة وتوزيع الولاءات القبلية، إذ كانت هذه العقيدة التعددية تخدم مصالح النخبة القرشية في السيطرة والحكم. ولهذا، واجه النبي ﷺ أشكالا قاسية من القمع؛ من التشويه الإعلامي، إلى الحصار الاقتصادي، وانتهاء بالتهديد بالنفي والقتل، وكلها تؤكد أن دعوته كانت مشروعًا تحريريًا إصلاحيًا يسعى إلى بناء مجتمع قائم على العدل والتوحيد، لا على الامتيازات الطبقية^{٣٥٤}. وقد رفض النبي ﷺ كل عروض المساومة التي هدفت إلى إسكات دعوته مقابل المال أو الملك، وقال كلمته الخالدة: «والله لو وضعوا

^{٣٥١} القرآن الكريم، سورة ص ٣٨: ٥.

^{٣٥٢} القرآن الكريم، سورة الصفات ٣٧: ٣٥.

^{٣٥٣} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٣: ٩٠.

^{٣٥٤} انظر: عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١)، ٨٨-

الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته»،^{٣٥٥}. في تعبير واضح عن ثباته على المبدأ التربوي العقدي، ورفضه الانحراف السياسي المصلحي.

كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن جعفر رضي الله عنه: «أن ملك الجبال عرض عليه أن يُطبق عليهم الأخشبين، فقال ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»^{٣٥٦}. وقد علّق ابن حجر على هذا الموقف بقوله: "فيه دليل على أن المقصود من الدعوة هو الهداية لا الانتقام، وأن الأنبياء يبنون الأمل على الأجيال وإن خذلهم الآباء"^{٣٥٧}. في مشهد يُجسّد أرقى صور القدوة النبوية، ويُظهر عمق الرسالة الإصلاحية، ومركزيتها في بناء أجيال جديدة تنتمي إلى قيم التوحيد والرحمة لا إلى موروثات الجاهلية.

بهذا النموذج، يتّضح أن مقاومة النبي ﷺ كانت تربيةً وتحريراً في آنٍ معاً، مشروعاً حضارياً قائماً على العقيدة، يعيد صياغة الواقع السياسي والاجتماعي وفق ميزان العدل الرباني، لا وفق مصالح النخبة أو ضغوط التقاليد^{٣٥٨}. ولما اشتدّ التضيق على النبي ﷺ وأصحابه في مكة، حيث ساد الظلم السياسي والاجتماعي، أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة، في خطوة استراتيجية مثّلت بداية انفتاح الدعوة على الفضاء العالمي. فقد اختار النبي ﷺ أرضاً تتوفر فيها العدالة، فبعثهم إلى النجاشي، ملك الحبشة، المعروف بعدله، والذي «لا يُظلم عنده أحد» وقد كان موقف النجاشي نموذجاً مبكراً وفريداً في التفاعل الإيجابي مع الرسالة الإسلامية، حيث قال بعد سماعه آيات من سورة مريم: "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة"^{٣٥٩}. في إشارة إلى وحدة مصدر الرسالات السماوية، واستجابته الفطرية للحق رغم اختلاف العقيدة. وقد بيّن المفكرون المسلمون أن العدالة السياسية هي ركيزة

^{٣٥٥} انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٢٦٦؛ وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٢٠. ليست حديثاً مرفوعاً بسند متصل في كتب الحديث الستة، بل هي أثرٌ مشهور وارد في كتب السيرة، وأشهر من رواه ابن إسحاق بلا إسناد، ثم رواه ابن هشام في تهذيب سيرة ابن إسحاق، ويعدّ من البلاغات التاريخية لا من الأحاديث المسندة.

^{٣٥٦} البخاري، الصحيح، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، ٣: ٢٢ (٣٢٣١)؛ مسلم، الصحيح، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، ٣: ٤٤ (١٧٩٥).

^{٣٥٧} ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٦: ١٠٥.

^{٣٥٨} انظر: البوطي، فقه السيرة النبوية، ٨٨-٨٩.

^{٣٥٩} انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٣٥٧. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٨٤.

لنجاح الحكم، حتى لو لم يكن الحاكم مسلماً. فقد أشار أبو بكر الطرطوشي إلى أن "السلطان الكافر الحافظ لشروط السياسة الاصطلاحية أبقى وأقوى من السلطان المؤمن العدل في نفسه، المضيع للسياسة الشرعية"^{٣٦٠}. وهو تأكيد على أن ترتيب الأمور أساس بقاء الدولة لا مجرد الشعارات الدينية. وأكد ابن تيمية المعنى نفسه بقوله: "إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"،^{٣٦١} ثم علّق: "الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا يدوم مع الظلم"^{٣٦٢}. مما يُبرز أن العدل قيمة كونية، تُقرّر مصير المجتمعات، وتشكّل قاعدة أساسية في البناء الحضاري.

من هذا المنطلق، تُظهر هجرة الصحابة إلى الحبشة بعداً تربوياً عميقاً، حيث خرجت الدعوة من بيئة مغلقة تمارس الظلم والاستكبار، إلى بيئة منفتحة تؤمن بالعدالة وتحترم حقوق الإنسان، رغم اختلاف الدين والثقافة. وهذا يُبرهن أن رسالة النبي ﷺ، وهي لا تزال في مهدها، كانت تعدّ نفسها للانطلاق العالمي، من خلال تجارب عملية في مجتمعات غير عربية، لكنها أكثر أهلية لتقبّل الحق من قريش ذات الامتيازات والمصالح. وهكذا كانت الهجرة إلى الحبشة تمهيداً تربوياً لمرحلة التمكين، حين انتقلت الدعوة من طور الدفاع إلى مرحلة الانتشار، ومن نطاق القبيلة إلى فضاء الإنسانية، كما وعد الله نبيه بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^{٣٦٣}.

بعد سنوات من الدعوة تحت وطأة القمع والاستضعاف في مكة، انتقل النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ليؤسس أول دولة على أساس إيماني وتربوي. وكان أول عمل سياسي فعلي يقوم به بعد الهجرة هو وضع وثيقة المدينة، والتي تُعد أول دستور مدني في الإسلام، نظّمت العلاقات بين المسلمين واليهود وسائر سكان المدينة على قاعدة المواطنة، والمشاركة السياسية، والعدالة أمام القانون، دون تمييز قبلي أو عرقي. وقد نقل ابن إسحاق أن هذه

^{٣٦٠} أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، سراج الملوك، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤)، ٥٤.

^{٣٦١} ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، د.ت)، ٧.

^{٣٦٢} ابن تيمية، الاستقامة، تحقيق محمد رشاد سالم، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٣)،

٣٦٨-٣٦٩

^{٣٦٣} القرآن الكريم، سورة الفتح ٤٨: ١.

الوثيقة تضمنت بنوداً تؤكد الحماية المتبادلة، والالتزام بالعدل، والدفاع المشترك عن المدينة، مما يعكس وعياً سياسياً راشداً في معالجة التحديات القبلية والتحزبات الجاهلية، من خلال ترسيخ مفاهيم جديدة للتعايش والعدل الاجتماعي والسياسي^{٣٦٤}.

وفي موازاة هذا التأسيس السياسي، بدأ النبي ﷺ ببناء أمة تربوية نموذجية، فكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أول لبنة في هذا المشروع، إذ أسسها على المحبة والتكافل، كما قال البوطي: "كان هذا العمل من أروع صور التربية على المحبة والتكافل الاجتماعي"^{٣٦٥}. ولم يغفل النبي ﷺ عن بناء البنية الإيمانية، فشرع في تأسيس المسجد النبوي، مركز العبادة والعلم والتربية، الذي جمع بين تعليم الوحي، وتربية السلوك، وتوطيد الأخوة.

ولم يكن بناء المسجد مجرد عمل عمراني، بل كان فعلاً تربوياً متكاملًا، جسده النبي ﷺ بمشاركته بنفسه في نقل الحجارة، وهو يردّد: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»^{٣٦٦}. وعلّق النووي على هذا الحدث بقوله: "فيه بيان لتواضعه ﷺ وحرصه على مشاركة الأمة في بناء معالم الدين"^{٣٦٧} فكان المسجد بهذا المفهوم موضع تربية عملية، تُرسّخ قيم الجماعة، والتكامل، والتواضع، وتؤسس لروح الأمة الواحدة.

وبهذا، جمع النبي ﷺ بين التأسيس السياسي الرشيد عبر وثيقة المدينة، والبناء التربوي المتين من خلال المؤاخاة والمسجد، فكانت النواة الأولى لدولة إيمانية أخلاقية عادلة، تنطلق من الوحي، وتؤسس على الرحمة، وتنهض على العدل، وتبني المجتمع على أسس تعليمية وتربوية متكاملة تُحقّق مقاصد الرسالة في الواقع.

إن المنهج التربوي الذي جاءت به الرسالات السماوية، وتجلّى بوضوح في سيرة خاتم الأنبياء ﷺ، يقوم على مبدأ الوسطية والاعتدال، بما يحقّق التوازن بين العقيدة والسلوك، وبين التوجيه الإلهي والانضباط المجتمعي. فقد وضع النبي ﷺ وثيقة المدينة لترسي قواعد العدالة،

^{٣٦٤} انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٥٠٢-٥٠٦.

^{٣٦٥} انظر: البوطي، فقه السيرة النبوية، ١٠٨.

^{٣٦٦} البخاري، الصحيح، كتاب: الجهاد والسير، باب: قول النبي ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»، حديث رقم:

٢٨٣٠. مسلم، الصحيح، كتاب: الإمامة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ٤: ٣٣ (١٨٠٤).

^{٣٦٧} انظر: النووي، المنهاج، ١٢: ٩٠.

وتضمن الحقوق لجميع سكان المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم، بعيداً عن العصبية القبلية والتمييز الطبقي، ومواجهة للمنافقين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾^{٣٦٨}. وهو ما يؤكد أن التربية النبوية كانت واعية بمخاطر الغلو والتفريط معاً، وساعية لضبط التوازن العقدي والسلوكي في الأمة^{٣٦٩}.

فالوسطية تمثل خاصية جوهرية في منهج الأنبياء ﷺ، وقد جاءت الرسالة الخاتمة لإخراج الإنسان من التطرف والانحلال على حدّ سواء، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^{٣٧٠}. وفسّر ابن كثير ذلك بقوله: "وسطاً: أي خياراً عدولاً"^{٣٧١}. فالوسطية في المفهوم التربوي ليست مجرد توسط في المواقف، بل هي معيار الاختيار والاعتدال، بين الإفراط والتفريط، بين الرفق والحزم، وبين الاستجابة للنص وتفعيل العقل في آنٍ معاً.

وقد طبق النبي ﷺ هذا الميزان الدقيق في تربيته لأصحابه، فكان يحذّر من الغلو كما في قوله: «هلك المتنطعون»^{٣٧٢}. وهو تحذير من المبالغة في الدين قولاً أو فعلاً، وعلّق النووي بقوله: "المتنطعون: هم المتعمّقون المغالون المتجاوزون حدّ الاعتدال"^{٣٧٣}. وفي الوقت نفسه، نبّه ﷺ على خطورة التفريط، فكان يتعامل مع مظاهره بالحزم والإنذار، ليحفظ للأمة استقامتها وتوازنها التربوي^{٣٧٤}.

^{٣٦٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٠.

^{٣٦٩} وقد تضمنت الوثيقة أكثر من خمسين بنداً، منها ما يخص المسلمين وحدهم، ومنها ما ينظم العلاقة بينهم وبين غيرهم من سكان المدينة، كما أنها قررت أن "المؤمنين أمة واحدة من دون الناس"، وأن "اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"، وأن "من خرج في الغزو أو بقي في المدينة فهو في أمان ما لم يظلم"، وهو ما يُعبّر عن صيغة مبكرة للعدالة التشاركية والتربية على المسؤولية الجماعية. انظر: محمد حميد الله، الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، تحقيق: أكرم ضياء العمري، (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٧)، ٤٦-٥٢.

^{٣٧٠} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٤٣.

^{٣٧١} انظر: بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١: ١٨١.

^{٣٧٢} انظر: مسلم، الصحيح، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون، ١: ٣٢٢ (٢٦٧٠).

^{٣٧٣} انظر: النووي، المنهاج، ١٦: ٢١٩.

^{٣٧٤} انظر: البوطي، فقه السيرة النبوية، ٨٩.

ويكشف القرآن الكريم أن من أعظم أسباب الانحراف العقدي في تاريخ البشرية هو الغلو في الصالحين، وهو ما حدث لقوم نوح عليه السلام، حين عكفوا على تعظيم رجال صالحين حتى عبدوهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^{٣٧٥}، وقد فسّر ابن عباس هذه الأسماء بأنها أسماء رجال صالحين، صوّرت تماثيلهم بدعوى التذكير بهم، فلما ماتوا وسوس الشيطان لقومهم أن يصوّروا صورهم في مجالسهم ليزدادوا بهم نشاطاً في العبادة، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم من دون الله^{٣٧٦}. وهذا الانحراف بدأ بنية صالحة وانتهى إلى عبادة الأصنام، فكانت دعوة نوح عليه السلام تصحيحاً طويل الأمد لرواسب تربوية مغلوطة، تستهدف إعادة الأمة إلى التوحيد الصافي.

وهكذا تكررت صور الغلو والانحراف في تاريخ الأمم، كما في بني إسرائيل، الذين لعنوا على لسان أنبيائهم بسبب تعدياتهم المتراكمة، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^{٣٧٧}، وقد فسّر هذا اللعن بأنه وقع عندما انغمسوا في المعاصي والاعتداء، سواء بالمسح إلى قردة كما في دعاء داود عليه السلام، أو إلى خنازير كما في دعاء عيسى عليه السلام، وهو ما ذكره ابن عباس^{٣٧٨}، ومجاهد^{٣٧٩}، والحسن وقتادة وغيرهم^{٣٨٠}. وهذا العقاب الرباني لم يكن مجرد عقوبة غيبية، بل موقفاً تربوياً حازماً يُرسّخ أن تجاوز حدود الشريعة يُفضي إلى الطرد من رحمة الله. ومن هذا المنطلق، جاء التحذير النبوي البليغ في قوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»^{٣٨١} وهو توجيه تربوي دقيق، يُحدّد الفارق بين التوقير المشروع والغلو المحرّم، ويُعيد ضبط العاطفة الدينية داخل إطار الشريعة. فالتربية النبوية في مواجهة الغلو تقوم

^{٣٧٥} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٢٣.

^{٣٧٦} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٣: ص ٥٣٣.

^{٣٧٧} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٧٨.

^{٣٧٨} انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ٢: ٣٨٣.

^{٣٧٩} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٠: ٥٤١.

^{٣٨٠} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٦: ٢١٧.

^{٣٨١} البخاري، الصحيح، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ١٦، ٤: ٢٢٣ (٣٤٤٥).

على إحياء التوحيد الخالص، وتجرید العبادة من الوسائط، وتنقية العقل والقلب من بقايا التصورات المنحرفة، ليكون التوجه إلى الله تعالى وحده، بلا غلو ولا تفريط.

إن هذا المنهج التربوي النبوي لا يكتفي بتصحيح الانحرافات الظاهرة، بل يسير جذورها الفكرية والتربوية، ويواجهها بالتزكية المتوازنة، ليقیم أمة وسطاً في العقيدة والسلوك، تسير على الصراط المستقیم، وتستحق وعد الله بالاستخلاف والتمكين. لقد مثلت التربية النبوية في عهد النبي ﷺ بالمدينة المنورة مشروعاً إصلاحياً متكاملًا، يستند إلى الحزم والتوجيه والإنذار عند ظهور الانحراف، ويقوم على قواعد راسخة من التزكية والعلم والعمل. فلم يكن الهدف ترفاً فكرياً أو تحملاً سلوكياً، بل تحقيق الطهارة العقدية والاجتماعية. ومن أبرز مظاهر ذلك ما ثبت في السنة من الدعاء على أهل الفساد، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «قنت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على رِغْلٍ وذُكْوَانٍ وَعُصَيَّةٍ، عصوا الله ورسوله»؛^{٣٨٢}. مما يدل على أن المقاومة التربوية لا تقتصر على التعليم والموعظة، بل قد تأخذ شكل الدعاء على الظالمين حين تُستنفد سبل الإصلاح الأخرى.

وقد واجه النبي ﷺ في المدينة ظاهرة النفاق السياسي، التي ظهرت بعد استقرار الدولة، حين أظهر قومٌ الإسلام وأبطنوا العداء السياسي. وصفهم الله بقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^{٣٨٣}. فكان تعامله ﷺ معهم سياسة تربوية حذرة؛ يُظهر الحق ويُبين السلوك المنحرف دون انتهاك للنيات، ويُريّ الأمة على الثبوت والعدل، كما قال في الحديث: «إنكم تحتصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»^{٣٨٤}. وهو أسلوب يربي على التحري الداخلي، لا الاغترار بالمظاهر أو الخطاب الظاهري.

^{٣٨٢} البخاري، الصحيح، كتاب: الجمعة، باب: القنوت في النوازل، ٤: ٤٤٠ (١٠٠٤)؛ مسلم، الصحيح، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، ١: ١٨٧ (٦٧٧).

^{٣٨٣} القرآن الكريم، سورة المنافقون ٦٣: ٤.

^{٣٨٤} البخاري، الصحيح، كتاب: الشهادات، باب: إذا بين الحق لذي الحكمة، ٢: ٣٤٥ (٢٦٨٠)؛ مسلم، الصحيح، كتاب: الأفضية، باب: الحكم بالظاهر واللعن بالحجة، ٢: ٣١٣ (١٧١٣).

في الجانب الاقتصادي، واجه ﷺ الانحرافات المالية الموروثة، عن يهود المدينة، مثل الغش والربا والاحتكار، خاصة من يهود المدينة، كما قال تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمُ الرَّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ﴾^{٣٨٥}، فكان ﷺ يُعَلِّم مقاومة الطمع، ويؤسس أنظمة اقتصادية عادلة مثل بيت المال والزكاة والتكافل، ويحذر من استغلال الإمارة لأهداف دنيوية، فقال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامةً يوم القيامة...»^{٣٨٦}. وهو تحذير تربوي من طلب السلطة بلا أهلية أو نية خالصة، كما قال ابن حجر العسقلاني: "المراد بالمرضعة أول لذتها، وبالفاطمة آخر تبعثها"^{٣٨٧}. أما من الجانب السياسي، فقد بنى النبي ﷺ مجتمعًا يقوم على الوعي والشورى، لا على العاطفة أو الولاء الأعمى، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^{٣٨٨}، فكان يُرِيّ الصحابة على المشاركة الفعالة القائمة على العلم والعدل، لا على التبعية أو المحابة.

ولذا؛ فإن بعثة النبي محمد ﷺ لم تكن حركة دينية جزئية، بل مشروعًا إصلاحيًا شاملاً، يعالج الانحرافات السياسية والاجتماعية والعقدية والاقتصادية، ويؤسس أمة تقوم على العدل والتزكية والتعليم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾^{٣٨٩}. وهو منهج استمر في عهد الخلفاء الراشدين، الذين ساروا على طريق النبوة، فأصبحوا امتدادًا عمليًا للإصلاح النبوي، كما أوصى بذلك بقوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»^{٣٩٠}.

ولهذا، قرر مالك بن أنس قاعدة خالدة: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"^{٣٩١}. وهو تأكيد على مركزية المنهج التربوي النبوي في كل عملية إصلاح حقيقية. فمن يتأمل سيرة النبي ﷺ يدرك أن منهجه لم يكن مقطوعًا، بل متكاملًا: يبدأ بإصلاح الفرد، ثم

^{٣٨٥} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٦١.

^{٣٨٦} البخاري، الصحيح، كتاب: الأحكام، باب: كراهية الإمارة بغير ضرورة، ٥: ١١١ (٧١٤٨).

^{٣٨٧} ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ١٣: ١٢٦.

^{٣٨٨} القرآن الكريم، سورة الشورى ٤٢: ٣٨.

^{٣٨٩} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ١٢٨.

^{٣٩٠} أبو داود، السنن، كتاب: السنة، باب: لزوم السنة، ٦: ٣٤٤ (٤٦٠٧)؛ خلاصة حكم الحديث: الصحيح،

الألباني، صحيح سنن أبي داود، ٢: ٣٤٥ (٣٨٥١).

^{٣٩١} انظر: الشاطبي، الاعتصام، ١: ٤٨.

الأسرة، فالجتماع، ثم تأسيس الدولة. إنه بناء حضاري على أساس التوحيد والعدل والرحمة،
تترابط فيه جميع المراحل لتصنع أمةً وسطاً شاهدةً على الناس.

المطلب الثاني: تحليل دعوات أولي العزم من الرسل ﷺ في مواجهة الجهل والانحراف

تُبرز دعوات أولي العزم من الرسل ﷺ ملامح منهج تربوي متكامل في التصدي للجهل والانحراف، إذ لم تكن رسالاتهم مجرد دعوات عقدية مجردة، بل كانت برامج إصلاحية شاملة تستهدف بناء الإنسان فكرياً وسلوكياً، ومواجهة مظاهر الفساد بجذورها العقدية والاجتماعية. وقد تمثلت نقطة الانطلاق عندهم جميعاً في ترسيخ التوحيد، باعتباره الأساس في تصحيح المفاهيم المنحرفة، وتفكيك البنى الجاهلية القائمة على الأهواء وعبادة غير الله، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^{٣٩٢}.

وقد واجه أولوا العزم من الرسل ﷺ الجهل العقدي والانحرافات الفكرية من خلال منظومة تعليمية تربوية تبدأ بالتعليم والتذكير وتنتهي بالتزكية والتطهير، ليعاد بناء الإنسان على أسس ربانية.

إن وجود تربية الأنبياء ﷺ، ولا سيما أولو العزم من الرسل ﷺ، تظهر آثاراً في مجال الحياة الاجتماعية؛ ويمكن القول: بأن من مات مؤمناً بالرسول المرسل إليه وبما جاء به من الوحي، فإن له أدباً، ومن مات مكذباً به فقد فقد أدبه؛ لأن الأنبياء والرسل ﷺ هم أول من يُربون الناس على منهج الله تعالى، وكانوا مبعوثين لتحقيق العدل وإخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^{٣٩٣}، ويشمل ذلك سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم؛ وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط أي قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها، وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواثيق وغير

^{٣٩٢} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ٣٦.

^{٣٩٣} القرآن الكريم، سورة الحديد ٥٧: ٢٥.

ذلك^{٣٩٤}؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^{٣٩٥}، فالظلم سبب للحرمان من التوفيق إلى الهداية عقاباً لكل من ظلم، فيذرهم الله في طغيانهم يعمهون، لا يهديهم إلى طريق الحق، ولا يلهمهم حجة ولا برهاناً بسبب هذا الظلم، والمراد بالظالمين الكاملون في الظلم وهو ظلم الأنفس، وظلم الناس، وأعظمه الإشراك، وإتيان الفواحش والعدوان، فإن الله لا يخلق في نفوسهم الاهتداء عقاباً منهم على ظلمهم، فهم باقون في الضلال، يتخبطون فيه، فهم أضل الضالين^{٣٩٦}.

فقدان التربية الصحيحة، والابتعاد عن الأدب مع الرسل ﷺ، يؤدي إلى الظلم في شتى جوانب الحياة، ويزيد من حالة الجهل، كما يظهر في قصة سيدنا نوح ﷺ حينما يواجه أقوامه بجهلهم وابتعادهم عن التوحيد؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنِّي أَرَنُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾^{٣٩٧}. أي أعلمكم علماً وتفعلون أفعال أهل الجهل فتكذبون الصادق وتعيرون المؤمنين بما لا يعينهم وتنسون لقاء الله وتوقعون الأشياء في غير مواقعها^{٣٩٨}. ذكر الرازي في تفسيره^{٣٩٩} بأن الشرك سبب الفساد؛ عند قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^{٤٠٠}، فقال: "إذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك مورثاً لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم: ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾"^{٤٠١}.

ووردت قصة إبراهيم ﷺ، بأنه ﷺ اجتهد في دعوة أبيه؛ فما وصفه ﷺ أباه بالجهل مع كونه وقع؛ ولكن وصفه بما جاءه بالعلم، لعلو الأدب مع أبيه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾^{٤٠٢}، قال ابن كثير: "فإن

^{٣٩٤} انظر: السعدي، تفسير كلام المنان، ٨٤٢.

^{٣٩٥} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٨: ٥٠.

^{٣٩٦} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢: ١٤١.

^{٣٩٧} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٢٩.

^{٣٩٨} انظر: البقاعي، نظم الدرر، ٩: ٢٧٥.

^{٣٩٩} الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٥: ١٠٥.

^{٤٠٠} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٢٢.

^{٤٠١} القرآن الكريم، سورة المؤمنون ٢٣: ٧١.

^{٤٠٢} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٤٢.

كنت من صلبك وترى أني أصغر منك، لأنني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد^{٤٠٣}.

وقد وصف سيدنا موسى ﷺ بني إسرائيل بالجهل حينما طلبوا منه أن يجعل لهم صنماً ليتخذوه إلهاً من دون الله ﷻ، فقال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^{٤٠٤}، حيث وصفهم بالجهل المطلق وأكد له بعد ما صدر عنهم بعدما رأوا من الآيات الكبرى عن العقل^{٤٠٥}.

وقد كان الجهل من أهم الأسباب التي تُوقع الإنسان في الفتنة، مثل قول القائلين بقتل المسيح عيسى ابن مريم ﷺ وصلبه، قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾^{٤٠٦}. ذكرها الرسول ﷺ عن نزول المسيح ﷺ علامة من علامات الساعة في مجموعة الأحاديث المسبقة الغيبة في آخر الزمن؛ من حديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾^{٤٠٧}؛ قال: «نزول عيسى ابن مريم من قبل يوم القيامة»^{٤٠٨}.

وبهذا سيقوم عيسى ﷺ بأعمال جليلة وخطيرة، من أهم الأعمال التي يقوم بها عيسى ﷺ استئصال عبادة النصرانية وانتشار البركات الظاهرة التي تعم الأرض؛ من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»^{٤٠٩}.

^{٤٠٣} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ٢٣٤.

^{٤٠٤} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٣٨.

^{٤٠٥} البضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٣: ٣٢.

^{٤٠٦} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٥٧.

^{٤٠٧} القرآن الكريم، سورة الزخرف ٤٣: ٦١.

^{٤٠٨} أحمد بن حنبل، المسند، المحقق: شعيب الأرناؤوط، ٥: ٨٦ (٢٩١٧). قال المحقق: إسناده حسن.

^{٤٠٩} البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، ٣: ٨٢ (٢٢٢٢).

ولذلك كان المصطفى ﷺ قد أخبرنا عن قلة العلم وفقده وانتشار الجهل في الأمة حيث يكثر الفساد قبل قيام الساعة؛ حديث من ذلك حديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبي موسى رضي الله عنه فقالا: قال النبي ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج» والهرج القتل^{٤١٠}. وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أن النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^{٤١١}. وهكذا يتضح لنا أن أولي العزم من الرسل ﷺ كانوا يهتمون بالقضايا الاجتماعية، وتميّزت رسالاتهم بأنها نموذج حي للإصلاح الاجتماعي والسلوكي، إذ تجسّدت التعاليم في شخصياتهم، وسارت الدعوة في خطوط متوازية بين الكلمة والسلوك. فكان موسى ﷺ يواجه طغيان فرعون بالتوحيد، ويؤسس للعدالة في قوم اعتادوا العبودية، بينما دعا عيسى ﷺ إلى الرحمة والتهديب في أمة غلبت عليها المادية والانحراف العقدي، وجاء إبراهيم ﷺ ليكسر الموروث الوثني السائد بالعقل والوحي معاً. ومن خلال هذه النماذج المتكاملة، تتجلى الوظيفة التربوية لأولي العزم من الرسل ﷺ في ترسيخ المنهج الرباني في التربية الاجتماعية، الذي يعالج الانحراف لا برد الفعل العاطفي، بل بالتدرج، والموعظة، والصبر، والمواجهة الحكيمة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾^{٤١٢}.

بناءً عليه، فإن دعوات أولي العزم ﷺ لم تقتصر على خطاب إيماني، بل مثلت برامج إصلاح حضاري، تُواجه مظاهر الانحراف الناتجة عن غلبة الشهوات، وتحول دون انزلاق المجتمعات نحو الفساد، من خلال دمج الرسالة التربوية، والتوحيد بالواقع، والموعظة بالسلوك، مما يجعل من رسالاتهم صمام أمان لأمتهم، ونبراساً إصلاحياً خالداً لكل الأزمنة.

خلاصة المطلب:

تمثل الرسائل التي بعث بها أولو العزم من الرسل ﷺ مشروعاً ربانياً متكاملًا لإصلاح الإنسان والمجتمع، تجلّت مقاصده التربوية في خمسة مسارات مترابطة: مقاومة الجهل العقدي

^{٤١٠} البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، ٩: ٤٨ (٧٠٦٢).

^{٤١١} البخاري، الصحيح، كتاب المظالم والغصب، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، ٣٠: ١٢٩ (٢٤٤٧).

^{٤١٢} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١٥٩.

والانحراف الفكري بتأسيس مبدأ التوحيد ومرجعية الوحي، وبناء منظومة القيم الأخلاقية والاجتماعية بالتربية العملية، وتقديم نماذج واقعية تؤكد فاعلية المنهج، وترسيخ قواعد التزكية والرحمة والحكمة، ثم التحصين من الانحرافات عبر التحذير من التزييف وبناء وعي ناضج.

وقد بينت بعثاتهم أن الإصلاح لا يتحقق بالشعارات أو البرامج المؤقتة، بل بمنهج عميق يبدأ بإعادة تشكيل العقل على ضوء الوحي، وتزكية النفس بالقُدوة، وتعزيز القيم بالتحصين، ومقاومة الأهواء بالحجة والحزم. وعلى تنوع البيئات التي واجهها الرسل، تظل الرسالة ثابتة الأصول، مرنة في التطبيق. فالجهل الذي واجهه نوح، والعناد العقدي مع إبراهيم، والانحرافات السلوكية في بني إسرائيل زمن موسى، والتزييف الديني في عهد عيسى، وصراع القيم في الجاهلية الذي واجهه محمد ﷺ، كلها تؤكد أن الوحي وحده يملك خريطة النجاة. ومن ثم، فإن تلك الدروس لا تنحصر في التاريخ، بل تُعد خارطة طريق للمربين والدعاة والمصلحين، لإحياء مشروع النبوة في الواقع المعاصر، بإعادة الاعتبار للتوحيد والعقل، وتحقيق التوازن بين التعليم والتزكية، ومقاومة الانحراف بنماذج عملية واقعية. ويبقى التحدي الأكبر اليوم هو تفعيل هذا المنهج الرباني في تربية الأجيال، والإيمان بأن الإصلاح يبدأ من الروح والعقل، لبناء الإنسان الذي يعرف الحق، ويهواه، ويذب عنه.

المبحث الرابع: المقارنة المنهجية بين التربية الاجتماعية الربانية والتربية الغربية ومقاصدهما من خلال قصص أولي العزم من الرسل ﷺ

تمهيد

تُقدّم قصص أولي العزم من الرسل ﷺ في القرآن الكريم نموذجًا ربانيًا متكاملًا في التربية الاجتماعية، يجمع بين التزكية الداخلية والتعليم القيمي والعدل المجتمعي، ويهدف إلى تخرج إنسانٍ صالحٍ، مستقيم العقيدة والسلوك، وشاهدٍ على القيم في سلوكه ومواقفه. هذا النموذج التربوي الإلهي لا ينفصل عن الوحي، بل يتغذى من نور الرسالة ويُحدّد مقاصده في ضوء الغاية العليا من الخلق، وهي عبادة الله وعمارة الأرض وفق منهجه. وعلى النقيض من ذلك، تُقدّم التربية الغربية الحديثة نموذجًا وظيفيًا براغماتيًا، يفصل بين الإنسان ودينه، ويعيد تشكيل

القيم وفق مصالح مادية دنيوية، حيث تتحول التربية إلى مشروع لإنتاج "مواطن مطيع للدولة" لا إنساناً خاضعاً لله، وتُغذّى أخلاقياته من القانون لا من الضمير، ومن السوق لا من الرسالة.

وهنا يُطرح سؤالٌ جوهري لكل من أراد أن يؤسس مشروعاً تربوياً اجتماعياً فاعلاً: هل الغاية من التربية هي بناء الإنسان الصالح أم المواطن المنتج؟ وهل الهجرة والتمكين في قصص أولي العزم من الرسل ﷺ كانت من أجل إعداد مجتمعات صالحة تعبُد الله وتقوم بالقسط، أم من أجل تأسيس نظم دنيوية تحكمها القوة والمنفعة؟.

المطلب الأول: الهجرة والتمكين من دعوات أولي العزم من الرسل ﷺ في إعداد المجتمعات الصالحة

لم تكن الهجرة في مسيرة أولي العزم من الرسل ﷺ مجرد انتقال جغرافي أو تحوّل سياسي، بل كانت حدثاً تربوياً عظيماً يُعبّر عن نقطة تحوّل حاسمة، تمثل فاصلاً جوهرياً بين مرحلة الاستضعاف، ومرحلة التمكين القائمة على التزكية وبناء القيم. فقد شكّلت الهجرة لديهم لحظة فارقة في صياغة الجماعة المؤمنة، وتحويلها من أفراد متفرّقين إلى كيان اجتماعي موحد، يقيم العدل، ويعبد الله، وينبذ الجاهلية.

وإنّ استقرار سيرة الأنبياء والرسل، من نوح ﷺ إلى محمد ﷺ، يُظهر بوضوح أنّ الغاية الكبرى من دعوتهم كانت إصلاح الإنسان، ليكون أهلاً لحمل أمانة الاستخلاف بأمر الله عز وجل، لا مجرد أداة في آلة الإنتاج. فقد كان مشروع نوح ﷺ مشروع نجاة لا سلطة، إذ ظلّ يدعو قومه ليلاً ونهاراً ليخرجهم من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق. وكذلك إبراهيم ﷺ، فإن هجرته وابتلاءاته لم تكن بهدف تأسيس دولة بالمفهوم السياسي الحديث، بل لإعادة بناء المجتمع على أساس التوحيد وتحريره من أغلال عبادة الأصنام. وأما موسى ﷺ، فلم تكن هجرته ببني إسرائيل من مصر إلى التيه مجرد سعي للاستقلال السياسي، بل كانت مساراً تربوياً يرمي إلى تطهير النفوس من ميراث العبودية لفرعون، وتأهيلها لعهد جديد يقوم على ميثاق الله وشريعته.

وإن الرسالات السماوية الكبرى لم تكن مجرد دعوات أخلاقية تُلقى على الأفراد، بل كانت مشاريع إلهية شاملة لإعداد المجتمعات الصالحة، وقد تجلّى هذا المنهج بأجلى صوره في سيرة أولي العزم من الرسل ﷺ الذين جسّدوا مفهوم الهجرة والتمكين بوصفهما وسيلتين تربويتين لإحداث التغيير المجتمعي الجذري، لا مجرد حركات اضطرارية للهروب من الظلم. وقد مثّل خروج الأنبياء من ديارهم، بأمر من الله تعالى، ضرورة تربوية واجتماعية لإعداد النماذج الصالحة التي تُصلح الأرض بعد فسادها، لا لأنهم عجزوا عن البقاء، بل لأن بقاءهم بين الظالمين من دون بيئة قابلة للتزكية والتغيير سيكون عبثاً دعويّاً يُرسّخ الطاعة للأنظمة الجاهلية، بدل مقاومة بنيتها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^{٤٣}، وهي آية تصوّر الحالة الاضطهادية التي يتعرض لها الدعاة، ولكنها في الوقت ذاته تبرز أن هذه المحن تصنع نواة مجتمع جديد أكثر نقاءً واستعداداً للتمكين والعدل.

لقد كانت الهجرة في حياتهم خياراً واعياً يسبق التمكين، وفي كل مراحلها كانت تُعدّ الأرضية الأخلاقية والروحية اللازمة لتأسيس مجتمع يُقيم شريعة الله تعالى، لا مجتمعاً تابعاً لقيم الطغيان أو للأنظمة الجاهلية. فنجد هذا المعنى واضحاً في هجرة نوح ﷺ؛ لم يُؤمر بالهجرة الجغرافية، بل كانت "الهجرة العقديّة" التي فرضها عليه قومه سبباً في تهية الجيل المؤمن الجديد، حين أُمر ببناء السفينة بعيداً عن البحر، لتكون معبراً نحو مرحلة جديدة بعد الطوفان. فكانت السفينة رمزاً لعزل الفئة المؤمنة عن الفئة الكافرة، تمهيداً لولادة مجتمع جديد يحمل قيم التوحيد، كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾^{٤٤}، وهذه التربية الجديدة لم تكن منعزلة عن الواقع، بل كانت تتجه لتأسيس مجتمع متماسك حول العقيدة، لا حول العرق أو الموروث.

أما إبراهيم ﷺ، فقد جسّد مفهوم الهجرة بوصفها مشروعاً تربوياً للتحرر من سلطان الشرك، فهجر قومه وأباه ووطنه في سبيل الله، وانتقل من العراق إلى الشام ثم إلى مصر وفلسطين، ليبنى الأسرة الإيمانية التي انطلقت منها دعوة التوحيد. قال تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ

^{٤٣} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٤٠.

^{٤٤} القرآن الكريم، سورة الإسراء ١٧: ٣.

إِلَى رَبِّي سَيَّهَدِينَ ﴿٤١٥﴾. فهي هجرة من بيئة الشرك والاضطهاد إلى فضاء التوحيد والحرية. ولم تكن غاية الهجرة تأسيس سلطة دنيوية، بل تحقق التمكين الإيماني، وتهيئة الأرض لنشأة أمة موحدة كما تحقق لاحقاً بولادة إسماعيل وبناء البيت الحرام أورد ابن كثير في تفسير هذه الآية بأنه ذهب إلى الأرض المباركة الشام، ثم أكرمهم الله بإسماعيل في مكة، وإسحاق في الشام، فكانت الهجرة بداية التمكين بالدعوة لا بالسلطة^{٤١٦}.

أما موسى ﷺ، فإن هجرته ببني إسرائيل من مصر لم تكن فقط للتخلص من بطش فرعون، بل لتأسيس أمة جديدة على أسس ميثاق الله وشريعته. وقد وصف الله خروجهم بأنه "نجاه" لا "استقلالاً سياسياً"، فقال: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ • فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ...﴾^{٤١٧}، فكان التمكين بالوحي لا بالتحرر القومي؛ وقد لبثوا في التيه أربعين سنة، لا لضعف في القيادة، بل لأن التربية الإيمانية لم تكتمل بعد، ولأن النفس التي عاشت في العبودية لا تصلح لإقامة مجتمعات عادلة حتى تُزَكَّى وتُخْتَبَر. قال سيد قطب في الظلال: "إن الله لم يُمكنهم قبل أن يُرَبِّيَهُمْ في التيه، فكان التيه مدرسة إيمانية قبل التمكين"^{٤١٨}.

وفي سيرة خاتم الرسل ﷺ، كانت الهجرة من مكة إلى المدينة من أعظم محطات التحول التربوي، إذ تحولت الجماعة المؤمنة من طور الاضطهاد إلى طور البناء. وقد كانت أولى خطوات التمكين بعد الهجرة هي بناء المسجد، المؤسسة التربوية الأولى، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ووضع وثيقة المدينة، التي أرست مبادئ العدل والحرية الدينية والتعايش. وكان هذا التمكين تأسيساً لأمة تُعبد فيها القيم، لا تُقدّس فيها الزعامة أو العرق أو السلطة. ويعلّق ابن تيمية على الهجرة النبوية بأنها "تحول في وظيفة الأمة من الاستضعاف إلى البلاغ الكامل لرسالة الله"^{٤١٩}. لقد مدح الله تعالى في كتابه صفوة من عباده الذين ثبتوا على الحق، رغم الإخراج والابتلاء، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً

^{٤١٥} القرآن الكريم، سورة الصافات ٣٧: ٩٩.

^{٤١٦} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١١: ٣٥٢.

^{٤١٧} القرآن الكريم، سورة الحشر ٥٩: ٨.

^{٤١٨} انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤: ٢٠٦١.

^{٤١٩} انظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ١: ١٨٠.

مَنْ اللَّهَ وَرِضُونًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ^{٤٢٠}، وهي إشارة إلى المهاجرين الذين خرجوا من مكة تاركين خلفهم الأهل والمال، طمعًا في مرضاة الله ونصرة نبيه ﷺ. قال الطبري: "هؤلاء الذين تركوا ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، صدقهم في نيتهم وإيمانهم هو الذي جعلهم يستحقون هذا الثناء" قال القرطبي: "في هذه الآية دليل على فضل المهاجرين، حيث مدحهم الله بابتغاء الفضل والرضوان، لا لأغراض دنيوية، بل نصرة لدينه ورسوله"^{٤٢١}.

وجاء في الحديث النبوي الشريف قال النبي ﷺ: «لا تَسْبُوا أَصْحَابِي، فلو أن أحداكم أنفق مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»^{٤٢٢}، دلالة على فضل هؤلاء الذين بذلوا كل شيء، وتركوا وطنهم في سبيل العقيدة. وقد ربط السلف الصالح بين الهجرة والإخلاص، كما قال الحسن البصري: "أخرجهم الله من ديارهم ابتلاءً، فنصرهم لأنهم نصره، فصاروا صادقين عند الله في سرهم وعلاانيتهم"^{٤٢٣}.

وعلى ضوء ذلك، فإن التمكين في القصص القرآني لم يكن هدفًا ذاتيًا، بل نتيجة من نتائج الصبر والتربية والهجرة إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ...﴾^{٤٢٤}. وعلى العكس من ذلك، فإن كثيرًا من مشاريع التمكين في الفكر المعاصر تنطلق من رغبة في السيطرة أو الهيمنة، لا من غاية تركية الإنسان وتحقيق العبودية لله تعالى. وهذا ما يُمَيِّز التربية الربانية عن غيرها، فهي تُرَبِّي الإنسان ليكون عبدًا لله قبل أن يكون مواطنًا في دولة. كما قال ابن تيمية: "الشرائع جاءت بإصلاح القلوب قبل إصلاح السلطان، فمتى صلحت القلوب جاء التمكين على قدر الإعداد"^{٤٢٥}.

أما التربية الغربية، كما بيّن مالك بن نبي، فقد تحوّلت إلى مشروع يفصل الإنسان عن بعده الروحي، ويُعيد تشكيله وفق فلسفة الإنتاج، حيث يصبح الإنسان "كائنًا اقتصاديًا"

^{٤٢٠} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٠: ٨٢٣.

^{٤٢١} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٨: ٢١٧.

^{٤٢٢} انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب فضل المهاجرين، ٣: ٤٤ (٣٦٧٣).

^{٤٢٣} انظر: ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ٣: ١١٢؛ وانظر: السيوطي، الدر المنثور، ٨: ٢٢٠.

^{٤٢٤} القرآن الكريم، سورة القصص ٢٩: ٥.

^{٤٢٥} انظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ١: ١٨٠.

يتحدد وجوده بمقدار ما يُنتج، لا بمقدار ما يُصلح أو يزكي. يقول مالك بن نبي في شروط النهضة: "التربية الغربية تخرج الإنسان من الدين إلى المادة، ومن التزكية إلى الإنتاج فقط"^{٤٢٦}. وعلى النقيض، قدّمت التربية النبوية في "وثيقة المدينة" مثالاً مدنياً راشداً يُعلي من قيمة التعدد والعدالة دون أن يُلغي المرجعية الدينية، كما ورد في بنود الصحيفة: "لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم"^{٤٢٧}. وهذه الصيغة توازن بين الحقوق الاجتماعية والهوية الدينية، دون أن تقع في الفصل العدائي بين الدين والسياسة

ولذلك، فإن القصص القرآني والحديثي لا يقدّم مجرد تاريخ روحي للأنبياء، بل يعرض نماذج حية لتربية الإنسان الحر، الذي يطيع الله تعالى ولو خالف السلطة، ويقاوم الظلم ولو كان على نفسه، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾^{٤٢٨}، وكما جاء في الحديث الذي ذكرته هو من الأحاديث الصحيحة المشهورة في باب التحذير من أكل الحقوق بالباطل، حتى وإن أخذت بحكم القاضي، إذا كان يعلم في نفسه أنه ليس محققاً؛ قال النبي ﷺ: «فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»^{٤٢٩}. أشار النووي إلى أن هذا الحديث دليل على أن الحكم القضائي لا يُغيّر حقيقة الحق في باطن الأمر، ولا يُحلل الحرام، وإنما هو إجراء ظاهري يُبنى على البينة، ويظل الحلال والحرام مرهوناً بحقيقة الحال عند الله تعالى^{٤٣٠}.

وهكذا فإن الفرق الجوهرية بين النموذجين، الشرعي والغربي، يكمن في مرجعية القيمة: هل من الوحي أم من الإرادة الجماعية؟ وهل الإنسان خليفة لله أم أداة إنتاج؟ وقد لخص مالك بن أنس هذه الرؤية قائلاً: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"^{٤٣١}، وهي قاعدة تربوية كبرى تُلزم الدعاة والمربين بالعودة إلى النموذج النبوي الرباني، الذي يُخرج

^{٤٢٦} انظر: مالك بن نبي، مشكلات الحضارة: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦) ٥٢.

^{٤٢٧} انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ١٤٧.

^{٤٢٨} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٣٥.

^{٤٢٩} مسلم، الصحيح، كتاب الأفضية، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة ٤: ٣٣ (١٧١٣).

^{٤٣٠} النووي، المنهاج، ١٢: ١٠.

^{٤٣١} انظر: الشاطبي، الاعتصام، ١: ٤٩.

الناس من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق، ويجعلهم فاعلين في التغيير لا مُنصهرين في الواقع.

بناء عليه، فإن دعاة الإصلاح الاجتماعي اليوم بحاجة إلى أن يعوا أن الهجرة والتمكين في التصوّر الرباني هما وسيلتان لبناء مجتمعاتٍ صالحةٍ، لا لإنشاء سلطة دون مضمون قيمى. فالدولة الظالمة وإن رفعت شعار التقدم لا تُحقّق غاية التربية الربانية، بينما الفرد المؤمن والمجتمع الزاكي ولو بلا سلطة، قد يُمَهّد لتمكينٍ يرضاه الله تعالى.

المطلب الثاني: الغاية من التربية: بناء إنسان صالح أم مواطن منتج؟

تمثّل غاية التربية نقطة الفصل بين التصور الإسلامي والتصور الغربي للإنسان، حيث تنبني التربية الإسلامية على رؤية وجودية تُقدّم "بناء الإنسان الصالح" غايةً عليا، بينما تُعنى التربية الغربية أساسًا بإنتاج "المواطن المنتج" المنضبط بالنظام، دون اعتبار لقيم الخير المتجاوزة. وقد بيّن محمد نقيب العطاس أن مفهوم الأدب في التصور الإسلامي يتأسّس على معرفة الغاية من طلب العلم، وهذه الغاية هي تركية الإنسان في ذاته، لا إعداده للاندماج في البنية السياسية أو الاقتصادية البحتة، يقول العطاس:

*"We said that adab identifies itself as knowledge of the purpose of seeking knowledge. The purpose of seeking knowledge in Islam is to inculcate goodness in man as man and individual self. The end of education in Islam is to produce a good man, and not—as in the case of Western civilization—to produce a good citizen..."*⁴³²

ويرى العطاس أن هذه الرؤية تتركز على لحظة مركزية في العقيدة الإسلامية وهي الميثاق الأول، حين خاطب الله تعالى الأرواح قبل خلق الأجساد قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^{٤٣٣}، فأجابت الأرواح بالإقرار والتصديق؛ هذه الحادثة تؤكد أن الإنسان مزود، منذ فجر

⁴³² Naquib al-Attas, *The Concept of Education in Islam*, 25

"قلنا إن الأدب يُعرّف بأنه معرفة الغاية من طلب العلم، وأن هذه الغاية هي ترسيخ الخير في الإنسان من حيث هو إنسان. فغاية التعليم في الإسلام هي إنتاج الإنسان الصالح، لا المواطن الصالح كما في الحضارة الغربية..." العطاس، مفهوم التربية في الإسلام، ٢٥.

^{٤٣٣} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٧٢.

وجوده، بقابلية المعرفة الروحية والنطق العقلي، وأنه قد شهد على ربه بحرية ووعي، مما يجعل غاية التربية هي إعادة تفعيل تلك المعرفة الفطرية وترسيخها في سلوكه^{٤٣٤}.

ثم يُوضّح العطاس أن للإنسان طبيعتين: النفس العاقلة التي تمثل بعده الروحي، والنفس الحيوانية التي تمثل بعده الغريزي، وأن التربية هي وسيلة لترتيب العلاقة بين هذين البعدين، من خلال خضوع النفس السفلى للأعلى، تحقيقاً لمعنى الأدب، أي وضع النفس في موضعها الصحيح وفق مقتضى المعرفة والإقرار. وهذا الأدب هو روح العدل الداخلي، ومن لم يُحقِّقه فهو إما جاهل أو متكبر، لأن الإسلام لا يعترف بعلم بلا عمل، ولا بعمل بلا علم^{٤٣٥}.

وينتهي العطاس إلى أن الإنسان العادل هو من يؤدّب نفسه ويحقق الانسجام بين قواه الداخلية، ومن هنا تكون التربية غايتها تكوين الإنسان الصالح، لا المواطن الطائع فقط، لأنه بتمام أدبه يكون خليفة الله في الأرض، لا مجرد ترس في ماكينة النظام. وهذه الغاية تُخالف جوهر التصور الغربي، الذي يُعلي من مفهوم المواطنة النفعية على حساب التزكية الذاتية، ويُقيم الطاعة للنظام ولو كان جائراً، كما حذر ابن تيمية بقوله: "الملك لا يقوم إلا بالعدل..."^{٤٣٦}. في المقابل، تُحدّد الأنظمة الغربية غاياتها التربوية ضمن إطار دنيوي محض، فتُصاغ فلسفات التعليم حول مفاهيم "الإنتاج"، و"النجاح"، و"التقدم"، وتُقاس كفاءة الإنسان بمدى إسهامه في الناتج المحلي الإجمالي، أو استقراره الوظيفي؛ وهذه المقاييس تُفرز أفراداً ناجحين مهنيّاً، لكن بلا بوصلة أخلاقية أو غاية روحية. وقد بيّن مالك بن نبي هذا الخلل قائلاً: "حين تتحوّل التربية إلى تدريب على الإنتاج، تفقد قدرتها على صنع الإنسان الفاعل في التاريخ"^{٤٣٧}.

إن المال في التربية الربانية مسؤولية لا تملّك؛ إذ تختلف التربية الإيمانية في تصورها للمال جذريّاً عن الفلسفة المادية الغربية، التي تنظر إليه كغاية فردية وسلطة اقتصادية مطلقة، بينما تنظر إليه التربية الإسلامية بوصفه وسيلةً للعبادة، والتزكية، والإعمار، وخدمة المجتمع. في المقابل، تؤسّس التربية الغربية لعقد اجتماعي يفصل الدين عن الدولة، كما بيّن مالك بن نبي

⁴³⁴ Naquib al-Attas, *The Concept of Education in Islam*, 25

⁴³⁵ Al-Attas, 25

⁴³⁶ Al-Attas, *The Concept of Education in Islam* 25

^{٤٣٧} انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ٦٩.

أنّ التربية الغربية تُخرج الإنسان من عالم القيم الروحية إلى عالم المادة، ومن التزكية إلى إنتاج بحث، مما يجعل الإنسان كائنًا اقتصاديًا، لا خليفةً لله في الأرض^{٤٣٨}.

ومّا يُثبت أنّ التربية الإسلامية تتجاوز مجرد إعداد الفرد للمشاركة في الحياة الاقتصادية، أنّها تزرع في قلب الإنسان وعيًا عميقًا بوظيفته الائتمانية في الوجود، ومنها تعامله مع المال. فالقرآن الكريم يُقرّر أن الإنسان ليس مالكًا مطلقًا، بل هو مستخلفٌ مؤتمن، كما قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾^{٤٣٩}، حيث علّق الطبري على ذلك بقوله: "جعل الله الأموال في أيدي الناس أمانة، وأمرهم أن ينفقوا منها في سبيله، لأنهم مستخلفون فيها، لا مالكون ملكًا ذاتيًا"^{٤٤٠}. يؤكد السياق القرآني أن هذه الاستخلافية تُعيد ترتيب العلاقة بين الإنسان والمال ضمن منظور العبودية، إذ قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾^{٤٤١}، وعلّق ابن كثير موضحًا: "يُنبههم أن الأموال التي بأيديهم هي في الحقيقة مال الله، وقد صيرهم نوابًا ووُكلاء فيه"^{٤٤٢}. فليس المقصود من التربية أن تُخرج كائنًا اقتصاديًا خاضعًا لمقتضيات السوق، بل إنسانًا صالحًا مؤتمنًا، يُنفق وفق مبدأ الاستخلاف، لا وفق منطق الامتلاك المنفلت، ويتعامل مع المال على أنه وسيلة للقيام بالحق، لا غاية تُعبد من دون الله.

ويتجلى المنظور الإسلامي التربوي في موقفه المتوازن من المال، حيث لا يُنظر إليه كغاية، بل كوسيلة في يد الإنسان الصالح يحقق بها مقاصد الشريعة. ويتضح ذلك في قول النبي ﷺ كما في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»^{٤٤٣}. فالنص النبوي يشير إلى القيمة الأخلاقية للمال إذا ارتبط بصلاح النفس، وعفة اليد، ومعرفة الحقوق. وقد علّق الخطابي على الحديث موضحًا: "المال إذا كان في يد الرجل الصالح، أنفقه في وجوهه، ووصل به رحمه، وأعان به على النوائب، ولم يشغله

^{٤٣٨} انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ٥٢.

^{٤٣٩} القرآن الكريم، سورة الحديد ٥٧: ٧.

^{٤٤٠} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٧: ١٣٨.

^{٤٤١} القرآن الكريم، سورة النور ٢٤: ٣٣.

^{٤٤٢} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦: ٧٨.

^{٤٤٣} أحمد بن حنبل، المسند، ٤: ٢٢ (٦٦٩٥). خلاصة حكم الحديث: صحيح.

عن ذكر الله، وكان حينئذٍ صالحاً^{٤٤}. وقد جسّد الجيل الأول من الصحابة هذا التصور التربوي العميق في تعامله مع المال، فجعلوه وسيلة لخدمة الحق، لا مطيّة للترف أو الفخر، وكان المال عندهم في منزلة العبودية، لا السيادة؛ ومن أبرز الأمثلة على ذلك موقف عثمان بن عفان رضي الله عنه حين ابتاع بئر رومة للمسلمين^{٤٥}، وجّهز جيش العُسرة في غزوة تبوك؛ فشهد له النبي ﷺ بذلك فقال: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»^{٤٦}، ولم تكن هذه المبادرات بدافع الوجهة أو الرياء، بل ثمرة لتربية نبوية ترسخ في الصحابة مبدأ المسؤولية والاستخلاف. وقد علّق ابن حجر على شخصيته قائلاً: "كان عثمان يُكثر من الإنفاق في وجوه الخير، مع أنه من أكثر الصحابة مالاً، فجمع بين الغنى والتقوى، وهذه مرتبة نادرة"^{٤٧}. ويكشف هذا النموذج أن المال في ذاته ليس مذموماً في التصور الإسلامي، بل يُقوّم بحسب أثره في السلوك؛ فإن وُضع في يد إنسان صالح، كان نعمةً وعوداً على الخير، أما إذا استولى على قلب إنسان فاسد، صار وسيلة للفساد والانحراف. ومن هنا تتأكّد أهمية التربية الإيمانية في تهذيب دوافع الإنسان، حتى لا يغدو المال أداة استعلاء أو استهلاك، بل سبيلاً للعدل والعطاء، وتحقيقاً لوظيفة الاستخلاف والعمران.

ولذا؛ فإن بعثات أولي العزم من الرسل ﷺ تُعيد بناء الإنسان من داخله، لا من خارج منظومته، فنوح ﷺ ظلّ يُربّي قومه على مدار قرون، دون أن يُنشئ كياناً سياسياً، بل صنع القُلك التربوي وسط الطوفان العقائدي. وأمّا موسى ﷺ، فمع أنه قاد بني إسرائيل إلى الخروج من الطغيان، إلا أنه ظلّ يُعالج أعماق نفوسهم من بقايا العبودية، حتى جاء الجيل

^{٤٤} انظر: الخطابي، معالم السنن، تحقيق محمد حامد الفقي (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٨٩)، ٤: ١٥١.

^{٤٥} ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه فيها كدلاء المسلمين؟» فاشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقال النبي ﷺ: «اللهم ارضَ عن عثمان». الترمذي، السنن، كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان، ٥: ٣٣ (٣٧٠٠)، وقال: "حديث حسن غريب".

^{٤٦} ورد في الحديث عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: جاء عثمانُ إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهّز جيش العُسرة، فنثرها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها ويقول: ما ضرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم، يكررها مراراً. الترمذي، السنن، كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان، ٥: ٣٣ (٣٧٠١)، وقال: "وقال: حسن غريب، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي".

^{٤٧} انظر: ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: دار الجيل، ١٩٩٢)، ٣: ٨٧.

الذي تربى في التيه فنزلت عليه الشريعة؛ ويؤكد ذلك أن الإصلاح لا يتحقق بتغيير الأنظمة البحتة، بل بتغيير الإنسان في علاقته بالله والحق. فالأنبياء لم يبعثهم الله لتنشئة بشر طائعين للسلطة أو مثاليين اقتصاديًا، بل أرسلوا لتزكية الإنسان، وتحقيق العدل، وبناء شخصية حرة تعبد الله على بصيرة. قال تعالى في بيان مهمة الرسول ﷺ؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^{٤٤٨}. فبدأت الآية بالتزكية قبل التعليم، إشارة إلى أن غاية التربية ليست المعلومة بل تحول الإنسان إلى عبد صالح. ويقول الرازي في تفسيره: "قدم التزكية لأن المقصود من العلم العمل، والعمل لا يتم إلا بتطهير القلب"^{٤٤٩}. وعلق ابن عاشور على ذلك بقوله إن التزكية مقدمة على التعليم لبيان أن الأصل في الإصلاح هو تنقية النفس، لا حشو المعلومات فحسب^{٤٥٠}.

ويظهر الفرق الجوهرى في الغاية: فالتربية النبوية تهدف إلى بناء الإنسان الرباني، وقد قد تجسدت التربية النبوية في سيرة الأنبياء؛ من نوح ﷺ، الذي دعا قومه إلى التحرر من التقليد الأعمى للآباء، كما قال قومه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾^{٤٥١}، كما في قصة إبراهيم ﷺ الذي ترك قومه وكسر أصنامهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾^{٤٥٢}، وهو ما فسره الطبري في هذه الآية بأنه إعلان للانفصال التبروي عن بيئة الشرك والانحراف^{٤٥٣}.

وتبرز هذه القيم في قصة موسى ﷺ، الذي رفض الخضوع لفرعون رغم ما أوتي من سطوة، وقد قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾^{٤٥٤}، وهو إعلان إصلاحى قائم على الحجة لا على الخضوع. وكذلك في دعوة عيسى ﷺ، الذي جاء مصلحًا، فأنكر على بني إسرائيل فسادهم، حتى قال تعالى: ﴿وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ

^{٤٤٨} القرآن الكريم، سورة الجمعة ٦٢: ٢.

^{٤٤٩} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٨: ١٢٢.

^{٤٥٠} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١١: ١٢٢.

^{٤٥١} القرآن الكريم، سورة الزخرف ٤٣: ٢٣.

^{٤٥٢} القرآن الكريم، سورة الصافات ٣٧: ٩٩.

^{٤٥٣} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٣: ٨٩.

^{٤٥٤} القرآن الكريم، سورة الشعراء ٢٦: ٣٠.

عَلَيْكُمْ^{٥٥}، وقد فسر القرطبي في هذه الآية بأن دعوة عيسى تضمنت إزالة الغلو وإعادة الشريعة إلى اعتدالها^{٥٦}. بينما تهدف التربية الوضعية إلى إنتاج "مواطن صالح" وفق مقاييس الدولة، لا وفق تكاليف العبودية^{٥٧}.

ويتجلى الفارق كذلك في مفهوم الطاعة والانتماء في ضوء القرآن والسنة؛ فالتربية الربانية تجعل الطاعة المطلقة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^{٥٨}، وقد أشار الرازي إلى دلالة حذف فعل الطاعة عند "أولي الأمر"، تأكيداً على أنهم لا يطاعون إلا في طاعة الله تعالى^{٥٩}.

وقد جاءت أحاديث نبوية تؤكد أهمية طاعة ولاية الأمور، ولو كانوا من غير الأشراف أو الأحرار، مثل حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأنَّ رأسه زبيبة»^{٦٠}. فالنبي ﷺ ضرب المثال الأشد على مخالفة الأعراف الطبقية بأن يكون الوالي عبداً حبشياً، يتصف بصفة جسدية قد تُحتقر عند بعض الناس، وهو «كأن رأسه زبيبة»، أي مُجَعَّد الشعر للغاية، ومع ذلك أوجب السمع والطاعة له؛ وقد علّق ابن حجر العسقلاني على هذا الحديث في فتح الباري بقوله: "فيه الحث على الطاعة لمن تولّى الإمرة، وإن كان في غاية النقص في صورته، لأنه لو لم يُطع لاختلَّ النظام"^{٦١}.

فالغرض التربوي الأسمى هنا هو ترسيخ ثقافة الطاعة والنظام، التي تضمن وحدة الجماعة واستقرارها، بعيداً عن نوازع التفرقة العرقية أو القبلية. ومن ثم، فإن دعوة النبي ﷺ لا تنفصل عن جوهر الرسائل السابقة التي هدفت إلى بناء مجتمعات عادلة قائمة على المساواة، كما جاء في رسالة موسى عليه السلام في مقاومة الاستعباد الفرعوني، أو دعوة عيسى عليه السلام لإحياء القيم الإنسانية في أوساط يهودية طبقية متحجرة.

^{٥٥} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٥٠.

^{٥٦} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١٠: ١٢٠.

^{٥٧} انظر: تقدّم في الفصل الثالث بحثه حول المقارنة بين أهداف التربية الاجتماعية في الإسلام والغرب.

^{٥٨} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ٥٩.

^{٥٩} البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ٧: ٦٢ (٧١٤٢).

^{٦٠} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١٠: ١٢٠.

^{٦١} انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ١٣: ١٢٠.

وهكذا تتلاقى دعوة النبي الخاتم ﷺ مع مسار الأنبياء في التربية الاجتماعية القائمة على تحرير الإنسان من أوهام العنصرية والاستعلاء الاجتماعي، واستبدالها بمنظومة تقوم على الطاعة لله ورسوله، وتحقيق مقاصد العدل والوحدة، باعتبارها أصولاً في التربية النبوية الشاملة. وهذا يوافق القاعدة التربوية التي وضعها النبي ﷺ في قوله: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^{٤٦٢}، وهو أصلٌ تربوي يُحدّد حدود الطاعة بالشرع لا بالهوى، ويبيّن أن الطاعة المشروعة في الإسلام ليست مطلقة، بل مرتبطة بموافقتها لحدود الله تعالى وشريعته. وعلى خلاف ذلك، فإن التربية الوضعية في النظم المعاصرة كثيراً ما تغرس الطاعة كمُطلقٍ دون اعتبار مرجعيّتها الشرعيّة، مما يُفضي إلى إنتاج سلوكيات تتبع النظام من غير تمييز بين العدل والظلم، أو الحق والباطل^{٤٦٣}.

فالتربية الغربية، تُؤسّس مفاهيم الطاعة والسلطة على مفاهيم نسبية، تُكرّس ولاء المواطن للنظام، ولو كان النظام فاسداً أو مفرطاً في القيم. وقد نبّه ابن تيمية إلى خطورة هذا التوجّه حين قال: "الملك لا يقوم إلا بالعدل، والناس إذا اجتمعوا لا بد لهم من إمام، فإن لم يُقم فيهم العدل، قامت فيهم الفتن"^{٤٦٤}. وتُرسّخ التربية النبوية مبدأ الرقابة الذاتية، حيث لا يُعَوّل على السلطة الخارجية وحدها، بل يُنشأ الفرد على محاسبة نفسه والتزام العدل ولو خفياً، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾^{٤٦٥}. وهي دعوة إلى أن يكون العدل خُلُقاً أصيلاً في الضمير، لا مجرد التزام قانوني شكلي. وقد جاء هذا المعنى جلياً في قول النبي ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»^{٤٦٦}.

^{٤٦٢} أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط، رقم الحديث: ١٠٩٨ وحديث «اسمعوا وأطيعوا...»، و رقم الحديث: ١٠٩٥ وحديث «لا طاعة لمخلوق...»، وصححه الأرنؤوط. انظر أيضاً: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ١: ٢٠٦، حيث قرر هذا الأصل بقوله: "الواجب طاعة الله ورسوله، وأما من سواهما فإنما يُطاع إذا أمر بطاعة الله".

^{٤٦٣} انظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ١: ٢٠٦، حيث قرر هذا الأصل بقوله: "الواجب طاعة الله ورسوله، وأما من سواهما فإنما يُطاع إذا أمر بطاعة الله".

^{٤٦٤} انظر: ابن تيمية، السياسة الشرعية، ١٥٩.

^{٤٦٥} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ١٣٥.

^{٤٦٦} مسلم بن الحجاج، الصحيح، كتاب الأفضية، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة، ٣: ٥٥٣ (١٧١٣).

وقد علّق النووي على هذا الحديث قائلاً: "فيه أن حكم الحاكم لا يُبيح الحرام على من علم أنه غير مستحقّ له في نفس الأمر"^{٤٦٧}، مشيراً إلى أن الحكم الظاهري لا يغيّر من الحقائق في ميزان الله، مما يدل على تعظيم الإسلام لرقابة الضمير في التزام العدل والحق. وإذا تأملنا في وثيقة المدينة، نجد أنها مثّلت مشروعاً تربوياً مدنياً يؤسّس لمواطنة تقوم على التعددية والعدالة، لا على الاستعلاء أو الطبقية، كما ذكر ابن هشام: "وكان مما اشترط رسول الله ﷺ في تلك الصحيفة، أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"^{٤٦٨}.

بناءً على ما سبق؛ فإن القصص القرآني لأولي العزم يقدّم نماذج حية لتربية الإنسان على الحق، ولو خالف السلطة أو القوم، بعكس النماذج الغربية التي تُنتج مواطناً مطيعاً للدولة، لا لله ﷻ. وهذا يُلزم المربين والعلماء اليوم بالرجوع إلى التربية النبوية، التي تُخرج الإنسان من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق، وتجعله فاعلاً في الإصلاح لا تابعاً للواقع. وقد لخص مالك بن أنس هذه الرؤية بقوله: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"^{٤٦٩} وهو تأكيد على مركزية النموذج النبوي في أي مشروع تربوي ناجح.

خلاصة القول:

يُشكّل مفهوم الغاية من التربية أحد الفروق الجذرية بين الرؤية الإسلامية والرؤية الغربية للإنسان والمجتمع. فبينما تنطلق التربية الإسلامية من تصور وجودي يجعل التزكية وتحقيق العبودية غايةً عليا، تركز التربية الغربية على أسس مادية نفعية تهدف إلى دمج الفرد في النظام الاجتماعي والسياسي بوصفه "مواطناً صالحاً" بمعايير الدولة، لا بمعايير القيم المطلقة. ومن خلال تحليل رؤى المفكر المسلم محمد نقيب العتاس وغيره، يتضح أن جوهر التربية في الإسلام هو بناء الإنسان العادل، الذي يؤدّب نفسه، ويتحقق بأمانة الميثاق الأول، ويصبح بذلك إنساناً صالحاً بكل ما تحمله الكلمة من دلالة فطرية، وشرعية، ومجتمعية.

^{٤٦٧} انظر: النووي، المنهاج، ١٢: ١٠.

^{٤٦٨} انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ١٤٧.

^{٤٦٩} انظر: الشاطبي، الاعتصام، ١: ٤٨.

يتّضح من النصوص الشرعيّة أن التربية الربانية لا تجعل المال غاية، بل وسيلة لتحقيق العبودية، بخلاف النظرة الغربية التي تنظر إلى المال كغاية اقتصادية محضة. فالمؤمن يُربّى على أن المال "أمانة" و"استخلاف"، لا تملكاً دائماً، وهذا يوّلّد رقابة ذاتية، وعدالة اجتماعية، واستعمالاً مسؤولاً للمال، وهو ما يميّز التصور الإسلامي للتنمية عن المفهوم المادي الغربي القائم على التملك المطلق والريح الفردي. وقد تميز المنهج التربوي لأولي العزم من الرسل ﷺ بكونه دائرة فاضلة تتكامل فيها عناصر التزكية والتعليم والتبليغ، حيث تُفضي كل مرحلة إلى الأخرى في تتابع بناء يرسّخ القيم الإيمانية ويُفعّلها في الواقع العملي. فكانت دعوتهم تبدأ بتزكية النفوس وتطهيرها من شوائب الشرك والهوّى، كما قال تعالى في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^{٤٧٠}، ثم ينتقلون إلى تعليم الكتاب والحكمة كما في وصف مهمة النبي محمد ﷺ: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^{٤٧١}. وبعد ذلك، تأتي مرحلة التبليغ والتفعيل المجتمعي، حيث تُترجم القيم إلى نظم وسلوك ومؤسسات.

وبهذا، فإن التربية النبوية لا تدور في دائرة مفرغة من التنظير المجرد أو الشعائر المنفصلة عن الواقع، بل تشكّل حلقة مثمرة تبدأ بإصلاح القلب وتنتهي بعمارة الأرض، في توافق تام بين الإيمان والعمل، بين العقيدة والعمران، وهو ما أشار إليه مالك بن نبي في نقده للمنظومات التربوية المادية، حين قال: "إن الحضارة الغربية أخرجت الإنسان من الدين إلى المادة، ومن التزكية إلى الإنتاج البحث"^{٤٧٢}.

المطلب الثالث: النتائج التربوية في ضوء المقارنة بين التربية الربانية والتربية الغربية

بعد استعراض النماذج التربوية في قصص أُولي العزم من الرسل ﷺ، ومقارنتها بالمبادئ التي تُشكّل أساس التربية الغربية المعاصرة، يمكن استخلاص جملة من النتائج التي تُحدّد معالم الفروق الجوهرية بين النموذجين، وترسم خارطةً تربوية للمستقبل الإسلامي.

^{٤٧٠} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٩.

^{٤٧١} القرآن الكريم، سورة الجمعة ٦٢: ٢.

^{٤٧٢} انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ٨٧.

أولاً: المرجعية التربوية: تقوم التربية النبوية على الوحي مصدرًا للمعرفة والهداية، فترتبط العملية التربوية بالرباط الغيبي الذي يمنحها البصيرة والسمو، خلافاً للتربية الغربية التي تفصل الدين عن التعليم، وتعتمد العقل الإنساني وحده، مما يجعلها خاضعة للنسبية، وقابلة للتبدل بحسب الأهواء والضغوط الأيديولوجية. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^{٤٧٣}، وهذه الهداية التربوية لا يمكن أن تتأتى من الفكر البشري المجرد.

ثانياً: غاية التربية: تهدف التربية الربانية إلى تحقيق العبودية لله، وتركيز النفس، وتحرير الإنسان من الخضوع لغير الله، بينما تسعى التربية الغربية إلى تشكيل مواطن منتج، نافع اقتصادياً، ومنضبط إدارياً، لكنها لا تعني بجوهره الروحي أو مآله الأخروي. وهذا ما يفسر لماذا تخرج المؤسسات الغربية علماء ومهندسين وأطباء، لكن في بيئة تشهد أعلى نسب الانتحار، والتفكك، والعدمية الوجودية.

ثالثاً: وسائل التربية وأساليبها: يركز النموذج الرباني على القدوة النبوية، والهجرة الروحية، والتدريج، والتركيز القلبية، والربط بين القول والعمل. بينما تُركّز المناهج الوضعية على النظام والانضباط والسلوك الظاهري، مع انفصال عن الروح، فيتحوّل المتعلم إلى آلة تتفاعل مع القوانين لا مع القيم.

رابعاً: الناتج التربوي: تُنتج التربية الربانية إنساناً صالحاً، مستقلاً في ضميره، منضبطاً بأمر الله ﷻ، يحمل رسالة، ويتفاعل مع الكون باعتباره أمانة. أما التربية الغربية، فتركّز على "الوظيفي" و"المواطني"، مما يفرز أفراداً ينجحون خارجياً ويهزمون داخلياً، لأنهم لم يتعرفوا على الغاية الكبرى لوجودهم.

من هنا، فإن التوصيات التربوية التي يمكن البناء عليها من البحث المتواضع فهي:

أولاً: ضرورة إعادة مركزية الوحي في المناهج التربوية الإسلامية، واستلهاج النماذج النبوية في صياغة شخصية المتعلم؛ ثانياً: تحويل غاية التربية من الإنتاجية المادية إلى التركيز الإنسانية، دون إلغاء الاحتراف، بل توجيهه بقيم العبودية؛ ثالثاً: الاهتمام بتربية الوجدان والضمير كمدخل أساسي لبناء الإنسان الفاعل، وليس الاكتفاء بتلقين المعلومات أو تعليم المهارات؛ رابعاً: استحضار الهجرة كرمزٍ للتحوّل النفسي والاجتماعي في العملية التربوية، لتجاوز واقع

^{٤٧٣} القرآن الكريم، سورة الأنعام ٦: ١٦١.

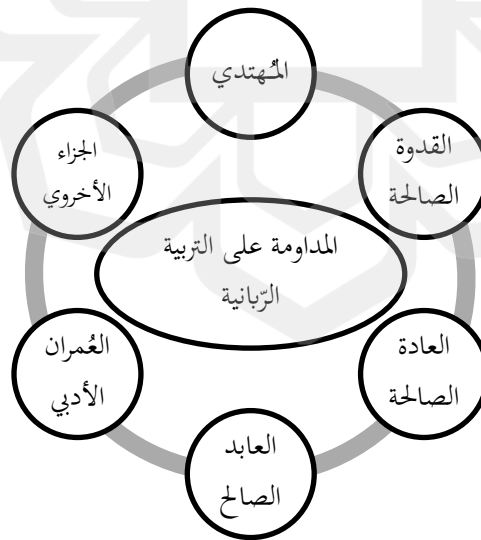
الفساد والتشوه التربوي، خامسًا: العودة إلى السيرة النبوية ووصايا أولي العزم من الرسل باعتبارها أصولًا في صياغة فلسفة التربية المعاصرة، وتحريرها من الاستلاب اللغوية للنماذج الغربية التي قدّمت إنجازًا ماديًا، لكنها فشلت في صناعة الإنسان الرباني.

بناءً عليه، يتأكد أن التربية في الإسلام ليست مجرد مؤسسة تعليمية، بل مشروع حضاري متكامل، يربط الأرض بالسماء، والفرد بالجماعة، والعلم بالعمل، ويهدف إلى تخرج خليفة في الأرض، لا مجرد موظف في النظام.

المداومة على التربية في معالجة الانحراف: رؤية تربوية مقارنة بين الإسلام والغرب

أ. المداومة على التربية الصالحة تُجسّد نموذجًا دائريًا متكاملًا في التربية الربانية

يعرض هذا الشكل الدائرة الفاضلة للتربية الربانية التي تتكامل فيها عناصر الإصلاح الروحي والسلوكي والاجتماعي. تبدأ هذه الدائرة ب: القدوة الصالحة، ثم العادة الصالحة، يتكوّن منها العابد الصالح، فيسهم في العمران الأدبي، ثم يُثاب على ذلك بالجزاء الأخروي؛ وتؤدّي هذه الرحلة التربوية إلى المهتدي الذي يسير في طريق الله، ويهدي غيره، فيتكرر الخير.

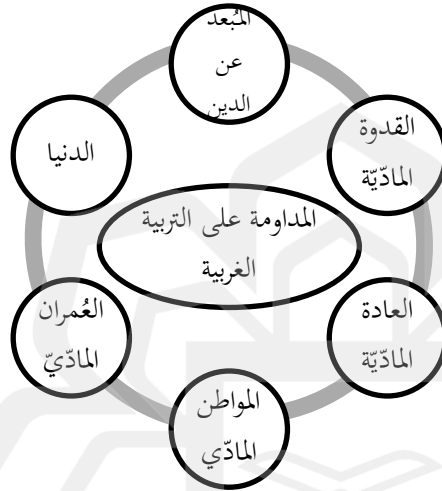


تُمثّل المداومة في التربية الصالحة أحد مظاهر النموذج الدائري المتكامل في التربية

الربانية، الذي يربط بين التعليم والتزكية والسلوك.

ب. المداومة على التربية الغربية تُظهر نموذجًا دائريًا مفرغًا من المضمون

يمثل الشكل أعلاه دائرة مفرغة تعكس المداومة التربوية في النمط الغربي الحديث، حيث تدور العملية التربوية حول محاور مادية مغلقة، تبدأ من البُعد عن الدين وتنتهي به بالانغماس في الدنيا. وتتشكل هذه الدورة من حلقات متتالية، مثل: القدوة المادية، والعادة المادية، والمواطن المادي، والعمران المادي، ثم الانشغال بالدنيا، وكل ذلك يعود إلى أصل البُعد عن الإيمان بالله تعالى.



تتجلى المداومة في التربية الغربية في صورة نموذج دائري مفرغ لا يؤدي إلى غايات تربوية حقيقية.

خلاصة الفصل:

يتبين من خلال النصوص الشرعية أنّ التربية الاجتماعية في الإسلام تحتل مكانة جوهرية في بناء الفرد والمجتمع، وتنسجم تمامًا مع مقاصد القرآن والسنة. وقد كان لوجود أولي العزم من الرسل ﷺ في هذا المجال أثرٌ عظيم في تحقيق تلك المقاصد، ومن أبرزها: التوحيد، وتبليغ الرسالة وبيانها، وتعليم الكتاب والحكمة، والتزكية والتأديب، وتحمل أمانة الاستخلاف في الأرض، وعمارتها بالعدل. وفي المقابل، فإن غياب هذا الدور أو الانحراف عنه يؤدي إلى اضطراب اجتماعي وأخلاقي، ويُفضي إلى انتشار الظلم، والجشع، والفساد.

ويُظهر تحليل كل من ابن خلدون وسيد محمد نقيب العتاس أن مظاهر الترف والفساد والتكالب على المال ليست مجرد مظاهر مادية، بل هي ناتجة عن انهيار العملية

التربوية، وفقدان الأدب، وذهاب روح المسؤولية والعدل والصدق؛ فالمجتمع حين يفقد نسقه التربوي يفقد توازنه الأخلاقي والاجتماعي.

وعليه، يُدرك الباحث أن المنهج التربوي عند أولي العزم من الرسل لا يقوم على تعليم نظري مجرد أو منفصل عن الواقع، بل يُجسّد منظومة تربوية تكاملية تبدأ من مصدر الوحي، ثم تتجسّد في القدوة النبوية العملية، وتنتقل إلى ساحة التربية السلوكية المؤثرة في إصلاح الفرد والمجتمع، لينتج عنها آثار اجتماعية وأخلاقية تعود لتغذي الإيمان وتعميقه من جديد.

ومن هنا، فإن هذا البحث يقترح تحليل هذا المسار التربوي ضمن إطار مفاهيمي

جديد يُسمّى: **مداومة أولي العزم من الرسل على التربية الصالحة.**

(The Sustained and Consistent Practice of the *Ulu' al-'Azm* Messengers in *Tarbiyah Sālihah*).

ومن أبرز ما تتميز به التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ أنها ليست عملية خطية تبدأ وتنتهي، بل هي حركة دائرية متصلة، يُقصد بها: "الحركة المتواصلة التي تبدأ بالوحي، ثم تنتقل إلى القدوة العملية، ثم إلى التربية السلوكية، فتؤثر في بناء الأدب الاجتماعي، وتنتج آثاراً خلقية واجتماعية، تعود بدورها لتغذي الإيمان وتعزز الارتباط بالوحي من جديد". وهذا النموذج التربوي الدائري هو ما يجعل منهجهم قائماً على المداومة والتجدد، لا على التكرار الآلي أو التأثير المؤقت، مما يبرز عمق "التربية الصالحة" في مشروعهم البنائي الاجتماعي والروحي.

يمكن القول: بخلاف الدائرة المفرغة التي تسود بعض النظم التربوية البشرية، حيث يتكرّر فيها الانحراف والاضطراب، فإنّ منهج أولي العزم من الرسل يُنتج دائرة فاضلة من البناء الروحي والعلمي والاجتماعي، تبدأ من إخلاص العبودية لله ﷻ، وتنتهي بعمارة الأرض بالحق والعدل.

يمثل النموذج دورة تربوية إيجابية ببناء، على النقيض من حلقة مفرغة^{٧٤}؛ التي تُنتجها قوى الكفر والفساد، كما في قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ

^{٧٤} يُستخدم مصطلح "الدائرة المفرغة" أو "الحلقة المفرغة" (The Vicious Circle) للدلالة على وضع سلبي متكرر يصعب الخروج منه، حيث يؤدي كل عنصر فيه إلى الآخر في تسلسل دائري يعيد المشكلة إلى بدايتها دون تحقيق نتيجة تُذكر ويُعبّر هذا المصطلح عن الجهد غير المثمر، والعمل الذي لا يفضي إلى نتائج، مما يُفضي إلى آثار سلبية على

فَأَعْرِضْ لَهُمْ أَجْمَعِينَ^{٤٧٥}، وقد تكررت في سِير الأمم السابقة عناصر الاستخفاف بالرسَل، ورفض القدوة، وتكريس الانحراف الاجتماعي، مما أَدَّى إلى الطمس والهلاك الجماعي. وبهذا النموذج التحليلي، يسعى هذا البحث إلى تتبُّع مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على التربية الصالحة، من خلال العادات والممارسات التربوية والاجتماعية التي جسَّدوها باعتبارهم أنموذجًا للقدوة الصالحة في تربية المجتمعات وتحقيق العمران الأدبي، وذلك في ضوء نصوص الوحي من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهَّرة.

أ. مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على التربية الصالحة في ضوء القرآن والسنة

المداومة التربوية التي تُظهر نموذجًا دائريًا في العادات الصالحة

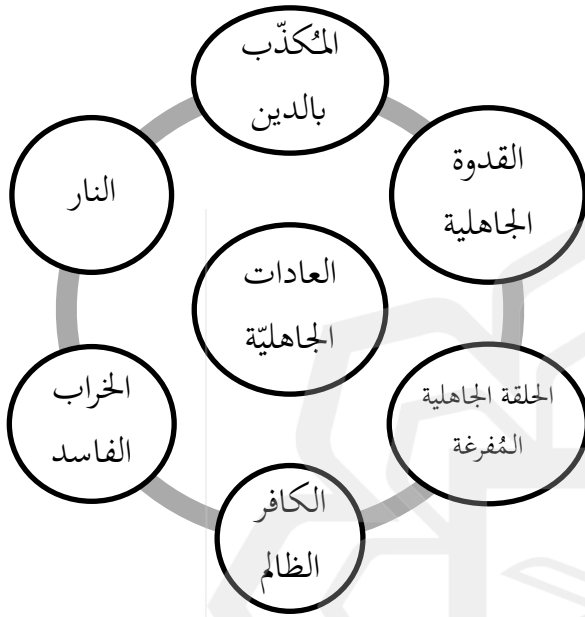


المداومة في التربية الصالحة-الاستمرارية في تركية النفس- التعليم الرباني المتواصل- الصبر والمصابرة على الدعوة- العادات الصالحة

الإنتاجية والأثر التربوي. انظر: أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ٣: ٣٧٤٢، مادة: (ف ر غ) . انظر: أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: إنجليزي-فرنسي-عربي، ٤٥٩. ^{٤٧٥} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٧٧.

ويُجسّد هذا النموذج فكرة الحلقة التربوية الدائمة المتولّدة من القدوة الصالحة^{٤٧٦}، حيث يُمثّل دورة تربوية إيجابية تُسهم في بناء الفرد الصالح والمجتمع المعمور بالهداية والرشد.

ب. المداومة التربوية التي تُظهر نموذجًا دائريًا للعادات الجاهلية



في مقابل النموذج الربّاني الذي يتجلّى في تربية أُولي العزم من الرسل ﷺ، تُقدّم الصورة المرفقة نموذجًا دائريًا للعادات الجاهلية، يقوم على سلسلة من العناصر المتصلة التي تبدأ بـ المُكذّب بالدين، وتُمرّ بالقدوة الجاهلية، والحلقة الجاهلية المداومة أي: الحلقة المفرغة، والكافر الظالم، والخراب الفاسد، لتنتهي إلى النار.

الحلقة الجاهلية المفرغة- التكرار في الإعراض والعصيان- الجهل المتوارث جيلاً بعد جيل- التماذي المستمر في الرفض والتكذيب- العادات الجاهليّة

ويُجسّد هذا النموذج ما يُمكن تسميته بـ "الحلقة الجاهلية المفرغة"، حيث تتكرر الانحرافات وتتجدد بفعل القدوة السيئة، والعادات المتوارثة، وغياب التزكية والتعليم الرباني، مما يُنتج بيئة اجتماعية مريضة تغيب عنها الهداية، ويستفحل فيها الظلم والفساد.

^{٤٧٦} يمكن استخدام عبارة "الدائرة الفاضلة" أو "الحلقة المثمرة" عند الحديث عن التربية النبوية لأُولي العزم من الرسل، إذ تدلّ على منهج تربوي متكامل يُنتج آثارًا إيجابية متتابعة في النفس والمجتمع، ويؤدي إلى بناءٍ متصاعد في العقيدة والسلوك والعمران.

الفصل الخامس

وسائل التربية الاجتماعية وأساليبها عند أولي العزم من الرسل ﷺ

تمهيد

شهد العالم المعاصر، خصوصاً في المجتمعات المادية، تدهوراً أخلاقياً واجتماعياً ملحوظاً، نتيجة استبعاد الدين من الحياة، كما أشار سعيد بن ناصر الغامدي إلى أن أبرز مظاهر الانحراف في هذه المجتمعات تتمثل في محاربة الدين واستبدال القيم الربانية بقيم مادية مطلقة، مما أدى إلى انحرافات عقدية وأخلاقية واجتماعية، كما هو ظاهر في الحضارة الغربية الحديثة التي أفرغت الحياة من الإيمان وملأها بالمادية؛ يقول الغامدي: "وكل تلك الانحرافات يعود إلى استبعاد الدين وإلغاء الإيمان بالله تعالى من الحياة".^١

بالإضافة إلى ما ذكره حبنكة في كتابه "غزو في الصميم"، من خلال توصيات المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي عام ١٩٧٧م بمكة المكرمة، حيث أثبتت اللجنة أن العلوم الاجتماعية التي تُدرّس في جامعات الدول الإسلامية غالباً ما تعكس صورة متأثرة بالنظم الغربية؛ فالمدرسون يعتمدون على أساليب تدريس غربية دون أن يتلقوا تدريباً إضافياً كافياً في مجال الإسلاميات، وغالباً ما يكونون قد تشبّعوا بالآراء والنظريات الأجنبية، في حين أن الكتب الدراسية إما أنها نفس الكتب المستخدمة في الجامعات الغربية، أو ترجمات لها، أو مقتبسة منها بطريقة سطحية تهدف إلى تقديم أفكار غربية بواجهة إسلامية؛ وقد أدى هذا الوضع إلى إبعاد الشباب المسلم عن دينهم، وثقافتهم، ومجتمعهم، مما تسبب في انفصام خطير أصاب شخصية الطالب المسلم، وخلق عوائق كبيرة أمام تحقيق التقدم الصحيح والتنمية السليمة في المجتمعات الإسلامية".^٢

وفي ظل هذا الانحدار، تبرز الحاجة إلى استعادة النموذج التربوي لأولي العزم من الرسل ﷺ، الذين مثلوا القدوة الربانية في تهذيب النفس وتقويم المجتمع، وتركوا آثاراً تربوية خالدة في بناء الأدب مع الله والناس. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النموذج بقوله تعالى:

^١ انظر: الغامدي، الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، ١: ٢٠٨٠.

^٢ انظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني؛ غزو في الصميم، ٣٠٠.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^٣، وعلق ابن كثير هذه الآية: "هذا ثناء من الله على من دعا إلى توحيده، وعمل صالحًا، وصرح بإسلامه؛ فهو أحسن الناس قولًا وأفضلهم حالًا"^٤. فالدعوة إلى الله تمثل أثر الوحي، والعمل الصالح يجسّد القدوة، والهوية الإيمانية ثمرة التربية. وقد أكّد المنهج النبوي على أهمية الاستمرار التربوي، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: أدومها، وإن قلّ، وقال: اكلفوا من الأعمال ما تطيقون»^٥. وعلق ابن حجر على هذا الحديث بقوله: "لأنها علامة إخلاص وثبات"^٦.

وهذا ما عبّر عنه مالك بن نبي بمفهوم "الدورة الحضارية"، التي تبدأ بشحنة روحية ناتجة عن الوحي، تُنتج إنسانًا جديدًا، يعيد بناء المجتمع على ضوء تلك الروح^٧. فالمداومة على التربية الصالحة عند أولي العزم تمثل حركة دائرية تبدأ بالوحي، وتتجسّد في القدوة، وتنتقل إلى ميدان السلوك، فتُنتج تحولًا قيميًا يعود ليغذي الإيمان من جديد^٨. وقد أشار القرآن إلى هذا المسار بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾^٩، وبين الطبري أن الاستقامة: "الثبات على طاعة الله ظاهرًا وباطنًا"^{١٠}. وهكذا يتبين أن التربية النبوية ليست مجرد وعظ نظري، بل هي حركة حيوية متصلة، تؤسّس لفهم عميق، وسلوك مستقيم. لذا تبرز أهمية الوسائل والأساليب المتبعة في التربية الإسلامية، وخاصة في مجالي العلوم الاجتماعية والتأثير الأخلاقي والديني، كما ذكر عبد الله شكري زركاسي في قوله: "إن

^٣ القرآن الكريم: سورة فصلت ٤١: ٣٣.

^٤ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧: ١٦٤.

^٥ البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ٨: ٩٨ (٦٤٦٥).

^٦ ابن حجر، فتح الباري، ١: ١٠١.

^٧ مالك بن نبي، شروط النهضة، ٦٦.

^٨ تُمثّل هذه المداومة التربوية النبوية دورةً إيجابيةً ببناء، بخلاف "الدائرة المُفرغة" التي يُنتجها الكفر والفساد، وقد أشار كل من ابن خلدون، والغزالي، والعطاس، وغيرهم، إلى مثل هذه العوامل ضمن تحليلهم لأسباب سقوط الحضارة الإسلامية، كما تقدّم بيانه في الفصل الثالث من البحث الأول إلى المبحث الرابع منه.

^٩ القرآن الكريم: سورة فصلت ٤١: ٣٠.

^{١٠} الطبري، جامع البيان، ٢٤: ٥٧.

الطريقة أهم من المادة، والمربي أهم من الطريقة، ولكن روح المربي أهم من المربي نفسه^{١١}. ولهذا، فإن العملية التربوية الاجتماعية تعتمد على تكامل الوسائل والأساليب مع التركيز على الشخصية المربية وروحها؛ فيستفيد منها في قصص أولي العزم من الرسل ﷺ مع حياتهم الاجتماعية.

بناءً على ذلك، سيتناول هذا الفصل أبرز وسائل وأساليب التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن والسنة؛ ويمكن تقسيم الحديث إلى المباحث الآتية: المبحث الأول: مفهوم وسائل التربية الاجتماعية وأساليبها في التراث الإسلامي، والمبحث الثاني: وسائل أولي العزم من الرسل ﷺ في التربية لتحقيق الآداب الاجتماعية من خلال القرآن والسنة، والمبحث الثالث: أساليب أولي العزم من الرسل ﷺ في التربية لتنمية الآداب الاجتماعية من خلال القرآن والسنة.

المبحث الأول: مفهوم وسائل التربية الاجتماعية وأساليبها في التراث الإسلامي

تتسم الحياة الاجتماعية في الإسلام بخصوصيات تنبثق من المبادئ التي وضعها الإسلام لتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات؛ فهي تستند إلى القيم والآداب الإسلامية مثل الإيمان والمحبة والعدل والتراحم والتكافل، وغيرها من المبادئ التربوية الاجتماعية العديدة الراسخة في القرآن الكريم والسنة النبوية^{١٢}. ومن هذا المنطلق، تعد وسائل وأساليب التربية الاجتماعية أدوات فعالة لترسيخ هذه القيم وتعزيزها في المجتمع الإسلامي.

ويسعى هذا المبحث إلى تقديم فهم شامل لمعنى وسائل التربية الاجتماعية وأساليبها في الإسلام، وكذلك إلى بيان أهميتها في بناء مجتمع متماسك ومستقر، وذلك من خلال

^{١١} كان عبد الله شكري زركاسي أحد قادة معهد دار السلام الحديثة جونتور (Gontor) بإندونيسيا، وبفضل الله وعونه وبركاته ثم خشوع المسؤولين؛ فجعل هذا الشعار لاعداد المدرسين روحياً وعملياً في التدريس على الطريقة المتفق عليها في في هذ المعهد. انظر: بدر بن ناصر الجبر، كيف نشرت العربية؟: تجارب لأعلام من المختصين الناطقين بغيرها في آسيا وأستراليا وأمريكا، (الرياض، مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، ٢٠٢٣)، ٥٩.

^{١٢} انظر: بلغيث الغامي، منهج التربية الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم، ٧٦، وانظر: أيمن أحمد الشمراني، "مبادئ التربية الاجتماعية في السنة النبوية وتطبيقاتها في البيئة المدرسية"، مجلة العلوم التربوية والنفسية، (جامعة جدة، كلية التربية بالملكة العربية السعودية، ج٢، ٤٤، ٣٠ يناير، ٢٠٢١)، ٤٧-٦٧.

المطلبين التاليين: المطلب الأول: معنى مصطلح الوسائل والأساليب في اللغة والاصطلاح والصلة بينهما، والمطلب الثاني: أهمية وسائل التربية الاجتماعية وأساليبها في الإسلام.

المطلب الأول: معنى مصطلح الوسائل والأساليب في اللغة والاصطلاح والصلة بينهما أولاً: تعريف الوسائل لغةً واصطلاحاً

الوسائل لغةً: مأخوذة من كلمة وسَلَّ يسِلُّ وسلاً وسيلةً وتجمع على وسيل ووسائل، وهي تدل على معنى المنزلة عند الملك، والدرجة، والقربة، والرغبة، والأداة التي يُتقرب بها لتحقيق غاية معينة^{١٣}، وقد وردت في اللغة معنى الوسيلة، أي واسطة إليه يوصل إليه عن طريقها كالوسيلة إلى الأمير، وقد تكون الوسيلة شخصاً وسيطاً، أو عملاً يكون فيه تقرب، بمعنى ما يُستخدم للتقرب إلى الله^{١٤}، كما في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^{١٥}، أي: "تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه"^{١٦}.

أما الوسائل اصطلاحاً، فهي تُعرّف على أنها ما يُستخدم لتحقيق المقصود^{١٧} أو للتقرب إلى الغير^{١٨}. قال الشنقيطي في معنى أصل الوسيلة هي: "الطريق التي تقرب إلى الشيء، وتوصل إليه وهي العمل الصالح بإجماع العلماء؛ لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله ﷺ"^{١٩}. وقد وردت كلمة الوسيلة في القرآن الكريم والسنة النبوية، منها: كما فسر الشنقيطي بأن معنى الوسيلة القربة التي تُوصل إلى مرضاة الله تعالى؛ عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^{٢٠}، أي: "اعلم أن جمهور العلماء يرون على أن

^{١٣} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ١١: ٧٢٤؛ وانظر: الرازي، مختار الصحاح، ١: ٣٠٠؛ وانظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٨٧١.

^{١٤} ابن منظور، لسان العرب، ١١: ٧٢٥.

^{١٥} القرآن الكريم: المائدة ٥: ٣٥.

^{١٦} الطبري، جامع البيان، ١٠: ٢٩١.

^{١٧} الجرجاني، التعريفات، ٢٥٢.

^{١٨} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣: ٩٤.

^{١٩} الشنقيطي، أضواء البيان، ١: ٤٠٢.

^{٢٠} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ٣٥.

المراد بالوسيلة هنا هو القربة إلى الله تعالى، بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه على وفق ما جاء به محمد ﷺ بإخلاص في ذلك لله تعالى؛ لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضى الله تعالى، ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة؛ وأصل الوسيلة: الطريق التي تقرب إلى الشيء، وتوصل إليه وهي العمل الصالح بإجماع العلماء؛ لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله ﷺ. ^{٢١} وفسر السعدي في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ^{٢٢}، أي: "يتنافسون في القرب من ربهم ويبدلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب" ^{٢٣}.

أما في السنة النبوية، فقد وردت كلمة الوسيلة بمعنى المنزلة الرفيعة في الجنة، جاء ذلك في حديث الدعاء بعد الأذان، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» ^{٢٤}. وشرح النووي الحديث بقوله: "والوسيلة فسرهما ﷺ بأنها منزلة في الجنة، قال أهل اللغة: الوسيلة أي: المنزلة عند الملك، وقوله ﷺ: «فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» أي: وجبت وقيل نالته، وفيه أن الأعمال يشترط لها القصد والإخلاص" ^{٢٥}.

من خلال الجمع بين هذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية، يتضح أن الوسيلة تمثل أداة مشروعة تُستخدم لتحقيق غاية معينة، على أن تكون منضبطة بالشرع؛ وفي مجال التربية الاجتماعية في هذا البحث تشير معنى الوسيلة إلى الطرق اللفظية والعملية المشروعة التي

^{٢١} الشنقيطي، أضواء البيان، ١: ٤٠٢.

^{٢٢} القرآن الكريم: سورة الإسراء ١٧: ٥٧.

^{٢٣} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٤٦٠.

^{٢٤} مسلم، الصحيح، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة، ١: ٢٨٨ (٣٨٤).

^{٢٥} انظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، ٤: ٨٧.

تُسهّم في تعزيز القيم والآداب الاجتماعية تُعد ركيزة أساسية في إعداد الأفراد وتنشئتهم بصورة متوازنة وصالحة.

ثانيًا: تعريف الأسلوب لغة واصطلاحًا

الأساليب لغة: مأخوذة من كلمة سلب سَلَبَ الشيءَ يَسْلُبُه سَلْبًا وسَلْبًا؛ وأسلوب بالضم ويُجمع أساليب؛ وتُعد كلمة "السلب" من الكلمات التي تحمل معاني متعددة في اللغة العربية، تنطلق من جذورها اللغوية التي تعني النزع بالقهر، كما ورد في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الدُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾^{٢٦}؛ ويتسع مفهوم السلب ليشمل معاني اللغوية، منها ما ورد في حديث أبي قتادة رضي الله عنه في غزوة حنين، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سَلَبه»^{٢٧}. حيث يُشرح السلب بأنه ما يُوجد مع المحارب من ملبوس وسلاح، كما وضحه ابن حجر العسقلاني بقوله: "السلب بفتح المهملة واللام بعدها موحدة هو ما يوجد مع المحارب من ملبوس وغيره عند الجمهور"^{٢٨}.

وفي سياق آخر، يُطلق السلب على حالات أخرى، مثل الرجل الذي يُسلب ماله أو حقوقه، أو الناقة التي تُفقد ولدها؛ وهذا يُظهر تحول المصطلح حسب السياق؛ وأما كلمة "الأسلوب"، فهي تحمل دلالة لغوية تشير إلى الطريق أو الطريقة، كما تُستخدم للإشارة إلى الفن أو المذهب في التعبير؛ ويقال: أخذ فلان في أساليب القول، للدلالة على تنوع طرقه في الحديث^{٢٩}. من هنا، يتضح أن هناك ترابطاً بين هذه المفاهيم اللغوية، حيث يشترك كل منها في فكرة "الطريق الممتد" أو "النزع"، سواء أكان ذلك نزعاً مادياً كما في السلب، أو نزعاً

^{٢٦} القرآن الكريم: سورة الحج ٢٢: ٧٣. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ١: ٤٧٣، وانظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ٨٧١.

^{٢٧} البخاري، الصحيح، المحقق: د. مصطفى ديب البغا، كتاب الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب، ومن قتل قتيلاً فله سلبه من غير أن يخمس، وحكم الإمام فيه، ٣: ١٤٤ (٢٩٧٣). قال المحقق: سلبه أي ما على المقتول من سلاح وغيره.

^{٢٨} ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٦: ٢٤٧.

^{٢٩} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ١: ٤٧٣، وانظر: أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ٢: ١٠٨٩. وانظر: إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ١: ٤٤١.

فكريًا يتمثل في أساليب التعبير. وأما الأساليب اصطلاحًا: فقد وردت تعاريف متعددة للأسلوب تختلف باختلاف العلوم والفنون، إذ يمتلك كل مجال طريقة خاصة في التعبير والتوضيح؛ كما يتفاوت الأسلوب بين الأفراد، فلكل متحدث أو كاتب نهج مميز يعكس أهدافه ومقاصده؛ وأورد الرزقاني معنى الأسلوب في الاصطلاح عند المتأدبون وعلماء العربية على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك^{٣٠}. وفي مجال الدعوة، يُعرّف الأسلوب بأنه الطرق أو الكيفيات التي يستخدمها الداعي لتطبيق مناهج دعوته وتوصيل رسالته^{٣١}؛ أما في المجال التربوي، فقد عرّف خطاب بن يعقوب السعدي الأساليب بأنها: "مجموعة الإجراءات التي يعتمد عليها المربي أو غيره بهدف إحداث تغييرات إيجابية في شخصية المتربي، بما يحقق له ولغيره النفع في الجوانب الدينية والدنيوية"^{٣٢}.

وعند الحديث عن أساليب التربية الاجتماعية في هذا البحث، فإنها تعني الطرق المشروعة لاختيار الألفاظ التربوية وتنظيمها بطريقة تُعزز القيم والآداب الاجتماعية، وتهدف هذه الأساليب إلى الابتعاد عن التطرف والانحلال، مع تقديم التربية بطريقة واضحة في تنشئة الأفراد تنشئة صالحة.

ثالثًا: الصلة بين الوسائل والأساليب

يواجه بعض الباحثين صعوبة في التمييز بين الوسائل والأساليب في التربية، نظرًا لاستخدام كلاهما لتحقيق الأهداف التربوية المرجوة، وقد تباينت آراء المتخصصين في مجال التربية والدعوة بشأن العلاقة بين الأساليب والوسائل؛ كما ذكر نصر الدين بن محمد بلقاسم الجزائري في كتابه أن هناك تداخلًا بين الوسائل والأساليب من حيث المعنى اللغوي

^{٣٠} محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٥)، ٢: ٣٠٣.

^{٣١} البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ٤٨.

^{٣٢} انظر: خطاب بن يعقوب السعدي، الأساليب التربوية عند شيخ الإسلام ابن تيمية، (عمان: الدار الأثرية، ٢٠٠٨)، ١٨٠.

والاصطلاح، إذ يُعبر عن الطرق المستخدمة لتحقيق الأهداف التربوية ونقل القيم والمعارف إلى المتعلمين. ومع ذلك، يمكن التمييز بينهما في بعض الجوانب؛ فالأسلوب يُشير إلى الطريقة التي تُقدّم بها الوسيلة، بينما قد يُنظر إلى الإجراء الواحد على أنه وسيلة أو أسلوب تربوي حسب السياق^{٣٣}.

وأورد نصر الدين الجزائري مثلاً على ذلك، عندما يعتمد المربي على سلوكه الإيجابي وأخلاقه الحميدة كوسيلة لجذب المتعلمين وتحفيزهم على الاقتداء به، فإن القدوة الحسنة تُعدّ في هذه الحالة أسلوباً تربوياً؛ وفي الوقت نفسه، تصبح هذه القدوة وسيلة لتحقيق الهدف التربوي، حيث تمكّن المتعلمين من استيعاب القيم والمعارف من خلال تطبيق عملي ملموس؛ وهكذا، يمكن للقدوة أن تجمع بين كونها وسيلةً وأسلوباً في آن واحد^{٣٤}.

ثم أوضح نصر الدين الجزائري أن العلاقة بين الوسائل والأساليب التربوية هي علاقة عموم وخصوص؛ فإذا ذُكر أحدهما بمفرده، فقد يشمل مفهوم الآخر. أما إذا اجتمعا، فإن الوسيلة تُعرّف بأنها الأدوات والموارد المستخدمة لتوصيل المحتوى التربوي، بينما يُعرّف الأسلوب بأنه الطريقة التعبيرية أو الكيفية التي تُعرض بها الوسيلة لتحقيق الأهداف التربوية^{٣٥}. بناءً على ذلك، يتبين لنا الرابط الجوهرى بين الوسائل والأساليب؛ فإذا ذُكر أحدهما بمفرده، فإن الوسائل تشمل اللفظية والعملية وغيرها والتي تُستخدم لنقل المحتوى التربوي، سواء كانت مادية أو معنوية، بهدف تحقيق الأهداف التربوية. أما الأساليب، فهي تعبر عن الطرق والكيفيات التي يعتمد عليها المربي في تقديم المحتوى التربوي من خلال اختيار الألفاظ المناسبة للتعبير والإيضاح؛ وبالتالي، فإن علاقة الأسلوب بالوسيلة تشبه علاقة الجزء بالكل، حيث تُعتبر الوسيلة الإطار العام الذي يتضمن الأسلوب كعنصر أساسي لتحقيق الغايات التربوية^{٣٦}.

^{٣٣} انظر: نصر الدين بن محمد بلقاسم الجزائري، أساليب تربوية في ضوء السنة النبوية من خلال الكتب الستة ومسند الإمام أحمد، (موريتانيا: دار الإساء، د.ط، د.ت)، ٥٢-٥٥.

^{٣٤} انظر: نصر الدين الجزائري، أساليب تربوية، ٥٢.

^{٣٥} انظر: الجزائري، ٥٥.

^{٣٦} انظر: عبد الرب بن نواب الدين بن غريب الدين آل نواب، "أساليب دعوة العصاة"، مجلة الجامعة الإسلامية، (المدينة المنورة بالملكة العربية السعودية، ج ٣٣، ع ١٢٣، ١٤٣٣)، ١٤٤.

وأما المقصود بمصطلح الوسائل والأساليب في هذا البحث هو أن الوسائل أوسع نطاقاً وأكثر شمولاً من الأساليب، من حيث العموم والخصوص؛ فتشمل الوسائل جميع الطرق الكلامية اللفظية والعملية المتنوعة، التي قد تأخذ شكل الأدوات، والآلات، والأوعية الحسية أو المعنوية، وغيرها. أما الأساليب، فهي تركز بشكل رئيسي على الطرق الكلامية، مع الاهتمام باختيار الألفاظ المناسبة للتعبير والإيضاح.

المطلب الثاني: أهمية وسائل التربية الاجتماعية وأساليبها في الإسلام

تُعد التربية الاجتماعية جزءاً لا يتجزأ من التربية الإسلامية وهي وسيلة لتحقيق الأهداف التربوية في الإسلام؛ حيث إن حكم الأساليب يعتمد على مقاصدها، فإنها تُعد جزءاً من الوسائل التي تخضع لحكم المقاصد التربوية العليا. لذا، فإن المربي يجد أمامه تنوعاً واسعاً من الأساليب غير المحصورة، سواء في أساليب التربية النبوية أو ما تناقله العلماء والصالحون من تجاربهم وآرائهم، وكذلك في الأساليب الحديثة التي تتسم بالمرونة والابتكار؛ ومع ذلك، فإن استخدام الأساليب يجب أن يكون موافقاً للضوابط الشرعية؛ فلا يجوز اللجوء إلى أساليب غير مشروعة لتحقيق الأهداف، حتى وإن كانت هذه الأهداف نبيلة؛ فالغاية لا تبرر الوسيلة إذا تعارضت مع القيم والمبادئ التربوية المحمودة^{٣٧}.

تتمثل مهمة المربي في نقل المعرفة وتعميقها في نفوس الأفراد، مع تحفيزهم على التمسك بالقيم الفاضلة والأداب الرفيعة، وتحذيرهم من الانزلاق إلى الشرور والأخطار بمختلف أشكالها. ولتحقيق ذلك، يتطلب الأمر تبني أساليب تربوية متنوعة ومتوازنة، وقد تتناسب مع خصائص كل متربي، مثل عمره، ثقافته، ميوله ورغباته، سلوكياته، وأوضاعه الاجتماعية في الأسرة، المدرسة، والمسجد، فضلاً عن البيئة التي يعيش فيها؛ كما يجب مراعاة استعداداته الفطرية والاجتماعية، وصحته النفسية، والتحديات التي قد يواجهها في حياته اليومية.

إن وضع خطة تربوية فعالة يتطلب مراعاة هذه العوامل كافة، واختيار الوسائل والأساليب التي تساهم في تنشئته تنشئة سليمة، وتعد البيئة من العوامل المؤثرة في تشكيل

^{٣٧} انظر: خطاب السعدي، الأساليب التربوية، ١٨٠.

شخصية المتعلم، إذ تساهم في تحديد صفاته وميوله، كما أشار ابن تيمية إلى أن العلم شيء، والقدرة على التعبير عنه والاحتجاج له شيء آخر، معتبراً أن العلم، وبيانه، والمناظرة حوله، وتقديم الأدلة والرد على المخالفين، جميعها مهارات منفصلة تتطلب إلماماً عميقاً؛ حيث قال: "ليس كل من وجد العلم قدر على التعبير عنه والاحتجاج له؛ فالعلم شيء، وبيانه شيء آخر، والمناظرة عنه وإقامة دليله شيء ثالث، والجواب عن حجة مخالفه شيء رابع!"^{٣٨}.

من هنا فقد أكد العلماء على أهمية الوسائل والأساليب في التربية، من خلال ربط الأسباب بالمسببات، مع إفساح المجال لاستخدام الوسائل غير المحرمة، لأنها تتنوع بحسب الظروف الزمنية والمكانية^{٣٩}؛ ولذا؛ إن اختيار الوسائل والأساليب بعناية فائقة في مجال التربية مهم، لأن استخدام وسائل وأساليب فاسدة قد يؤدي إلى الانحراف عن الهدف الصحيح؛ كما أن التنوع في الوسائل والأساليب التربوية يعكس اختلاف احتياجات الأفراد والمجتمعات باختلاف الأزمنة والأمكنة، مما يجعل عملية اختيار الوسائل والأساليب عملية متعددة تتطلب جهداً مستمراً لضمان تحقيق الأهداف التربوية، فالمرابي لا يستطيع تحقيق أهدافه الاجتماعية إلا باستخدام وسائل وأساليب مناسبة، لأن الله ربط الأسباب بالمسببات وأمر باتخاذ الوسائل والأساليب لتحقيق الغايات^{٤٠}.

بناءً عليه، لا بد من معرفة وسائل وأساليب التربية الاجتماعية في الإسلام لمراعاة الفروق الفردية واختيار الوسائل والأسلوب الأنسب وفقاً للموقف، والزمان، والمكان، لتناسب كل شخص ومرحلة من مراحل تعلمه؛ مع مراعاة الأهداف الرئيسية في التربية الاجتماعية في الإسلام؛ فهي تربية لإعداد العابد الصالح وإقامة المجتمع المسلم، وإخراج الأمة الإسلامية^{٤١}.

لا شك فيه، أن مساهمة الباحثين في مجال التربية الإسلامية في التراث الإسلامي عظيمة للغاية في الكشف عن وسائل وأساليب التربية، منها: ما أورده خالد بن عبد الله

^{٣٨} أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية، المحقق: محمد عزيز شمس، ط ٣، (الرياض: دار عطاءات العلم، ١٤٤٠)، ٤٤.

^{٣٩} أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٤٦)، ٤: ٣٤.

^{٤٠} البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ٢٨٢.

^{٤١} انظر: الكيلاني، الفكر التربوي، ١٠٧.

القرشي، الذي ذكر إحدى عشرة وسيلة تربوية متنوعة، منها: التربية بإثارة الانتباه عن طريق التشويق وحب الاستطلاع، التربية بالمحاورة الهادئة عبر السؤال والجواب، التربية بالموعظة، التربية بالرحمة والرفق بالمتعلمين، التربية بالحرص على مراجعة أحوال المعلمين وقدراتهم، التربية بالإرشاد إلى أنواع الخير والحث على القيام بها حسب القدرة، التربية بضرب الأمثال لتوضيح الأفكار وزيادة الانتباه، التربية بالقدوة، التربية بالترغيب والترهيب، التربية بالقصة، والتربية بالمواقف والأحداث^{٤٢}.

ثم جاءت أساليب نصر الدين الجزائري في مجال التربية الإسلامية، حيث قسمها إلى قسمين: الأساليب التربوية اللفظية والأساليب التربوية العملية. أما الأساليب التربوية اللفظية عند نصر الدين الجزائري، فهي الأساليب التي تُستخدم عبر وسائل الاتصال الشفهي للتعبير عن الأفكار والمشاعر التي تجول في ذهن المتحدث، وذلك من خلال الكلمات والأصوات والقواعد النحوية التي تحمل معاني محددة. وتشمل هذه الأساليب تسع وسائل، وهي: التربية من خلال الموعظة، التربية بالترغيب والترهيب، التربية بالحوار والإقناع، التربية بمراعاة مقتضى الحال، التربية بإعادة الكلام وتكراره، التربية بالتفصيل عند الحاجة، التربية بأسلوب الاستفهام لاستحضار الفهم، التربية بالثناء والتشجيع، والتربية بأسلوب التعريض بدلاً من التجريح^{٤٣}. وأما الأساليب التربوية العملية عند نصر الدين الجزائري، فهي الأساليب التي تعتمد بشكل رئيسي على الجوانب العملية، وإن كان يُستخدم فيها اللفظ أحياناً. وتشمل هذه الأساليب ثماني وسائل، وهي: التربية بالقدوة الحسنة، التربية بضرب الأمثال، التربية بالقصص النافع، التربية بالممازحة والملاطفة، التربية بأسلوب الثواب والعقاب، التربية بأسلوب الإثارة الوجدانية، التربية بالممارسة العملية والمحاكاة، والتربية باستخدام الأساليب الحسية لتوضيح المعاني^{٤٤}.

وقد تضمنت الأساليب التربوية التي تُعنى بالجانب الاجتماعي العديد من الممارسات التي تعزز القيم الاجتماعية؛ ومن أبرز تلك الأساليب ما أورده خطاب بن يعقوب السعدي، ومنها: التعاون والاجتماع لتحقيق الخير ودفع الشر، الاستفادة من خبرات الآخرين

^{٤٢} انظر: خالد بن عبد الله بن مُسلم القرشي، **تربية النبي ﷺ لأصحابه ﷺ**، (الرياض: دار المنهاج، ١٤٣٣)، ٥٦.

^{٤٣} انظر: نصر الدين الجزائري، **أساليب تربوية**، ٣٢-٣٣.

^{٤٤} انظر: الجزائري، **أساليب تربوية**، ٣٣٤.

ومعارفهم، التميز عن غير المسلمين فيما هو من خصائصهم، المحافظة على الهوية الإنسانية، إظهار الخير قولاً وعملاً، التميز والاعتراف بالشخص أو الشيء بناءً على خصائصه الإيجابية، ونبذ العنصرية والفرقة على أساس العرق أو اللون؛ كما تشمل الأساليب التربوية النصيحة وتغيير المنكر بوسائل متعددة، منها: التغيير العملي باستخدام اليد عند الضرورة، فرض العقوبات التربوية كالردع البدني للمفسدين عند الحاجة، منع الجهلاء من الفتوى في أمور لا يعلمونها، تقديم النصيحة السرية لأصحاب القرار وكبار القوم، مكاتبتهم بما يحقق الإصلاح، مواجهة الظلم والصدع بالحق، مع مراعاة الحكمة في تقديم النصيحة^{٤٥}.

ثم جاءت أساليب محمد خليل محسن الديسي في مجال التربية الاجتماعية الإسلامية، ومنها: القدوة الحسنة، الموعظة الحسنة، التفكير وقيام الليل، العزلة والاختلاء، التربية والتعليم، والتوبة، والحوار والمناظرة، والرحلة والارتحال، والمجاهدة؛ كما أضاف محمد الديسي خصائص فريدة لأساليب التربية الاجتماعية الإسلامية، منها: الربانية، والعقلانية، والتدرج والتوجيه، والإنسانية، والتوسط والاعتدال، والوظيفية، والشمولية، والإيجابية، وكونها واقعية تراعي الخصائص النفسية للفرد وتدعو إلى الالتزام، كما تتميز هذه الأساليب بأنها أخلاقية ومتكاملة^{٤٦}.

خلاصة القول:

تتجلى أهمية وسائل وأساليب التربية الاجتماعية في الإسلام من خلال دورها في تحقيق نتائج شاملة ومتوازنة، ويرى الباحث أن هذه الوسائل والأساليب تتكامل وتترابط فيما بينها، فتساهم مجتمعةً في تحقيق الأهداف التربوية المنشودة؛ فلكل وسيلة وأسلوب منها تأثير فريد ومتكامل، ولا يمكن الاستغناء عن أي منها. ومن هذا يمكن القول بأنه لا ينبغي للمربي أن يقتصر على استخدام وسائل وأساليب معينة في التعامل مع جوانب معينة من التربية دون مراعاة تأثيرها في الجوانب الأخرى، بل قد يتم تفضيل بعض الوسائل والأساليب التربوية إذا ثبت أنها أكثر فائدة وتأثيراً في الجوانب الاجتماعية من غيرها، ومن هنا تأتي أهمية اختيار

^{٤٥} انظر: السعدي، الأساليب التربوية، ٨٩.

^{٤٦} انظر: محمد الديسي، التربية الاجتماعية، ٣٣٩-٣٥٦.

الوسائل والأساليب التربوية المناسبة حسب طبيعة الموقف والجوانب المراد تنميتها، وذلك لتحقيق أفضل النتائج في العملية التربوية^{٤٧}.

المبحث الثاني: وسائل التربية عند أولي العزم من الرسل ﷺ لتحقيق الآداب الاجتماعية تمهيد

لقد أولى الإسلام اهتمامًا بالغًا بالتربية على الآداب الاجتماعية، باعتبارها الركيزة التي يُبنى عليها المجتمع السليم، والأساس الذي يضمن التعايش بين الناس ضمن إطارٍ يحدد معالم السلوك في مجالات العقيدة، والشريعة، والعلاقات الاجتماعية، والتعامل مع البيئة. وقد أشار محمد خليل محسن الديسي في كتابه إلى وجود صلة وثيقة بين التربية على الآداب الاجتماعية وأفكار الأمم وعقائدها، والتي تتجلى في أنظمتها الدينية، وتشريعاتها، وعلاقاتها الفردية، والأسرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية^{٤٨}.

أكد سعيد بن ناصر الغامدي أن السلوك الاجتماعي يعكس ما استقر في النفوس من أخلاق، وأن توجيهه نحو المكارم من مقتضيات العقل والدين والفتوة. وبين أن ضعف الإيمان يؤثر سلبًا في الأخلاق الفردية والاجتماعية، إذ أدّى في الجاهلية المعاصرة إلى انحرافات خلّقية عميقة، نتيجة البعد عن عبادة الله تعالى، مما سبّب انهيار الفضائل وانتشار الرذائل. فالإيمان والعبادة يُمثّلان كمالًا خلقيًا، والشكر للخالق واجب أخلاقي، بينما الجحود والظلم والكبر مظاهر انحطاط خلقي. كما أن المجتمع المؤمن يسعى لترسيخ الفضائل، على خلاف المجتمعات الكافرة التي تنحدر أخلاقيًا، وقد أكّدت شواهد التاريخ هذا التباين الجلي في المسار والمصير^{٤٩}.

وفي ظل هذا التصور، تتعدد الوسائل التربوية التي تُسهم في تحقيق أهداف التربية الاجتماعية، ولا يمكن حصرها في إطار واحد، لما تتميز به من تنوع وثرء في المنهج القرآني

^{٤٧} انظر: خطاب السعدي، الأساليب التربوية، ١٨١.

^{٤٨} انظر: محمد خليل محسن الديسي، التربية الاجتماعية في فكر الإمام الغزالي، ٢٧٤.

^{٤٩} انظر: سعيد بن ناصر الغامدي، الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها: دراسة نقدية شرعية، (جدة: دار الأندلس الخضراء، ٢٠٠٣)، ١: ٢٠٨٠-٢١٢٠.

والنبوي. ولذا، يتناول هذا المبحث نماذج مختارة من معالم القدوة الصالحة في استخدام الوسائل التربوية التي انتهجها أولو العزم من الرسل ﷺ، والتي تسهم في ترسيخ الآداب الاجتماعية، كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ ومن أبرز هذه الوسائل ما سيتم بحثه في المطالب الآتية: المطلب الأول: التربية العقدية عند أولي العزم من الرسل ﷺ، والمطلب الثاني: التربية الشرعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ، والمطلب الثالث: التربية على العلاقات الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ، والمطلب الرابع: التربية البيئية عند أولي العزم من الرسل ﷺ.

المطلب الأول: التربية العقدية عند أولي العزم من الرسل ﷺ

تمهيد

تُعَدُّ القدوة الصالحة من الوسائل المركزية في التربية الإسلامية، وقد شكّل أولو العزم من الرسل ﷺ نماذج ربانية سامية في تطبيق التربية العقدية في واقعهم الدعوي والتربوي. ويهدف هذا المطلب إلى إبراز مظاهر هذه القدوة الصالحة من خلال استقراء النصوص القرآنية والسنة النبوية، وبيان كيف استخدم أولو العزم من الرسل الوسائل العقدية لترسيخ الإيمان بالله، وتصحيح التصورات المنحرفة، وبناء الهوية الإيمانية للأفراد والمجتمعات.

ويُعَالَج هذا المطلب المحاور الآتية: أولاً: مفهوم التربية العقدية من حيث تأصيلها وأهميتها ومجالاتها. ثانياً: نماذج من العادات الصالحة في التربية العقدية عند أولي العزم من الرسل ﷺ، بما يشمل الممارسات التربوية الثابتة والمتكررة، التي تعكس عمق الالتزام العقدي وأساليبه التربوية الفعّالة.

أولاً: مفهوم التربية العقدية

ورد لفظ "العقيدة" في اللغة من مادة "عَقَدَ" التي تدل على الربط والإحكام، كما بيّن ابن فارس بقوله: "العين والقاف والdal أصلٌ يدل على شدةٍ وثوقٍ"^{٥٠}، والعقيدة: جمعها "عقائد"، وهي ما يدين الإنسان به؛ أي ما يعقد عليه قلبه التزاماً وثباتاً، فيُقال: "له عقيدة

^{٥٠} ابن فارس، مقاييس اللغة، ٤: ٢٥١.

حسنة"، أي سالمة من الشك، و"اعتقد مألًا"، أي جمعه، فالعقيدة إذا ما يُربط عليه القلب من أفكار إيمانية راسخة^{٥١}.

وأما في الاصطلاح، وقد عرّفها العلماء بأنّها: "الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه شك، ويبنى على الدليل القطعي"^{٥٢}، فهي قناعة قلبية تامة تتعلّق بأصول الدين، وتشكّل الأساس الذي يُبنى عليه السلوك والضمير. فالعقيدة الإسلامية هي: "مجموعة الأمور الدينية التي يجب على المسلم أن يُصدّق بها قلبه، وتطمئن إليها نفسه، وتكون يقينًا عنده لا يمازجه شك ولا ريب، فإن وجد فيها شيء من ذلك كانت ظنًا لا عقيدة"^{٥٣}.

وقد بيّن الله تعالى أصول العقيدة في كتابه الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾^{٥٤}. وجاء في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين سأل جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، فقال: صدقت^{٥٥}. ويُعد الإيمان بهذه الأصول الستة هو الأساس الذي تقوم عليه التربية العقديّة؛ فهي تُعنى بغرس الإيمان الحق في القلب، وترسيخ العقيدة التي لا تقبل التزلزل أو الشك. أما التربية العقديّة، فهي الجهد المنهجي الموجّه لغرس العقيدة الصحيحة في النفوس، وإيجاد التزكية الروحية، وربط الإنسان بربه، كما يؤكد ابن القيم بقوله: "إن أصل كل خير: الإيمان بالله ومعرفته، وكل نقص وشر: منشؤه الجهل به"^{٥٦}.

وقد اعتنى القرآن الكريم بهذه التربية منذ بدايات الدعوة، فجاءت أغلب السور المكية لترسيخ العقيدة، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^{٥٧}، وهذه الآية كما ذكر

^{٥١} انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٣: ٨٦؛ وانظر: الفيومي، المصباح المنير، ٢: ٤٢١.

^{٥٢} السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ١: ٣٣.

^{٥٣} انظر: أحمد عبد القادر مكاوي، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، (بيروت: مكتبة دار الزمان، ١٩٨٥)، ٢٠.

^{٥٤} القرآن الكريم: سورة البقرة: ١٧٧.

^{٥٥} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله صلى الله عليه وسلم، ١: ٣٦، (٨).

^{٥٦} ابن القيم، الفوائد، ١٠٩.

^{٥٧} القرآن الكريم: سورة محمد ٤٧: ١٩.

الطبري تقريراً للتوحيد وضرورة البدء به قبل كل شيء^{٥٨}. ولذا فإن هذه التربية العقدية تُعدّ مقدّمة لازمة لأي تربية أخلاقية أو اجتماعية، لأن العقيدة هي المحرك الباطني للسلوك^{٥٩}. ومن جهة السنة النبوية، فقد اعتمد النبي ﷺ أساليب متعددة لغرس العقيدة، كالأُسئلة، والحوار، وضرب الأمثال، والقصص، كما في حديث جبريل الذي تضمّن أركان الإيمان الستة. وكان هذا المنهج هو اللبنة الأولى في بناء شخصية الصحابة، مما يدل على أن التربية العقدية هي الوسيلة الأولى والأهم في بناء الإنسان المسلم. جاء عند سعيد إسماعيل علي إلى أن "التربية العقدية هي القاعدة التي تنطلق منها جميع أنواع التربية الأخرى؛ فهي تضبط الاتجاهات، وتُحدّد المعايير، وتغرس الدوافع الإيمانية"^{٦٠}، فهي التي تعطي الحياة معناها، وتحدّد الغاية والمصير. ويُؤكّد حبنكة الميداني أن "الإيمان في اللغة هو التصديق، وهو في الاصطلاح: التصديق الجازم في القلب بكل ما جاء به الرسول ﷺ"^{٦١}. ويظهر من خلال استقراء النصوص القرآنية والنبوية أن جميع الرسالات السماوية، في أصولها الصحيحة، متفقة على الدعوة إلى التوحيد، والخضوع لله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^{٦٢}، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^{٦٣}. وهو ما يدل على وحدة الأصل العقدي لجميع الرسالات، قبل ما أصابها من تحريف^{٦٤}.

ولذا، فإن وسيلة التربية العقدية تُشير إلى التربية الإيمانية التي تُغرس في نفس المسلم من خلال الإقناع، والدليل، والموعظة، والأسلوب التربوي النبوي، وهي تهدف إلى الإيمان القلبي بكل ما جاء به الله تعالى ورسوله ﷺ، مع القبول، والرضا، والإذعان^{٦٥}. وبهذا يطمئن

^{٥٨} الطبري، جامع البيان، ٢٦: ٥٦.

^{٥٩} الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٩: ٢٢٣.

^{٦٠} انظر: سعيد إسماعيل علي، التربية الإسلامية: أهدافها وأساليبها، ٦٥.

^{٦١} حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ٩٣.

^{٦٢} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ١٩.

^{٦٣} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٨٥.

^{٦٤} انظر: حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية، ٩٣.

^{٦٥} لقد نقل اللالكائي عن الشافعي، حيث قال: كان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم بأن الإيمان هو قول، وعمل، ونية؛ ولا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر. انظر: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور

قلب المؤمن، وتستقيم جوارحه، ويصبح سلوكه انعكاسًا لإيمانه، مما يحقق التوازن النفسي والاجتماعي في حياته، ويُسهّم في بناء مجتمع تسوده الفضائل، وتحكمه القيم الربانية. بناءً عليه، فإن المراد بوسيلة التربية العقديّة تعني التربية إلى الإيمان^{٦٦} بمجموعة من الأمور التي يجب على المؤمن الإيمان بها والتصديق بها تصديقًا تامًا ما جاء به الله مع القبول والإذعان، فتطمئن نفسه إليها إيمانًا صحيحًا، لا يخالطه شك ولا ريبة.

ثانيًا: نماذج من معالم العادات الصالحة في التربية العقديّة عند أولي العزم من الرسل ﷺ
لقد تمثّلت رسالة الأنبياء والرسل ﷺ في ترسيخ العقيدة الصحيحة في قلوب أتباعهم، وتصحيح ما شابها من انحراف أو تحريف، وقد قاموا بتربية أقوامهم على الإيمان القائم على الوحي، لا على التقاليد أو الأهواء. وقد ورث العلماء هذا الدور التربوي، فهم ورثة الأنبياء في حفظ العقيدة وبنائها في النفوس، إذ إنها الأساس الذي يُبنى عليه السلوك الفردي والاجتماعي. فإذا استقامت العقيدة استقامت الأخلاق والمعاملات، وإن فسدت انهار البناء التربوي والاجتماعي برمته.

وفي هذا السياق، يرصد هذا العرض جملة من العادات التربوية الصالحة في المجال العقدي كما مارسها أولو العزم من الرسل ﷺ، في ضوء ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية، ضمن منهج شمولي يربط بين أركان الإيمان والسلوك العقدي النبوي. وقد تم تقسيم البحث إلى محاور تمثل أركان الإيمان الستة، فأسسها الإيمان بالله ﷻ وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره^{٦٧}، باعتبارها أهم أنماط التربية العقديّة التي تعامل معها أولو العزم من الرسل ﷺ، وهي: العادة الأولى: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على

الطبري الرازي اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، ط٨ (السعودية: دار طيبة، ٢٠٠٣) ٨: ٩٥٦.

^{٦٦} يمكن القول بأن المقصود بالتربية إلى الإيمان في هذا البحث هو توجيه الشخص تدريجيًا من حالة الشك أو الجهل إلى الإيمان الصحيح؛ لأن معنى الإيمان: تصديق ما جاء به الله ﷻ مع القبول والإذعان، لا مجرد التصديق؛ وهذا ما قاله العثيمين: لم يكن أبو طالب مؤمنًا بالرسول ﷺ مع تصديقه لما جاء به وشهادته بأنه خير الأديان. انظر: محمد صالح العثيمين، شرح أصول الإيمان: نخبة في العقيدة، (الرياض: دار الوطن، ٢٠١٨)، ٥.

^{٦٧} انظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، (بيروت: دار القلم، ٢، ١٩٧٩)، ٣٠.

الإيمان بالله تعالى، والعادة الثانية: مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان بالملائكة، والعادة الثالثة: مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان بالكتب، والعادة الرابعة: مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان بالرسل ﷺ، والعادة الخامسة: مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان باليوم الآخر، والعادة السادسة: مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان بالقضاء والقدر.

العادة الأولى: مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان بالله تعالى

لقد اعتمد سيدنا نوح ﷺ في خطابه لقومه على دعوة التأمل في الآيات الكونية والأنفس البشرية، ليقودهم ذلك إلى الإيمان بوحداية الله ﷻ وترك عبادة ما لا ينفع ولا يضر؛ وذلك بعد أن أخبر الله تعالى عن إرسال نوح ﷺ إلى قومه، وامتناله أمر ربه، ذكر مناجاته لربه وشكواه إليه، أنه دعاهم وأنذرهم، فعصوه وتمردوا عليه، بالرغم من تغيير أساليب الدعوة، والوعد بإنزال الأمطار، والإمداد بالأموال والبنين، وتخصيص الجنات والأنهار، وبالرغم من إقامة الأدلة على عظمة الله وقدرته، من خلق الإنسان على أطوار، وخلق السموات السبع الطباق، وتزيينها بالشمس والقمر، وجعل الأرض ممهدة كالبساط، كما فسر الزحيلي في قوله تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾^{٦٨}، أي: "ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم وﷻ" بيان للموقر؛ وهذا دليل على وجود الله سبحانه ووحدايته، معتمد على النظر في النفس الإنسانية^{٦٩}. ثم انتقل نوح ﷺ إلى الاستدلال بخلق السموات والأرض، ليبين لهم أن الله هو الذي أوجد هذا الكون بنظام دقيق، مما يوجب الإيمان به وعدم الإشراك به؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾^{٧٠}، فالإله الذي خلق السموات بامتدادها، وأجرى الشمس والقمر في أفلاكهما بحساب دقيق، هو المستحق وحده للعبادة، ولا يجوز للإنسان أن يصرف العبادة لغيره. ثم استدل نوح ﷺ بخلق الإنسان ذاته،

^{٦٨} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ١٣-١٤.

^{٦٩} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ٢٩: ١٤٢.

^{٧٠} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ١٥-١٦.

مبيناً أن الله ﷻ هو الذي خلقه من الأرض، ثم يعيده إليها، ثم يخرجها منها مرة أخرى يوم البعث، مما يدل على قدرة الله المطلقة في الخلق والإحياء والإماتة؛ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا • ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا • وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا • وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾^{٧١}. وكل هذا مما ينبههم به نوح ﷺ على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرزاق جعل السماء بناء والأرض مهاداً وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يُعبدُ ويُوحَد ولا يُشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له ولا عديل ولا ند ولا كفاء، ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير ولا مشير بل هو العلي الكبير^{٧٢}.

لقد أرى الله ﷻ نبيه إبراهيم ﷺ ملكوت السموات والأرض، فمكنه من الاطلاع على آياته الكونية الدالة على عظمته، وكشف له من البراهين القاطعة ما يعزز الإيمان بوحداية الله ﷻ، ويبين بطلان عقائد قومه الذين عبدوا الأصنام والكواكب والأوثان؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^{٧٣}. أي: ليرى ببصيرته، ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، فإنه بحسب قيام الأدلة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب^{٧٤}. فكانت هذه الرؤية الشاملة لآيات الله في الكون دافعاً لسيدنا إبراهيم ﷺ إلى اتباع منهج دقيق في مناظرة قومه، حيث استعمل الحجة العقلية التي تلزمهم بإعادة النظر في عقيدتهم، وتقودهم إلى الإقرار بفساد معتقداتهم، كما أشار المراغي في تفسيره: "ذلك ليعرف سنننا في خلقنا، وحكمنا في تدبير ملكنا، وآياتنا الدالة على ربوبيتنا، ليقوم بها الحجة على المشركين الضالين، وليكون في خاصة نفسه من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين عين اليقين"^{٧٥}. ثم ابتداء إبراهيم ﷺ مناظراته معهم بأسلوب متدرج في الاستدلال، مستخدماً مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، ليبين لهم بطلان معتقداتهم

^{٧١} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ١٧-١٨.

^{٧٢} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧: ٣٨٩.

^{٧٣} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ٧٥.

^{٧٤} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٢٦٢.

^{٧٥} انظر: المراغي، تفسير المراغي، ٧: ١٦٩.

القائمة على عبادة الأجرام السماوية. وقد يوضح عبد المجيد بن سالم المشعبي في كتابه بأن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لم يكن في موقف المتردد أو المعتقد بالوهية الكواكب عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ • فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ • فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾^{٧٦}، بل كان في مقام المناظرة لقومه، مستخدماً أسلوباً جدلياً دقيقاً لتفنيد عقائدهم الباطلة وإقامة الحجة عليهم، ثم قام عبد المجيد المشعبي بترجيح الأدلة الصحيحة على الضعيفة^{٧٧}، مبيناً خطأ من يزعم أن إبراهيم عليه السلام قد اعتقد في طفولته أو بعد بلوغه بالوهية الكواكب، فهذه مزاعم فاسدة تُبنى على آثار ضعيفة، لا يصح الاحتجاج بها. وذلك لأن معرفة الله ﷻ والإيمان به، ومعرفة شرائعه، لا تكون بمجرد النظر العقلي والمقدمات المنطقية، وإنما تكون عن طريق الرسل وما جاؤوا به من الوحي، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^{٧٨}. ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن، قال له: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم: أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم، وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس»^{٧٩}. وهو ما يدل على أن الإيمان الحق يقوم على دعوة الرسل وتبليغهم، لا على الاجتهادات العقلية المجردة، أما ما يتعلق بموقف إبراهيم عليه السلام، فقد كان في سياق الحجاج العقلي والمناظرة، حيث قال عبد المجيد المشعبي: "أن إبراهيم عليه السلام كان مستدلاً على قومه، مناظراً لهم، يريد بمناظرته هذه إبطال عبادة هذه الكواكب بإقامة الحجة الواضحة، التي لا يشكل على الخصم فهمها، وبالأسلوب

^{٧٦} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ٧٦-٧٨.

^{٧٧} لمعرفة المزيد من التفصيل حول منهج عبد المجيد المشعبي في الترجيح بين الأدلة الصحيحة والضعيفة، يمكن الرجوع إلى كتابه "التنجيم والمنجمون". انظر: عبد المجيد بن سالم المشعبي، التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام، ٢ (الرياض: أضواء السلف، ١٩٩٨)، ٤٩-٨٠.

^{٧٨} القرآن الكريم: سورة النساء ٤: ١٦٥.

^{٧٩} البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢: ١١٩ (١٤٥٨).

الحكيم الذي تتقبله النفوس وتلين معه، فبين لهم أن الكواكب لا تصلح أن تكون آلهة، فقال لهم: هذا ربي في زعمكم واعتقادكم؟ أو قال لهم بصيغة الاستفهام الإنكاري: أهذا ربي؟ فأجابوه نعم، فلما أفل بين أن هذا الآفل لا يستحق أن يكون إلهاً معبوداً بقوله: ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾^{٨٠}، فلما بزغ القمر سألهم السؤال نفسه، وأجابوه بالإجابة نفسها، فلما أفل بين تعريضاً أن الالتجاء يجب أن يكون لله، وأنهم على ضلالة في عبادتهم للكواكب، فقال: ﴿لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^{٨١}، فلما بزغت الشمس سألهم السؤال نفسه، وأجابوه الإجابة نفسها، فلما أفلت بين تصريحاً أنهم على ضلالة، وأنهم مشركون بعبادتهم هذه الكواكب، وتبرأ منهم ومن شركهم، ووجههم الوجهة الصحيحة بإخلاص العبادة لله الذي خلق السموات والأرض، ثم حاجوه فيما ذهب إليه^{٨٢}. وقد تميز إبراهيم عليه السلام بمنهجه الجدلي العميق، شأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء والرسل عليه السلام، الذين جادلوا أقوامهم بالحكمة والموعظة الحسنة، لإقامة الحجة عليهم وتوجيههم نحو الحق؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^{٨٣}، يُبين سيد قطب في تفسيره مشهداً بديعاً لمسيرة الإيمان الممتدة منذ عهد نوح عليه السلام إلى بعثة النبي محمد ﷺ، ويُسَلِّط الضوء في بدايتها على حقيقة الألوهية كما تتجلى في فطرة نبي من عباد الله الصالحين، وهو إبراهيم عليه السلام؛ ويصور هذا المشهد الرائع كيف تسير الفطرة السليمة في رحلة البحث عن الإله الحق، إذ تجد دلائله منطبعة في أعماقها، لكنها تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها المشوّهة عن الألوهية، وأن هذه الفطرة لا تهدأ حتى تصل إلى التصور الصحيح الذي يتطابق مع ما استقر في أعماقها عن الإله الحق. فلا تستمد يقينها من المحسوسات الظاهرة فحسب، بل من برهان داخلي أقوى وأثبت، وهو الدليل الفطري الذي يهديها إلى الحقيقة المطلقة. وهذا ما يوضحه السياق القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام حين اهتدى إلى ربه الحق، واطمأنت نفسه لما وجدته في قلبه من نور الهداية واليقين، بعيداً عن

^{٨٠} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ٧٦.

^{٨١} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ٧٧.

^{٨٢} انظر: عبد المجيد لمشعي، التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام، ٨٠.

^{٨٣} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ٧٩.

الانحرافات العقديّة التي سادت في مجتمعه^{٨٤}. وهكذا، كان إبراهيم ﷺ يوجههم بأسلوبٍ منطقيٍّ متدرجٍ، بحيث يقودهم بأنفسهم إلى إدراك أن الأجرام السماوية لا تصلح للألوهية، لأنها محدودة بزمن ومكان، بينما الإله الحق لا تغيب عنه الأشياء، وهو المدبر الحكيم الذي خلق السموات والأرض وما فيهما؛ ولقد أثنى الله ﷻ على نبيه إبراهيم ﷺ في موقفه مع قومه، حيث أقام عليهم الحجة بأسلوبٍ حكيم، فقال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾^{٨٥}. فكانت هذه المناظرة نموذجًا بالغ الإتقان في الدعوة إلى التوحيد، عبر حث العقول على التأمل والتفكير، ليصل الإنسان إلى إدراك أن لهذا الكون صانعًا عليماً حكيماً، لا يستحق العبادة غيره، وهو الله رب العالمين.

لقد أظهر نبي الله موسى ﷺ في حوارهِ مع فرعون أن تفرد الله ﷻ بالربوبية مرتبطٌ بخلق الكون وما فيه، وهو أمرٌ لا يمكن نسبته إلا لله الواحد الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وهو المدبر لشؤون العباد، والمصرف لأموالهم بحكمة بالغة. وقد تجلّى ذلك في إجابة موسى ﷺ عندما سأله فرعون، متعالياً مستنكراً ومتهكماً، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^{٨٦}. فجاء جواب موسى ﷺ واضحاً وحاسماً، حيث قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾^{٨٧}. وهو ردٌّ يحمل في طياته بياناً لعظمة الله ﷻ الذي يملك هذا الكون الهائل، والذي لا تصل إليه سلطة فرعون ولا علمه. لقد كان فرعون في زعمه يدعي الألوهية ضمن نطاقٍ محدود، لا يتجاوز وادي النيل وشعبه، وهو في الحقيقة مُلكٌ صغيرٌ ضئيلٌ أشبه بذرةٍ في ملكوت السموات والأرض. فجاء رد موسى ﷺ يحمل استصغاراً لهذا الادعاء مع بيان بطلانه، وتوجيه نظر فرعون إلى التأمل في هذا الكون الفسيح، لبحث فيمن يكون ربه الحقيقي^{٨٨}. وقد أيده الله ﷻ بتسع آياتٍ بيناتٍ دالةٍ على صدقه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ

^{٨٤} انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢: ١١٣٧.

^{٨٥} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ٨٣.

^{٨٦} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٢٣.

^{٨٧} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٢٤.

^{٨٨} انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٥: ٢٥٩٢.

بَيِّنَتْ^{٨٩}. وهي: العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وأخذ آل فرعون بالسنين، ونقص الثمرات^{٩٠}. عندما سمع فرعون هذا الجواب القوي، الذي يتضمن حجةً دامغةً على ألوهية الله ﷻ، حاول أن يصرف أنظار قومه عن التأثير بهذا الاستدلال، فنظر إليهم مستغرباً، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾^{٩١}. محاولاً إثارتهم ضد موسى ﷺ؛ ولكنه رأى منهم استئناساً لكلامه، فأردف موسى ﷺ إجابته بحجةٍ أخرى أكثر وضوحاً، فقال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾^{٩٢}. موضحاً أن فرعون نفسه مخلوقٌ من رب العالمين، وأن الله وحده هو المستحق للعبادة. لم يجد فرعون رداً منطقيّاً يقارع به هذا الدليل، فلجأ إلى التهكم والسخرية من موسى ﷺ، متهماً إياه بالجنون، قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^{٩٣}. وذلك لأنه يعتقد بربوبية الله للأولين والآخرين، وهي حقيقةٌ تهدم دعوى ألوهية فرعون. لكن موسى ﷺ لم يلتفت إلى استهزاء فرعون وسخريته، بل واصل إقامة الحجج، حيث قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^{٩٤}. لقد أظهر موسى ﷺ أن الله ﷻ هو الذي يسير حركتي الشروق والغروب، وهو أمرٌ مشهودٌ لجميع الناس، ولا يستطيع فرعون أو غيره أن يدعي أنه يتحكم فيه. وهذا يُبطل دعوى فرعون بالربوبية، إذ كيف يكون إلهاً وهو عاجزٌ عن التحكم في الظواهر الكونية الأساسية؟ ولهذا خاطبهم موسى ﷺ بأسلوبٍ يحمل إشارةً إلى ضعف عقولهم، فقال الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^{٩٥}، أي إن كنتم تتمتعون بتفكيرٍ سليمٍ، فستدركون فساد هذه الادعاءات^{٩٦}. لقد أظهر موسى ﷺ في حوارهِ مع فرعون قوة الحجة وروعة الأسلوب في الدعوة إلى الله، حيث بدأ بالحجج العقلية، ثم

^{٨٩} القرآن الكريم: سورة الاسراء ١٧: ١٠١.

^{٩٠} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٢: ٥٩.

^{٩١} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٢٥.

^{٩٢} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٢٦.

^{٩٣} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٢٧.

^{٩٤} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٢٨.

^{٩٥} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٢٨.

^{٩٦} انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، ٢: ٣٤٦.

انتقل إلى الأدلة المشاهدة، فاستعمل البرهان الملموس لتأكيد صدق نبوته. ولكن فرعون، مع كل هذه الآيات، لم يزد إلا عنادًا واستكبارًا، مما أدى به إلى نهايته المعروفة بالغرق، ليكون عبرةً للطغاة والمستكبرين في كل زمانٍ ومكان.

لقد أيد الله ﷺ نبيه عيسى ﷺ بآياتٍ ومعجزاتٍ عظيمة، كان أولها ولادته من غير أب، حيث قال تعالى على لسان مريم ﷺ عندما بُشِّرَتْ بحملها، ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾^{٩٧}، أي أنها تعجبت من كيفية حدوث هذا الحمل، حيث لم تكن متزوجة ولم ترتكب الفاحشة، لكنها لم تكن مستبعدة لقدرة الله، بل كانت تسأل عن الكيفية التي سيتم بها ذلك^{٩٨}. وقد جاءها الجواب من جبريل ﷺ قائلاً: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلُكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾^{٩٩}، وهذا يدل على أن ولادة عيسى ﷺ كانت آيةً من آيات الله، وشاهدًا على قدرته في خلق الإنسان بغير الطرق المعتادة، كما خلق آدم ﷺ من غير أبٍ ولا أم، وخلق حواء من رجلٍ بلا أنثى^{١٠٠}. ومن أبرز معجزاته ﷺ أنه تكلم في المهد، حيث قال الله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^{١٠١}. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وصبي كان في زمن جريج، وصبي آخر»^{١٠٢}. وهذه المعجزة كانت دليلاً قاطعاً على صدق نبوته، وإقامة للحجة على قومه منذ ولادته^{١٠٣}. لقد أيد الله ﷺ بمعجزات عديدة بعد بعثته، كما ذكر تعالى في كتابه العزيز بعض هذه المعجزات التي تدل على صدق نبوته ﷺ، وتدفع الناس إلى الإيمان بوحداية الله ﷻ، فقال الله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ

^{٩٧} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩ : ٢٠.

^{٩٨} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٦ : ١١٢.

^{٩٩} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩ : ٢١.

^{١٠٠} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦ : ٢٧٥.

^{١٠١} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣ : ٤٦.

^{١٠٢} انظر: الطبري، جامع البيان، ٦ : ٢٥٧.

^{١٠٣} البخاري، الصحيح، أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ القرآن الكريم: سورة مريم:

١٩، ١٦، ٤ : ٢٠١، (٢٥٥٠).

مَنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴿١٠٤﴾. وقد فسر ابن كثير هذه الآية بأن عيسى عليه السلام كان يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله ﷻ، الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله^{١٠٥}. وهذا يدل على أن هذه المعجزات لم تكن بفعل عيسى عليه السلام نفسه، وإنما كانت بإرادة الله وقدرته، لتكون آياتٍ شاهدةً على نبوته، وليؤكد أنه عبدٌ لله، وليس إلهاً كما زعمت بعض الفرق الضالة^{١٠٦}. ولهذا كان عيسى عليه السلام دائماً يرد الفضل إلى خالقه ومُرسله، تأكيداً لعبوديته لله ﷻ، كما قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^{١٠٧}. يتضح مما سبق أن معجزات عيسى عليه السلام كانت شاهدةً على نبوته، ودليلاً على قدرة الله المطلقة، وقد كانت ولادته من غير أب، وكلامه في المهد، وإبرأؤه المرضى، وإحياءه الموتى، كلها آياتٌ تدعو الناس إلى الإيمان بالله، والتوحيد الخالص له^{١٠٨}.

امتلاً القرآن الكريم والسنة النبوية بالدلائل التي تدعو الناس إلى التأمل في آيات الله الكونية والإنسانية ضمن دعوة النبي محمد ﷺ، لما لها من أثر بالغ في ترسيخ الإيمان. فقد وجههم الله تعالى إلى التدبر في هذه الآيات التي توحى بعظمة الله وقدرته، مما يجعل الإنسان يدرك أن الله تعالى هو المستحق وحده للعبادة، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^{١٠٩}، أي إن الله تعالى سيُري البشر دلائل وحدانيته في الآفاق الواسعة، كالشمس والقمر والنجوم، وتعاقب الليل والنهار، وحركة الرياح ونزول المطر، وإنبات الزرع والثمار، والصواعق والرعود، والبحار والجبال؛ كما سيُطلعهم على دلائل قدرته في أنفسهم، من حواسٍ وعقل وروح، وما يواجهونه من نعم وابتلاءات؛ فهذه المشاهد الكونية، حين يتأمل فيها أصحاب العقول الواعية، تقودهم

^{١٠٤} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٤٩.

^{١٠٥} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٤٧: ٢.

^{١٠٦} انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ٣٤١: ٢.

^{١٠٧} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٣٠.

^{١٠٨} انظر: السيوطي، الدر المنثور، ٢١٥: ٤.

^{١٠٩} القرآن الكريم: سورة فصلت ٤١: ٥٣.

إلى إدراك الحقيقة الكبرى، وهي أن لهذا الكون خالقاً مدبراً حكيمًا^{١١٠}. ولذا فإن ربط الله تعالى بين مظاهر الطبيعة والإيمان هو منهج لا يدركه إلا من تأمل وتدبر في دلائل القدرة الإلهية. فالتأمل في هذه الظواهر يقود إلى اليقين وزيادة الإيمان، حيث إن مشاهدة الإنسان للآيات المحسوسة تترك أثرًا أعمق في قلبه؛ ولهذا قيل: "ليس الخبر كالمعاينة"^{١١١}. ومن هنا يتبين لنا أن الاستدلال بمظاهر قدرة الله تعالى له دور جوهري في تحرير العقل من الغفلة، وإبعاده عن الجهل والعصيان^{١١٢}؛ فقد رُوي في الحديث قصة جُبَيْر بن مُطْعَم، الذي كان لا يزال مشركًا آنذاك، إذ قَدِمَ على النبي ﷺ بعد غزوة بدر لفداء الأسرى، إلا أن سماعه لآيات من سورة الطور، من الآية الخامسة والثلاثين إلى السابعة والثلاثين، كان من الأسباب التي دفعته إلى اعتناق الإسلام لاحقًا، إذ لامست معانيها العميقة قلبه، وأثرت فيه تأثيرًا بالغًا، مما جعله يدرك حقيقة الرسالة المحمدية، ويُقبل على الإسلام عن قناعة ويقين؛ قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَخْلُقُونَ • أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ • أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾^{١١٣}، أي: "أُخْلِقَ هؤلاء المشركون من غير آباء ولا أمهات، فهم كالجماد لا يعقلون ولا يفقهون لله حجة، ولا يعتبرون له بعبرة، ولا يتعظون بموعظة؟"^{١١٤}.

وقد جاء في تفسير ابن كثير عن جُبَيْر بن مُطْعَم عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ أَخْلُقُونَ • أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ • أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾^{١١٥} كاد قلبي أن يطير»، قال سفيان: فأما أنا، فإنما سمعت الزهري يحدث عن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعَم، عن أبيه: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، لم أسمعُه زاد

^{١١٠} انظر: محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، ١٢: ٣٦٦.

^{١١١} انظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط ٢ (الهند: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٢)، ٥: ٣٥٠.

^{١١٢} انظر: الببانوي، المدخل إلى علم الدعوة، ٢١٨.

^{١١٣} القرآن الكريم: سورة الطور ٥٢: ٣٥-٣٧.

^{١١٤} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧: ٤٩.

^{١١٥} القرآن الكريم: سورة الطور ٥٢: ٣٥-٣٧.

الذي قالوا لي»^{١١٦}. وعلّق ابن كثير على ذلك بقوله: "كان جُبَيْر بن مُطْعَم قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشرّكاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمّله على الدخول في الإسلام بعد ذلك"^{١١٧}.

تُعَدُّ مسألة وجود الله تعالى من القضايا المحورية التي دار حولها الجدل بين الإلحاد والفلسفة والدين والعلم، إذ يُشكّل إثبات وجود الخالق أساساً لبناء التصورات العقدية وتحديد مواقف الإنسان من الكون والحياة.

ومن أبرز ما نُقِلَ في هذا السياق من التراث الكلامي، مناظرة أبي حنيفة مع الملاحدة، والتي اشتهرت ببيانها الواضح وبساطتها العميقة في آنٍ واحد، حيث وجّه نقداً ضمنياً لطريقة المتكلمين المتكلفة في تقرير الربوبية، واعتمد بدلاً من ذلك برهان الفطرة والعقل الفطري المباشر. فقد رُوي أنّ أبا حنيفة قال لهم: "ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأمتعة، قد احتوتها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية، ليس فيها ملاح يجريها ويقودها ويسوقها، ولا متعهد يدفعها. هل يجوز ذلك في العقل؟" فقالوا: لا، هذا لا يقبله العقل، ولا يحيزه الوهم. فقال لهم أبو حنيفة: "فيا سبحان الله! إذا لم يجوز في العقل وجود سفينة تجري مستوية من غير متعهد، فكيف يجوز قيام الدنيا على اختلاف أحوالها، وتغير أمورها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع، ولا حافظٍ، ولا محدثٍ لها؟"^{١١٨}.

تُظهر هذه المناظرة عمق الاستدلال العقلي عند أبي حنيفة، الذي اعتمد على القياس التمثيلي بين النظام المحكم في السفينة وبين نظام العالم، ليثبت بذلك ضرورة وجود صانع حكيم قادر. كما تكشف عن منهج بديل عن الأسلوب الجدلي الصّرف، يتمثل في مخاطبة الفطرة والعقل المشترك، دون الحاجة إلى مقدمات فلسفية معقدة أو مصطلحات منطقية دقيقة. وهذا يُعَدُّ من دلائل قوة الحجة وبساطتها في آنٍ واحد.

^{١١٦} البخاري، الصحيح، كتاب تفسير القرآن، سورة والطور، ٦: ١٤٠، (٤٨٥٤). مسلم، الصحيح، كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، ١: ٣٣٨، (٤٦٣).

^{١١٧} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧: ٤٩.

^{١١٨} محمد بن عبد الرحمن الخميس، أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، (المملكة العربية السعودية: دار الصميعي، ١٩٩٦)، ٢٢٢.

أما قضية أصل الإنسان، ففي الوقت الذي يُقرُّ فيه القرآن الكريم بخلق الإنسان من طين ونفخ الروح فيه، جاءت نظرية داروين بعد أكثر من ألف سنة لتطرح فرضية تطور الإنسان من كائنات سابقة. لقد نزل القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ في عام ٦١٠ ميلادية، واستمر نزوله ثلاثاً وعشرين سنة؛ وقد نصّ في غير موضع على أن خلق الإنسان كان من طين ثم نفخ الله فيه من روحه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^{١١٩}. أي: "إن الله خلق آدم ابتداءً من غير أب ولا أم، فكما خلقه من تراب، خلق عيسى من غير أب"^{١٢٠}.

جاء عند ابن عاشور أن الخلق أُطلق في القرآن وكلام الشريعة على إيجاد الأشياء المعدومة، فهو إخراجها من العدم إلى الوجود إخراجاً لا صنعة فيه للبشر؛ فإنّ إيجاد البشر بصنعتهم أشياء إنما هو تصوير لها بتركيب أجزائها المتفرقة وتقدير مقاديرها، كما يصنع صانع الخنزف، بخلاف الخلق الإلهي الذي يتجلّى في إيجاد العوالم وأجناس الموجودات وتولّد بعضها من بعض، بما أودع الله فيها من نظام الإيجاد، كخلق الأجنة في بطون الأحياء، والزرع في الحبوب، والماء في السحب، فذلك كله خلقٌ من تكوين الله تعالى، وإن قارنه بعض الأعمال البشرية كالترّوج وإلقاء البذور، لأن الإيجاد من العدم إلى الوجود دون صنعة بشرية هو الذي حُصّ باسم "الخلق" في اصطلاح الشرع.

وقد علّل ابن عاشور ذلك بقوله: إن لفظ "الخلق" هو أقرب الألفاظ في اللغة العربية دلالة على الإيجاد من العدم، وهو المعنى الذي اختصّ بالله تعالى، فصار هذا هو المفهوم الشرعي للكلمة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^{١٢١}، وقال الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾^{١٢٢}.

ومن هنا حُصّ إطلاق لفظ "الخلق" في لسان الشرع على فعل الله تعالى، لما فيه من الإيجاد من العدم، دون تدخل بشري؛ ولهذا ختم الله تعالى آية خلق الإنسان بقوله:

^{١١٩} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٥٩.

^{١٢٠} الطبري، جامع البيان، ٦: ٤٦٠.

^{١٢١} القرآن الكريم: سورة النحل ١٦: ١٧.

^{١٢٢} القرآن الكريم: سورة فاطر ٣٥: ٣.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^{١٢٣}، أي: أتقنهم صنعة، وأبدعهم قدرة، وأعظمهم شأنًا، لأن الخلق على الحقيقة المطلقة لا يكون إلا له سبحانه. وقد أكد الغزالي هذا المعنى في «المقصد الأسنى»، إذ قال: "لا حظَّ للعبد في اسمه تعالى (الخالق) إلا بوجهٍ من المجاز البعيد، فإذا بلغ في سياسة نفسه وسياسته للخلق مبلغًا ينفرد فيه باستنباط أمور لم يُسبق إليها، ويقدر على تنفيذها، كان كالمخترع لما لم يكن له وجود من قبل، فيجوز إطلاق الاسم عليه مجازًا". ومن هذا الباب جاء ما حكاه الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^{١٢٤}، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾^{١٢٥}، فالإطلاق في هذه النصوص مرعي في الأصل اللغوي للكلمة، قبل أن يغلب عليها الاصطلاح الشرعي الخاص بالفعل الإلهي^{١٢٦}.

يتبين مما سبق؛ فإن جميع الأنبياء عليهم السلام استخدموا في دعواتهم الاستدلال بآيات الله في الأنفس والآفاق لترسيخ الإيمان في القلوب، وإقامة الحجة على الناس، ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^{١٢٧}.

العادة الثانية: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان بالملائكة

عندما دعا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وتقواه، كان ردهم، قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^{١٢٨}. وهذا يدل على أنهم كانوا مقررين بوجود الملائكة، لكنه كان إيمانًا ناقصًا، لأنهم لم يقرنوه بالإيمان بالرسول وما جاؤوا به، مما أوقعهم في الضلال^{١٢٩}.

^{١٢٣} القرآن الكريم: سورة المؤمنون ٢٣: ١٤.

^{١٢٤} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٤٩.

^{١٢٥} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١١٠.

^{١٢٦} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١: ٣٢٨.

^{١٢٧} القرآن الكريم: سورة النساء ٤: ١٦٥.

^{١٢٨} القرآن الكريم: سورة المؤمنون ٢٣: ٢٤.

^{١٢٩} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٥: ٢٣-٣٣.

لقد أقرّ الكافرون من قوم نوح ﷺ بعلوّ شأن الملائكة، حيث قالوا مستنكرين دعوته، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^{١٣٠}. أي: "ولو أراد الله أن يبعث نبياً، لبعث أحد الملائكة من عنده، لأداء رسالته، ولم يكن بشراً، فإن إنزال الملك أدعى للإيمان، وأدل على الصدق؛ وهذا ناشئ من تصورهم سمو الرسالة التي تقتضي جعلها في عنصر أسمى من البشر وهم الملائكة، وأنه لا يمكن تكليف البشر بالرسالة الإلهية، قال الله تعالى: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^{١٣١}. أي: "ما سمعنا ببعثة البشر في عهد الأسلاف والأجداد في الدهور الماضية. وهذا ناشئ من اعتمادهم في العقيدة على التقليد، وإصرارهم على الكفر والعناد"^{١٣٢}. وهذا يدل على أنهم كانوا يعتقدون في رفعة مكانة الملائكة، حيث اعتبروا أن الإنزال لا يكون إلا من جهة العلو والارتفاع، مما يعكس تصورهم عن عظمة الملائكة.

إن سيدنا إبراهيم ﷺ دعا قومه إلى الإيمان بالملائكة، كما دعاهم إلى الإيمان بالله ورسالاته^{١٣٣}؛ إذ كانوا واسطةً بين الله ورسله في تبليغ الوحي. وهذا ما دلّت عليه قصته مع الملائكة الذين جاؤوا إليه، فقد أرسل الله ﷻ الملائكة إلى نبيه إبراهيم ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾^{١٣٤}. وقد ذكر ابن الجوزي في تفسيره أربعة أقوال لمعنى ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾، أحدهما: لأن إبراهيم ﷺ أكرمهم بتقديم العجل لهم؛ والثاني: لأن إبراهيم وزوجته خدموهم بأنفسهم، مما يدل على حسن الضيافة، والثالث: لأنهم مكرمون عند الله ﷻ، أي أنهم ملائكة مقربون، والرابع: لأنهم ضيوف، والضيوف يُكرمون، فكان ذلك من عادات العرب الكريمة^{١٣٥}. وكان هذا اللقاء دليلاً على وجود الملائكة، وإثباتاً لنزولهم إلى الأرض بأمر الله ﷻ، حيث جاؤوا في صورة بشرية حتى لا يفزع إبراهيم وأهله من

^{١٣٠} القرآن الكريم: سورة المؤمنون ٢٣ : ٢٤.

^{١٣١} القرآن الكريم: سورة المؤمنون ٢٣ : ٢٤.

^{١٣٢} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ١٨ : ٣٤.

^{١٣٣} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ٢٧ : ٢٤. انظر: عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ٢٤.

^{١٣٤} القرآن الكريم: سورة الذاريات ٥١ : ٢٤.

^{١٣٥} انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ٤ : ١٧٠.

رؤيتهم، وليبشروه بولادة إسحاق عليه السلام، وليخبروه بعذاب قوم لوط ^{١٣٦}، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ • وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبُ﴾ ^{١٣٧}، أي: استبشرت بهلاكهم لتمردهم وعتوهم على الله تعالى، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ^{١٣٨}. وقد أشار الحديث النبوي إلى وجود الملائكة في قصة هاجر مع زمزم، فقد روي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن جبريل لما ركض زمزم بعقبه، جعلت أم إسماعيل تجمع البطحاء، فقال النبي ﷺ: «رحم الله هاجر أم إسماعيل، لو تركتها لكانت ماء معيناً» ^{١٣٩}. وهذا من حسن توكل هاجر رضي الله عنه على الله ﷻ فقد جاء في الحديث ما روي الطبري في تفسيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فناداها جبريل، فقال لها: مَنْ أَنْتِ؟ فقالت: أنا هاجرُ أم ولد إبراهيم؛ قال: إلى مَنْ وَكَلَكِما؟ قالت: وَكَلْنَا إلى الله؛ قال: وَكَلَكِما إلى كَافٍ» ^{١٤٠}.

وأما مظاهر إكرام إبراهيم عليه السلام للملائكة وتعظيمه له فيمكن ملاحظتها من خلال عدة جوانب، منها: أولاً: بدء القصة بأسلوب الاستفهام التقريري، وهو أسلوب يستخدم لتشويق المخاطب إلى سماع شيء عظيم ^{١٤١}. ثانياً: وصفهم بأنهم "مكرمون"، وهو وصف يدل على رفعة منزلتهم عند الله ﷻ ^{١٤٢}. ثالثاً: إكرام إبراهيم عليه السلام لهم، حيث قدّم لهم طعاماً، رغم أنه لم يكن يعلم أنهم ملائكة، مما يدل على أن إكرام الضيف من أخلاق الأنبياء، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ^{١٤٣}، رابعاً: ردُّه التحية بأحسن منها، قال تعالى: ﴿إِذْ

^{١٣٦} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٢: ٣٤٥.

^{١٣٧} القرآن الكريم: سورة هود ١١: ٧٠-٧١.

^{١٣٨} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧: ٣٥.

^{١٣٩} انظر: الحاكم، المستدرک، ٣٥: ٦٤. إسناده صحيح على شرط مسلم.

^{١٤٠} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢: ٥٦١؛ قال الحافظ: إسناده حسن. انظر: العسقلاني، فتح الباري، ٢: ٤٠٢.

^{١٤١} انظر: محيي الدين درويش، إعراب القرآن، ٩: ٣١٥.

^{١٤٢} انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ٤: ١٧٠.

^{١٤٣} القرآن الكريم: سورة الذريات ٥١: ٢٦.

دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ^{١٤٤}، فقد قال: ﴿سَلَمٌ﴾، بصيغة الرفع، مما يدل على الثبات والاستمرار^{١٤٥}. يتضح مما سبق أن قصة ضيافة إبراهيم ﷺ للملائكة لم تكن مجرد موقفٍ عابر، بل كانت مليئةً بالدروس والعبر، حيث أظهرت كرم الضيافة، واحترام الضيوف؛ فقد أثبتت وجود الملائكة ونزولهم إلى الأرض بأمر الله ﷻ، كما أنها كانت شاهدًا على دعوة إبراهيم ﷺ إلى الإيمان بالملائكة، باعتبارهم جزءًا من العقيدة الصحيحة التي أتى بها جميع الأنبياء.

لقد أنزل الله ﷻ التوراة على موسى ﷺ، وأمر قومه بالإيمان بما جاء فيها، ومن ذلك الإيمان بالملائكة؛ فقد ورد ذكر الملائكة في حوار فرعون مع موسى ﷺ، حيث قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَّهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾^{١٤٦}، لقد أوضح الزحيلي أن فرعون في إنكاره لنبوة موسى ﷺ كان متأثرًا بمقاييس الحكم والسلطة الدنيوية التي اعتادها، حيث كان يرى أن العظمة والملك يقتزمان بالمظاهر المادية، مثل الأسورة الذهبية، وقد فسر الزحيلي قوله تعالى: ﴿أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَّهَبٍ﴾ أنها تعني جمع سوار، كما في أخمرة وخمار، وقرئت أيضًا أساورة، وهي جمع الجمع، أي جمع أسورة^{١٤٧}، وهذا مرتبط بعادة الملوك في ذلك الزمن، حيث كانوا يلبسون القادة والملوك أساور الذهب كرمز للسلطة والتكريم^{١٤٨}، وأما قوله تعالى: ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ فقد بيّنه الزحيلي بأنه يعني أن الملائكة كان ينبغي أن يكونوا وفق تصور فرعون مقرونين بموسى، يعينونه على تحقيق دعوته، أو متتابعين يشهدون بصدق نبوته، وقد شابه موقف فرعون هذا موقف كفار قريش حين قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^{١٤٩}. حيث اعتبروا أن النبوة يجب أن تكون من نصيب عظيم من عظماء مكة أو الطائف^{١٥٠}. وهذا يُظهر أن فرعون كان يؤمن

^{١٤٤} القرآن الكريم: سورة الذريات ٥١ : ٢٥.

^{١٤٥} انظر: الزمخشري، الكشاف، ٤ : ٤٠١.

^{١٤٦} القرآن الكريم: سورة الزخرف ٤٣ : ٥٣.

^{١٤٧} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ٢٥ : ١٦٤.

^{١٤٨} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٥ : ٢٣٣.

^{١٤٩} القرآن الكريم: سورة الزخرف ٤٣ : ٣١.

^{١٥٠} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ٢٥ : ١٦٤.

بوجود الملائكة، لكنه لم يكن إيماناً نافعاً، لأنه لم يكن مقروناً بالإيمان بالله ورسوله^{١٥١}. وهذا الخطاب من فرعون لقومه كان محاولةً لإيهامهم بأن الرسل لا بد أن يكونوا ذوي هيبةٍ دنيويةٍ عظيمةٍ، محاطين بالملائكة، أو مزودين بالزينة الدنيوية، ولذلك كان إنكاره لنبوة موسى ﷺ قائماً على نظريٍّ سطحيٍّ إلى الشكل الظاهري، دون إدراكه للجوهر المعنوي والرسالة السماوية التي يحملها الرسل^{١٥٢}.

لقد ظهر تعظيم الملائكة حتى في كلام فرعون وملئه، حيث قالوا مستهزئين، كما أن فرعون، رغم جبروته، لم يتجرأ على قتل موسى ﷺ، بل كان يشعر بالخوف منه، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^{١٥٣}. أي إني أخشى أن يغير منهاج دينكم الذي أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام، ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده، أو أن يوقع بين الناس الخلاف والفتنة، فتكثر الخصومات والمنازعات، وتثار القلاقل والاضطرابات. والمراد: إظهار الخوف من تبديل الدين أو إفساد أمر الدنيا^{١٥٤}.

وهذا يدل على أن فرعون كان يستشعر وجود قوة غيبية تحمي موسى ﷺ، مما منعه من الإقدام على قتله^{١٥٥}. ولقد تكررت هذه النظرة السطحية مع أقوامٍ كثيرٍ من المكذبين للرسل ﷺ، مما يبرز أهمية إدراك البعد الحقيقي للنبوة، وهو حمل الرسالة الإلهية، بغض النظر عن المظاهر الدنيوية^{١٥٦}.

إن عيسى ﷺ دعا قومه إلى التوحيد، وإلى الإيمان بجميع أركان الإيمان، بما في ذلك الإيمان بالملائكة، الذين كانوا جزءاً من رسالته، قال الله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾^{١٥٧}، لقد أيده الله بروح القدس جبريل ﷺ، وأوكل إليه

^{١٥١} انظر: الشعراوي، الاخواط، ٥: ٢٨٧٣.

^{١٥٢} انظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ٨: ٤٩٧.

^{١٥٣} القرآن الكريم: سورة غافر ٤٠: ٢٦.

^{١٥٤} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ١٤: ١٠٥.

^{١٥٥} انظر: عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، ١٢: ١٢٢٢.

^{١٥٦} انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ٥: ٣٢٥.

^{١٥٧} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١١٧.

مهمة التبشير بمولده^{١٥٨}. وقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^{١٥٩}. وهذا يدل على أن جبريل عليه السلام كان له دور محوري في تأييد رسالة عيسى عليه السلام. لقد أرسل الله ﷻ جبريل عليه السلام إلى مريم عليها السلام ليبشرها بولادة عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^{١٦٠}. أي أنها اختارت مكاناً بعيداً، تستتر فيه عن الناس، لتعبد الله في خلوة، فأرسل الله إليها جبريل عليه السلام في صورة بشرٍ كامل الخَلقة، حتى لا تنفر من محاورته لو ظهر لها في صورته الملكية^{١٦١}. وقد أضاف الله ﷻ جبريل عليه السلام إلى نفسه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، مما يدل على عظيم مكانته وشرف منزلته^{١٦٢}؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^{١٦٣}، وهذه الإضافة تدل على التشريف والتعظيم، حيث أن جبريل عليه السلام هو أمين الوحي، الذي اصطفاه الله ليكون واسطة بينه وبين أنبيائه^{١٦٤}.

يتضح مما سبق أن جبريل عليه السلام هو أعظم الملائكة منزلةً عند الله ﷻ، وقد جعله الله رسولاً بينه وبين أنبيائه، وخصه بشرف التبليغ عن الله ﷻ. كما أن ظهوره لمريم عليها السلام في صورة بشرٍ سويٍّ كان رحمةً من الله ﷻ، ليكون التبليغ أكثر قبولاً وطمأنينةً في نفسها ليبشرها بولادة نبي الله عيسى عليه السلام.

لقد بلغ تعظيم الملائكة في دعوة محمد ﷺ أسمى الدرجات، حيث وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿كَرَامَ بَرَّةٍ • قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾^{١٦٥}، كما أن النبي ﷺ وجه أُمته إلى إكرامهم، ونهى عن أكل الثوم والبصل قبل دخول المسجد، لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه

^{١٥٨} انظر: أحمد غلوش، دعوة الرسل ﷺ، ٦٧.

^{١٥٩} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ٨٧.

^{١٦٠} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ١٧.

^{١٦١} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ١٦: ٦٧.

^{١٦٢} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١٢: ٤٥٩.

^{١٦٣} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ٩٧.

^{١٦٤} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢: ٣٧٥.

^{١٦٥} القرآن الكريم: سورة عبس ٨٠: ١٥-١٦.

بنو آدم، حيث قال من أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، زعم عن النبي ﷺ قال: «من أكل ثومًا أو بصلاً فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا»^{١٦٦}.

وكذلك نهي النبي ﷺ عن البصاق عن اليمين في الصلاة، إكرامًا للملائكة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا ييصق أمامه، فإنما يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه، فإن عن يمينه ملكا، وليصق عن يساره، أو تحت قدمه فيدفعها»^{١٦٧}.

بناءً عليه، لقد أكد الله ﷻ أن الإيمان بالملائكة جزء لا يتجزأ من الإيمان الحق، حيث قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾^{١٦٨}. فمن آمن بالملائكة، فقد استكمل ركنًا من أركان الإيمان، وعليه أن يؤمن ببقية الأركان، حتى يكون إيمانه صحيحًا. ووكما أن الإيمان بالملائكة لا يكتمل إلا بإكرامهم وتعظيمهم، وذلك باتباع أوامر الله ورسوله ﷺ في التعامل معهم، واحترام وجودهم، والابتعاد عن كل ما يؤذيهم.

العادة الثالثة: مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان بالكتب

وقد تضمنت دعوات أُولي العزم من الرسل ﷺ إشارات تربوية تحثُّ على الإيمان بالكتب السماوية، لما في ذلك من تحقيق العبودية الخالصة لله، وإقامة العدل، ونشر الرحمة، وبيان أحكام الشرع للناس، ليهتدوا إلى طريق الحق ويفوزوا بالسعادة في الدنيا والآخرة.

يتضمن الإيمان بكتب الله عند جاء عند خالد المصلح فهو التصديق الجازم بكل كتاب أنزله الله ﷻ، ويشمل ذلك الإيمان بما سَمَّى الله من كتبه في كتابه العزيز، وهي: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن الكريم، وكذلك الإيمان بأن الله ﷻ أنزلها كتبًا أخرى على أنبيائه، لا يعرف أسماؤها وعددها إلا هو؛ وما يتضمن الإيمان بالقرآن العظيم، وأنه كلام الله المنزل، غير

^{١٦٦} البخاري، الصحيح، كتاب الأطعمة، باب ما يكره من الثوم والبقل، ٧: ٨١، (٥٤٥٢).

^{١٦٧} البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة، باب دفن النخامة في المسجد، ١: ٩١ (٤١٦).

^{١٦٨} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ١٧٧.

مخلوق^{١٦٩}، منه بدأ وإليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن، والتوراة، والإنجيل، وسائر كتبه، ويتميز القرآن الكريم عن سائر الكتب السماوية بالنسبة لهذه الأمة المحمدية بوجوب اتباعه، تصديقاً لأخباره، وامتناناً لأحكامه^{١٧٠}.

وقد نزلت هذه الكتب بطرق مختلفة، فهي كلام الله ﷻ الذي أوحى به إلى رسله لهداية البشرية؛ قال الله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^{١٧١}؛ ورد ذكر بعض هذه الكتب في القرآن الكريم والسنة النبوية تفصيلاً، وبعضها الآخر إجمالاً؛ فمنها ما تكلم به الله ﷻ من وراء حجاب، ومنها ما أوحاه إلى رسله عن طريق جبريل ﷺ ومنها ما كتبه الله بيده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾^{١٧٢}. وقال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾^{١٧٣}. وقال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾^{١٧٤}، فالواجب على المسلم الإيمان تفصيلاً بالكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية، كما أنزله الله على نبيه داود ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَعَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾^{١٧٥}، وأنزلها الله على نبيه موسى ﷺ لهداية بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾^{١٧٦}. ورد ذكرها في صحف إبراهيم ﷺ وموسى ﷺ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ

^{١٦٩} لمعرفة المزيد من التفصيل حول هذه القضية. انظر: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، المحقق: صالح بن مقبل بن عبد الله العصيمي التميمي، (الرياض: دار الفضيلة، ٢٠١١)، ٣٠٦.

^{١٧٠} انظر: خالد المصلح، شرح العقيدة الواسطية، ١٦.

^{١٧١} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ١٣٦.

^{١٧٢} القرآن الكريم: سورة الشورى ٤٢: ٥١.

^{١٧٣} القرآن الكريم: سورة النساء ٤: ١٦٤.

^{١٧٤} القرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ١٤٥.

^{١٧٥} القرآن الكريم: سورة الإسراء ١٧: ٥٥.

^{١٧٦} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ٤٤.

الأولى • صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ^{١٧٧}. وأنزله الله ﷻ الإنجيل على نبيه عيسى ﷺ تأكيداً لما جاء في التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ^{١٧٨}. وأنزله الله على النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وهو محفوظ من التحريف والتبديل، قال الله تعالى: ﴿كِتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ^{١٧٩}. هناك الحديث يشير إلى الإيمان بالكتب السماوية، ما رواه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» ^{١٨٠}. وأما الكتب السماوية الأخرى التي لم تُذكر أسماؤها في القرآن الكريم والسنة النبوية، فيجب الإيمان بها إجمالاً، كما أمر الله نبيه بذلك، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعُ وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ^{١٨١}. جاء في الحديث يشير إلى وجوب الإيمان بالكتب السماوية، منها: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: والذي نفسي محمد بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار ^{١٨٢}.

تُعَدُّ دعوة نوح عليه السلام نموذجاً أصيلاً للتوحيد الخالص واتباع ما أنزل الله ﷻ من شرائع لهداية قومه؛ وقد جاءت نصوص القرآن الكريم مؤكدة على مضمون هذه الدعوة، كما ورد في قوله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ

^{١٧٧} القرآن الكريم: سورة الأعلى ٨٧: ١٥-١٧.

^{١٧٨} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ٤٦.

^{١٧٩} القرآن الكريم: سورة فصلت ٤١: ٣.

^{١٨٠} الطبراني، المعجم الكبير، ٢٢: ٧٥، (١٠٩٦). قال المحقق: إسناده حسن ورجاله ثقات.

^{١٨١} القرآن الكريم: سورة الشورى ٤٢: ١٥.

^{١٨٢} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملء، ١: ١٣٤، (١٥٣).

مَنْ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ • أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^{١٨٣}. وقد أوضح محمد علي طه الدرّة مصطلح ﴿رسالات﴾، بصيغة الجمع إلى تعدد الموضوعات التي تضمنتها رسالة نوح ﷺ، والتي تشمل العقائد، والمواعظ، والأحكام الشرعيّة، وأن الجمع هنا يُعبر عن تكرار الرسائل عبر فترات مختلفة، أو عن تنوعها في مضامينها الدينية والتشريعية، وبما أوحى إليه، وإلى الأنبياء قبله، كصحف شيث، وإدريس^{١٨٤}. كما ورد استخدام هذا المصطلح في سياقات أخرى تؤكد معناه الواسع، كما في قوله تعالى على لسان صالح ﷺ ﴿لَقَدْ أبلغُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، حيث جاء بلفظ الأفراد، مما يدل على وحدة المصدر الإلهي للرسالة، رغم تنوع مضامينها^{١٨٥}. وكما يوضح الزحيلي أن التكذيب المستمر بدعوة نوح ﷺ أدى إلى وقوع العقاب الإلهي، حيث أغرق الله المكذّبين بالطوفان، كما ورد في قوله تعالى ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^{١٨٦}. ويفرق الزحيلي بين مصطلحي عَمِينَ وأَعْمَى موضحاً أن الأول يشير إلى العمى عن الحق؛ أي عمى القلوب وعدم الاستبصار بالحقائق الإلهية، بينما الثاني يستخدم في سياق العمى الحسي للبصر^{١٨٧}. يتبيّن من خلال التحليل أن دعوة نوح ﷺ لم تقتصر على التوحيد فحسب، بل يُفسر استخدام مصطلح ﴿رسالات﴾ بصيغة الجمع بأنه يشير إلى شمولها لمنظومة متكاملة من العقائد والأوامر الإلهية.

لقد أوحى الله ﷻ إلى نبيّه إبراهيم وموسى ﷺ وحياً وأنزل عليهما فسماه صحفاً، كما أخبر في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى • وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^{١٨٨}، جاء عند الزحيلي في تفسيره للآيات القرآنية الواردة في سورة النجم أن الله ﷻ أوحى إلى أنبيائه السابقين، ومنهم إبراهيم وموسى ﷺ، عبر صحف تضم تعاليم ومبادئ

^{١٨٣} القرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ٦٢-٦٣.

^{١٨٤} انظر: محمد علي طه الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، (دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٩)، ٣: ٥٣٤.

^{١٨٥} انظر: محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع في الإعجاز البياني واللغوي والعلمي، (بيروت: دار المعراج، ٢٠١١)، ٨: ١١٧.

^{١٨٦} القرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ٦٤.

^{١٨٧} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ٢٩: ١٤٢.

^{١٨٨} القرآن الكريم: سورة النجم ٥٣: ٣٦-٣٧.

تشريعية وإيمانية؛ وقد اقتصر ذكر هذين النبيين تحديداً لأن المشركين كانوا يدعون اتباع ملة إبراهيم عليه السلام، بينما كان أهل الكتاب يتمسكون بالتوراة. كما تم تقديم صحف موسى على صحف إبراهيم، على خلاف ما جاء في سورة الأعلى، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى • صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^{١٨٩}. وقد فسر الزحيلي تقديم صحف موسى عليه السلام على صحف إبراهيم عليه السلام رغم الترتيب الزمني الذي يقتضي العكس بعدة اعتبارات موضوعية تتصل بالسياق القرآني وبالتلقي الاجتماعي للنصوص الدينية في البيئة المخاطبة. ورغم أن الصحف نزلت على إبراهيم أولاً، إلا أن القرآن قدم ذكر صحف موسى عليه السلام هنا؛ نظراً لقرب عهدها واشتهارها بين المشركين وأهل الكتاب، بينما قدم صحف إبراهيم في موضع آخر من سورة الأعلى، ونظراً لسياق الحديث عن أقدمية الشرائع، فقد كان الحدث عن الصحف الأولى التي تضمنت المبادئ الأساسية للدين، بينما في سورة النجم، كان الهدف هو الاحتجاج بحجة أقوى عليهم من خلال ذكر صحف موسى أولاً^{١٩٠}. فهناك المبادئ العشرة المستنبطة من صحف موسى وإبراهيم عليه السلام، عند الزحيلي في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَرَىٰ وَازِرَةً وَّرَزْرَ أُخْرَى • وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى • وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى • ثُمَّ يُجْزَلُهُ أَجْزَاءَ الْوُفَى • وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنْتَهَى • وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى • وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا • وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى • مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى • وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخِرَى﴾^{١٩١}. فإن الآيات تشير إلى عشرة مبادئ أساسية تشكل دعائم العقيدة والأخلاق الإسلامية، وهي: أولاً: المسؤولية الفردية أي حيث لا يتحمل أحد وزر غيره، ثانياً: الثواب مرتبط بالعمل والنية، أي فكل فرد مرتبط بعمله، ولا ينال الإنسان إلا ما سعى إليه بنفسه؛ ثالثاً: الأعمال محفوظة ولا تضيع، أي: سواء كانت خيرة أم شريرة، فهي باقية ومؤثرة؛ رابعاً: الجزاء الأوفى لكل إنسان، أي حيث يعاقب المسيء بمثل إساءته، بينما تتضاعف الحسنات؛ خامساً: المصير إلى الله وحده، أي: فكل الناس سيعودون إليه ليحاسبهم وفق أعمالهم؛ سادساً: خلق الله الضحك والبكاء، وهو ما يميز الإنسان عن سائر المخلوقات؛ سابعاً: الله

^{١٨٩} القرآن الكريم: سورة الأعلى ٨٧: ١٩-١٨.

^{١٩٠} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ٢٧: ١٢٨-١٣٥.

^{١٩١} القرآن الكريم: سورة النجم ٥٣: ٣٨-٤٧.

هو خالق الموت والحياة وهو المدبر لهما ولأسبابهما؛ ثامناً: خلق الزوجين الذكر والأنثى، أي: من نطفة واحدة، مما يدل على وحدة الأصل البشري؛ تاسعاً: قدرة الله على البعث بعد الموت، أي: إذ أن إعادة الأجساد للبعث هي ضمن سنن الله في الخلق؛ عاشراً: التفاوت في الأرزاق، أي: حيث يرزق الله من يشاء ويقدر على من يشاء لحكمة إلهية^{١٩٢}. وبهذا، تبرز صحف إبراهيم وموسى ﷺ باعتبارها تمثل أصول العقيدة والتشريع في الرسالات السماوية، إذ إنها تتضمن مبادئ ثابتة في كل وحي إلهي؛ كما أن الشواهد التاريخية المذكورة في القرآن الكريم تسلط الضوء على الأبعاد العقدية والأخلاقية والتاريخية، مما يجعلها دعوة متجددة للتأمل في قدرة الله وعدالته. ولذا فإن سنن الله في الأمم لا تتغير؛ فهو يهلك الظالمين وينصر المؤمنين. لقد أنزل الله ﷻ التوراة على نبيه موسى ﷺ، والإنجيل على نبيه عيسى ﷺ ليكونا هدايةً ونوراً لبني إسرائيل، يخرجونهم من الظلمات إلى النور، ويعصموهم من الضلال والانحراف، شرط أن يعملوا بما جاء فيهما؛ كما قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ • مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾^{١٩٣}. وقد أورد البيهقي في السنن الكبرى باباً بعنوان: ذكرت كتب أنزلها الله تعالى قبل نزول القرآن، حيث بيّن فيه أن الكتب السماوية السابقة نزلت قبل القرآن الكريم، وجاء القرآن مهيمناً عليها. جاء الحديث ما رواه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»^{١٩٤}.

كانت دعوات الأنبياء متكاملة ومتسلسلة، تدعو إلى التوحيد، وتُرشد البشرية إلى عبادة الله وحده، لأن جميع الكتب السماوية نزلت من عند الله ﷻ، قال الله تعالى ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ

^{١٩٢} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ٢٧: ١٢٨-١٣٥.

^{١٩٣} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٢-٤.

^{١٩٤} انظر: البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب ذكرت كتب أنزلها الله تعالى قبل نزول القرآن، ١٩: ٢٣ (٨٦٨٧)، وانظر: الطبراني، المعجم الكبير، ٢٢: ٧٥، (١٠٩٦). قال المحقق: إسناده حسن ورجاله ثقات.

بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ»^{١٩٥}. ذكر محمد الهلال أن كلمة ثم في الآية جاءت للترقي في الأخبار، حيث أن إيتاء موسى ﷺ الكتاب أي: التوراة، كان تمامًا وكاملًا، أي أنه أنزل عليه دفعة واحدة، بخلاف القرآن الذي نزل مفرقًا؛ وأضاف أن معنى تمامًا أي تامةً وكاملًا، وذلك قبل مجيء النبي محمد ﷺ الذي نزل عليه القرآن الكريم متممًا لما سبق^{١٩٦}.

ولقد جاء الإنجيل مصدقًا للتوراة ومتممًا لأحكامها، وكما جاء القرآن الكريم ليصدق الكتب السابقة ويهيمن عليها؛ قال الله تعالى على لسان عيسى ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبِئُ إِسْرَءِيلَ إِنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^{١٩٧}. رغم أن التوراة والإنجيل نزلًا من عند الله، إلا أن بني إسرائيل لم يحفظوهما كما أنزلًا، فوقع فيهما التحريف، وتبديل الأحكام، وتغيير المعاني؛ قال الله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾^{١٩٨}. وقد بين الله تعالى في آيات عدة وقوع التحريف في الكتب السماوية على يد اليهود والنصارى؛ كما قال الله تعالى في وصف تحريف اليهود لكلامه بعد سماعه وفهمه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^{١٩٩}، وقال ﷺ في موضع آخر: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^{٢٠٠}؛ أما تحريف النصارى، فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^{٢٠١}. وينقسم التحريف في الكتب السابقة إلى نوعين: أولاً: الزيادة على النصوص الأصلية: حيث أضاف أهل الكتاب إلى كتبهم نصوصًا لم

^{١٩٥} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ١٥٣.

^{١٩٦} انظر: محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع، ٧: ٤٤.

^{١٩٧} القرآن الكريم: سورة الصف ٦١: ٦.

^{١٩٨} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١٣.

^{١٩٩} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ٧٥.

^{٢٠٠} القرآن الكريم: سورة النساء ٥: ٤٦.

^{٢٠١} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١٤.

تكن فيها، ونسبوها إلى الله زوراً؛ قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾^{٢٠٢}؛ ثانيًا: النقص بالحذف والتغيير: حيث حذفوا بعض النصوص أو بدّلوا معانيها. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^{٢٠٣}.

ثم أرسل الله تعالى النبي محمدًا ﷺ بالقرآن الكريم ليكون شاهدًا على الكتب السابقة، فيقرّر ما كان فيها من الحق، ويصحح ما وقع فيها من التحريف، كما بين الله تعالى أن النبي محمد ﷺ جاء ليكشف التحريف الذي وقع في كتبهم، فقال ﷺ: ﴿يَا هَلْ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^{٢٠٤}، ولقد جاء به الرسول ﷺ ليُطِلَ الأحكام التي نُسخَت ببعثته؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾^{٢٠٥}. وقد أوضح العلماء معنى "مُهَيِّمًا" بأنها تعني: مؤتمناً وشاهدًا على صحة الكتب السابقة^{٢٠٦}، وقيل: مصححًا لما طرأ عليها من تحريف وتبديل^{٢٠٧}، وقيل: ناسخًا لأحكامها التي انتهت أجلها، وقيل: بما أن الكتب السابقة لم تحفظ من التحريف^{٢٠٨}، فقد تكفل الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم، وجعله المصدر الوحيد الصالح لكل زمان ومكان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^{٢٠٩}. وهذا الوعد الإلهي بحفظ القرآن الكريم يميّزه عن الكتب السابقة، إذ لم يُوكَل

^{٢٠٢} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ٧٩.

^{٢٠٣} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٧٨؛ انظر: نخبة من العلماء، كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ١٣٩.

^{٢٠٤} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١٥.

^{٢٠٥} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ٤٨.

^{٢٠٦} انظر: الطبري، جامع البيان، ٦: ٩٢.

^{٢٠٧} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢: ٤٦.

^{٢٠٨} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١٢: ٤٥٩.

^{٢٠٩} القرآن الكريم: سورة الحجر ١٥: ٩.

الله حفظه إلى البشر، بل تعهد به بنفسه، ليبقى حجة على الناس جميعاً إلى يوم القيامة. ومن هنا، فإن القرآن الكريم هو المرجع الوحيد الموثوق لتصحيح الحقائق الدينية، وهو الذي يُحَكِّمُ في جميع القضايا العقدية والتشريعية، قال الله تعالى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾^{٢١٠}. ويرى بعض الباحثين أن منهجية الدعوة التي اتبعها النبي محمد ﷺ تتشابه مع أسلوب نوح عليه السلام، من حيث مراحل الدعوة ومواقف الرافضين لها؛ فقد واجه نوح عليه السلام استهجان قومه بسبب كونه بشراً يوحى إليه، وهو موقف مشابه لموقف كفار قريش تجاه النبي محمد ﷺ، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ • لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ • مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ • وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾^{٢١١}. وهذا ما يشير الزحيلي في تفسيره إلى أن هذا التماثل في الرفض والإنكار بين قوم نوح وكفار قريش يعكس سنناً اجتماعية متكررة في تلقي الرسالات الإلهية عبر التاريخ^{٢١٢}. ولذا، فإن رفض قوم نوح للرسالة الإلهية يعكس نمطاً متكرراً في التاريخ البشري، يشابه موقف كفار قريش من دعوة النبي محمد ﷺ.

وبما أن القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم، الذي لم يُحَرَفْ، فقد أصبح هو المصدر الأول للتشريع والهداية، فهو المهيمن على ما سبقه من الكتب، ولا يقبل من أحد اتباع غيره؛ قال الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^{٢١٣}. وقال الله تعالى عن الذين يؤمنون بالكتب السابقة إيماناً صحيحاً: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ • وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ

^{٢١٠} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ١١٥.

^{٢١١} القرآن الكريم: سورة فصلت ٤١: ٤١-٤٤.

^{٢١٢} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ٢٩: ١٤٢؛ وانظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢: ٤٦. وانظر: الرازي،

مفاتيح الغيب، ١٢: ٤٥٩.

^{٢١٣} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ١٥٥.

مُسْلِمِينَ ﴿٢١٤﴾. جاء في الحديث يُبَيِّنُ أن اتباع النبي محمد ﷺ واجب على جميع الناس، حتى لو كان الأنبياء السابقون أحياء، لما وسعهم إلا اتباعه، كما أورده عن جابر بن عبد الله ﷺ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب!»، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو يبطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني»^{٢١٥}. وعن مسألة النظر في الكتب السماوية السابقة؛ لقد أشار النووي بقوله: "كتب التوراة والإنجيل مما يحرم الانتفاع به، لأنهم بدلوا وغيروا"^{٢١٦}. كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه محضا لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله!، ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم»^{٢١٧}. قال الحافظ: "والذي يظهر أن كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم، والأولى في هذه المسألة التفرقة بين من لم يتمكن ويصر من الراسخين في الإيمان، فلا يجوز له النظر في شيء من ذلك، بخلاف الراسخ، فيجوز له، ولا سيما عند الاحتياج إلى الرد على المخالف"^{٢١٨}.

وهذا يدل على أن الأصل هو الاكتفاء بالقرآن الكريم بالنسبة إلى الكتب السماوية، إلا أن الراسخين في العلم، الذين لديهم القدرة على التمييز بين الحق والباطل، يجوز لهم

^{٢١٤} القرآن الكريم: سورة القصص ٢٨: ٥٢-٥٣.

^{٢١٥} أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، ١٣: ٣٤٩ (١٥١٥٦). خلاصة حكم الحديث: حسن. انظر: محمد ناصر الدين الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، إشراف: زهير الشاويش، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥) ٦: ٣٤.

^{٢١٦} أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٩٩١) ١٠: ٢٥٩.

^{٢١٧} البخاري، الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، ٩: ١١١، (٧٣٦٣).

^{٢١٨} ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ١٣: ٥٢٥.

الاطلاع على تلك الكتب عند الحاجة، خاصة للرد على الشبهات ودحض الادعاءات الباطلة. لقد أنزل الله الكتب السماوية مع الرسل لإقامة العدل ونشر الحق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^{٢١٩}، ولبیان أحكام الشرع وإرشاد الناس إليها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^{٢٢٠}.

من هنا يتبين لنا أن الإيمان بالكتب السماوية واجب شرعي، ويشمل الإيمان بالكتب السماوية التصديق الجازم بأنها منزلة من عند الله، والإيمان تفصيلاً بالكتب المذكورة في القرآن، والتصديق بما صح منها، مع الإيمان بأن القرآن الكريم هو المهيمن عليها والمصدق لها، وأنه يجب اتباعه ظاهراً وباطناً. لذا، يجب على المؤمنين الالتزام بتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والابتعاد عن المصادر الأخرى من الكتب السابقة التي قد تشتت انتباههم عن الحق، لأن القرآن هو المصدر الإلهي المحفوظ والخاتم، والمهيمن على جميع الكتب السابقة.

فالرسل جمع، ومفردا رسول، بمعنى مُرْسَل أي: مبعوث بإبلاغ شيء، والمراد هنا: من أحيى إليه من البشر بشرع وأمر بتبليغه أول الرسل نوح ﷺ، وخاتمهم محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^{٢٢١}. جاء في الحديث ما أخرجه البخاري في صحيحه، فقد روى عن أنس بن مالك ﷺ في حديث الشفاعة بأن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم فيعتذر إليه، قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يرينا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا عند ربنا، فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئته ويقول: اتوا نوحاً أول رسول بعثه الله،...»^{٢٢٢}. وآخر الرسل وخاتمهم محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ

^{٢١٩} القرآن الكريم: سورة الحديد ٥٧: ٢٥.

^{٢٢٠} القرآن الكريم: سورة النحل ١٦: ٤٣.

^{٢٢١} القرآن الكريم: سورة النساء ٤: ١٦٣.

^{٢٢٢} البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٨: ١١٦، (٦٥٦٥).

اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ^{٢٢٣}. ويتضمن الإيمان بالرسول أربعة أمور: أولاً: الإيمان بأن رسالتهم حق من عند الله؛ ثانياً: الإيمان بمن علمنا الله اسمه منهم^{٢٢٤}؛ ثالثاً: تصديق ما صح عنهم من أخبار؛ رابعاً: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد ﷺ، فقد نسخت شريعته جميع الشرائع السابقة^{٢٢٥}.

إن الإيمان بالرسول هو أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان العبد إلا بها، وهو الاعتقاد الجازم بأن الله أرسل في كل أمة رسولاً يدعوهم إلى التوحيد، ويبلغهم شرع الله، وقيم الحجة عليهم^{٢٢٦}. جاء في حديث النبي ﷺ عن دعائه في صلاة التهجد عند قيام الليل أنه كان يقول: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق»^{٢٢٧}. فشهادة النبي ﷺ أن النبيين حق، جاءت ضمن ما ذكره من أصول الإيمان العظيمة، كالإيمان بالله، وبوجود الجنة والنار، وقيام الساعة. وتقديمه ذلك بين يدي دعائه وقيامه دليل على أهمية الإيمان بالرسول والأنبياء ومكانته في الدين؛ لأنهم جاؤوا بالرسالات السماوية مكملَةً لبعضها البعض، وللدعوة إلى التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^{٢٢٨}، وقد بين الله في كتابه حكم من ترك الإيمان بالرسول؛ ومن لم يؤمن بأحدهم فقد كفر بالجميع، لأنهم جميعاً مرسلون من الله بدين واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

^{٢٢٣} القرآن الكريم: سورة الأحزاب ٣٣: ٤٠.

^{٢٢٤} لقد وردت في النصوص أسماء الرسل وأخبارهم وفضائلهم وخصائصهم ﷺ، وذكر في القرآن والسنة خمسة وعشرون نبياً ورسولاً. جاء ذكر ثمانية عشر منهم في القرآن الكريم سورة الأنعام ٦: ٨٣ - ٨٦، أما البقية فقد ورد ذكرهم في مواضع أخرى، مثل القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٣٣؛ والقرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ٦٥، ٧٣، ٨٥؛ والقرآن الكريم: سورة الأنبياء ٢١: ٨٥؛ والقرآن الكريم: سورة الفتح: ٢٩. انظر: نخبة من العلماء، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ١٦١. وانظر: إبراهيم محمد العلي، الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء ﷺ، (دمشق: دار القلم، ١٩٩٥)، ٨.

^{٢٢٥} انظر: العثيمين، شرح أصول الإيمان، ٣٤.

^{٢٢٦} انظر: عبد الرحمن بن حماد آل عمر، دين الحق، ط ٦ (المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٨)، ٧٨.

^{٢٢٧} البخاري الصحيح، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله، ٩: ١٤٤، (٧٤٩٩).

^{٢٢٨} القرآن الكريم: سورة النساء ٤: ٦٤.

الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا • أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿٢٢٩﴾، فأطلق الكفر على من كذب بالرسول أو فرق بينهم بالإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم^{٢٢٩}.

إن الرسل هم صفوة الخلق من البشر ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين، كما فسر ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾^{٢٣١}. أي أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والخواص الباهرة والأدلة الظاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من الله ﷻ^{٢٣٢}. ولذا؛ كان إرسال الرسل ﷺ من البشر جزءاً من مشيئة الله ﷻ في هداية الأمم، حيث اختارهم من أفضل الناس خلقاً، وأكملهم طاعةً لله، وأشدّهم توكلاً عليه، وأمدّهم بالوحي الذي يحمل منهج الله لإصلاح البشرية؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^{٢٣٣}، أي: فكانوا يحفظون هذا الوحي ويبلغونه، ويناقشون أقوامهم، ويواجهون تكذيب المكذبين، ويستمرّون في الدعوة حتى يُبلّغوا رسالة الله كما أمرهم؛ ولقد كان المكذبون من كل أمة يثيرون الشبهات حول بشرية الرسل ﷺ، مستنكرين أن يكون الرسول بشراً مثلهم، بحجة أن الإنسان مخلوق من مادة وروح، وله حاجاته وغرائزه التي في نظرهم تجعله غير مؤهل لنقل الرسالة الإلهية^{٢٣٤}؛ وقد ورد في القرآن الكريم ردٌّ واضحٌ على هذه الشبهة، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا

^{٢٢٩} القرآن الكريم: سورة النساء ١٥٠: ٤ - ١٥١.

^{٢٣٠} انظر: نخبة من العلماء، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ١٥٣.

^{٢٣١} القرآن الكريم: سورة الفرقان ٢٥: ٢٠.

^{٢٣٢} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ٥٨٣.

^{٢٣٣} القرآن الكريم: سورة الشورى ٤٢: ١٣.

^{٢٣٤} انظر: أحمد أحمد غلوش، دعوة الرسل ﷺ، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٢)، ٥٢٨.

جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُونَ^{٢٣٥}، والمعنى كما أشار إليه محمد علي طه الدرة في تفسيره بأن لو أرسل الله ﷺ رسولاً من الملائكة لجعله في صورة بشر، حتى يستطيع الناس التواصل معه وفهمه ولما انتفت الشبهة لديهم، بل لقالوا عنه إنه ليس ملكاً حقيقياً، كما كذبوا النبي محمداً ﷺ من قبل، فهذا يدل على استحالة إرسال رسول من الملائكة، لأن الحجة ستظل قائمة على المكذبين^{٢٣٦}.

العادة الرابعة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان بالرسول ﷺ

لقد واجه الرسل ﷺ منذ بعثتهم شبهات عديدة من أقوامهم، ومن أبرزها اعتراض الملائكة من قوم نوح ﷺ على كونه بشراً مثلهم، رافضين أن يكون في البشر من يستحق النبوة، كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^{٢٣٧}، حيث أنكروا بشرية نوح ﷺ وزعموا أنه لا فضل له عليهم، معتقدين أن التفاضل بين البشر أمر غير منطقي، إذ الجميع متساوون في البشرية، ومن ثم فلا يجوز أن يُبعث أحدهم رسولاً، كما أشار إلى ذلك محمد عمارة بقوله: "إنهم يرون أن التفاوت بين البشر لا يرقى إلى درجة أن يكون أحدهم رسولاً يجب طاعته، لأن ذلك يتناقض مع المساواة بينهم، معتبرين أن إرسال رسول بشري هو ترجيح بلا مرجح"^{٢٣٨}. غير أن نوحاً ﷺ لم يلتفت إلى هذه الشبهة، بل استمر في تبليغ الرسالة ونصح قومه بالإيمان بالله، كما قال تعالى على لسانه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^{٢٣٩}، ويفسر الزحيلي ذلك بأنه "كان يبلغهم كل ما أمر به من توحيد الله والإيمان بالغيب، وتوضيح أصول العبادات والمعاملات، وتقديم المواعظ والنصائح الصادقة المحذرة من عذاب الله"^{٢٤٠}. كما يؤكد الحديث النبوي الذي رواه

^{٢٣٥} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ٩.

^{٢٣٦} انظر: محمد علي طه الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، ٣: ٢٥١.

^{٢٣٧} القرآن الكريم: سورة المؤمنون ٢٣: ٢٤.

^{٢٣٨} انظر: محمد عمارة، رسالة التوحيد في دعوة الأنبياء، ٤٥.

^{٢٣٩} القرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ٦٢.

^{٢٤٠} انظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ٩: ٢١٠.

مسلم عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^{٢٤١}، مما يبين أن جوهر رسالة نوح ﷺ هو النصح والتوجيه والإرشاد إلى الخير؛ وقد رد نوح ﷺ على تعجب قومه من كونه بشراً يحمل رسالة من الله ﷻ، فقال لهم كما أخبر القرآن: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾^{٢٤٢}، وفسر ابن كثير ذلك بأن "الأمر ليس عجباً، فالله يبعث أنبياء من البشر رحمة بعباده ولطفاً بهم"^{٢٤٣}. كما أوضح الزحيلي بأن: "إرسال رسول من البشر ليس غريباً، بل هو رحمة إلهية ليحذر قومه من الشرك ويدعوهم إلى عبادة الله"^{٢٤٤}. لكن قلة قليلة من قوم نوح آمنت به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^{٢٤٥}، وقد اختلفت الروايات في عددهم، فقيل إنهم كانوا ثلاثة عشر، وقيل أربعين، أو حتى ثمانين فرداً، إلا أن ذلك يعكس رفض الأغلبية لدعوته رغم وضوح حجته^{٢٤٦} ومع ذلك، واصل دعوة نوح ﷺ إلى توحيد الله وتقواه، مبيناً لهم أن الطاعة هي سبيل النجاة، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا • وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِ إِلَّا أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^{٢٤٧}، فقد دعاهم إلى التقوى وجعلها سبيل النجاة من عذاب الله، مؤكداً أنه لا يريد منهم أجراً، بل إنما يقوم بذلك إخلاصاً لله ﷻ، وكان تكراره لدعوته دلالة على أهمية الامتثال لأوامر الله تعالى^{٢٤٨}. وأكد القرآن أن طاعة الرسول هي سبب المغفرة والنجاة من العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ • أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا • يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ

^{٢٤١} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان؛ باب بيان أن الدين النصيحة، ١: ٧٤، (٥٥).

^{٢٤٢} القرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ٦٢-٦٣.

^{٢٤٣} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣: ٤١٣.

^{٢٤٤} انظر: الزحيلي، التفسير المنير، ٩: ٢١٢.

^{٢٤٥} القرآن الكريم: سورة هود ١١: ٤٠.

^{٢٤٦} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٢: ٢٠٤.

^{٢٤٧} القرآن الكريم: سورة الشعراء: ١٠٥-١١٠.

^{٢٤٨} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٥٤٥.

وَيُؤَخِّرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٢٤٩﴾، مما يدل على أن طاعة الرسول هي طريق الهداية والمغفرة، لأن رسالة جميع الأنبياء واحدة، وهي توحيد الله وعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٥٠﴾، فكانت دعوة نوح ﷺ امتداداً لمنهج الأنبياء جميعاً، حيث دعا إلى عبادة الله وحده، وجعل الطاعة سبباً لمغفرة الذنوب والنجاة من العذاب، وربط الله بين طاعة الرسول وطاعته، ليكون هذا النهج ثابتاً لجميع الرسل الذين جاءوا بعده، مؤكداً أن النجاة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا لمن آمن واتبع سبيل الحق.

كان نبيُّ الله إبراهيم ﷺ مثلاً عظيماً للداعي إلى التوحيد، حيث دعا قومه إلى نبذ الشرك وعبادة الله وحده، مستخدماً في ذلك الأدلة العقلية والنقلية التي تثبت أن الله هو الخالق المستحق للعبادة، وقد قامت دعوته على التربية الإيمانية القائمة على غرس التوحيد وتصحيح العقائد الباطلة من خلال أساليب تعليمية متعددة تشمل الحوار والجدال بالحسنى والاستدلال العقلي والتذكير بنعم الله، ويتجلى هذا النهج التربوي في طاعته المطلقة لله، كما في امتهاله لأمر الله بذبح ابنه إسماعيل ﷺ حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاقَبْتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٢٥١﴾، وهذا الامتثال التام يمثل أعلى مراتب الطاعة والامتثال لأوامر الله، وهذا الأسلوب يؤكد أهمية التربية العقدية القائمة على التوحيد الخالص، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ﴿٢٥٢﴾، فسر ابن كثير في تفسير القرآن العظيم دعوة إبراهيم ﷺ تميزت بترسيخ مبدأ التوحيد الخالص وإبطال عبادة الأصنام ﴿٢٥٣﴾. ومن أبرز سمات دعوته أيضاً التأكيد على اتباع الحق ونبذ التقليد الأعمى، حيث دعا قومه إلى عدم الانقياد الأعمى وراء تقاليد الآباء، بل

٢٤٩ القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ١-٤.

٢٥٠ القرآن الكريم: سورة الأنبياء ٢١: ٢٥.

٢٥١ القرآن الكريم: سورة الصافات ٣٧: ١٠٢.

٢٥٢ القرآن الكريم: سورة الزخرف ٤٣: ٢٦-٢٧.

٢٥٣ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤: ٣٢١.

طلب منهم اتباع الدليل والحجة كما قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾^{٢٥٤}، أكد السعدي في تيسير الكريم الرحمن بضرورة اعتماد الدليل والبرهان في الاعتقاد، وقد أمر الله ﷻ إبراهيم ﷺ بإعلان فريضة الحج ليكون شعيرة دائمة تُظهر استمرارية دعوته إلى عبادة الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^{٢٥٥}، وقد استجاب الناس لهذا النداء عبر الأجيال، مما يعكس استمرارية دعوة إبراهيم ﷺ إلى التوحيد^{٢٥٦}. وأكدت السنة النبوية خطورة الشرك بالله كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سألتُ النبي ﷺ أيُّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^{٢٥٧}، مما يدل على أن التوحيد هو أعظم أمر يجب على الإنسان الالتزام به، وأن الشرك هو الذنب الأعظم الذي يناقض رسالة إبراهيم ﷺ. بناءً عليه؛ فإن دعوته المباركة كانت قائمة على الحجة والبرهان، وخاطب قومه بالأدلة العقلية والنقلية داعياً إياهم إلى عبادة الله وحده، مما يؤكد أهمية الاقتداء بأنبياء الله في نشر الحق واتباع التوحيد، والاعتماد على الأساليب التربوية الفعالة في غرس الإيمان في نفوس الأجيال القادمة.

لقد أظهر القرآن الكريم بشريّة موسى ﷺ في مواضع عدة، منها رحلته مع فتاه للقاء العبد الصالح، حيث أصابهما التعب والجوع، فقال موسى ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا • فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^{٢٥٨}، وهذا يدل على أن الأنبياء بشر يعترفهم ما يعتري الناس من الضعف والحاجة للطعام والراحة، مما يؤكد بطلان اعتراض فرعون بأن البشر لا يمكن أن يكونوا رسلاً^{٢٥٩}. كما

^{٢٥٤} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٤٣.

^{٢٥٥} القرآن الكريم: سورة الحج ٢٢: ٢٧.

^{٢٥٦} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٢: ٨٩.

^{٢٥٧} انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، باب ذكر الله بالأمر وباب قول الله تعالى فلا تجعلوا لله أنداداً، ٩:

١٥٢، (٧٥٢٠).

^{٢٥٨} القرآن الكريم: سورة الكهف ١٨: ٦٠-٦٢.

^{٢٥٩} انظر: الشوكاني، فتح القدير، ١٦٥.

طلب موسى ﷺ من ربه العون على تبليغ رسالته، فطلب أن يشرح له صدره، ويسر له أمره، وأن يجعل له وزيراً من أهله يعينه، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي • وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي • وَأَحْلِلْ غَدَّةً مِنْ لِسَانِي • يَفْقَهُوا قَوْلِي • وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي • هَارُونَ أَخِي • اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي • وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾^{٢٦٠}، وهذا يبين أن مهمة البلاغ تحتاج إلى الاستعداد النفسي واللغوي والاجتماعي، وقد استجاب الله تعالى له، فأيده بأخيه هارون نبياً ووزيراً له في الدعوة^{٢٦١}. عندما أرسل الله موسى وهارون ﷺ إلى فرعون وملئه، كذبه، واستهانوا بهما، محتجين بأنهما مجرد بشر لا يختلفان عنهم، قائلين: ﴿فَقَالُوا أَنْتُمَنْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ • فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾^{٢٦٢}، وهذا يدل على أن فرعون وملأه لم يكن لديهم حجة عقلية للرد على دعوة موسى، فكان اعتراضهم قائماً على الاستكبار والعلو، وليس على بطلان الدعوة نفسها^{٢٦٣}. قد أرسل الله ﷻ الرسل ﷺ لهداية الناس إلى الإيمان به، وأوجب عليهم طاعتهم واتباعهم، فقال الله تعالى على لسان موسى ﷺ لفرعون: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى • إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾^{٢٦٤}، وهذا يبين أن السلامة والهداية في اتباع رسل الله، والإيمان بما جاؤوا به، كما أكد ذلك مؤمن آل فرعون حين قال: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^{٢٦٥}. من هنا، يتبين لنا أن القرآن أثبت بشرية الأنبياء، وأنهم يتعرضون لما يتعرض له سائر الناس، مما يدحض حجج المشركين الذين كذبوا الرسل بحجة أنهم بشر مثلهم. وقد أوضح القرآن أن فرعون وملأه كذبوا موسى وهارون لا لضعف الحجة، ولكن استكباراً وتعالى على الحق، كما أكد القرآن وجوب اتباع الرسل، وأن الهداية والنجاة تكون في اتباعهم والإيمان بما جاؤوا به؛ ويؤكد الحديث النبوي هذا المعنى، حيث قال النبي ﷺ: «إنما أنا بشرٌ مثلكم، أنسى كما

^{٢٦٠} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ٢٥-٣٢.

^{٢٦١} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٦: ١١٢.

^{٢٦٢} القرآن الكريم: سورة المؤمنون ٢٣: ٤٧-٤٨.

^{٢٦٣} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ٣٢٥.

^{٢٦٤} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ٤٧-٤٨.

^{٢٦٥} القرآن الكريم: سورة غافر ٤٠: ٣٨.

تسبون، فإذا نسيت فذكروني»^{٢٦٦}. وهذا يدل على أن الرسل، رغم تأييد الله لهم بالوحي والمعجزات، فإنهم يضلون بشرًا، مما يقطع الطريق أمام الشبهات التي اعترض بها الكفار على دعوتهم.

لقد أكد الله ﷻ في القرآن الكريم أن عيسى ﷺ رسول من عنده، شأنه شأن الرسل ﷺ الذين سبقوه، وأنه بشر يحتاج إلى الطعام والشراب كما يحتاج كل إنسان، وهذا دليل قاطع على بطلان دعوى ألوهيته التي ادّعاها بعض النصارى؛ قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفِكُونُ﴾^{٢٦٧}، وهذا النص القرآني يبين أن عيسى وأمه ﷺ كانا في حاجة إلى الطعام، وهذا من أوضح الأدلة على بشريتهما، لأن من يحتاج إلى الغذاء للحفاظ على حياته، لا يمكن أن يكون إلهًا^{٢٦٨}. ثم جاء تبليغ عيسى ﷺ لرسالته على أكمل وجه، فقد أرسله الله ﷻ برسالة التوحيد، وبلغ قومه أنه عبد لله، جاء ليلبّغهم أوامر الله، وليس ليعبد من دونه، فقال تعالى على لسانه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^{٢٦٩}، وفي هذا التصريح من عيسى ﷺ إشارة إلى أنه لم يدع الألوهية، ولم يأمر قومه بعبادته، وإنما دعاهم إلى عبادة الله وحده، كما أمره ربه^{٢٧٠}. ثم جاءت دعوة عيسى ﷺ إلى تقوى الله واتباع أوامره، فقد ركزت رسالته على دعوة الناس إلى تقوى الله وطاعته واتباع ما أنزل إليهم من شرائع، فقال تعالى على لسانه: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا • إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^{٢٧١}، وفي هذا تأكيد أن الطريق المستقيم هو عبادة الله تعالى وحده، والتزام منهجه

^{٢٦٦} البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة: باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١: ٨٩، (٤٠١).

^{٢٦٧} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ٧٥.

^{٢٦٨} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٠: ٤١٠.

^{٢٦٩} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١١٧.

^{٢٧٠} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢: ٢٢٥.

^{٢٧١} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٥٠-٥١.

الذي بلغه أنبياءؤه، وليس الغلو في تعظيم الرسل وجعلهم آلهة تُعبد من دونه^{٢٧٢}. لقد أثبت القرآن الكريم بشرية عيسى ﷺ وأوضح حاجته للطعام، مما يدل على استحالة كونه إلهًا؛ كما أكد القرآن أن عيسى ﷺ بلغ رسالة ربه دون زيادة أو نقصان، ولم يأمر قومه بعبادته. لقد دعا عيسى ﷺ إلى عبادة الله وحده، وبين أن هذا هو الطريق المستقيم؛ ويؤكد الحديث النبوي هذا المعنى، حيث قال النبي ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^{٢٧٣}. وهذا الحديث يؤكد أن عيسى ﷺ عبدٌ لله ورسوله، وأن الإيمان الصحيح يقتضي الإقرار بعبوديته لله، ونفي أي شبهة للألوهية عنه.

لقد أرسل الله النبي محمدًا ﷺ خاتمًا للأنبياء، وشريعته ناسخة لما سبقها، وأوجب الله على جميع الناس اتباعه، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^{٢٧٤}. وقد أوضح النبي ﷺ وجوب الإيمان به، عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^{٢٧٥}. أوضح عبد الرحمن بن حماد بأن جميع من في الأرض أمةٌ لمحمد ﷺ، ملزمون من عند الله باتباعه، وموسى وعيسى وجميع الرسل بريئون ممن لا يتبع محمدًا ﷺ، ومن لم يؤمن به لم ينفعه إيمانه بالأنبياء الآخرين^{٢٧٦}، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^{٢٧٧}. لقد ظهرت بشرية النبي

^{٢٧٢} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٨: ٩٤.

^{٢٧٣} انظر: البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ٤: ١٦٥، (٣٤٣٥)

^{٢٧٤} القرآن الكريم: سورة الأحزاب ٣٣: ٤٠.

^{٢٧٥} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملء، ١: ١٣٤، (١٥٣).

^{٢٧٦} انظر: عبد الرحمن بن حماد آل عمر، دين الحق، ط ٦ (المملكة العربية السعودية: ٢٠٠٨)، ٧٨.

^{٢٧٧} القرآن الكريم: سورة سبأ ٣٤: ٢٨.

محمد ﷺ ووجوب طاعته واتباعه في القرآن الكريم والسنة النبوية، ولم يكن النبي محمد ﷺ بدعاً من الرسل، بل كان خاتمهم وأفضلهم، وقد هيأه الله تعالى تهيئةً خاصةً تتناسب مع المهمة العظيمة التي اصطفاه لها، وهي تبليغ آخر الرسالات السماوية. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾^{٢٧٨}. وقد أكد النبي ﷺ ذلك بنفسه حين قال: "إنما أنا بشر، أذكر كما تذكرون، وأنسى كما تنسون"^{٢٧٩}. كانت مهمة النبي ﷺ هي البلاغ، فلم تكن وظيفته إجبار الناس على الإيمان، بل كانت وظيفته البلاغ والبيان، أما الهداية فهي بيد الله ﷻ؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^{٢٨٠}. جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال النبي ﷺ بمنى: أتدرون أي يوم هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: فإن هذا يوم حرام، أفْتَدْرُونَ أي بلد هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: بلد حرام، أفْتَدْرُونَ أي شهر هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهر حرام، قال: فإن الله حرم عليكم دمائكم وأموالكم وأعراضكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا» وقال هشام بن الغاز: أخبرني نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما: وقف النبي ﷺ يوم النحر بين الجمرات، في الحجة التي حج، بهذا، وقال: هذا يوم الحج الأكبر، فطفق النبي ﷺ يقول: «اللهم أشهد، وودع الناس»، فقالوا: هذه حجة الوداع^{٢٨١}. وهذا يعني أن دور النبي ﷺ كان يقتصر على إيضاح الطريق إلى الله للناس، وترك الاختيار لهم دون إكراه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُبِينِ﴾^{٢٨٢}. وجوب طاعة النبي ﷺ واتباعه من الأمور التي أكدها القرآن الكريم، لأن طاعته من طاعة الله، وهي السبيل الوحيد للهداية والفوز العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^{٢٨٣}. وقد أكد النبي ﷺ هذا

^{٢٧٨} القرآن الكريم: سورة الكهف ١٨ : ١١٠.

^{٢٧٩} مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ١ : ٤٠٢، (٥٧٢).

^{٢٨٠} القرآن الكريم: سورة الرعد ١٣ : ٤٠.

^{٢٨١} البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ٢ : ١٧٧، (١٧٤٢).

^{٢٨٢} القرآن الكريم: سورة النور ٢٤ : ٥٤.

^{٢٨٣} القرآن الكريم: سورة الأحزاب ٤٤ : ٧١.

المعنى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»^{٢٨٤}. ومن هنا، فكل من لم يؤمن به ويتبعه فهو كافر، وإن زعم أنه متبع لأحد الأنبياء السابقين، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^{٢٨٥}. لقد بشر الأنبياء السابقون بقدوم النبي محمد ﷺ، فقد جاء ذكره في أكثر من أربعين موضعاً في التوراة والإنجيل، يقرؤها اليهود والنصارى قبل أن يتلاعبوا بهذين الكتابين ويحرفوهما^{٢٨٦}. قال النبي ﷺ: «إني عند الله مكتوبٌ خاتم النبيين وإن آدم لمجدل في طينته بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم»^{٢٨٧} بناءً عليه، أن أولي العزم من الرسل عليهم السلام منهم النبي محمد ﷺ كان بشراً مثلنا، لكنه كان يوحى إليه، وهذا ما يميزه عن غيره؛ ومهمته الأساسية كانت البلاغ عن الله، وليس الإكراه أو الجبر على الإيمان؛ وطاعة النبي ﷺ واجبة، لأنها امتداد لطاعة الله، وهي الطريق إلى الهداية والفوز العظيم.

العادة الخامسة: مداومة أولي العزم من الرسل عليهم السلام على الإيمان باليوم الآخر

كان سيدنا نوح عليه السلام من أوائل الرسل الذين حذروا أقوامهم من عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة، منذ اللحظة الأولى من بعثته، حيث قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ

^{٢٨٤} البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، ٩: ٦١، (٧١٣٧).

^{٢٨٥} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ١٩.

^{٢٨٦} لمعرفة المزيد من التفصيل حول البشارات بمحمد ﷺ كما وردت في التوراة والإنجيل. انظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن، وعبد العزيز بن إبراهيم وحمدان بن محمد، ط ٢ (السعودية: دار العاصمة، ١٩٩٩)، ٥: ١٩٧-٢٨٤. وانظر: حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ٣٢٨.

^{٢٨٧} أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، ٢٨: ٣٩٥ (١٧١٦٣)، خلاصة حكم الحديث: صحيح.

فَقَالَ يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ^{٢٨٨}، استخدم سيدنا نوح عليه السلام عدة أساليب لغوية تؤكد حتمية وقوع العذاب لمن كذب دعوته، كما استخدام التوكيد بـ "إن" و "عليكم" وتنكير "العذاب" ووصفه بـ "العظيم"، مما يدل على خطورة ذلك اليوم، والتخويف هنا نابع من الرحمة، فالنبي لا يُنذر قومه إلا رغبةً في هدايتهم وإنقاذهم من العذاب^{٢٨٩}؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى^{٢٩٠}﴾. فقد الربط بين التوحيد والإيمان باليوم الآخر، وهو نخط متكرر في القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا^{٢٩١}﴾. لقد بين سيدنا نوح عليه السلام أن العذاب الدنيوي الذي حلّ بالكافرين بطوفان نوح هو نذيرٌ للعذاب الأكبر في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ^{٢٩٢}﴾، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: أي سينزل بكم عذاب يُخْزِيكم في الدنيا، وعذاب آخر دائم في الآخرة، لا ينقطع عنكم أبداً^{٢٩٣}. وذكر الزمخشري بأن العذاب المخزي هو العذاب الذي يُذل صاحبه، مثل الطوفان، أما العذاب المقيم فهو عذاب النار الذي لا ينقطع^{٢٩٤}. يربط القرآن الكريم بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، باعتبارهما أساس العقيدة الصحيحة، كما جاء في خطاب سيدنا نوح لقومه عندما سخر قوم نوح من رسالته، حذّره من نوعين من العذاب، وهما العذاب الدنيوي المؤقت مثل الطوفان، والعذاب الأخروي الدائم؛ ثم جاء الرد على اعتراضات قوم نوح حول الإيمان بالآخرة، مع استهزاء قوم نوح بالفقراء من أتباعه، وطالبوه بطردهم، لكنه رفض ذلك وأكد أنهم إلى الله راجعون، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَّوْا رَحْمَةً^{٢٩٥}﴾. أكد

^{٢٨٨} القرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ٥٩.

^{٢٨٩} انظر: الشعراوي، الاخواط، ٧: ٤٢٠٣.

^{٢٩٠} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ١٢٧.

^{٢٩١} القرآن الكريم: سورة النبأ ٧٨: ٤٠.

^{٢٩٢} القرآن الكريم: سورة هود ١١: ٣٩.

^{٢٩٣} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢: ٤٥٠.

^{٢٩٤} انظر: الزمخشري، الكشاف، ٢: ٣١٢.

^{٢٩٥} القرآن الكريم: سورة هود ١١: ٢٩.

لهم حتمية البعث بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا • ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾^{٢٩٦}. قال الطبري: "هذا دليل على أن من أنشأ الخلق قادر على إعادتهم، وهو برهان على البعث"^{٢٩٧}. ولذا فإن سيدنا نوح عليه السلام لم يكتف بالتحذير، بل دعا قومه بأسلوب الموعظة والتذكير بنعمة الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا • يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا • وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَهْرًا﴾^{٢٩٨}. جاء في الحديث عن إنذار نوح عليه السلام لقومه من الدجال، من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إني لأنذركموه وما من نبي إلا أنذره قومه لقد أنذر نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور»^{٢٩٩}. وحالة نوح عليه السلام مع قومه يوم القيامة، من حديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ، ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسط العدل؛ فيدعون، فيشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم»^{٣٠٠}. يُظهر لنا بأن دعوة نوح عليه السلام قامت على التوحيد والإيمان باليوم الآخر، وركز على التخويف من العذاب الدنيوي والأخروي، كما استخدم أساليب الترغيب والترهيب لهداية قومه، وهو النهج الذي سار عليه جميع الأنبياء من بعده.

^{٢٩٦} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ١٧-١٨.

^{٢٩٧} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٣: ٢١٠.

^{٢٩٨} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ١٠-١٢.

^{٢٩٩} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه، ٤: ١٣٤ (٣٣٣٧).

^{٣٠٠} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه، ٤: ١٣٤ (٣٣٣٩)،

البخاري، الصحيح، سورة البقرة: باب قوله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، ٦: ٢١ (٤٤٨٧)، البخاري،

الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، ٩: ١٠٧، (٧٣٤٩).

إن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان من أوائل الأنبياء الذين ركزوا على ترسيخ مفهوم البعث والجزاء، سواء في دعوته لأبيه آزر، أو في دعوته لقومه، حيث خاطبهم بلغة الإنذار والوعيد، مؤكداً حتمية اليوم الآخر وأثره في مصير الإنسان. جاء إنذار سيدنا إبراهيم لأبيه آزر بعذاب يوم القيامة، كان سيدنا إبراهيم عليه السلام شديد الحرص على نجاة أبيه من عذاب الآخرة، لذلك خاطبه بأسلوب لطيف، مستخدماً عبارات الرحمة والخوف عليه، كما قال الله تعالى: ﴿يَأْتِني أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾^{٣٠١}. استخدام كلمة "أبت" يدل على احترام إبراهيم عليه السلام لأبيه، رغم كفره، إني أخاف أن يمسك عذاب": يعكس مدى شفقة إبراهيم عليه، فهو لا يخاطبه بأسلوب التهديد، بل يحذره بأسلوب المحب الناصح. وصف الله بـ "الرحمن": للدلالة على أن عذابه لا يقع إلا على من استحقه. قال الرازي: "إبراهيم لم يذكر العذاب مباشرة، بل أشار إليه بصيغة خوفه عليه، وهذا أسلوب يدل على شدة الحرص على هدايته"^{٣٠٢}. وذكر الطبري: "في قوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾"^{٣٠٣}. تحذير من أن يصبح آزر في صف الشيطان يوم القيامة، فيدخل في عذابه"^{٣٠٤}. جاء في الحديث عن حال والد إبراهيم عليه السلام من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يلقى إبراهيم أباه يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون فأني خزي أخزي من أبي الأبعد فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجلحك فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»^{٣٠٥}. ثم جاء تحذير إبراهيم عليه السلام لقومه من اليوم الآخر وأثره في الهداية، وكانت دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لم تقتصر على أبيه، بل شملت لقومه، حيث حذرهم من عاقبة الشرك والضلال في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَابْرُهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن

^{٣٠١} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٤٥.

^{٣٠٢} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١١: ٦٢.

^{٣٠٣} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٤٥.

^{٣٠٤} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٦: ٢١١.

^{٣٠٥} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلاً، ٤: ١٣٩ (٣٣٥٠).

كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^{٣٠٦}.

جاءت الآية باستخدام ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يؤكد على حتمية البعث والجزاء في الآخرة؛ وإثبات أن الأوثان لا تملك شيئاً، فلا يمكن أن تكون مصدراً للرزق أو النجاة؛ وأن الدعوة إلى التوحيد مقرونة بالإيمان باليوم الآخر، لأن من يؤمن بالبعث لا يمكن أن يُعرض عن الله. قال ابن كثير: "هذه الآيات تؤكد أن الحجة التي أقامها إبراهيم على قومه تتعلق بضعف آلهتهم، وعجزها عن نفعهم يوم الحساب"^{٣٠٧}. وذكر الزمخشري بأن هذه عبارة ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ جاءت في سياق دعوة التوحيد؛ لأن الإيمان بالآخرة أعظم رادع عن الشرك^{٣٠٨}. ثم جاء تذكير قومه بأن الآخرة خير وأبقى أكد سيدنا إبراهيم عليه السلام أن الدار الآخرة خير وأبقى من الدنيا الفانية، حيث قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى • إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى • صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^{٣٠٩}. تقديم ﴿تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يدل على أن حب الدنيا هو السبب الرئيسي للغفلة عن الآخرة؛ وتقرير أن الآخرة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ مما يؤكد أنها الغاية الحقيقية للإنسان؛ وذكر صحف إبراهيم وموسى عليه السلام، دليل على أن هذه العقيدة ثابتة في جميع الشرائع السماوية، كما فسر القرطبي هذه الآيات تذكر الناس بأن الانشغال بالدنيا يجعلهم يغفلون عن نعيم الآخرة، الذي هو أبقى وأدوم^{٣١٠}. أوضح الشعراوي بأن ذكر صحف إبراهيم هنا دليل على أن حقيقة الآخرة ثابتة منذ القدم، وليست بمجديدة^{٣١١}. لقد طلب سيدنا إبراهيم من الله هداية قومه مع التحذير من العذاب، دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام ربه بأن يجعل البلد الحرام آمناً، ويرزق أهله المؤمنين، لكنه استثنى الكافرين من هذه النعمة المطلقة، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ

^{٣٠٦} القرآن الكريم: سورة العنكبوت ٢٩: ١٦-١٧.

^{٣٠٧} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦: ٤٥١.

^{٣٠٨} انظر: الزمخشري، الكشاف، ٣: ١٥٤.

^{٣٠٩} القرآن الكريم: سورة الأعلى ٨٧: ١٦-١٩.

^{٣١٠} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩: ٢١١.

^{٣١١} انظر: الشعراوي، الخواطر، ٥: ٢٧٨.

أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ^{٣١٢}. أشار الزحيلي في هذه الآية بأن نعيم الدنيا مؤقت، لأن الكافر يتمتع قليلاً ثم يعذب، وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر معاً، لأنه بدون الإيمان بالآخرة لا يكتمل الإيمان بالله. وصف النار بأنها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي أنها مستقر سيئ للغاية لمن كفر^{٣١٣}. ولذا فإن سيدنا إبراهيم ﷺ كان من أكثر الأنبياء تركيزاً على الإيمان باليوم الآخر، حيث استخدم أسلوب التذكير والإنذار والتحذير، كما أنه ربط التوحيد باليوم الآخر، مما يدل على أن الإيمان بالآخرة هو أعظم الدوافع على الطاعة والبعد عن الشرك؛ جاء في الحديث أن إبراهيم ﷺ أول من يكسى يوم القيامة، من حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^{٣١٤}، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أيقول: إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله ﴿الْحَكِيمُ﴾^{٣١٥}»^{٣١٦}. لقد جاء في الحديث بأن كفالة إبراهيم ﷺ لذراري المسلمين يوم القيامة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «إن ذراري المؤمنين في الجنة يكفلهم إبراهيم ﷺ»^{٣١٧}. ثم جاء الحديث ما أخرجه البخاري في صحيحة في باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، فقد روي عن سمرة بن جندب رضي الله عنه من رؤية رآها النبي محمد ﷺ، حيث رأى رجلين أخذاً بيده وأرياه مشاهد متعددة؛ في أحد هذه المشاهد، رأى رجلاً طويلاً في روضة خضراء، وحوله أطفال كثيرون، فسّر له المرافقان أن هذا الرجل هو النبي إبراهيم ﷺ، والأطفال حوله هم كل مولود مات على الفطرة، قال رسول الله ﷺ: «.....وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على

^{٣١٢} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ١٢٦.

^{٣١٣} انظر: الزحيلي، تفسير المنير، ٩: ٣٢٥.

^{٣١٤} القرآن الكريم: سورة الأنبياء ٢١: ١٠٤.

^{٣١٥} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١١٧-١١٨.

^{٣١٦} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلاً، ٤: ١٣٩ (٣٣٤٩).

^{٣١٧} الحاكم، المستدرک علی الصحيحین، ٢: ٤٠١ (٣٣٩٩)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

الفطرة. قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله!، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين»^{٣١٨}. شرح ابن الحجر العسقلاني كما ورد في فتح الباري شرح صحيح البخاري حيث قال عند قوله ﷺ: «وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم...» أي: "وإنما اختص إبراهيم لأنه أبو المسلمين؛ وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة؛ لقد اختصص إبراهيم ﷺ بهذا المشهد يعود إلى مكانته كأب للمؤمنين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾^{٣١٩}؛ أما الأطفال الذين حوله، فهم الذين ماتوا صغارًا قبل أن يبلغوا سن التكليف، سواء كانوا من أبناء المسلمين أو المشركين، حيث يُعتبرون ماتوا على الفطرة^{٣٢٠}. هذا الحديث يُظهر رحمة الله بالأطفال الذين ماتوا صغارًا، حيث يكونون في رعاية النبي إبراهيم ﷺ في الجنة؛ جاء في الحديث عن تبليغ السلام من إبراهيم ﷺ لأمة محمد ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد!، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»^{٣٢١}.

وقد ظهر في دعوة سيدنا موسى ﷺ لقومه ولفرعون، حيث أكد على حتمية الحساب والجزاء بعد الموت، محذراً من عذاب الآخرة، كما بينه القرآن الكريم في مواضع متعددة. بعد أن أظهر سيدنا موسى ﷺ معجزاته أمام السحرة في البلاط الفرعوني، أدركوا أن ما جاء به ليس سحرًا بل هو من عند الله، فأمنوا به ورفضوا التراجع عن إيمانهم، رغم تهديد فرعون لهم بالقتل والصلب، وقالوا له كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • إِنَّا ءَامِنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى • إِنَّهُ مَن يَأْتِ

^{٣١٨} البخاري، الصحيح، كتاب التعبير، باب باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، ٩: ٤٤ (٧٠٤٧).

^{٣١٩} القرآن الكريم: سورة الحج ٢٢: ٧٨.

^{٣٢٠} انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ١٢: ٤٤٥.

^{٣٢١} انظر: الترمذي، السنن، كتاب أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب باب ما جاء في فضل الدعاء، ٥:

٤٥٥، (٣٤٦٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود ﷺ.

رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى^{٣٢٢}، فسر الطبري في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾^{٣٢٣}، أي: تأكيد على أن الإيمان بالحق أقوى من تهديد الطغاة؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^{٣٢٤}، أي: إدراكهم لحقيقة الحياة الدنيا، وأن فرعون لا يملك إلا سلطاناً مؤقتاً زائلاً. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾^{٣٢٥}، أي: تخويف فرعون بعذاب يوم القيامة، مما يدل على تغلغل الإيمان بالآخرة في نفوسهم. حيث قال الطبري: "يخبر الله تعالى عن السحرة أنهم اختاروا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، وهذا يدل على قوة إيمانهم وصدق يقينهم بعذاب يوم القيامة"^{٣٢٦}. وذكر ابن عاشور بأن عبارتهم تدل على أنهم لم يخشوا فرعون، بل خافوا الله الذي سيحاسبهم يوم القيامة^{٣٢٧}. ثم جاء تحذير مؤمن آل فرعون من عذاب يوم القيامة كان هناك رجل في بلاط فرعون، يُعرف بمؤمن آل فرعون، وقد آمن برسالة موسى ﷺ سرّاً، لكنه واجه فرعون وقومه بحقيقة اليوم الآخر، محذراً إياهم من عذاب الله، فقال كما أخبر القرآن الكريم: ﴿وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ • يَوْمَ تُثْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^{٣٢٨}. لقد بين ابن كثير بأن يصف يوم القيامة بأنه يوم النداء، حيث ينادي الناس بعضهم فلا مجيب، وهي صورة مرعبة تعكس شدة العذاب والهلع؛ وصف لحالة الفرار من العذاب يوم القيامة، لكنهم لن يجدوا مهرباً؛ وتأكيد على أن لا مفر من حساب الله، ولا حماية من عذابه؛ حيث قال ابن كثير: "تحذير مؤمن آل فرعون لقومه يظهر مدى إيمانه باليوم الآخر، فقد كان يدرك أن الدنيا زائلة، وأن العذاب الحقيقي هو عذاب الآخرة"^{٣٢٩}. وقال القرطبي: "قوله: ﴿يَوْمَ تُثْلَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ يشير إلى

^{٣٢٢} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ٧٢-٧٤.

^{٣٢٣} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ٧٢.

^{٣٢٤} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ٧٢.

^{٣٢٥} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ٧٤.

^{٣٢٦} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٦: ٢١٠.

^{٣٢٧} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٩: ٤٥٢.

^{٣٢٨} القرآن الكريم: سورة غافر ٤٠: ٣٢-٣٣.

^{٣٢٩} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦: ٢٣٢.

هروب الناس يوم القيامة، لكنهم لن يجدوا مهرباً، وهو تصوير لحالة اليأس التام^{٣٣٠}. ثم توعده الله لفرعون وجنوده بعذاب يوم القيامة ظن فرعون أنه سيخلد في ملكه، لكنه نسي أن هناك حساباً في الآخرة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ • فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾^{٣٣١}. يبيّن لنا أن فرعون كان يعتقد أنه لن يحاسب، كما ذكر محمد الهلال في تفسيره بأن: "استكبر فرعون وجنوده في أرض مصر من دون مبرر للكبر، استكبروا لأنهم ظنوا أنه لا بعث ولا حساب ولا عقاب، وأنهم لا يرجعون، والاستكبار هو إظهار عظم شأنهم فوق ما يستحقون^{٣٣٢}. ثم تأكيد أن الآخرة هي دار الاستقرار قال مؤمن آل فرعون لقومه محذراً إياهم من الغفلة عن الآخرة: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ • يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾^{٣٣٣}. ذكر ابن جوزي قال: "ثم عاد الكلام إلى نصيحة المؤمن لقومه إلى طريق الهدى، بأن الحياة في هذه الدار متاع يُمتنع بها أياماً ثم تنقطع ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ التي لا زوال لها^{٣٣٤}. تبين لنا أن دعوة سيدنا موسى ﷺ لقومه ولفرعون كانت مبنية على الإيمان باليوم الآخر، حيث استخدم الإنذار والتحذير والترهيب، كما بيّن أن الحياة الحقيقية هي الآخرة، وليس الدنيا الفانية.

وقد ظهر بوضوح في دعوة سيدنا عيسى ﷺ، حيث أكّد على حتمية الحساب والجزاء بعد الموت، وبيّن مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة، كما ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع. كما جاء تحذير الكافرين بعذاب يوم عظيم يُخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى توعّد الذين كفروا بسيدنا عيسى ﷺ بعذاب أليم عند شهود يوم القيامة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^{٣٣٥}. فسّر الطبري المقصود بالويل هنا هو "الهلاك

^{٣٣٠} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٤: ص ٨٩.

^{٣٣١} القرآن الكريم: سورة القصص ٢٨: ٣٩-٤٠.

^{٣٣٢} انظر: محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع، ٢٠: ٧٧.

^{٣٣٣} القرآن الكريم: سورة غافر ٤٠: ٣٨-٣٩.

^{٣٣٤} انظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ٤: ٣٩.

^{٣٣٥} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٣٧.

الشديد والعذاب الأليم يوم القيامة" ٣٣٦. وذكر ابن كثير: "الآية تحذيرٌ للكافرين من مشهد يوم القيامة، وهو اليوم الذي يُبعث فيه الناس للحساب" ٣٣٧. ثم جاء اختبار إيمان الحواريين وإثبات الجزاء الأخروي طلب الحواريون من سيدنا عيسى ﷺ أن يسأل ربه أن يُنزل عليهم مائدة من السماء لتكون لهم آية، فقال الله تعالى مخاطبًا عيسى ﷺ: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٣٣٨. هذه إشارة إلى أن الصدق في الإيمان والعمل الصالح سينفع صاحبه يوم القيامة، وتصوير لنعيم أهل الجنة، حيث يخلدون فيها أبدًا، وأعظم درجات النعيم هو رضا الله عن عباده الصالحين، وأن الفوز الحقيقي هو النجاة من النار ودخول الجنة. قال الرازي: "الآية تُبين أن الفوز الحقيقي ليس في الدنيا، بل في الآخرة حيث يخلد المؤمنون في الجنة" ٣٣٩. وفسر القرطبي: "قوله: ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ إشارة إلى أن الجزاء يوم القيامة يعتمد على الصدق في الإيمان والعمل" ٣٤٠. ثم جاء توعّد الكافرين بعذاب في الدنيا والآخرة بيّن الله تعالى في كتابه العزيز أن مصير الذين كفروا بسيدنا عيسى ﷺ سيكون العذاب الشديد في الدنيا والآخرة، فقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ٣٤١. هذه إشارة إلى أن العذاب مقصودٌ على الكافرين برسالة عيسى ﷺ، وأن العذاب سيكون مزدوجًا في الدنيا والآخرة، كما حصل مع بني إسرائيل من التشريد والذلل، وأن لن يجدوا من ينصرهم أو يشفع لهم يوم القيامة. قال ابن كثير: "المراد بالعذاب في الدنيا هو ما أصاب بني إسرائيل من القتل والسبي والذل، وفي الآخرة هو العذاب الأبدي" ٣٤٢. فسر الزمخشري: "الآية تدل على

٣٣٦ انظر: الطبري، جامع البيان، ١٨ : ٢٣٠.

٣٣٧ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦ : ٩٠.

٣٣٨ القرآن الكريم: سورة المائدة ٥ : ١١٩.

٣٣٩ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١٢ : ٣١٠.

٣٤٠ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٧ : ٢٨٩.

٣٤١ القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣ : ٥٦.

٣٤٢ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢ : ٣٥٠.

أن الله يعجل العقوبة للكافرين في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة جزاءً لكفرهم^{٣٤٣}. الإيمان بالمرجعية إلى الله والجزاء الأخروي، أخبر الله تعالى في القرآن الكريم أن المرجع يوم القيامة سيكون إليه وحده، ليحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^{٣٤٤}، جاءت تأكيد على أن كل المخلوقات ستعود إلى الله للحساب؛ وأن الحكم سيكون عادلاً، حيث يأخذ كل إنسان جزاءه العادل بناءً على عمله في الدنيا؛ ويشمل كل الخلافات العقدية والدينية التي حدثت بين أتباع سيدنا عيسى عليه السلام؛ كما قال الطبري: "الآية تؤكد أن الفصل في الخلافات العقائدية سيكون بيد الله يوم القيامة"^{٣٤٥}. وذكر الرازي: "الإشارة هنا إلى الحكم الإلهي المطلق، فلا مجال للجدال يوم القيامة"^{٣٤٦}. يظهر لنا بأن الإيمان باليوم الآخر كان محوراً أساسياً في دعوة سيدنا عيسى عليه السلام، حيث أكد القرآن الكريم على عدة قضايا متعلقة بالآخرة، منها: تحذير الكافرين من عذاب يوم القيامة، وإثبات نعيم المؤمنين في الجنة ورضا الله عنهم، وبيان مصير الذين كفروا بعيسى عليه السلام في الدنيا والآخرة، وتأكيد أن الحكم النهائي يوم القيامة بيد الله تعالى.

وقد جاءت دعوة سيدنا محمد ﷺ مكتملة لما جاء به الأنبياء من قبله في بيان حقيقة الآخرة والحساب والجزاء؛ وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية على وجوب الإيمان بهذا اليوم، والتحذير من عذابه، والترغيب في نعيمه. جاء في القرآن الكريم إنذارٌ شديدٌ للكافرين من أهوال يوم القيامة، حيث لا ينفع الندم ولا الفرار، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^{٣٤٧}. تأكيد على قرب يوم القيامة، وأنه سيأتي بغتة وأن كل إنسان سيرى نتائج أعماله ويحاسب عليها، وتنتي الكافر لو لم يُبعث ولم يُحاسب، دلالة على شدة العذاب والهول الذي ينتظره. كما قال ابن كثير: "العذاب المقصود في الآية هو عذاب يوم القيامة الذي لا مفر منه، حيث يندم الكافر

^{٣٤٣} انظر: الزمخشري، الكشاف، ١: ٢١٠.

^{٣٤٤} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٥٥.

^{٣٤٥} انظر: الطبري، جامع البيان، ٤: ٢١٠.

^{٣٤٦} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٦: ٣٢٠.

^{٣٤٧} القرآن الكريم: سورة النبأ ٧٨: ٤٠.

أشد الندم على تفريطه في الإيمان^{٣٤٨}. وقال الطبري: "يُشير قوله ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ إلى أن الكافر يتمنى لو لم يُخلق، أو لو كان مثل الحيوانات التي لا تُحاسب"^{٣٤٩}. ثم جاءت السنة النبوية مؤكدة لما ورد في القرآن الكريم حول حقيقة الحساب والجزاء يوم القيامة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يُدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب. حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق، فيقول الأشهداء: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين»^{٣٥٠}. ولذا، فإن الله تعالى يُخفف على المؤمن حسابه ويستتر عليه ذنوبه، وإظهار ذنوب الكافرين، وأن الكافرين والمنافقين يُفضحون أمام الخلائق، ويُنادى عليهم بأنهم من المكذبين، وأن عظمة يوم القيامة حيث تتجلى عدالة الله المطلقة في الحساب والمجازاة. كما قال ابن حجر العسقلاني: "الحديث يدل على رحمة الله بالمؤمنين يوم القيامة، بينما يُعذب الكافرون بسبب إنكارهم للحق"^{٣٥١}. وذكر النووي: "هذا الحديث من أقوى الأدلة على أن الله يغفر لمن شاء من عباده، وأن الحساب يوم القيامة يكون وفق عدله ورحمته"^{٣٥٢}. ثم جاء بيان أن الآخرة دار البقاء والدنيا فانية أكد النبي ﷺ على حقيقة فناء الدنيا وبقاء الآخرة، فقال الله تعالى ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^{٣٥٣}. تأكيد بأن الدنيا مجرد متاع زائل، وليست الغاية الحقيقية للإنسان، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية الدائمة، فهي ليست كالدنيا التي تزول كما قال القرطبي: "الحياة في الدنيا زائلة، والآخرة هي الحياة الحقيقية التي لا فناء لها"^{٣٥٤}. وقال

^{٣٤٨} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧: ٢٤٠.

^{٣٤٩} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٢: ٥٠٠.

^{٣٥٠} البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب في النجوى، ٤: ٣٤٥ (٢٤٤١). مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت، ٣: ٤٥٥ (٢٧٦٨).

^{٣٥١} انظر: العسقلاني، فتح الباري، ١١: ٣٤٥.

^{٣٥٢} انظر: النووي، شرح المنهاج، ١٧: ١٧٠٠.

^{٣٥٣} القرآن الكريم: سورة العنكبوت ٢٩: ٦٤.

^{٣٥٤} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٣: ٢٨٠.

السعدي: "المقصود أن الدنيا لا ينبغي أن تكون هدف الإنسان، بل يجب أن يكون هدفه الآخرة التي هي دار القرار"^{٣٥٥}. ثم جاء وجوب الاستعداد للآخرة بالأعمال الصالحة حث النبي ﷺ على العمل للآخرة والاستعداد ليوم الحساب، فقال النبي ﷺ: «الكَيِّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمان»^{٣٥٦}. فقد تناوله ابن رجب الحنبلي في كتابه "جامع العلوم والحكم" لشرح هذا الحديث، عند قوله ﷺ «الكَيِّسُ من دان نفسه»: أي أن العاقل يحاسب نفسه ويستعد للآخرة بالأعمال الصالحة. وقوله ﷺ «والعاجز من أتبع نفسه هواها»: أي أن الجاهل يضيع وقته في الدنيا دون الاستعداد للآخرة^{٣٥٧}. قال ابن القيم: "الحديث يوضح الفرق بين المؤمن الذي يستعد للآخرة، وبين الغافل الذي يعيش في الأمان الكاذبة"^{٣٥٨}. وذكر الغزالي: "هذا الحديث يحث المسلم على محاسبة نفسه والعمل الصالح، لأن الدنيا فانية والآخرة هي الدار الباقية"^{٣٥٩}. ولذا فإن إنذار النبي ﷺ لأمته عن الدجال، من أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدث به نبي قومه: إنه أعور وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار فإني أقول إنها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه»^{٣٦٠}. لقد جاءت دعوة سيدنا محمد ﷺ مكملَةً لما جاء به الأنبياء من قبله في بيان حقيقة اليوم الآخر، والتحذير من عذابه، والترغيب في نعيمه، من حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة؛ فقال: «يا أيها الناس! إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^{٣٦١}، ألا وإن أول الخلائق يكسى، يوم القيامة، إبراهيم عليه السلام ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال. فأقول: يا رب! أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول، كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ

^{٣٥٥} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٥٠٠.

^{٣٥٦} الترمذي، السنن، صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، ٤: ٣٤٥ (٢٤٥٩)، وقال: "حديث حسن

^{٣٥٧} انظر: ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ١: ٣٨٣.

^{٣٥٨} انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ١: ٤٣.

^{٣٥٩} انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤: ٢١٧.

^{٣٦٠} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه، ٤: ١٣٤، (٣٣٣٧).

^{٣٦١} القرآن الكريم: سورة الأنبياء ٢١: ١٠٤.

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ • إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿٣٦٢﴾، قال: فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»^{٣٦٣}.

وقد أكدت القرآن الكريم والسنة النبوية عدة قضايا رئيسية متعلقة بالآخرة، منها: التحذير من عذاب يوم القيامة، وبيان أنه قريب لا محالة. إثبات الحساب والجزاء، وتأکید عدالة الله المطلقة. بيان أن الدنيا فانية، والآخرة هي الحياة الحقيقية. وجوب الاستعداد ليوم الحساب بالأعمال الصالحة. جاء في الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك»؛ فقال رجل: يا رسول الله!، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غر محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيماهم، وأعرفهم يسعى بين أيديهم ذريتهم»^{٣٦٤}.

العادة السادسة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على الإيمان بالقضاء والقدر

إن أولي العزم من الرسل ﷺ قدموا نموذجًا تربويًا في ترسيخ الإيمان بالقضاء والقدر، مع التأكيد على مسؤولية الإنسان في اتخاذ قراراته وسعيه لاختيار الأعمال الصالحة. وهذا ما يجعل دراسة تربيتهم مدخلًا مهمًا لفهم كيفية تحقيق التوازن بين الإيمان بالقضاء والقدر وبين حرية الاختيار والعمل.

لقد جاء إثبات الإيمان بالقضاء والقدر في دعوة سيدنا نوح ﷺ، الإيمان بأن كل شيء يقع بمشيئة الله دعا نوح قومه إلى الإيمان بأن كل شيء يقع بمشيئة الله، فقال ﴿إِنَّمَا

^{٣٦٢} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١١٧-١١٨.

^{٣٦٣} مسلم، الصحيح، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة، ٤: ١٩٤ (٢٨٦٠).

^{٣٦٤} أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، المحقق: شعيب الأرناؤوط، ٣٦: ٦٤ (٢١٧٣٦). خلاصة حكم الحديث: حسن لغيره.

يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ^{٣٦٥}، يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: "أي أن العذاب الذي تستعجلونه، لا يأتيكم إلا إذا شاء الله، فلا تستعجلوه، فإنه واقع بكم في الوقت الذي قدره الله لكم"^{٣٦٦}. ولذا فإن موقف سيدنا نوح عليه السلام من اعتراض قومه حينما احتج الملائكة من قومه بأن أتباعه من الأراذل، أجابهم قائلاً: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾^{٣٦٧}. علق القرطبي على هذه الآية بقوله: "إنما الأعمال بالنيات، والله وحده هو العالم بسرائر الناس، وليس لأحد أن يحكم على غيره في دينه بناءً على الظاهر فقط"^{٣٦٨}. وصبره على تكذيب قومه واعتماده على قضاء الله عندما طلب قومه تعجيل العذاب، أجابهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^{٣٦٩}. يقول ابن كثير: "تأكيد على أن كل أمر هو بيد الله، وليس لأحد أن يعجل ما أخره الله أو يؤخر ما عجله، وإنما الأمر كله لله وحده"^{٣٧٠}. قضية ابن سيدنا نوح والإيمان بالقضاء والقدر عندما رأى سيدنا نوح ابنه يغرق، نادى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾^{٣٧١}، فأجابه الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾^{٣٧٢}. ذكر الرازي بأن هذه الآية تدل على أن الأنساب لا تغني شيئاً عند الله، وإنما المعيار هو الإيمان والعمل الصالح^{٣٧٣}. وجوب الإيمان بالقضاء والقدر والرضا به نوح عليه السلام رغم حزنه على ابنه، استجاب لأمر الله وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^{٣٧٤}. وأضح السعدي بأن في هذه الآية يظهر تسليم

^{٣٦٥} القرآن الكريم: سورة هود ١١ : ٣٣.

^{٣٦٦} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٢ : ٢٦٧.

^{٣٦٧} القرآن الكريم: سورة هود ١١ : ٣١.

^{٣٦٨} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩ : ٤٢.

^{٣٦٩} القرآن الكريم: سورة هود ١١ : ٣٣.

^{٣٧٠} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤ : ٧٥.

^{٣٧١} القرآن الكريم: سورة هود ١١ : ٤٥.

^{٣٧٢} القرآن الكريم: سورة هود ١١ : ٤٦.

^{٣٧٣} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١٨ : ١٨٠.

^{٣٧٤} القرآن الكريم: سورة هود ١١ : ٤٧.

نوح ﷺ لحكم الله واعترافه بعدم الاعتراض على قضاء الله، وهو أسمى صور الإيمان بالقدر^{٣٧٥}.

لقد ظهر الإيمان بالقضاء والقدر في دعوة سيدنا إبراهيم ﷺ، تسليم إبراهيم لأمر الله في قضية الذبح عندما أمره الله بذبح ابنه إسماعيل، قال: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^{٣٧٦}. قال الطبري: "هذه الآية تمثل قمة التسليم لأمر الله، حيث أظهر إبراهيم وابنه إسماعيل الطاعة المطلقة لقضاء الله ﷻ"^{٣٧٧}. إثبات أن كل شيء مقدر بيد الله عند مناظرته للنمرود، قال إبراهيم ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾^{٣٧٨}. فسر ابن عاشور: "هذه الحجة أثبتت أن الله وحده هو المتصرف في الكون، وأن القضاء والقدر بيده وحده، وليس للبشر فيه أي تحكم"^{٣٧٩}. دعوة قومه إلى التوحيد وتحذيرهم من العقاب دعا إبراهيم ﷺ قومه إلى الإيمان بالله وحده، وحذرهم من عاقبة الشرك، فقال ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكُمْ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُوا لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾^{٣٨٠}. ذكر البغوي بأن إبراهيم ﷺ خاطب والده بلطفٍ ورحمة، محذراً إياه من عذاب الله، مؤكداً أن الهداية بيد الله وحده^{٣٨١}. ولقد رفض إبراهيم ﷺ عبادة الأصنام وإثبات الإرادة الحرة للإنسان، وبين لهم أن عبادتهم لها وقع عن إرادة واختيار منهم، فقال لهم: ﴿أَفَكَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾^{٣٨٢}. أوضح الرازي معنى الإرادة هنا بأنها الاختيار والمحبة، وهو استنكار لما كان عليه قومه من الضلال والانحراف، لأن هذا الضلال كان بإرادتهم واختيارهم دون جبر وقهر من أحد^{٣٨٣}. مع ذلك، فإن هذه الإرادة مرتبطة بإرادة الله تعالى كما بين الله ﷻ في موضع آخر عن سيدنا إبراهيم

^{٣٧٥} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٣٥٠.

^{٣٧٦} القرآن الكريم: سورة الصافات ٣٧: ١٠٢.

^{٣٧٧} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٣: ٨٤.

^{٣٧٨} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ٢٥٨.

^{٣٧٩} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣: ٢٤١.

^{٣٨٠} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٤٥.

^{٣٨١} انظر: البغوي، معالم التنزيل، ٣: ٢١٤.

^{٣٨٢} القرآن الكريم: سورة الصافات ٢٧: ٨٦.

^{٣٨٣} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٦: ٩٨.

وولديه إسماعيل وإسحاق ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^{٣٨٤}. أوضح الطبري بهذه الآية تدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله ﷻ، لأن قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ يدل على أن الصلاح من قبله، فاختيار العبد وكسبه لأعماله مرتبط بإرادة الله ومشئته^{٣٨٥}.

تتجلى في قصة النبي موسى ﷺ أبعاد عميقة لمفهوم القضاء والقدر، حيث يظهر بوضوح أن اصطفاؤه وجعله نبياً كان وفق تقدير إلهي سابق. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يُمْسِي﴾^{٣٨٦}، مما يدل على أن اصطفاؤه الله لأنبيائه يتم بناءً على علمه الأزلي وحكمته المطلقة. وقد ذكر الشوكاني في تفسيره فتح القدير أن هذا الاصطفاء الإلهي لم يكن وليد الصدفة، بل جاء وفق تدبير إلهي محكم، مما يؤكد أن كل ما يحدث للأنبياء وللناس عموماً يقع ضمن مشيئة الله وقضائه^{٣٨٧}.

ومن الدلالات المهمة في قصة النبي موسى ﷺ إدراكه العميق لحقيقة القضاء والقدر، حيث كان يعلّق الأمور بمشيئة الله، كما في قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾^{٣٨٨}، عند لقائه بالخضر للتعلم منه. وهذا التعليق على المشيئة الإلهية يعكس إقرار العبد بضعفه أمام إرادة الله، كما أشار الرازي في التفسير الكبير إلى أن تعليق الأمور بمشيئة الله يؤكد خضوع الإنسان لسلطان الله المطلق، وأن أي فعل لا يتحقق إلا بإرادته^{٣٨٩}.

بالنسبة للعلاقة بين إرادة الإنسان ومشئته الله؛ رغم التأكيد على المشيئة الإلهية، يظهر في خطاب النبي موسى ﷺ إقراراً بقدرة الإنسان على الاختيار وتحمله مسؤولية أفعاله. ففي قوله: ﴿أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾^{٣٩٠}، يبرز بوضوح أن الأفعال تُنسب إلى أصحابها، مما

^{٣٨٤} القرآن الكريم: سورة الأنبياء: ٧٢-٧٣.

^{٣٨٥} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٨: ٢٢٦.

^{٣٨٦} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ٤٠.

^{٣٨٧} انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٢: ٥٨٠.

^{٣٨٨} القرآن الكريم: سورة الكهف ١٨: ٦٩.

^{٣٨٩} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٨: ٢٢٢.

^{٣٩٠} القرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ١٥٥.

يدل على الإرادة الإنسانية في التصرف. إلا أن هذا الاختيار الإنساني لا ينفصل عن المشيئة الإلهية، كما يتضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾^{٣٩١}. وقد فسر الرازي على هذه الآية موضحاً أن الفتنة الإلهية تعني الاختبار الذي يمنح الإنسان حرية الاختيار بين الطاعة والمعصية، فيضل الله من استحق الضلالة، ويهدي من استحق الهداية^{٣٩٢}.

ويعزز هذا المعنى موقف النبي موسى ﷺ عندما خاطب قومه بعد عبادتهم العجل، حيث قال: ﴿يَقُومُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾^{٣٩٣}. وقد أشار الشعراوي في تفسيره إلى أن هذه الآية تؤكد أن الإنسان يتحمل مسؤولية أعماله، إذ هو الذي يختار طريق الطاعة أو العصيان، وهذا الاختيار هو الأساس في استحقاق العقاب أو الثواب^{٣٩٤}. من الجوانب المهمة في قصة النبي موسى ﷺ أيضاً، مسألة الرضا بقضاء الله والتسليم لحكمه، وهو ما يظهر بجلاء في موقف قوم قارون بعد أن شاهدوا ما حلّ به من خسف. فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۚ لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^{٣٩٥}. وقد أوضح البيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التأويل أن هذه الآية تبرز أهمية الرضا بقضاء الله، حيث إن خسف الأرض بقارون كان دليلاً على أن الرزق والعطاء من الله وحده، وأن الغرور بالماديات يؤدي إلى الهلاك^{٣٩٦}. من هنا يتضح من قصة النبي موسى ﷺ أن القضاء والقدر مرتبطان بمشيئة الله، وأن الله يصطفي من يشاء لحكمته المطلقة. ومع ذلك، فإن الإنسان يمتلك إرادة حرة ومسؤولية في أفعاله، وهي التي تُحدد مصيره. كما تؤكد القصة ضرورة التسليم

^{٣٩١} القرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ١٥٥.

^{٣٩٢} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٧: ٢٢٢.

^{٣٩٣} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ٨٦.

^{٣٩٤} انظر: الشعراوي، الخواطر، ٧: ٤٣٧٦.

^{٣٩٥} القرآن الكريم: سورة القصص: ٨٢.

^{٣٩٦} انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٣: ١٤٢.

لأمر الله والرضا بقضائه، إذ أن الابتلاءات والاختبارات جزء من الحكمة الإلهية في حياة البشر. وهذه المفاهيم تعزز التوازن بين المشيئة الإلهية والاختيار الإنساني.

لقد أيد الله تعالى نبيه عيسى ﷺ بمعجزات عظيمة تثبت نبوته وتؤكد قدرة الله المطلقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾^{٣٩٧}. وقد أشار القرطبي إلى أن هذه المعجزات، كالخلق من الطين وإحياء الموتى، كانت بإذن الله لبيان صدق دعوته^{٣٩٨}. وأوضح الرازي أن تكرار عبارة "بإذن الله" يؤكد أن الفاعل الحقيقي هو الله، لا النبي نفسه^{٣٩٩}. وردت في قصة مريم ﷺ، يظهر مفهوم الاختيار والمسؤولية في قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ...﴾^{٤٠٠}. وبين الألوسي أن إنكار قومها عليها يبرز أن الإنسان مسؤول عن أفعاله، وأن الاختيار شرط في التكليف^{٤٠١}. طلب الحواريين أن يكتبوا مع الشاهدين، كما في قوله: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا...﴾^{٤٠٢}، يوضحه الطبري بأن الإيمان واتباع الرسول إعلان اختياريان، بينما القبول عند الله مشروط بمشيئته^{٤٠٣}. وقد استشهد العلماء بالحديث النبوي الشريف الذي يوضح شمولية قدر الله، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال وعرشه على الماء»^{٤٠٤}.

وهو دليل على أن كل ما يحدث يقع ضمن مشيئة الله وقدره. أما تمني مريم الموت عند المخاض، كما جاء في قوله: ﴿يُلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾^{٤٠٥}، فقد أشار البيضاوي إلى أن هذا التمني كان بدافع الحياء والخوف من التهمة، لا اعتراضاً على قدر الله^{٤٠٦}.

^{٣٩٧} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٤٩.

^{٣٩٨} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٤: ٩٢.

^{٣٩٩} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٨: ٢٥.

^{٤٠٠} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٢٧.

^{٤٠١} انظر: الألوسي، روح المعاني، ١٦: ١٥.

^{٤٠٢} القرآن الكريم: سورة آل عمران ٣: ٥٣.

^{٤٠٣} انظر: الطبري، جامع البيان، ٦: ٢١٠.

^{٤٠٤} مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ﷺ، ١: ٣٦، (٢٦٥٣).

^{٤٠٥} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٢٣.

لقد تجلّى الإيمان بالقضاء والقدر في دعوة النبي محمد ﷺ كركيزة أساسية من أركان الإيمان، وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية على وجوب الإيمان بهما. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^{٤٠٧}، وقد أشار الطبري إلى أن هذه الآية تُثبت أن كل ما يحدث في الكون إنما هو بتقدير الله السابق وحكمته البالغة، حيث يقول: "أي أن جميع الأشياء من خير وشر مخلوقة بتقدير الله المحكم"^{٤٠٨}. كما ورد عن النبي ﷺ في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله. ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله. وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان»^{٤٠٩}. وهذا الحديث يبيّن أهمية الرضا بالقضاء والقدر في تهذيب النفس ومنعها من الجزع واليأس، وقد أشار النووي في شرحه لصحيح مسلم إلى أن هذا الحديث أصل عظيم في التسليم لقضاء الله والثقة بمشيئته^{٤١٠}.

وقد بيّن القرآن الكريم وجوب الإيمان بالقضاء والقدر وأن كل ما يقع في هذا الكون إنما هو بمشيئة الله، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^{٤١١}. وعلق القرطبي على هذه الآية قائلاً: "فيها إثبات المسؤولية الفردية للإنسان رغم خضوع كل شيء لمشيئة الله، مما يحقق التوازن بين القدر والاختيار البشري"^{٤١٢}. وفي الحديث الشريف: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^{٤١٣}. أشار ابن حجر في فتح الباري إلى أن هذا الحديث

^{٤٠٦} انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ٣: ١٤٢.

^{٤٠٧} القرآن الكريم: سورة القمر ٥٤: ٤٩.

^{٤٠٨} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٢: ٦٠٤.

^{٤٠٩} انظر: مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، ٤: ٢٠٥٢، (٢٦٦٤).

^{٤١٠} انظر: النووي، شرح المنهاج، ١٦: ٢١٣.

^{٤١١} القرآن الكريم: سورة فصلت ٤١: ٤٦.

^{٤١٢} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٥: ٣٥٥.

^{٤١٣} البخاري، الصحيح، سورة الليل إذا يغشى، باب فسنيسره للعسرى، ٦: ١٧١، (٤٩٤٩).

يؤكد أن للإنسان إرادةً واختياراً ضمن نطاق مشيئة الله المطلقة، مما يرفع عنه الحرج ويعزز مسؤوليته أمام أفعاله^{٤١٤}.

بناءً عليه، فإن قصص أولي العزم من الرسل ﷺ تبرز كدروس عملية في الصبر والتوكل على الله والرضا بقضائه، حيث لم يكن إيمانهم بالقدر مانعاً لهم من بذل الجهد والسعي، بل كانوا مثلاً يُحتذى به في تحقيق التوازن بين الإيمان بالقدر والعمل بالأسباب.

خلاصة المطلب:

يتبين من خلال تتبع النماذج العقدية التربوية عند أولي العزم من الرسل ﷺ، أنّ التربية العقدية لم تكن مجرد تلقين نظري، بل سلوكاً حياً وممارسةً واقعية تظهر في مواقفهم التربوية وتعاملهم مع الأقوام. فقد تجسّدت معاني الإيمان بالله واليوم الآخر والرسول والقدر في حياتهم اليومية، مما جعلهم قدوةً عمليةً في ترسيخ العقيدة الراسخة وتثبيت أصول التوحيد. كما أنّ هذه العادات الصالحة في التربية العقدية أسهمت في بناء جيل من أتباعهم قادر على مقاومة الشرك، والانحرافات الفكرية، والتقلبات العقائدية، وفق منطلق ربّاني متكامل يجمع بين العلم والعمل، بين الإيمان والانقياد، بين الغيب والشهادة، وهو ما يجعل هذه النماذج زاداً تربوياً لا غنى عنه في المناهج العقدية المعاصرة.

المطلب الثاني: التربية الشرعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ

يهدف هذا المطلب إلى إبراز معالم هذه القدوة الصالحة، من خلال المحاور الآتية: أولاً: مفهوم التربية الشرعية في ضوء القرآن والسنة. ثانياً: نماذج من معالم العادات الصالحة في التربية الشرعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ، في ضوء القرآن والسنة.

أولاً: مفهوم التربية الشرعية

تُعَدُّ التربية الشرعية في ضوء القرآن والسنة أساساً لبناء الإنسان المتكامل في فكره وسلوكه وعلاقاته الاجتماعية، إذ لا تقتصر أهدافها على ترسيخ الإيمان والعقيدة، بل تمتد لتشمل

^{٤١٤} انظر: العسقلاني، فتح الباري، ١١: ٤٧٧.

تهذيب الأخلاق، وتوجيه السلوك، وتحقيق مقاصد الشريعة في الإصلاح الاجتماعي. وتتميز التربية الشرعية بشمولها وتكاملها، حيث تركز على الوحي كمصدر هداية وتركيز، ما يجعلها منهجاً ربانياً لتقويم الفرد والمجتمع معاً.

إنَّ الشريعة الإسلامية هي الوحي الذي أوحاه الله ﷻ إلى أنبيائه ورسله ﷺ لهداية البشرية، وإخراجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهدى، وهي المنهج الإلهي الذي يُرشد الإنسان إلى سواء السبيل، ويكفل له الفلاح في الدنيا والآخرة. ويُطلق لفظ "الشريعة" في اللغة على ما شرعه الله ﷻ لعباده من الأحكام الدينية، كالصلاة، والصيام، والحج، وغيرها من العبادات والمعاملات. وقد جاء في مختار الصحاح أن "الشريعة: ما شرع الله للعباد من أمر الدين، وأمرهم بالتمسك به من الصلاة والصوم والحج ونحوها"^{١٥}. ويُنَّ ابن منظور أن "الشريعة والشرعة: ما سنَّه الله من الدين وأمر به، كالصيام، والصلاة، والحج، والزكاة، وسائر أعمال البر، وهي مأخوذة من شاطئ البحر"^{١٦}. كما أن من معاني الشريعة في أصل اللغة: البدء في الأمر، ومنه قولهم: "شرع فلان في كذا"، أي بدأ فيه، ويُقال أيضاً "مشارع الماء"، أي الموارد التي ترد إليها الناس.

فقد عرّف العلماء الشريعة بتعريفات متقاربة تدور حول كونها المنهج الإلهي الذي سنَّه الله ﷻ لعباده، لتقوم عليه حياتهم الدينية والدينية. فذهب بعضهم إلى أنَّ الشريعة هي الالتزام بالعبودية لله تعالى في العقيدة والعمل، بينما عرّفها آخرون بأنها "الطريقة في الدين"^{١٧}، فهي المنهج الإلهي الذي يسير عليه المسلم في سلوكه وعلاقاته^{١٨}. وبهذا المعنى، فإنَّ الشريعة تشمل العقائد والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وتشكل الإطار المرجعي الذي يُحدّد للمؤمن كيف يتعامل مع ربه، ومع نفسه، ومع غيره.

وعند الحديث عن "التربية الشرعية"، فإنَّ المراد بها هنا هو: الوسيلة التي تعتمد على الأحكام العملية الواردة في الشريعة في مقابل العقيدة والتي تنظم سلوك الفرد والمجتمع. وهذه

^{١٥} الرازي، مختار الصحاح، ١: ١٦٣.

^{١٦} ابن منظور، لسان العرب، مادة: شرع، ٧: ١٧٦.

^{١٧} عبد الله بن محمد البركتي، التعريفات الفقهية، تحقيق: عبد المعين حنفي، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ١٢٣.

^{١٨} الزركشي، البحر المحيط، ١: ٧.

الوسائل العملية تمثّلت في جملة من الأركان والشرائع، على رأسها: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وهي الأركان الأربعة التي جاءت في جميع شرائع الأنبياء والمرسلين، وإن اختلفت في تفاصيلها وهيئاتها بحسب أحوال أقوامهم وظروفهم^{٤١٩}.

فهذه الأركان قد اشتملت على توجيهات عظيمة، ومقاصد تربوية سامية تحفظ الإنسان من الانحراف، وتقويه من الضياع، وتهدّب سلوكه، وتسمو بروحه، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى في هذا الفصل.

ثانيًا: نماذج من معالم العادات الصالحة في التربية الشرعيّة عند أولي العزم من الرسل ﷺ

تمهيد

تمثّل سَيْرُ أولي العزم من الرسل ﷺ مصدرًا تربويًا عظيمًا يُستقى منه المنهج القويم في تهذيب النفس وبناء العادات الصالحة، لا سيّما في ميدان التربية الشرعيّة المرتبطة بأركان الإسلام وأحكام الطهارة. فالعادات التي داوم عليها هؤلاء الرسل الكرام تعبّر عن التزام عملي متواصل بالتشريع الإلهي، وقدوة تربوية ربانية تترجم المبادئ الإيمانية إلى سلوك يومي منتظم.

ومن هذا المنطلق، تهدف هذه الدراسة إلى إبراز نماذج من معالم العادات الصالحة في التربية الشرعيّة لدى أولي العزم من الرسل ﷺ، في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، من خلال خمسة محاور رئيسة، تمثل أنماطًا مركزية في العبادات العملية والتزكية السلوكية، وهي: العادة الأولى: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على الطهارة، والعادة الثانية: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على أداء الصلاة، والعادة الثالثة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على أداء الزكاة، والعادة الرابعة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على فريضة الصيام، والعادة الخامسة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على فريضة الحج.

العادة الأولى: مداومة أولي العزم من الرسل على الطهارة

تعدّ الطهارة من أعظم مقاصد الشريعة الإسلامية، لما لها من أثر في صلاح النفس والبدن، وهي من أولى المراتب التربوية التي حرص الأنبياء والرسل، لا سيما أولو العزم منهم، على

^{٤١٩} انظر: الشافعي، الرسالة، ١١١؛ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٩: ١٩٩.

ترسيخها في نفوس أقوامهم؛ إذ تُجسّد مظهرًا من مظاهر العبودية، وتُمثّل ركيزة أساسية في القرب من الله تعالى. وقد اقترنت الدعوة إلى الطهارة بالدعوة إلى التوحيد والإصلاح، مما يدل على أنّ الطهارة في المفهوم النبوي ليست محصورة في النظافة الظاهرة فحسب، بل تشمل نقاء السريرة، وصفاء النفس، وزكاة السلوك.

لقد دعا نوح عليه السلام قومه إلى الطهارة بمفهومها الشامل؛ إذ قال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا • وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾^{٤٢٠}، والوقار في هذه الآية كما ذكر ابن عاشور هو تعظيم الله في الظاهر والباطن، وأعظم تعظيم له أن يطهّر المرء نفسه من الشرك والنجاسة الحسية والمعنوية^{٤٢١}. فكان من دعوة نوح غرس الوعي بالتطهر الشامل: من الشرك، ومن الذنوب، ومن الأدران الظاهرة، وكلها تدخل في مفهوم الطهارة التربوي.

أما إبراهيم عليه السلام، فكان من أبرز الداعين إلى الطهارة المكانية والعبادية، فقد دعا الله أن يجعل بيته "طاهرًا"، قال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾^{٤٢٢}. وقد علّق القرطبي على هذه الآية بأن الأمر بتطهير البيت يشمل المعنى الحسي والمعنوي، أي إزالة الأنجاس والأصنام، وجعل المكان خاليًا من الشرك والأذى^{٤٢٣}. وهذا يدل على أن التربية النبوية تهدف إلى إنشاء بيئة طاهرة تُعين على العبادة، وهو ما يُمثّل بعدًا مؤسسيًا للطهارة في المجتمعات التوحيدية.

كما دعا موسى عليه السلام فرعون إلى الطهارة، فقال له كما ورد في القرآن: ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ﴾^{٤٢٤}. وقد فسّر الطبري "تزكّى" بأنها: تطهّر من الشرك والمعاصي، وهي دعوة إلى طهارة القلب والفكر والسلوك^{٤٢٥}. فكانت دعوته خطوة أولى في مشروع إصلاح فرعون، تبدأ بالطهارة الداخلية. وهذا النهج النبوي يؤكد على أن الطهارة شرط سابق للتكليف، وأصل في تهية النفس لقبول الهداية.

^{٤٢٠} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ١٣-١٤.

^{٤٢١} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠: ٨٠.

^{٤٢٢} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٥.

^{٤٢٣} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢: ١٠٦.

^{٤٢٤} القرآن الكريم، سورة النازعات ٧٩: ١٨.

^{٤٢٥} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٤: ٣٦.

أما عيسى عليه السلام، فقد جاءت في سيرته إشارات إلى تأكيده على الطهارة القلبية قبل الظاهرة، كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن حاله مع بني إسرائيل: «... وأما عيسى فروح الله وكلمته، وعلمكم الكتاب والحكمة، وأخرجكم من الظلمات إلى النور»^{٤٢٦}. وقد ذكر ابن كثير أن من مظاهر "إخراجهم من الظلمات إلى النور" تعليمهم الطهارة المعنوية من الرياء والنفاق، إذ كانت بعض طوائف بني إسرائيل يُغرقون في الطقوس دون تزكية داخلية^{٤٢٧}.

وقد ورد في سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم تأكيد خاص على الطهارة في كل مظاهرها، وكان ذلك واضحاً في أقواله وأفعاله التربوية، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^{٤٢٨}، أي: لا يداوم على الطهارة الكاملة بالوضوء إلا من صدق إيمانه، لأن المواظبة على الوضوء عبادة خفية بين العبد وربّه، فهي دليل على الإخلاص وصفاء السيرة^{٤٢٩}. وهو يدل على أثر الطهارة الظاهرة في تزكية الباطن، وارتباط السلوك الظاهري بالإيمان القلبي.

وقد ربّى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على الطهارة عبر مواقف عملية مؤثرة، ومنها ما ورد في قصة الرجل الذي بال في المسجد، فقام الصحابة ليمنعوه، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوه، وضّبوا على بوله دلوًا من ماء»^{٤٣٠}، وهو موقف تربوي فريد جمع بين بيان أهمية الطهارة وتعليمها بلطف وصبر. وقد علق ابن حجر على هذا الحديث بأنه من أعظم أبواب التربية النبوية في تعليم الطهارة دون تنفير^{٤٣١}. كما أن الطهارة كانت جزءاً من التربية الاستراتيجية للنبي صلى الله عليه وسلم في بناء الهوية الإيمانية للأمة، إذ شرعت في أوائل العهد المدني، وتكرر ذكرها في أكثر من موضع قرآني، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^{٤٣٢}. وقال

^{٤٢٦} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: واذكر في الكتاب مريم، ٦: ٩٠ (٣٤٤٨).

^{٤٢٧} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢: ٥٢٤.

^{٤٢٨} أحمد بن حنبل، المسند، ٤: ٢٣٩ (٢٠٠٩٨)، قال المنذري: "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح". انظر: زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ١: ٨٦.

^{٤٢٩} انظر: المناوي، فيض القدير، ٦: ٢٢٥.

^{٤٣٠} البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، ٦: ٧٨ (٢٢٠).

^{٤٣١} انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١: ٣٨٦.

^{٤٣٢} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٢٢.

أيضًا في مدح أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾^{٤٣٣}. وقد ذكر السيوطي أن هذه الآية تشير إلى التزامهم باستخدام الماء في الطهارة الكاملة بعد قضاء الحاجة، مما رفع منزلتهم التربوية^{٤٣٤}.

ومن هنا، يظهر أن مداومة أولي العزم من الرسل على الدعوة إلى الطهارة تمثل جزءًا من رسالتهم الإصلاحية، إذ كانت الطهارة لديهم مدخلًا للتركيز، والتركيز وسيلة لتهديب النفس، وتهديب النفس شرط لنزول الرحمة. فالدعوة النبوية إلى الطهارة كانت دعوة إلى بناء الإنسان الصالح في باطنه وظاهره. وهذا ما يفسره الشاطبي بقوله: "الطهارة جزء من مقاصد الشريعة في حفظ الدين والنفس والنسل، وهي في حقيقتها تربية عملية على السمو الروحي والنظافة الحسية"^{٤٣٥}.

خلاصة القول:

فإن الطهارة ليست مجرد سلوك فردي، بل هي مظهر من مظاهر التربية الربانية التي غرسها أولي العزم من الرسل في مجتمعاتهم، إذ ارتبطت بالنقاء العقدي والخلقي، وكانت تمهيدًا لقبول الوحي والعمل به. وتُظهر النصوص القرآنية والسنن النبوية كيف جسّد هؤلاء الرسل هذه العادات الصالحة في حياتهم اليومية، حتى صارت علامة على صدق رسالتهم وكمال دعوتهم.

العادة الثانية: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على أداء الصلاة

تمثل الصلاة جوهر العلاقة بين العبد وربّه، وهي أول ما أُمر به الرسل الكرام ﷺ، وكانت محورًا في دعوتهم ومنطلقًا في إصلاح مجتمعاتهم. وقد جاءت نصوص القرآن والسنة لتكشف عن مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ في الدعوة إلى الصلاة، والتربية على أدائها وخشوعها، لا باعتبارها فريضة طقسية فحسب، بل مدخلًا إلى تهديب النفس وتركيتها.

^{٤٣٣} القرآن الكريم، التوبة ٩: ١٠٨.

^{٤٣٤} انظر: السيوطي، الدر المنثور، ٣: ٢٥٣.

^{٤٣٥} انظر: الشاطبي، الموافقات، ٢: ٦٠.

فقد أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام، وهو أول من لُقّب بالخليل وأمر بأُمّ القرى، بإقامة الصلاة والدعوة إليها، كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾^{٤٣٦}، وهي دعوة صريحة لإقامة الصلاة بوصفها صفة ملازمة لأهل الإيمان، وقد أشار الطبري إلى أن هذا الدعاء "يتضمن طلب الهداية والمداومة، لا مجرد أدائها"^{٤٣٧}. وقد التزم إبراهيم عليه السلام بهذا المنهج التربوي في أسرته، فغرس الصلاة في نسله، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾^{٤٣٨}، وقال ابن كثير: "أوصاهم بعبادة الله، وأعظمها الصلاة"^{٤٣٩}، وهذا يبرز الجانب التربوي العائلي في بناء الصلاة على أسس الخشوع والطاعة.

أما موسى عليه السلام، فقد تلقى الأمر بإقامة الصلاة عند لقاءه الأول بالله تعالى في الوادي المقدس، حين قال له ربه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^{٤٤٠}، وهو نص قرآني يؤسس لمركزية الصلاة في حياة الداعية، وقد فسر السمرقندي الآية بقوله: "أنها أول طاعة يؤمر بها، لأنها جامعة لذكر الله وخشيته"^{٤٤١}. فالصلاة في دعوة موسى لم تكن شعيرة ثانوية، بل ركيزة أساسية لإصلاح قومه وتركيز أنفسهم. كما حرص موسى عليه السلام على تعليم بني إسرائيل الصلاة رغم عنادهم، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^{٤٤٢}، وفسرها الطبري بأن "موسى أمر قومه بإقامة الصلاة في البيوت حين مُنِعُوا منها علناً"^{٤٤٣}، مما يدل على أولوية الصلاة في التربية الإيمانية، ولو في أوقات القهر والاضطهاد.

^{٤٣٦} القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤ : ٤٠.

^{٤٣٧} الطبري، جامع البيان، ١٦ : ٥٢٩.

^{٤٣٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢ : ١٣٢.

^{٤٣٩} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١ : ٣٥٧.

^{٤٤٠} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠ : ١٤.

^{٤٤١} السمرقندي، بحر العلوم، ٢ : ٣٦١.

^{٤٤٢} القرآن الكريم، سورة يونس ١٠ : ٨٧.

^{٤٤٣} الطبري، جامع البيان، ١١ : ١٧٧.

أما عيسى عليه السلام فقد أمر بالصلاة منذ لحظة نطقه في المهد، فقال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^{٤٤٤}، وقد وصف البقاعي هذه الآية بأنها "بيان لمكارم النبوة، وأن الصلاة زاد الروح وسبيل التزكية"^{٤٤٥}. واللافت أن عيسى عليه السلام ذكر أمته بالصلاة كوصية ملازمة طوال الحياة، ما يدل على رسوخها في دعوته وأهميتها في مشروعه التربوي.

وأما محمد صلى الله عليه وسلم، فقد بُعثت أمته على دعائم الصلاة، وكانت من أول ما أمر به في السماء ليلة الإسراء والمعراج، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ففرضت علي الصلوات خمسين، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة.....»^{٤٤٦}، وهذا يدل على أن فريضة الصلاة كانت أسس الرسالة، ومحل الاهتمام والتوجيه التربوي الأول.

وقد ظل النبي صلى الله عليه وسلم يربي الصحابة على الصلاة، ويُعرس فيهم الخشوع، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلي، فكان يقول في رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، وَفِي سُجُودِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»^{٤٤٧}. وقد وصف ابن القيم هذه الصلاة النبوية بأنها "مدرسة تربوية في الخضوع والخشوع، ومظهر العبودية الكاملة"^{٤٤٨}.

وتظهر مداومة أولي العزم من الرسل على تربية أتباعهم بالصلاة، لا فقط بأمرها بل ببيان مقصدها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^{٤٤٩}، وقد فسر القرطبي الآية بقوله: "أي إن الصلاة شاقة في ظاهرها، لكن الخاشع يدرك لذتها فيستسهلها"^{٤٥٠}، ما يدل على أن تربية الخشوع جزء جوهري من التربية على الصلاة في مسيرة الأنبياء. وقد نقل ابن عاشور أن "الخشوع في الصلاة ثمرة لفهم معناها والتأمل في مقاصدها، وهي غاية الأنبياء

^{٤٤٤} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٣١.

^{٤٤٥} البقاعي، نظم الدرر، ١٣: ١٩٢.

^{٤٤٦} البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، ١: ٨٩ (٣٤٩).

^{٤٤٧} مسلم، الصحيح، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١: ٦٧٨ (٧٧٢).

^{٤٤٨} انظر: ابن القيم، زاد المعاد، ١: ٢٠١.

^{٤٤٩} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٤٥.

^{٤٥٠} القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١: ٢٥٥.

في دعوة أمهم^{٤٥١}. ولهذا، لم يكن عجباً أن تُذكر الصلاة في قصص الأنبياء باعتبارها الفاصلة بين الإيمان والتكذيب، والصلاح والانحراف، والطمأنينة والاضطراب. وفي ضوء هذه الشواهد، فإن تربية الأجيال المسلمة اليوم على الصلاة لا بد أن تستلهم منهج أولي العزم من الرسل، الذين جعلوها محوراً في رسالاتهم، ومدخلاً لإصلاح الفرد والمجتمع، وأن يُربّى الناشئة على أدائها بمحض الطاعة، لا فقط كعادة موروثية، وأن يُغرس فيهم الخشوع فيها بوصفه ميزان القبول، فقد قال النبي ﷺ: «ما من امرئ مسلمٍ تحضره صلاةٌ مكتوبةٌ، فيُحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت له كَفَّارَةً لما قبلها من الذنوب، ما لم تُؤتَ كبيرةٌ»^{٤٥٢}. بذلك، يتبين أن مداومة أولي العزم من الرسل على تربية الناس بالصلاة هي مدرسة نبوية مستمرة، وأن من أعظم صور الاقتداء بهم هو إحياء رسالتهم في تعليم الصلاة، دعوتها وخشوعها ومقاصدها، بما يجعلها جسراً إلى العبودية، ومنبعاً للسكينة، ومعيّاراً لصلاح النفوس.

خلاصة القول:

إن العادات الصالحة في أداء الصلاة عند أولي العزم من الرسل تمثل نموذجاً تربوياً رفيعاً يُحتذى به في بناء المداومة والخشوع في الصلاة، ويُظهر كيف تشكّل الصلاة محوراً ثابتاً في مسيرة الإصلاح العقدي والسلوكي عبر تاريخ النبوة. كما تكشف هذه العادات عن منهج نبوي متكامل يربط بين التربية الإيمانية والالتزام العملي، ويُبرز مركزية الصلاة في تكوين الشخصية المؤمنة.

^{٤٥١} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١: ٣٥٣.

^{٤٥٢} مسلم، الصحيح، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، ١: ٦٧ (٢٢٨)؛ قال النووي: "فيه فضل الخشوع والطمأنينة والإقبال على الصلاة، وأن من فعل ذلك مُخْلِصاً فإن صلاته تكفّر الذنوب الصغائر الواقعة قبلها". انظر: النووي، المنهاج، ٣: ١١٢؛ وفسّر ابن رجب هذا الحديث بأن التكفير مشروط باجتناب الكبائر، لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ٣١، فدلّ على أن إتقان أركان الصلاة وروحها يسهم في التزكية التدريجية للنفس. انظر: ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ٢٣٣.

العادة الثالثة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على أداء الزكاة

تُعد الزكاة من القيم التربوية المركزية في الرسالات السماوية، وقد عنيت بها دعوات أولي العزم من الرسل عناية واضحة، لأنها ليست مجرد تشريع مالي، بل مظهر من مظاهر التربية الإيمانية والاجتماعية التي ترسخ معاني العدالة والتكافل. ومن هذا المنظور، شكّل غرس قيمة الزكاة في المجتمعات جزءاً من المهمة النبوية الكبرى، بدءاً من الدعوة إلى مشروعيتها، ومروراً ببيان ارتباطها بالتقوى، وصولاً إلى دورها في تحقيق العدالة الاجتماعية. وقد جاءت دعوة إبراهيم ﷺ إلى العبودية المقرونة بالزكاة في دعائه المشهور حين قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ... وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾^{٤٥٣}، وهو دعاء تضمن تأسيساً لمجتمع طاهر تسوده الطاعة والخضوع، ومن مظاهر هذا الخضوع أداء الحقوق المالية، وقد نبّه المفسرون إلى أن "الإسلام" في هذا المقام يشمل كل ما أمر الله به، ومنه الزكاة^{٤٥٤}.

وعند النظر في دعوة موسى ﷺ، نلاحظ أن من التكاليف التي فرضها الله على بني إسرائيل الزكاة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ... وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾^{٤٥٥}، وفيها ذكر للأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، مما يدل على أن هذه الفريضة كانت جزءاً من المشروع التربوي لموسى ﷺ، وقد قال الطبري: "الزكاة من أعمدة الشرائع السماوية قبل الإسلام"^{٤٥٦}.

كما أن عيسى ﷺ، وهو من أولي العزم، قد جعل من صفاته المؤكدة أنه مأمور بالصلاة والزكاة، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^{٤٥٧}، وهو تصريح مباشر من نبيّ كريم بأن الزكاة ليست واجباً مالياً فقط، بل عبادة دائمة ترتبط بالهوية الدينية للفرد، وقد علّق ابن عاشور على ذلك بقوله: "فيه إشارة إلى أن الزكاة من سنن الأنبياء، لا تكتمل بها الروح إلا بها"^{٤٥٨}.

^{٤٥٣} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٨.

^{٤٥٤} القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢: ١١٠.

^{٤٥٥} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٨٣-٨٧.

^{٤٥٦} الطبري، جامع البيان، ١: ٤٣٦.

^{٤٥٧} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٣١.

^{٤٥٨} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦: ٥١.

أما سيدنا محمد ﷺ، فقد كان له النصيب الأتم في بيان فريضة الزكاة، تشريعاً وتنفيذاً وتربية. ففي الحديث الذي رواه ابن عباس ؓ: «فُرِضَتِ الزَّكَاةُ لَتَكُونَ طَهْرَةً لِلْمَالِ وَالنَّفْسِ»^{٤٥٩}. ويبيّن ابن القيم أن الزكاة من أعظم ما يربط العبد بمبدأ التكافل الاجتماعي^{٤٦٠}. وهذا التأصيل النبوي يكشف البعد التربوي الذي امتد من دعوات الأنبياء السابقين، فقد ربط ﷺ بين الزكاة والتقوى في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^{٤٦١}. وهو توجيه إلهي للنبي ﷺ بأن يمارس التربية المالية بنفسه. قال الطبري: "أمر الله نبيه أن يأخذ من أموالهم صدقة، ليظهرهم من ذنوبهم، ويزكيهم أي: ينمي بها أعمالهم ويصلح بها قلوبهم"^{٤٦٢}. وقد بيّن النبي ﷺ كذلك دور الزكاة في العدالة الاجتماعية، فقال: «إن في المال حقاً سوى الزكاة»^{٤٦٣}، وقد شرحه المباركفوري بأن المقصود به صدقات التطوع، وصلة الرحم، والإنفاق على المحتاجين، مما لا يُحدّد بقدر مخصوص كالزكاة، وإنما يختلف بحسب الأحوال والمقاصد الشرعية^{٤٦٤}، وهذا يدل على أن فريضة الزكاة تمثل الحد الأدنى من الواجب الاجتماعي، وتربي المسلم على بذل الفضل في ميدان التكافل، وهو ما أشار إليه سيد قطب بقوله: "الزكاة ليست مجرد إخراج مال، بل ميثاق اجتماعي يعيد ترتيب العلاقات في المجتمع المسلم"^{٤٦٥}.

وعلى ضوء ذلك، يمكن القول إنّ الزكاة كانت أداة مركزية في التربية النبوية عند أولي العزم من الرسل، إذ شكلت قاسماً مشتركاً في رسالاتهم، وجاء الخطاب القرآني مصدقاً لهذا الامتداد، في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾

^{٤٥٩} ابن ماجه، السنن، كتاب الزكاة، باب فرض الزكاة، ٤: ٥٣ (١٧٨٣) خلاصة جكم الحديث: صحيح.

^{٤٦٠} ابن القيم، إعلام الموقعين، ٢: ١٤.

^{٤٦١} القرآن الكريم، سورة التوبة ٩: ١٠٣.

^{٤٦٢} انظر: الطبري، جامع البيان، ١١: ٥٥.

^{٤٦٣} الترمذي، السنن، تحقيق: بشار عواد معروف، كتاب الزكاة، باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة، ٥: ٩١.

(٦٥٩). قال الترمذي: "حديث حسن".

^{٤٦٤} المباركفوري، تحفة الأحوذى، ٣: ٢٦١.

^{٤٦٥} سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤: ١٩٨٠.

أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ^{٤٦٦}، وقد فسّر ابن كثير هذا بـ"اتحاد أصول الشريعة، ومنها الزكاة التي لا تستقيم الحياة بدونها"^{٤٦٧}.

وعله، فإن التربية على قيمة الزكاة، كما مارسها أولو العزم من الرسل ﷺ، كانت تربيةً عملية متواصلة، تتجاوز الجانب النظري إلى إصلاح النفوس وتزكية الأموال، وغرس روح المسؤولية الاجتماعية في المجتمعات، مما يجعلها نموذجًا تربويًا خالداً يصلح لكل زمان ومكان. ولذلك، فإن من الواجب على المؤسسات التربوية والدعوية اليوم أن تُعيد إبراز هذا البُعد الرسالي في الزكاة، مسترشدة بهدي الأنبياء في ربطها بالتقوى، وبالعدالة، وبمقاصد الشريعة العليا.

خلاصة القول:

يتبن لنا أن الزكاة في دعوات أولي العزم من الرسل لم تكن مجرد فريضة مالية، بل كانت وسيلة تربوية لترسيخ معاني التكافل والتزكية والعدالة. وقد حرصوا على توجيه أقوامهم إلى أداء الزكاة باعتبارها مظهرًا من مظاهر الإيمان العملي، وغرسوا فيهم العادات الصالحة المتعلقة بالعطاء، لتكون عبادةً يوميةً متأصلةً في السلوك، لا مجرد واجبٍ موسمي. وبذلك يتجلى البعد التربوي العميق في منهج الأنبياء، القائم على التزكية والتعليم والتكافل.

العادة الرابعة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على فريضة الصيام

إنّ فريضة الصيام لم تكن حكرًا على أمة محمد ﷺ، بل كانت من العبادات المشتركة التي دعت إليها الرسالات السابقة، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^{٤٦٨}، وقد أشار الطبري إلى أن هذه الآية

^{٤٦٦} القرآن الكريم، سورة الشورى ٤٢: ١٣.

^{٤٦٧} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤: ١٣٧.

^{٤٦٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٨٣.

دليل على أن الأمم السالفة فرض عليهم الصيام أيضاً، مما يدل على استمرارية هذه الفريضة في منهج التربية الربانية منذ القدم^{٤٦٩}.

وقد بيّن المفسرون أن التشبيه في الآية يدل على وحدة المقصد، لا التطابق في الهيئة، وهو ما أكدّه الرازي بقوله: "فإن صيامهم قد يختلف في الوقت والكيفية، ولكن الغاية واحدة وهي التقوى"^{٤٧٠}. ويُفهم من هذا أن التربية على الصيام كانت مشروعاً تربوياً مشتركاً بين أولي العزم من الرسل، كلٌّ بحسب سياق قومه، وأوضاع زمانه.

وقد تجلّى هذا المعنى في سيرة موسى ﷺ، حيث ثبت عنه أنه صام أربعين ليلة استعداداً للميقات مع الله، كما قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾^{٤٧١}، وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس أنّ هذه الليالي كانت بالصيام، ثم حُتِمت بعشر ليالٍ هي من ذي الحجة، وذلك في إطار تطهير النفس والتأهل للخطاب الإلهي^{٤٧٢}. وهذا يظهر كيف أن الصيام كان وسيلة تربوية لإعداد الأنبياء أنفسهم لتلقي الوحي، قبل أن يكون تكليفاً للأمم.

أما عيسى ﷺ، فقد جاء في الروايات المعتمدة من أخبار بني إسرائيل التي نقلها العلماء أنّه كان يكثر من الصيام، ويدعو إلى الزهد في الدنيا، كما أورد ابن أبي حاتم: "وكان عيسى لا يأكل إلا خبز الشعير، ويصوم الدهر، ويبيت حيث أمسى"^{٤٧٣}. وعلى الرغم من أن هذه الأخبار تُنقل بصيغة "الإسرائيليات"، فقد قبل العلماء ما لا يخالف أصل الشرع منها، وهو ما يظهر صفة التزكية بالصيام في حياة الأنبياء^{٤٧٤}.

^{٤٦٩} الطبري، جامع البيان، ٢: ١٧٢.

^{٤٧٠} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٥: ٤٢.

^{٤٧١} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٤٢.

^{٤٧٢} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣: ٤٩٢.

^{٤٧٣} ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ٦: ٧٨٨.

^{٤٧٤} انظر: ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ٦: ٧٨٨. بيّن ابن كثير موقفه من الإسرائيليات بقوله: "فما كان من الإسرائيليات موافقاً لما عندنا قبلناه، وما خالف ردّدناه، وما لم يوافق ولم يخالف توقّفنا فيه، ولا نصّدقه ولا نكذّبه". وهذا هو الأصل الذي اعتمده جمهور المفسرين في التعامل مع الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل، خاصة في سير الأنبياء، ما دامت لا تصادم النصوص الشرعية القطعية. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١: ٩.

ومن جانب آخر، نجد أن النبي محمدًا ﷺ أكد على مشروعية الصيام في الرسائل السابقة، من خلال قوله: «أفضل الصيام بعد رمضان، صيام داوود»^{٤٧٥}. وقد بين ابن حجر في شرحه أن داوود ﷺ كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وهو صيام يدل على أعلى درجات المجاهدة والتوازن في العبادة؛ لأنه يجمع بين فضل العبادة وراحة النفس، ويجسد الاعتدال والدوام^{٤٧٦}. وقد نص العلماء أن هذا الصيام ليس فقط سنّة، بل يحمل دلالة تربوية عميقة في تعويد النفس على التوازن وعدم الإفراط.

من هنا، يمكن اعتبار مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية بالصيام أنها تربية على "تقوى الزمن"، إذ تتجسد التقوى في السيطرة على الشهوات والارتباط بالغاية الإلهية، وهذا ما أوضحه ابن عاشور بقوله: "الصيام عبادة تهدف إلى ترسيخ ملكة التقوى... فهو تعليم عملي للرقابة الذاتية"^{٤٧٧}. وبهذا المعنى، يصبح الصيام وسيلة منهجية في بناء الإنسان المؤمن.

ومن التطبيقات التربوية الهامة في القرآن أن مشروع الصيام ارتبط بالتقوى، حيث حُثمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهذا يؤكد على أن الهدف ليس الجوع أو العطش، بل بناء الضمير المتصل بالله، وقد علّق سيد قطب على ذلك بقوله: "التقوى هي الثمرة المرجوة من الصيام... وهي تربية القلب لا مجرد منع الطعام"^{٤٧٨}. وهذا يدل على أن الأنبياء إنما دعوا إلى الصيام، لأنه يختصر مسارًا طويلاً من التزكية والسمو الإيماني.

وفي ضوء هذه المفاهيم، يمكن القول: إن التربية على فريضة الصيام في دعوة أولي العزم من الرسل ﷺ، لم تكن مجرد تعليم نظري، بل هي ممارسة متكررة، تتصل بالتكليف الإلهي، وتُعدّ وسيلة تربوية لبناء الإنسان الرباني. وقد لخص ابن القيم هذا المعنى بقوله: "الصيام يحبس النفس عن مألوفاتها، ويفطمها عن شهواتها، ويُربّي فيها التقوى، والصدق، والإخلاص"^{٤٧٩}. وعليه؛ فإن تفعيل مفهوم الصيام في التربية النبوية مشروع مستمر، يُحتذى في المناهج التربوية،

^{٤٧٥} البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الصوم، باب صيام داوود ﷺ، ٣: ٤٠ (١٩٧٨)،

^{٤٧٦} ابن حجر، فتح الباري، ٤: ٢٣١.

^{٤٧٧} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢: ١٧٤.

^{٤٧٨} سيد قطب، في ظلال القرآن، ١: ١٥٨.

^{٤٧٩} ابن القيم، زاد المعاد، ٢: ٢٩.

لما له من أثر مباشر في إصلاح القلوب، وتنمية الإرادة، وربط السلوك بالمقصد الإلهي. وهذا يتطلب من المربين والعلماء ربط فريضة الصيام بمنهج الأنبياء التربوي، وتقديمه للناشئة لا كتكليف ثقيل، بل كوسيلة للتزقي في مدارج التقوى، كما فعل الأنبياء أولوا العزم، في دعوتهم، وسلوكهم، وأقوالهم، وسيرهم.

خلاصة القول:

يتبين لنا أن فريضة الصيام لم تكن مجرد شعيرة عابرة في حياة أولي العزم من الرسل، بل كانت تمثل منهجاً تربوياً راسخاً تجسدت فيه معاني الصبر والطاعة والتقوى، وقد كانت عاداتهم الصالحة في هذا المجال نموذجاً يُحتذى به في تربية الأفراد والمجتمعات على الانضباط والطهارة الباطنية؛ وإن دراسة هذه الجوانب تعين على إحياء المقاصد التربوية للصيام وربطها بسير الأنبياء كمصادر أصيلة للهداية العملية.

العادة الخامسة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على فريضة الحج

تُعَدُّ فريضة الحج من أقدم العبادات التي عرفتها البشرية، إذ شُرعت في شرائع الأنبياء والرسل ﷺ منذ عهد آدم ﷺ إلى خاتمهم محمد ﷺ، وقد كان الأنبياء ﷺ أول الممثلين لأمر الله تعالى، فهم لا يدعون إلى عبادة إلا كانوا أسبق الناس إلى أدائها. ومن ثمّ، فقد داوموا على تعظيم بيت الله الحرام، حجاً وطوافاً وأداءً للمناسك، ودعوةً لأقوامهم إلى ذلك، مما يدل على رسوخ هذه الشعيرة في منهجهم التربوي والدعوي.

وقد دلّت جملة من الآثار على مداومة الأنبياء ﷺ على الحج وتعظيم شعائر الله؛ فمن ذلك ما رُوي عن ابن عباس رضيهما الله عنهما قال: «كانت الأنبياء تدخل الحرم، مشاة حفاة، ويطوفون بالبيت، ويقضون المناسك، حفاة مشاة»^{٤٨٠}. كما رُوي عنه ﷺ أيضاً أنه قال: «لقد سلك فجّ الروحاء سبعون نبياً حُجَّاجاً عليهم ثياب الصوف، ولقد صلّى في مسجد

^{٤٨٠} ابن ماجه، السنن، كتاب المناسك، باب دخول الحرم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ٢: ٩٨٠، (٢٩٣٩)، خلاصة حكم الحديث: صحيح.

الخيف سبعون نبياً»^{٤٨١}. وهو ما يدل على كثرة من حجّ من الأنبياء، واستمرار هذه العبادة عبر العصور.

ومن جهةٍ أخرى، وردت آثارٌ تربط بين أوائل الأنبياء ﷺ والحج، فقد رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «بعث الله جبريل ﷺ إلى آدم وحواء، فقال لهما: ابنيَا لي بناء. فخط لهما جبريل ﷺ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء، نودي من تحته: حسبك يا آدم. فلما بنياه أوحى الله تعالى إليه: أن يطوف به، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت. ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه»^{٤٨٢}. وورد عن عروة بن الزبير ﷺ أنه قال: «بلغني أن البيت وضع لآدم ﷺ يطوف به ويعبد الله عنده وأن نوحاً ﷺ قد حجه، وجاءه، وعظمه قبل الغرق»^{٤٨٣}. ويُفهم من هذه الآثار أن آدم ونوحاً ﷺ كانا من أوائل من عظم شعيرة الحج؛ إذ باشرا الطواف بالبيت وأداء المناسك تعظيماً لأمر الله تعالى، مما يدل على أن تعظيم البيت الحرام والحج إليه أصلٌ راسخٌ في شرائع الأنبياء ﷺ.

وقد ارتبطت هذه الشعيرة ارتباطاً وثيقاً بخليل الله إبراهيم ﷺ، الذي جعله الله تعالى مُعلِّماً لأصول هذه الفريضة، ومؤسساً لمظاهرها وشعائرها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^{٤٨٤}.

^{٤٨١} البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الحج، باب دخول مكة لغير إرادة حج ولا عمرة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ١٠: ٢٦٨، (٩٩٢٥)، خلاصة حكم الحديث: إسناده ضعيف.

^{٤٨٢} أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، باب ما جاء في بناء الكعبة على طريق الاختصار، وما ظهر فيه على رسول الله ﷺ من الآثار، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥)، ٢: ٤٥، خلاصة حكم الحديث: ضعيف.

^{٤٨٣} أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، باب ذكر حج إبراهيم ﷺ وأذانه بالحج، وحج الأنبياء بعده، وطوافه، وطواف الأنبياء بعده، تحقيق: رشدي الصالح ملحسن، ط ٣، (بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٣)، ١: ٧٢. كما رُوي عن عروة بن الزبير ﷺ أيضاً أنه قال: «ما من نبي إلا وقد حج البيت، إلا ما كان من هود وصالح، ولقد حجه نوح...». البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الحج، باب دخول مكة لغير إرادة حج ولا عمرة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ١٠: ٢٦٨ - (٩٩٢٦)، خلاصة حكم الحديث: إسناده ضعيف.

^{٤٨٤} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٢٦.

وقد علّق الطبري على هذه الآية بقوله: "أمر الله إبراهيم بتطهير البيت من الأوثان، ليكون خاصاً لعباد الله المخلصين الذين يقصدونه بالطواف والعبادة"^{٤٨٥}.

وفي هذا الإطار، تتجلى التربية الإيمانية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في دعوتهم إلى الحج باعتباره ذروة تجليات التوحيد، إذ الحجّ هو رحلة التحرّر من علائق الدنيا، والتجرّد من مظاهر التفاخر، والتوجه الكامل إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَقْوَىٰ إِلَيْهِمْ﴾^{٤٨٦}، أي تشتاق إلى البيت الحرام لما فيه من معاني العبودية التي غرسها إبراهيم الخليل في أبنائه^{٤٨٧}. وقد ظهرت مداومة إبراهيم ﷺ على تربية ذريته على هذه الفريضة من خلال أمر الله تعالى له بالنداء بالحج، حيث قال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾^{٤٨٨}. وقد فسّر ابن كثير هذا النداء بأنه "إعلان عام من إبراهيم ﷺ إلى البشرية يدعوهم إلى زيارة بيت الله، ولجئ الناس نداءه عبر العصور"^{٤٨٩}. فهذا الإعلان ليس مجرد دعوة مكانية، بل هو مظهر من مظاهر التربية العالمية على تعظيم شعائر الله، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمْ شُعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^{٤٩٠}. وقد استمرت هذه التربية الإبراهيمية في حجّ الأنبياء من بعده، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مررتُ على موسى وهو قائم يُصَلِّي في قبره عند الكتيب الأحمر»^{٤٩١}، وفي رواية أنه رآه في طريقه إلى الإسراء والمعراج، مما يدلّ على مداومة الأنبياء على عبادة الله في أماكن الاصطفاء. كما ثبت عنه ﷺ أنه حج حجة الوداع، وكان ذلك تأكيداً على إحياء شعائر إبراهيم ﷺ، وقد ورد في الحديث: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»^{٤٩٢}، وهذا فيه إشارة تربوية واضحة بأن الحج عبادة تعليمية متواصلة ترتبط بالقدوة النبوية، لا بمجرد الأداء. وتظهر هذه المداومة في الجانب العملي من

^{٤٨٥} الطبري، جامع البيان، ١٧: ١٣٣.

^{٤٨٦} القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤: ٣٧.

^{٤٨٧} القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠: ٩٥.

^{٤٨٨} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٢٧.

^{٤٨٩} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥: ٤١٥.

^{٤٩٠} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٣٢.

^{٤٩١} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، ١: ٥٠٦ (٢٣٧).

^{٤٩٢} مسلم، الصحيح، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ٥: ٢٣٤ (١٢٩٧).

خلال تعظيم الأنبياء للمشاعر المقدسة، فإبراهيم عليه السلام لم يكن فقط بانيًا للبيت الحرام، بل مربيًا للأمة على تعظيمه، وقد دعا الله قائلًا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾^{٤٩٣}، وهذا يدل على أن المناسك ليست مجرد طقوس، بل شعائر تعليمية تتطلب فهمًا وتربية، وقد قال ابن عاشور: "طلب إبراهيم من ربه أن يريه المناسك هو تعبير عن حاجته إلى الوحي في ضبط أداء الشعائر، وهو ما يدل على منهجية التلقي والتسليم في التربية الدينية"^{٤٩٤}.

من هنا يتبين لنا أن العادات الصالحة في سيرة أولي العزم من الرسل ﷺ تُعد منطلقًا تربويًا عميقًا في فهم فريضة الحج، لا باعتبارها طقسًا مؤقتًا، بل منهج حياة في تعظيم الله، والانقياد لأمره، والتزكية بالنسك والطهارة. وقد تركت هذه العادات آثارًا عملية في سلوك المؤمنين، مما يؤكد على أهمية استحضار القدوة النبوية في أداء الحج، وتحديد النية، والتأسي بمنهج الأنبياء في بناء الروح والوجدان عبر هذه الفريضة العظيمة. وقد أبرزت السنة النبوية تربية النبي محمد ﷺ لأُمَّته على شعائر الحج بأسلوب عملي مباشر، فقد خطب الناس وبين مناسكهم، وربى الأمة على تعظيم الزمان والمكان والموقف، فقال في خطبته: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»^{٤٩٥}، فربط بين حرمة الإنسان وحرمة شعائر الله، ليكون الحج ميدانًا لترسيخ القيم العليا. ويُستفاد من هذا أن مداومة أولي العزم من الرسل على تربية أقوامهم على فريضة الحج لم تكن محصورة في الطقوس، بل كانت سعيًا لتكوين قلب تقي يقدر الشعيرة ويُعظمها، وهذا المعنى جاء في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ خُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾^{٤٩٦}. وقد أشار ابن القيم إلى ذلك بقوله: "إن المقصود من النسك هو التقرب إلى الله، لا الصور الظاهرة، ولذلك فإن أعظم أثر للحج هو إصلاح القلب وتركيبته"^{٤٩٧}.

^{٤٩٣} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٨.

^{٤٩٤} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١: ٧٤١.

^{٤٩٥} البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب خطبة النبي ﷺ يوم النحر، ٣: ١٢٣ (١٧٤١).

^{٤٩٦} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٣٧.

^{٤٩٧} انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ١: ٣٢٦.

وعليه؛ فإن التربية على فريضة الحج عند أولي العزم من الرسل تعبّر عن ذروة التعظيم لشعائر الله، وهي تربية تتجاوز الأداء إلى بناء النفس الموحدة لله، المجردة من التعلقات، المنقادة لشرعه، وهذا من تمام العبودية التي أرسل بها الرسل، عليهم الصلاة والسلام، كما أشار سعد الدين منصور إلى هذا المعنى بقوله: "الحج كعبادة لا بد فيه من مشقة تنال الإنسان؛ حتى يتحقق له الأجر والثواب من عند الله تعالى، وبقدر مشقة يكون الأجر والجزاء من حسن العمل"^{٩٨} مبيّنًا أن المشقة جزء من طبيعة العبادة، وأنه لا ينبغي أن يُفهم التيسير بمعزل عن طبيعة الابتلاء والتكليف المقترن بالحج.

بناءً على ما سبق، يتّضح أن الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، لم تكن عندهم شعائر شكلية، بل كانت عادات حياتية متجدّرة تُمارس بروح الإيمان، وتُورث عبر التربية والقُدوة. وهذا ما يجعل من سيرتهم منبعًا أصيلاً لبناء المنهج التربوي الإسلامي في بعده الشرعي والسلوكي.

خلاصة المطلب:

تُظهر الدراسة أن القُدوة الصالحة عند أولي العزم من الرسل تمثل نمطًا ربانيًا متكاملًا في التربية الشرعيّة، يجمع بين التزكية والتعليم والتأديب العملي، ويُترجم المبادئ القرآنية إلى سلوك واقعي. كما تكشف النماذج المستخلصة عن عمق البعد التربوي في أفعالهم وأقوالهم، مما يجعلهم الأسوة العملية التي ينبغي أن تُحتذى في مجالات الدعوة والتربية والتزكية، عبر الأجيال.

المطلب الثالث: التربية في بناء العلاقات الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ

تمهيد

تُعَدّ التربية على العلاقات الاجتماعية أحد المرتكزات الأساسية في بناء المجتمعات الصالحة، وقد أولى الإسلام هذه القضية اهتمامًا بالغًا من خلال منظومته التربوية المستمدة من الوحي،

^{٩٨} سعد الدين منصور محمد، 'دور الحكومات والمنظمات في تيسير الحج'، ندوة الحج الكبرى: التيسير في الحج في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، أعمال الدورة الحادية والثلاثين لندوة الحج الكبرى، المجلد الثاني، مكة المكرمة، ٢٥-٢٢ ديسمبر ٢٠٠٦، بإشراف أ.د. هشام بن عبد الله العباس، الرياض: وزارة الحج. (٢٠٠٧): ٩٣٣-٩٥٦.

قرآنًا وسنةً. وقد تجلت هذه المنظومة بأرقى صورها في سير أولي العزم من الرسل ﷺ، حيث قدموا للبشرية نماذج فذة في ترسيخ العلاقات الاجتماعية السليمة عبر القدوة العملية واستخدام الوسائل التربوية المؤثرة، كالحوار، والتوجيه، والموعظة، والمواقف الحية. ويهدف هذا المطلب إلى إبراز معالم هذه القدوة الصالحة، من خلال المحاور الآتية: أولاً: مفهوم التربية في بناء العلاقات الاجتماعية. ثانياً: نماذج من معالم العادات التربوية الصالحة في بناء العلاقات الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ.

أولاً: مفهوم التربية في بناء العلاقات الاجتماعية

تُعَدُّ التربية على العلاقات الاجتماعية من المقاصد الجوهرية للتربية الإسلامية، إذ تستمد منهجها من الوحيين: القرآن الكريم والسنة النبوية، وتهدف إلى توجيه الفرد والمجتمع نحو تحقيق التآلف، والتكافل، والانضباط الخُلقي في التعامل الإنساني. وقد جاءت نصوص الشريعة مشحونة بتوجيهات تربوية تغرس في المسلم روح التفاعل البناء مع مجتمعه، عبر الأخوة، والاحترام، والإحسان، والتناصح، والتراحم. كما أوضحت بعض الدراسات التربوية والاجتماعية أن التربية على العلاقات الاجتماعية تُعْنَى بـ"تنمية الاتجاهات والسلوكيات الاجتماعية وفق المبادئ الإيمانية، لتكوين بيئة متماسكة ومستقرة تعبد الله بحق، وتؤدي الحقوق على وجهها"^{٩٩}.

وفي السياق ذاته، يرى حسام الدين فياض أن العلاقات الاجتماعية تمثل الروابط والآثار المتبادلة بين الأفراد في المجتمع، والتي تنشأ نتيجة اجتماعهم، وتبادل مشاعرهم، واحتكاكهم ببعضهم البعض، ومن تفاعلهم في بوتقة المجتمع، كما يصفها بأنها صورة من صور التفاعل الاجتماعي بين طرفين أو أكثر، بحيث يكون لكل طرف صورة عن الآخر، مما يؤثر سلباً أو إيجاباً في الحكم المتبادل بينهما؛ ومن أبرز صور هذه العلاقات: الصداقة، الروابط الأسرية، القرابة، زمالة العمل، والمعارف، وتنبع هذه الروابط من التفاعل الإنساني، وما ينشأ عنه من مشاعر ومواقف متبادلة تُكوِّن شبكةً من العلاقات الاجتماعية التي تشكّل بنية

^{٩٩} عامر خطاب، 'العلاقات الاجتماعية في الإسلام'، مقاربات، مجلة فصلية عامة تتبع للمجلس الإسلامي السوري ١٠، العدد ١٠ (٢٠٢١): ٥٣-٥٨.

المجتمع^{٥٠٠}. وقد عرّف عبد الرحمن النحلاوي مصطلح العلاقات الاجتماعية بأنه "الروابط التي تنشأ بين أفراد المجتمع على أساس التفاعل والتواصل والتبادل"، مؤكداً أن الإسلام "يرسي دعائم هذه العلاقات على أساس العقيدة والأخلاق، لا على أساس المصالح الذاتية المجردة"^{٥٠١}.

وقد تناول القرآن الكريم مفهوم التربية على العلاقات الاجتماعية في مواضع متعددة، منها قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^{٥٠٢}، وهو أمرٌ إلهي مطلق يشمل جميع البشر، ويُعبّر عن توجيه رباني إلى أساس المعاملة بالكلمة الطيبة، التي تُعد مدخلاً رئيساً لبناء علاقات متينة ومجتمع متماسك. وقد فسّر الطبري الآية بأنها أمرٌ بالقول الحسن والتعامل الجميل مع الجميع، مسلمين وغير مسلمين، ما لم يكن هناك عدوان أو ظلم^{٥٠٣}. ووافقه ابن كثير في تفسيره، مضيفاً أن القول الحسن يُعد سلوكاً عاماً يجب أن يُمارس مع الناس كافة دون استثناء^{٥٠٤}.

وفي السنة النبوية، يُعتبر حديث النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^{٥٠٥}، أصلاً في بناء علاقة قائمة على الحب والتكافل والنية الصادقة، مما يجعلها أداةً تربوية عظيمة لغرس مفهوم الأخوة الإنسانية والاجتماعية. إن التربية على العلاقات الاجتماعية في الإسلام لا تقتصر على الجانب الأخلاقي فحسب، بل تشمل الجانب العقدي، إذ ترتبط بحقيقة استخلاف الإنسان في الأرض، ومسؤوليته تجاه مجتمعه. وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^{٥٠٦}، حيث فسّر الطبري الآية بأن هذا التنوع إنما هو لاختبار الناس في حسن تعاملهم وتعارفهم، لا للتفاخر أو التنازع^{٥٠٧}.

^{٥٠٠} حسام الدين فياض، العلاقات الاجتماعية: نحو علم اجتماع تنويري، (د.م.د.ط، ٢٠١٦) ٢-٣.

^{٥٠١} عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، ص ١٧٣

^{٥٠٢} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٨٣.

^{٥٠٣} الطبري، جامع البيان، ٢: ٢٤٥

^{٥٠٤} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١: ١٦٣.

^{٥٠٥} البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب حبّ الرسول من الإيمان، ١: ٢٠ (١٣)

^{٥٠٦} القرآن الكريم، سورة الحجرات ٤٩: ١٣.

^{٥٠٧} الطبري، جامع البيان، ٢٦: ١٣٨.

ومّا يدلّ على مركزية التربية على العلاقات الاجتماعية في السنة النبوية، ما رواه النبي ﷺ بقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت....»^{٥٠٨}. وقد بين النووي أن هذا الحديث أصلٌ في ضبط اللسان، وأن الإيمان الحقّ يثمر التخلّق بالأدب مع الناس، وترك ما يؤذيه من قول أو فعل، وأن الصمت حين لا يكون في القول خيراً هو من علامات كمال الإيمان^{٥٠٩}. كذلك قوله ﷺ: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»^{٥١٠}. وهذا الحديث يُظهر ارتباط الإيمان بمراعاة حقوق الجوار، حيث علّق النبي ﷺ على كمال الإيمان على تحقيق التكافل الاجتماعي، ولو بأبسط الحقوق، وهي الإطعام، كما أشار ابن حجر إلى أن "الحديث يُبرز البعد الاجتماعي للإيمان، ويُحرّض على الإيثار والتراحم، مما يُربي النفس على المسؤولية الجماعية"^{٥١١}. وهو تأسيسٌ لقيم التراحم والتكافل في العلاقة المجتمعية. وومن الوسائل التربوية في تعزيز هذه العلاقات ما ورد في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»^{٥١٢}، وهو توجيه نبوي لغرس البشاشة وحُسن التلاقي، مما يؤسس لعلاقات قائمة على المودّة والتقدير، دون تكلف أو تصنّع. قال المباركفوري: "التبسم يورث الألفة ويزيل الوحشة، وهو من مكارم الأخلاق"^{٥١٣}.

ويلاحظ أن هذا المفهوم للعلاقات الاجتماعية يقوم على عناصر أساسية، أبرزها: التعارف، والتراحم، والتناصح، والتكافل، وهذه القيم لا تتحقق إلا من خلال تربية منهجية تبدأ من الأسرة، ثم تُدعّم بالمدرسة والمجتمع؛ وقد قال ابن القيم: "بصلاح الأسرة يصلح المجتمع، وبفسادها يفسد، فهي مهبط الوحي التربوي الأول"^{٥١٤}.

^{٥٠٨} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ١: ٣٠ (٤٧).

^{٥٠٩} النووي، المنهاج، ٢: ١٨.

^{٥١٠} البخاري، الأدب المفرد، باب حقّ الجار، ١: ٢٠١ (١١٢)، وصححه الألباني. انظر: الألباني، صحيح الأدب المفرد، ١: ٣٢٠ (١١٢).

^{٥١١} ابن حجر، فتح الباري، ١٠: ٤٥٦.

^{٥١٢} الترمذي، السنن، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، ٢: ٥٨ (١٩٥٦) خلاصة حكم الحديث: قال الترمذي: حديث حسن.

^{٥١٣} المباركفوري، تحفة الأحوذى، ٦: ١٣٧.

^{٥١٤} ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤)، ٩٦.

وفي هذا السياق، تتكامل التربية العقدية مع التربية الاجتماعية، حيث تتأسس العلاقة مع الآخر على قاعدة التوحيد؛ فكل علاقة لا تنبع من هذا الأصل معرضة للاختلال. وقد قال سيد قطب: "إن المجتمع المسلم هو ذلك الذي تتسق علاقاته مع عقيدته، حيث يكون التعامل نابغاً من تصور توحيدي للحياة"^{٥١٥}.

ولذا، فإن التربية الإسلامية تسعى إلى بناء "الإنسان الاجتماعي المؤمن"، الذي يُحسن التفاعل، ويتحلى بأخلاق الجماعة، ويؤمن بالمسؤولية المشتركة. وقد أكد الغزالي أن "الاجتماع البشري ضرورة، والتعاون عليه فرض"^{٥١٦}، ومن ثم وجب تربية الفرد ليكون عضواً فاعلاً في مجتمعه.

بناءً عليه؛ فإنّ التربية على العلاقات الاجتماعية هي العملية التي تُعنى بتكوين اتجاهات الفرد وسلوكه نحو الآخرين، في ضوء التصوّرات الإسلامية القائمة على العدل، والرحمة، والتعاون؛ وذلك من خلال توجيه الفرد نحو تنمية سلوك اجتماعي منضبط بالقيم الإيمانية، والتفاعل الإيجابي مع الآخرين ضمن ضوابط الشريعة وأخلاقيات الوحي. ويشمل هذا التوجيه التربوي جميع دوائر العلاقة الإنسانية، ابتداءً من علاقة الإنسان بوالديه، مروراً بزوجه وأبنائه، وانتهاءً بجيرانه ومجتمعه وأُمَّته.

ثانياً: نماذج من معالم العادات التربوية الصالحة في بناء العلاقات الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ

تُعد العلاقات الاجتماعية ركيزة أساسية في بناء المجتمعات واستقرارها، وقد أولى الأنبياء والمرسلون عامة، وأولو العزم منهم خاصة، اهتماماً بالغاً بتأسيس هذه العلاقات على أسس ربانية وتربوية راسخة. فقد تجلّت في سيرهم مجموعة من العادات التربوية الصالحة التي أرسّت قواعد التعامل الإنساني النبيل، وعكست المنهج الإلهي في التربية الاجتماعية القائمة على الأدب، والرحمة، والعدل، والحكمة.

^{٥١٥} سيد قطب، في ظلال القرآن، ٥: ٢٧٥٩.

^{٥١٦} الغزالي، إحياء علوم الدين، ٢: ١٧٤.

وانطلاقاً من هذا الأساس، يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على أبرز معالم العادات التربوية الصالحة التي تجلت في سيرة أولي العزم من الرسل ﷺ، ولا سيما في سياق بناء العلاقات الاجتماعية، وذلك من خلال رصد نماذجها في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، مع الاستفادة من شروح المفسرين وشرّاح الحديث في تأصيل وتحليل هذه العادات التربوية الفاعلة.

وقد تم تقسيم الدراسة إلى ثلاثة محاور رئيسة، تمثل أهم أنماط العلاقات الاجتماعية التي تعامل معها أولي العزم من الرسل ﷺ، وهي: العادة الأولى: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في بناء الأدب مع الأنبياء والرسل ﷺ والعادة الثانية: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في بناء الأدب مع المصدقين بالدين، والعادة الثالثة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في بناء الأدب مع المكذبين بالدين.

العادة الأولى: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في بناء الأدب مع الأنبياء والرسل ﷺ

يتّضح من خلال مسيرة أولي العزم من الرسل ﷺ، أن أدبهم مع بعضهم البعض، واحترامهم لمقام النبوة، لم يكن مجرد سلوكاً فردياً، بل كان منهجاً تربوياً متكاملًا، غايته ترسيخ الهبة الشرعية لمقام الرسالة، وربط الناس بالوحي من خلال التوقير والافتداء. وقد تجلت هذه المداومة في مواقف متكررة، تعكس وحدة الرسالة واختلاف التشريعات، مع الثبات على المبدأ: تعظيم من أرسل من عند الله ﷻ، سواء من السابقين أو المعاصرين أو اللاحقين.

ومن دلائل مداومة الأنبياء على هذا المنهج التربوي: أن كل نبي كان يُصدّق من قبله من الأنبياء، بل ويأمر قومه بذلك، كما قال تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^{٥١٧}، وهو اليوم الذي أنذر به أقوام سابقون، مما يدل على وحدة التحذير والرسالة، كما بيّن البقاعي أن "في ذكر اليوم الأليم إحالة على ما جرى في قصص الأنبياء السابقين، وتحذير من مخالفة سننهم"^{٥١٨}.

^{٥١٧} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٥٨.

^{٥١٨} القرآن الكريم، سورة الشعراء ٢٦: ١٣٥.

فقد كان نبي الله إبراهيم عليه السلام، وهو من أولي العزم، من أول من أسس لهذا الأدب التربوي، حين دعا في صلاته أن يُبعث في ذريته رسول يُتِمُّ المسيرة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾^{٥١٩}، وهو دعاء تضمن توقيراً مستقبلياً لرسولٍ قادم، أي محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال الطبري: "فيه دعاء إبراهيم بأن يبعث الله في العرب نبياً منهم"^{٥٢٠}، وهو موقف يجمع بين النبوة والاتباع في آنٍ واحد.

ومن أبرز مشاهد هذا الأدب التربوي أيضاً ما ورد في موقف النبي موسى عليه السلام من أخيه هارون، حين قال له: ﴿يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِخِطِّي﴾^{٥٢١}، وهو خطاب فيه استحضار للرحمة والأخوة والنبوة، رغم اختلاف المواقف، وهو ما علّق عليه الرازي بقوله: "هذا من أدب موسى عليه السلام، حيث لم يهين أخاه، بل خاطبه بلطف"^{٥٢٢}. وهذا يكشف جانباً دقيقاً من مداومة الأدب حتى في لحظة الشدة أو الخلاف.

وتتجلى هذه التربية كذلك في موقف نبي الله عيسى عليه السلام، حين قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾^{٥٢٣}، وقد قال السعدي في تفسيرها: "هذا من تمام أدب عيسى عليه السلام، حيث لم يكتف بتبليغ الرسالة بل بشّر بمن يأتي من بعده"^{٥٢٤}. وهذا يدل على عمق ترابط سلسلة الأنبياء وتناقلهم للأدب التربوي في التعامل مع الأنبياء.

وقد تعمق هذا المعنى في سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إذ تجلّى فيها أدبه العالي مع إخوانه من الأنبياء عليهم السلام، فقد كان يُقرّر بنبوّتهم، ويؤكد أن رسالته متممة لرسالاتهم، وليست منفصلة عنها؛ وقد عبّر عن ذلك بأبلغ صورة في قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعُجِبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ:

^{٥١٩} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٩.

^{٥٢٠} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢: ٥٩٦.

^{٥٢١} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٩٤.

^{٥٢٢} الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٣: ١٠٧.

^{٥٢٣} القرآن الكريم، سورة الصف ٦١: ٦.

^{٥٢٤} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٨٢٣.

هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»^{٥٢٥}. فهذا الحديث يُظهر تقديره لجميع الأنبياء من قبله، بل يربط نفسه بسلسلتهم لا استعلاءً بل تكاملاً. وقد بين النووي أن في هذا التشبيه "تحقيقاً لوحدة الرسالات، وإشارة إلى أن النبي ﷺ جاء مكماً للبناء النبوي، لا ناقصاً له، وفيه تعظيم لشأن إخوانه الأنبياء وتواضع عظيم منه ﷺ"^{٥٢٦}. وإذا كان النبي محمد ﷺ قد بُعث مصداً لما بين يديه، كما في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾^{٥٢٧}، فهذا يدل على عمق احترامه للتشريعات السابقة، مع تصحيح ما خُرف، وهو أدب شرعي لا يُبطل النبوات السابقة، بل يُنقيها من شوائب التحريف. وقد أشار ابن عاشور إلى أن في تصديق النبي للتوراة "إقراراً لأصل الرسالة، وتمييزاً لما دخله من التحريف"^{٥٢٨}.

ومن التطبيقات العملية في دعوة النبي محمد ﷺ، أنه كان يستشهد بقصص الأنبياء لتثبيت قومه على الحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^{٥٢٩}، وقد ذكر ابن كثير أن في هذا بيان أن قصة كل نبي تحوي درساً في الصبر والصدق والثبات^{٥٣٠}، وهذا غرسٌ تربويٌّ مباشرٌ للأدب والاقتداء.

وقد استمرت هذه المداومة التربوية حتى بعد انتهاء الرسالات، في توجيه النبي ﷺ لأُمَّته أن تقتدي بهم، قال النبي ﷺ في موضع تذكّره لمحنة يوسف عليه السلام: «رحم الله أخي يوسف، لقد كان له في السجن ما له»^{٥٣١}. وقد عبّر النبي ﷺ عن مشاعره الوجدانية تجاه إخوته من الأنبياء، في صورة رقيقة من صور الأدب معهم، وشرحه الهيتمي بقوله: "فيه تعبير عن رحمته

^{٥٢٥} البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، ٣: ٣٢ (٣٥٣٥)؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الفضائل،

باب فضل النبي ﷺ، ٧: ٢٣ (٢٢٨٦).

^{٥٢٦} النووي، المنهاج، ١٥: ١٤٨.

^{٥٢٧} انظر: البقاعي، نظم الدرر، ٩: ٧٢.

^{٥٢٨} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٤: ١٠٤.

^{٥٢٩} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ١٢٠.

^{٥٣٠} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤: ٣٣٠.

^{٥٣١} أحمد بن حنبل، المسند، ٢٤: ١٢٣ (١٧٦١٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، ٢٧: ٥٥؛ قال المحقق: "إسناده حسن".

ﷺ لأنبياء الله، واعترافه بفضلهم، وفيه تعليم للأمة أن لا تزهو بالنصر، بل تتواضع عند التمكين، كما فعل يوسف ﷺ^{٥٣٢}.

وعليه، فإن مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على ترسيخ الأدب فيما بينهم لم تكن تصرفات عاطفية أو فردية، بل كانت من جوهر الرسالة نفسها، ترسخ في الأمة معاني الاقتداء والانقياد والاحترام للوحي وحملته، وهو من تمام تحقيق العبودية لله تعالى، كما قال ابن تيمية: "تعظيم الأنبياء هو من تعظيم الله، فكلما كمل التوحيد كمل معه الأدب مع رسله"^{٥٣٣}.

خلاصة القول:

يتضح من خلال تتبع هذه النماذج التربوية أن أولي العزم من الرسل ﷺ كانوا مثلاً أعلى في غرس الأدب النبوي، والتربية على احترام الرسل ﷺ، وتقدير منازلهم، والاقتداء بمن سبقهم من الأنبياء، مما يُرسخ مبدأ وحدة الرسالة السماوية، ويُشكل أساساً تربوياً لبناء الشخصية المؤمنة المحترمة لمرجعية الوحي ورسله. وهذه العادات التربوية لا تزال حاضرة بقوة في البناء العقدي والأخلاقي للمجتمعات الإسلامية، مما يستدعي بعثها وتفعيلها في مناهج التعليم والتنشئة.

العادة الثانية: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في بناء الأدب مع المصدقين بالدين

يتضح من تأمل سير أولي العزم من الرسل ﷺ أنهم جسّدوا نماذج راقية من التربية بالأدب مع من صدّقوهم من أقوامهم وذوي قرابتهم، لا سيما في تعاملهم مع المسلمين والمقصرين

^{٥٣٢} قوله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف، لقد كان له في السجن ما له»، وهي عبارة تُظهر تعاطفاً وتقديراً بالغاً لمقام يوسف ﷺ، واعترافاً بفضله وثباته في الحن. قالها النبي ﷺ عند دخوله إلى مكة عام الفتح، لما قيل له: "هل تقيم في مكة كما أقام يوسف؟"، فأجاب بتواضع وأدبٍ مع يوسف ﷺ، مقدّماً مقامه علي. انظر: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المحقق: حسام الدين القدسي، (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٩٩٤)، ٩: ٢١.

^{٥٣٣} أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (القاهرة: مكتبة دار التراث، د.ت)، ٥١٩.

والمستضعفين من الرجال والنساء، والأبناء والبنات، والأيتام، وهو منهج نبوي قائم على الدعاء، والمشاورة، والمناصحة، والرفق، والصبر، كما تكررت هذه القيم في دعوتهم وتربيتهم. فمن ذلك ما فعله حين ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، لم يكلّ ولم يملّ، وعلمهم بالقدوة والصبر، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾^{٥٣٤}، وذكر ابن كثير أن "استمرار نوح في الدعوة دليل على صبر عظيم، وتحمل للأذى، وأدب في النصيحة دون استعلاء"^{٥٣٥}. وهذا من أنقى صور الأدب مع من يخطئ أو يتأخر عن الاستجابة، حيث يعلمنا ألا نياس من تعليم المقصرين أو نقصيهم.

وأما إبراهيم عليه السلام فقد ما فعله حين دعا الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾^{٥٣٦}، فهو لم يكتفِ بإصلاح نفسه، بل عمم دعاءه ليشمل أبنائه وذريته، وهو تعبير عن المسؤولية التربوية الأدبية تجاه من صدّق به من قرابته، وقد أشار الطبري إلى أن هذه الدعوة فيها "رغبة صادقة في صلاح الذرية واستمرار العهد الديني"^{٥٣٧}. وهذا يدل على أن إبراهيم عليه السلام لم ينقطع عن أبنائه بدعوى النبوة، بل جعل الأدب معهم جزءاً من دعائه، لأن الأدب مع المؤمنين، وخاصة من القرابة، هو أدب مع الله. وموسى عليه السلام كان من أظهر أولي العزم تحسّيداً للأدب التربوي مع المستضعفين، فقد بعثه الله لإنقاذ بني إسرائيل، وكان يحرص على مخاطبتهم باللين والصبر، رغم عنادهم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾^{٥٣٨}، حيث جمع نفسه وأخاه هارون عليه السلام في الدعاء، تعبيراً عن التواضع وتربية النفس، وقد فسّر ابن عاشور هذا الجمع بأن فيه "أدباً مع الله في تضمين النفس في طلب المغفرة وعدم استعلائها على غيرها"^{٥٣٩}.

^{٥٣٤} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٥.

^{٥٣٥} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٨: ٢٤٧.

^{٥٣٦} القرآن الكريم، سورة إبراهيم ١٤: ٤٠.

^{٥٣٧} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٦: ٥٣٩.

^{٥٣٨} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٥١.

^{٥٣٩} انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٩: ١٨١.

ومن صور الأدب أيضاً مشاورة النبي محمد ﷺ لأصحابه من المسلمين، رغم كونه معصوماً، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^{٥٤٠}، وقد ذكر الشوكاني أن هذه المشاورة "ليست لطلب الرأي لجهله به، وإنما لتأليف قلوب المؤمنين وتعليم الأمة أدب التشاور"^{٥٤١}. فالمشاورة هنا منهج تربوي لبناء أدب المشاركة في القرار لدى أتباعه، وهو أدب تعليمي راقٍ. وكان من أدبه ﷺ مع المستضعفين من النساء والأيتام أن حذر من ظلمهم، فقال: «اللهم إني أحرص حق الضعيفين: المرأة واليتيم»^{٥٤٢}، وهذا الحديث يمثل أوج التربية الأدبية النبوية، حيث لم يُنظر إليهم كمجرد فئات اجتماعية بل كمحلٍ لعناية ربانية خاصة. وفسر ذلك ابن القيم بقوله: "جعل الظلم لهم من أعظم الحرج، وهو نوع من الظلم لا يُحتمل"^{٥٤٣}. وفي سيرته ﷺ كذلك نجد رقة بالغة في تعامله مع الأطفال، فعن أنس بن مالك قال: "كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح على رؤوسهم"^{٥٤٤}، وهذا السلوك النبوي تعليم صامت للأدب والرحمة، وإشارة إلى أن التربية لا تكون بالتلقين فقط، بل بالسلوك الحاني، والكلمة الطيبة، ولمسة اليد على رأس يتيماً. كما كان ﷺ يوجه النصيحة للمقصرين من أقربائه بلين، كما في تعليمه لفاطمة رضي الله عنها، حيث قال لها: «يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار»^{٥٤٥}، وقد فسر العلماء هذا الحديث بأنه "إعلاء لقيمة المسؤولية الفردية، لكنه مملوء بالأدب الأبوي والتوجيه النبوي الرحيم"^{٥٤٦}. *ومن أعظم مظاهر الأدب النبوي في الدعاء لأمته، دعاؤه ليلة بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد بعد اليوم»^{٥٤٧}، حيث جمع

^{٥٤٠} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ١٥٩.

^{٥٤١} انظر: الشوكاني، فتح القدير، ١: ٤٧٠.

^{٥٤٢} النسائي، السنن، كتاب الطلاق، باب النهي عن تضييع حق المرأة، ٥: ٣٣ (٣٩٤٦)، خلاصة حكم الحديث: صحيح.

^{٥٤٣} انظر: ابن القيم، إعلام الموقعين، ٢: ١٣.

^{٥٤٤} البخاري، الصحيح، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس، ومن لم يخبر بسر صاحبه، إذا لم يأمره، ٥: ٢٤٣ (٦٢٤٨).

^{٥٤٥} البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، ٦: ٣٤٥ (٤٧٧١).

^{٥٤٦} انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٩: ٨٣.

^{٥٤٧} مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، ٥: ٢٣٤ (١٧٦٣).

بين المناشدة والرحمة والرؤية التربوية البعيدة. فكان دعاؤه لأتباعه يعكس قيمته كمعلم مربٍّ، يعتني بالمؤمنين والمجاهدين والدعاة، كما يعتني المعلم الحريص بطلبته.

بناء عليه؛ فإن أولي العزم من الرسل ﷺ قد أسسوا من خلال الدعاء والمشاورة والمناصحة والرفق والصبر نموذجًا رفيعًا للأدب التربوي مع من صدّق بدعوتهم من ذوي قرابتهم وأقوامهم، وهو نموذج باقٍ في الأمة، يُستلهم في المناهج التربوية والدعوية والاجتماعية، لبناء أجيال تعرف قدر الرسل ﷺ، وتحترم المربين، وتتأدّب مع العلماء والوالدين والضعفاء والأبناء، على منهج النبوة في كمال الرحمة، وتام الأدب.

خلاصة القول:

يتبيّن من خلال ما سبق أن أولي العزم من الرسل ﷺ قد قدّموا أنموذجًا ربانيًا رفيعًا في التعامل التربوي مع المؤمنين من ذوي القرى والأقوام، يتسم باللين، والدعاء، والتقدير، والتثيت، والمناصحة. وقد مثلت هذه العادات التربوية سنة ماضية في مسيرة الدعوة، تُلزم الدعاة والمربين بأن يسيروا على نهجهم، لما فيها من بناء للأمة، وتثيت للقلوب، وتقوية للرابطة الإيمانية. وعليه، فإنّ الاهتمام بالأدب مع المؤمنين ليس مجرد خلق اجتماعي، بل هو مسلك عقدي وتربوي عميق، يعكس صدق الإيمان، ويُجسد فقه التزكية والرحمة التي بُعث بها الرسل ﷺ كافة، وهو ما يُملّي على أهل العلم والدعوة اليوم استحضار هذه العادات والاقتداء بها في كلّ الميادين التربوية والاجتماعية.

العادة الثالثة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في بناء الأدب مع المكذّبين بالدين

تتجلّى سيرة أولي العزم من الرسل ﷺ في أرقى صور التربية النبوية التي جمعت بين الأدب الرفيع والصبر الجميل، لا سيّما في تعاملهم مع أقوامهم وذوي القرى من المكذّبين بالدين، ممن اشتدّ عنادهم وتمادى ظلمهم. فلم تكن دعواتهم دعوات قطيعة أو انتقام، بل كانت نابعة من قلب يفيض رحمة وحرصًا، ويتدرج في أساليب التربية من الدعاء إلى البلاغ، ومن الجدل إلى الرفق، ومن الحجة إلى الصبر، مع وضوح الرسالة وتوازن الموقف.

لقد بدأ نوح ﷺ دعوته إلى قومه بما يُظهر كمال الأدب والحرص، إذ قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^{٥٤٨}، وهو تعبير يحمل معنى البيان والشفقة لا القسوة، وقد وُصف بأنه ﴿لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^{٥٤٩}، مما يدل على المداومة التربوية الطويلة. يقول الطبري في تفسيره: "كان فيهم يدعوهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، ولم يملّ ولم ييأس"^{٥٥٠}.

كان دعاؤه الأول دعوةً هادئةً متدرجة، قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾^{٥٥١}، أي لم يترك وسيلة إلا سلكها، فالدعوة عنده لم تكن موسمية أو غضبية، بل تربية ممتدة. ويعلق الفخر الرازي: "فيه دلالة على إخلاصه وتمام صبره، إذ لم يجعل الفشل سبباً لليأس"^{٥٥٢}.

وحين بلغ به الإعراض منتهاه، وأيقن من قومه الإصرار على الكفر، دعا عليهم لا من باب الانتقام، بل من باب حفظ الدين والذرية، قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^{٥٥٣}. وقد ذكر ابن كثير أنّ هذا الدعاء جاء بعد استنفاد كل الوسائل، وأصبح بقاء الكافرين فتنة للجيل القادم^{٥٥٤}.

أما إبراهيم ﷺ، فقد مثّل قمة الأدب مع قومه، حتى وهو يواجه أعتى صور الشرك والظلم، إذ قال لأبيه آزر: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾^{٥٥٥}، فكرر النداء بـ "يا أبت" أربع مرات، مما يدل على أدب جمّ وإنكار مؤدّب. وقد علّق الزمخشري بأن تكرار "يا أبت" تأكيد على شفقة الابن على أبيه رغم عناده^{٥٥٦}. وفيما يتعلق بالجدال، فإن أسلوب إبراهيم ﷺ كان قائماً على الحجة والبيان، لا على الخصومة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي

^{٥٤٨} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٢٥.

^{٥٤٩} القرآن الكريم، سورة العنكبوت ٢٩: ١٤.

^{٥٥٠} انظر: الطبري، جامع البيان، ٢٠: ١٤٧.

^{٥٥١} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٥.

^{٥٥٢} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٠: ١٧٢.

^{٥٥٣} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٢٦.

^{٥٥٤} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٨: ٢٥٣.

^{٥٥٥} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٤٢.

^{٥٥٦} الزمخشري، الكشاف، ٢: ٥٥٤.

حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ^{٥٥٧}، وقد واجه هذا الطغيان بالحكمة، إذ قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾، ثم ختم بحجة قاطعة ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ^{٥٥٨}﴾، وهي من أرقى صور الجدل القرآني.

وكان موسى ﷺ في قمة الشجاعة والرفق مع فرعون، مع أنه بلغ به الطغيان أن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى^{٥٥٩}﴾، ولكن الله تعالى أمر موسى وأخاه باللين، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا^{٥٦٠}﴾. وقد علق أبو حيان: "اللين هنا هو الأدب في الخطاب، رجاء التأثير لا التذلل"^{٥٦١}. ولم يُقَصِّر موسى ﷺ في البلاغ رغم ما واجهه من الاستكبار، بل قال له: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بَايَةً مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى^{٥٦٢}﴾، فجعل البلاغ مقروناً بالسلام والدعاء بالهداية. وعند تكذيب فرعون، صبر موسى ﷺ، وواجه الظلم بثبات، فوقف أمام البحر متوكلاً على ربه، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ^{٥٦٣}﴾، وهي قمة في التربية الشجاعة القائمة على التوكل.

أما عيسى ﷺ، فقد واجه أقواماً تماردوا في الجدل والتشكيك، ومع ذلك دعا لهم وبكى عليهم، وقال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ^{٥٦٤}﴾. يقول ابن عطية: "هذا دعاء مفعم بالشفقة، يدل على قمة التواضع والرحمة النبوية"^{٥٦٥}.

وأما محمد ﷺ، فقد جسّد الأدب النبوي في ذروته، إذ حرص على هداية قومه حتى أتعب نفسه، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ^{٥٦٦}﴾. وبلغ من رحمته أنه دعا

^{٥٥٧} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٥٨.

^{٥٥٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٢٥٨.

^{٥٥٩} القرآن الكريم، سورة النازعات ٧٩: ٢٤.

^{٥٦٠} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٤٤.

^{٥٦١} انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ٦: ٢٩٧.

^{٥٦٢} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٤٧.

^{٥٦٣} القرآن الكريم، سورة الشعراء ٢٦: ٦٢.

^{٥٦٤} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ١١٨.

^{٥٦٥} ابن عطية، المحرر الوجيز، ٢: ٤٨٦.

^{٥٦٦} القرآن الكريم، سورة الكهف ١٨: ٦.

لهم لا عليهم، فقد ورد أنه قال في أحد: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^{٥٦٧}. وقد عبّر ابن القيم عن ذلك بقوله: "هذا غاية في الكمال النبوي، أن تدعو لمن آذاك بدعاء الرحمة"^{٥٦٨}. وقد اتبع النبي ﷺ منهج البلاغ المتعدد الوسائل: الدعوة الفردية، التعليم الجماعي، الجدل بالتي هي أحسن، استخدام القصص، وضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَجَادِثُهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾^{٥٦٩}. وأكد البوطي أن "الأسلوب القرآني في دعوة المكذبين يكشف عن توازن بين الحزم والرفق، وبين الرحمة والبيان"^{٥٧٠}.

وبذلك يتبين أن مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ في تربية أقوامهم المكذبين قامت على الجمع بين الرحمة والشجاعة، وبين الحزم والرفق، وبين الدعاء والبيان، وهو ما يمثل معلماً تربوياً رابحاً يصلح لكل زمان ومكان، ويؤسس لمنهج متكامل في التعامل مع المكذبين لا يخرج عن حدود الأدب، بل يُرسيه في أعماق تحليلاته.

خلاصة القول:

يتبين من خلال هذا العرض أن عادات أولي العزم من الرسل ﷺ التربوية لم تكن ردود فعل مؤقتة تجاه رفض الدعوة، بل كانت ممارسةً منهجية راسخة تعبّر عن مقاصد الوحي في التزكية، والتعليم، والتأديب. وقد جسّد هؤلاء الرسل ﷺ أعظم صور الصبر التربوي، والرحمة في الخطاب، والرفق في البلاغ، إلى جانب القوة في بيان الحق ورفض الباطل. إن مواقفهم تؤسس لمنهج تربوي شامل، يجمع بين الثبات العقدي، وحسن الأدب مع القريب والبعيد، حتى في أحلك لحظات التكذيب والمعاندة، وهو ما يُبرز البعد الرسالي التربوي في دعواتهم المباركة.

خلاصة المطلب:

تتضح من خلال ما سبق مكانة القدوة الصالحة في بناء العلاقات الاجتماعية في ضوء سير أولي العزم من الرسل ﷺ، فقد كانت ممارساتهم التربوية نموذجاً رفيعاً يُحتذى، جسّدت

^{٥٦٧} مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ٣: ٤٤ (١٧٩٢).

^{٥٦٨} ابن القيم، زاد المعاد، ٣: ١٩.

^{٥٦٩} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦: ١٢٥.

^{٥٧٠} محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، ٢١١.

المفاهيم القرآنية والنبوية في واقع عملي يزخر بالحكمة والرحمة. وتُعد هذه النماذج من الوسائل التربوية المؤثرة التي ينبغي استلهاها في برامج التربية الإسلامية المعاصرة، بما يسهم في تعزيز التماسك الاجتماعي، وغرس القيم الرفيعة، وتكوين الشخصية المتزنة القادرة على الإسهام في بناء المجتمع وفق الهدي النبوي القويم.

المطلب الرابع: التربية البيئية عند أولي العزم من الرسل ﷺ

تُعدّ التربية البيئية من أبرز مظاهر العناية الإسلامية بالإنسان والخلقة من حوله، لما لها من أثر عميق في بناء الشخصية السوية المتزنة، وتنمية الشعور بالمسؤولية تجاه الأرض ومكوناتها. وقد جاءت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية زاخرة بالتوجيهات الربانية التي ترسخ المبادئ البيئية وتربط بين الإيمان والعمل في حفظ التوازن الكوني.

ومن أبرز الوسائل المؤثرة في هذا المجال: إبراز نماذج القدوة الصالحة في التربية البيئية، وهو ما سيتم تناوله في هذا المطلب ضمن المحاور الآتية: أولاً: مفهوم التربية البيئية في ضوء القرآن والسنة. ثانياً: نماذج من العادات الصالحة في التربية البيئية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ضوء القرآن والسنة.

أولاً: مفهوم التربية البيئية

لفظ البيئة في اللغة مأخوذ من الفعل "بَوَأَ"، أي: أنزل وأقام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾^{٥٧١} أي: هيأنا له المكان^{٥٧٢}، وقد بين ابن منظور أن "البيئة" تُطلق على الموضع الذي يحيط بالإنسان ويعيش فيه^{٥٧٣}. وأما من حيث الاصطلاح، فقد عرّفها العلماء بأنها: "كلّ ما يحيط بالإنسان من كائنات حيّة وغير حيّة، ويتفاعل معها تأثيراً وتأثراً"^{٥٧٤}.

^{٥٧١} القرآن الكريم، سورة الحج ٢٢: ٢٦.

^{٥٧٢} انظر: ابن الطبري، جامع البيان، ١٧: ٥٠٠.

^{٥٧٣} ابن منظور، لسان العرب، ١٤: ٧٨ مادة "بَوَأَ".

^{٥٧٤} عبد الكريم بكار، البيئة من منظور إسلامي، (بيروت: دار القلم، ١٩٩٨)، ١٩.

وعليه، فإن وسيلة التربية البيئية هي: الوسائل التربوية التي تهدف إلى غرس الوعي لدى الإنسان بمكانته كخليفة في الأرض، وترشده إلى كيفية التعامل الرشيد مع البيئة بما يحقق مقاصد الشرع في الحفاظ على الحياة والموارد.

ثانيًا: نماذج من العادات الصالحة في التربية البيئية عند أولي العزم من الرسل ﷺ
تبرز تربية أولي العزم من الرسل ﷺ في مجال الحقوق والواجبات كركيزة أساسية لبناء بيئة علمية راسخة، وذلك انطلاقًا من مسؤوليتهم في تبليغ الرسالة، وتعليم الكتاب والحكمة، والتزكية. وقد تجلّت عنايتهم بتربية الناس على الالتزام بأوامر الله ونواهيه وحدوده، بما يُسهم في تركية العلاقات الإنسانية على المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويُمهّد لإصلاح العمران وفق مقاصد الشريعة.

ويأتي هذا في إطار تحمّلهم لأمانة الاستخلاف في الأرض، وسعيهم إلى إعمارها بمنهج رباني متكامل. وانطلاقًا من ذلك، يعرض هذا المحور نماذج من العادات الصالحة في التربية البيئية، وذلك من خلال ما يأتي: العادة الأولى: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في مجال الحقوق والواجبات، والعادة الثانية: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على في ضوء أوامر الله ونواهيه في مجال التزكية، والعادة الثالثة: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في ضوء أوامر الله ونواهيه في مجال العمران.

العادة الأولى: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في مجال الحقوق والواجبات
تمثّل بعثات أولي العزم من الرسل ﷺ نماذج متكاملة لمشاريع تربوية ربانية، قامت على ترسيخ الحقوق وتأصيل الواجبات في إطارٍ من البلاغ والتعليم والتزكية. فليست دعوتهم مجرد نقل للرسالة، بل منهج تراكمي دائم يُعيد تشكيل البيئة العلمية من خلال الالتزام بالحق، وتأدية الواجب الشرعي والمعرفي والخلقي. وقد تجسّد ذلك في التوازن بين حق المتعلّم في الهداية والتعليم، وواجب المبلّغ في البيان والمداومة.

فالنموذج الأول يتجلى في شخصية نوح ﷺ، الذي مارس التربية الرسالية بصبرٍ نادر عبر قرون من الدعوة. لم تكن مداومته دعوية محضة، بل كانت تعبيرًا عن إحساس عميق

بمسؤولية أداء الحق لقومه، وواجب البيان الملتزم بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾^{٥٧٥}، قد فصل القرآن دعوته، فدلّت على تنوّع الوسائل ودوام الجهد، مما يعكس التزامًا بحق الهداية، ووعيًا بواجب التربية المستمرة. وقدّم القرآن صورة تعليميّة مؤثرة لدعوته، جمعت بين تقرير العقيدة، وتنبيه العقل، وتذكير بالنعم، مما يُشير إلى وظيفته كمعلّم ومرّب لا كناطق مجرد للوحي، وهو ما بيّنه الرازي بقوله: "كلامه يتضمن تعليم التوحيد، وتذكير بالنعم، وتحفيز على التفكير في الخلق"^{٥٧٦}.

أما إبراهيم عليه السلام، فقد انطلقت رسالته في بيئة موبوءة بالشرك والتقليد، فواجهها بتربية قائمة على بيان حق الله في التوحيد، وواجب الإنسان في الخضوع له وحده. قال تعالى: ﴿وإبراهيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾^{٥٧٧}، فكان أول ما دعا إليه توحيد الله وتقواه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: وُحْدَهُ، وأخلصوا له العبادة، وامتلأوا ما أمركم به^{٥٧٨}. لقد اعتمد إبراهيم في دعوته أسلوب النقاش والبرهان، لا مجرد الوعظ، فكان يؤسس لبيئة علمية قائمة على التفكير والنظر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾^{٥٧٩} أي: تنحتونها وتخترعون أسماءها وتدعون لها منزلة الألوهية، وهو من أعظم صور الافتراء^{٥٨٠}. وقد أوتي إبراهيم وذريته الكتاب والحكمة، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^{٥٨١}، وهو ما يبيّن أصالة البعد التعليمي في رسالته عليه السلام. قال ابن عاشور: "أي: أبناءه وعقبه ونسله، وهو داخل في هذا الحكم لأنهم إنما أعطوه لأجل كرامته عند الله ووعد الله إياه بذلك؛ وتعريف الكتاب: تعريف الجنس، فيصدق بالمتعدد، فيشمل صحف إبراهيم، وصحف موسى، وما أنزل بعد ذلك؛ والحكمة: النبوءة، والملك: هو ما وعد الله به إبراهيم أن

^{٥٧٥} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٥.

^{٥٧٦} الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٠: ٨٣.

^{٥٧٧} القرآن الكريم، سورة العنكبوت ٢٩: ١٦.

^{٥٧٨} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٦٢٨.

^{٥٧٩} القرآن الكريم، سورة العنكبوت ٢٩: ١٧.

^{٥٨٠} محمد أحمد العدوي، دعوة الرسل إلى الله تعالى، ٥٩.

^{٥٨١} القرآن الكريم، سورة النساء ٤: ٥٤.

يعطيه ذريته وما آتى الله داوود وسليمان وملوك إسرائيل^{٥٨٢}. وقد واصل إبراهيم ﷺ هذا النهج التربوي في نقاشاته ومواقفه وصبره مع قومه، مما يدل على ديمومة الأداء الرسالي في التربية والتبليغ. كما نزلت عليه الصحف جاء في الحديث: «أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان...»^{٥٨٣}. وهي كتب إلهية تتضمن أصول الدين والهداية^{٥٨٤}. وعليه، فإن المقصود هو تعدد ما أنزل إليهم من الصحف والشرائع والتعليم، مما يدل على محورية التعليم في ميراث إبراهيم النبوي؛ كما يُبرز وصفه بأنه "أمة" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾^{٥٨٥}. شمول شخصيته التربوية؛ فهو حامل للعلم، ومربٍ للنفوس، ومعلم للعقول، كما فسّر السعدي ذلك بقوله: "كان معلمًا بالحجة والبرهان، يربي العقول على التوحيد من خلال النقاش المنطقي الهادئ وقد عبّر دعاؤه بأن يُبعث في ذريته رسول يُعلّمهم الكتاب والحكمة ويُزكّيهم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا...﴾"^{٥٨٦}، عن وعي إبراهيم ﷺ التربوي العميق بمركزية التعليم في بناء الأمة، وأهمية الجمع بين الحق التربوي للناس، وواجب المربي في التزكية والتفهيم. وبذلك، يتضح أن مداومة أولي العزم من الرسل في التربية على الحقوق والواجبات ليست مسلكًا عرضيًا، بل هي بنية مركزية في مشاريعهم الإصلاحية، تجمع بين وضوح الهدف، واستمرار الأداء، وحكمة الأسلوب، وهي أركان التربية الربانية التي يُفترض استعادتها في بناء البيئة العلمية المعاصرة.

مثّلت بعثة موسى ﷺ نموذجًا تربويًا متميزًا في غرس الحقوق والواجبات العقديّة والعلمية والاجتماعية، إذ انطلقت دعوته من التأكيد على توحيد الله ورفض كل صور العبودية لغيره، وهو الأساس الذي تقوم عليه التربية في كل مراحلها. وكان تربية موسى ﷺ لأُمته تكشف عن نموذج نبوي متكامل في غرس الحقوق الإلهية كحقّ الله في التوحيد والعبادة

^{٥٨٢} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٥ : ٨٨.

^{٥٨٣} ، أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط ٢ (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٩٩٣)، ٢٢ : ٧٥ (١٠٩٦). قال المحقق: إسناده حسن ورجاله ثقات.

^{٥٨٤} انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن ٦٢٨.

^{٥٨٥} القرآن الكريم، سورة النحل ١٦ : ١٢٠.

^{٥٨٦} القرآن الكريم، سورة البقرة ٣ : ١٢٩.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^{٥٨٧} وهو تقديم مقصود للعقيدة بوصفها الحق الأعلى، الذي تتفرع عنه كل الواجبات الأخرى^{٥٨٨}، وتبرز هذه التربية العقدية في حرص موسى ﷺ على ترسيخ التوحيد في بيئة قومه، رغم ما ورثوه من رواسب وثنية؛ فقد أنكر عليهم طلبهم اتخاذ أصنام بعد نجاتهم من فرعون، وقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^{٥٨٩}، مما يدل على التحدي التربوي في الانتقال من بيئة استعباد فكري إلى بيئة قائمة على المعرفة والعبودية الخالصة لله تعالى^{٥٩٠}. وأما الحقوق العلمية كحق التعلم من كتاب منزل، لقد عُني موسى ﷺ ببناء بيئة علمية راشدة، أسست على التعلم المنهجي من الكتاب الذي أنزله الله عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^{٥٩١}. وقد أكد النبي ﷺ أن بني إسرائيل كانوا يُعلِّمهم أنبياءهم، في قوله: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء...»^{٥٩٢}. وهو ما فسّره ابن عاشور بأن موسى ﷺ مارس التعليم المنهجي لقومه من خلال التوراة والمواظ المتكررة^{٥٩٣}. وأما الواجبات التربوية كواجب الصبر والثبات والتعليم المستمر؛ غير أن هذا المشروع التربوي لم يكن معزولاً عن التحديات، إذ واجه موسى ﷺ أذى قومه واعتراضاتهم المتكررة، وقد وصفه النبي ﷺ بقوله: «رحم الله موسى، قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر»^{٥٩٤}. وهذا الصبر التربوي دليل على ثباته في أداء واجبه الرسالي، وإصراره على استمرار التعليم والتزكية، رغم الإعراض والجدال. كما أنها ترسي قاعدة متينة في بناء البيئة العلمية الواعية، التي لا تكفي بالمعلومة، بل تُرَبِّي على الموقف، والانتماء، والتميز بين الحق والباطل، وتُحرِّر الإنسان من الجهل والتقليد والهوى.

^{٥٨٧} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ١٤.

^{٥٨٨} انظر: الطبري، جامع البيان، ١٦: ١٥٩.

^{٥٨٩} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ١٣٨.

^{٥٩٠} انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق علي بن حسن (الرياض: دار العاصمة، ١٩٩٤)، ٢: ٤٧.

^{٥٩١} القرآن الكريم، سورة المؤمنون ٢٣: ٤٩.

^{٥٩٢} البخاري، الصحيح، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤: ١٢ (٣٤٥٥).

^{٥٩٣} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨: ٢٥٣.

^{٥٩٤} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الشفاعة، ٦: ٣٤٣ (٣٤٣٧).

لقد جسّد عيسى ﷺ نموذجاً ربانياً متكاملًا في دعوته إلى التربية القائمة على الحقوق والواجبات، باعتبارها جزءًا من مسؤوليته النبوية في تبليغ الرسالة وتعليم الكتاب والحكمة. فكانت دعوته في جوهرها دعوة للتوحيد الخالص، مقرونة بإبطال كل مظاهر الشرك، إذ قال تعالى حاكياً عنه: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، وهو تقرير صريح بوحدة مصدر التشريع، ودعوة لتربية المجتمع على توحيد العبادة لله وحده، وهو الركن الأول في منظومة الحقوق الربانية على العباد^{٩٥}. تظهر معالم تربيته على المسؤولية والواجب في حوارهِ مع يحيى بن زكريا ﷺ، في الحديث الذي رواه الحارث الأشعري رضي الله عنه، حين أمره الله بخمس كلمات يعمل بها ويأمر بني إسرائيل بها، فلما تردّد في تبليغها، عرض عيسى ﷺ أن يبلغها عنه، فخشي يحيى أن يُعاقب إن قصّر، فقام بنفسه ووعظ الناس في بيت المقدس بهذه الوصايا، وعلى رأسها عبادة الله وعدم الشرك^{٩٦}. وقد امتنّ الله على عيسى ﷺ بتعليمه أصول التربية العلمية الكاملة، فقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^{٩٧} وهي أركان أربعة تجمع بين التعليم النظري والعملي، وبين المعارف النقلية والعقلية، مما جعله من أعلام التربية في بني إسرائيل. وقد فسّر الرازي الآية بقوله: "كان جامعًا بين الحفظ والفهم، بين النقل والعقل، ولذا كان من المعلمين الكاملين"^{٩٨}. وأما السعدي، فقد بيّن أن المقصود بـ"الكتاب" قد يكون جنس الكتابة، أو الكتاب المنزل، وأن

^{٩٥} القرآن الكريم، سورة المائدة: ٧٢. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٦: ١٦١.

^{٩٦} فقد حرصه عيسى ﷺ على تبليغ دعوة الله ﷻ بتبليغه لبني إسرائيل من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل يعملون بهن، وأن عيسى ابن مريم قال له: إن الله أمرك بخمس كلمات تعمل بهن، وتأمر بهن بني إسرائيل يعملون بهن، فإذا أن تأمرهم، وإما أن أمرهم؟ قال: إنك إن تسبقني بهن خشيت أن أعذب، أو يخسف بي، قال: فجمع الناس في بيت المقدس حتى امتلأ، وقعد الناس على الشرفات، قال: فوعظهم؛ قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن: أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثّل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق؛ قال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأد إلي، فجعل يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكّم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فلا تشركوا به شيئاً ...» الترميذي، السنن، أبواب الأمثال عن رسول الله: باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، ج ٤، ص ٥٤٤، الرقم ٢٨٦٣. قال الترميذي هذا حديث حسن.

^{٩٧} القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣: ٤٨.

^{٩٨} الرازي، مفاتيح الغيب، ٨: ٤٣.

"الحكمة" هي معرفة أسرار الشرع ووضع الأشياء في مواضعها، وبذلك يكون عيسى عليه السلام قد اكتمل له الكمال التربوي في ذاته، كفرد ومعلم ومربٍّ^{٥٩٩}.

فالرسول محمد ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل، بل جاء متممًا لما سبق من رسالات التوحيد، وداعيًا الناس إلى عبادة الله وحده، وكانت دعوته تركز على تعليم إخلاص العبادة لله، كما بين الله تعالى في قوله: ﴿الرَّكَابُ أَكْثَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ • أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾^{٦٠٠}. قد ذكر البوطي سبب اختيار الجزيرة العربية مهداً للإسلام، بصفاء فطرتها وقابليتها لتلقي الوحي، مقارنة بما كانت عليه الأمم من انحرافات فكرية وأخلاقية. كما أشار إلى حكمة اختيار النبي الأمي في أمة أمية، لإبراز المعجزة الربانية في الرسالة المحمدية^{٦٠١}. كما بين صلاح الفوال أن أمة العرب كانت تشمل الجهل بالتوحيد، لا فقط الأمية الكتابية، مستدلًا بآيات كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾^{٦٠٢}. وجاء عند البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^{٦٠٣}. أن هذا الإرث هو انتقال للرسالة إلى الأمة الإسلامية الجامعة؛ واعتبر القاسمي أن العلم بالكتاب والحكمة أساس بناء الأمة، وتجهيل الناس بها مظهر من مظاهر الانحراف^{٦٠٤}. ومن المهم الإشارة إلى خصوصية الأمة الإسلامية في الإسناد والإعراب، كما قال أبو علي الجبائي: "خص الله تعالى هذه الأمة بثلاثة: الإسناد، والأنساب، والإعراب"^{٦٠٥}. وقد بُعث النبي ﷺ معلمًا ومربيًا، كما جاء في قوله: «إن الله لم يبعثني مُعَنِّيًا ولا مُتَعَنِّيًا، ولكن بعثني معلِّمًا ميسرًا»^{٦٠٦}. وكان القرآن الكريم هدية إلهية للناس: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا

^{٥٩٩} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ١: ١٣١.

^{٦٠٠} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٢-١.

^{٦٠١} البوطي، فقه السيرة النبوية، ٤٤-٤٩.

^{٦٠٢} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ٧٨.

^{٦٠٣} القرآن الكريم، سورة فاطر ٣٥: ٣٢.

^{٦٠٤} محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨)، ٩: ٣٦١.

^{٦٠٥} السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ٢: ٦٠٥.

^{٦٠٦} مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب مبادئه ﷺ للأئام واختياره التيسير، ٢: ٢٢ (١٤٧٨).

إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ»^{٦٠٧}. وقد جسّد النبي ﷺ هذا التعليم في سلوكه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان حُلُقُه القرآن»^{٦٠٨}. ولذا فإن النبي ﷺ لم يكن معلم شريعة فحسب، بل مربٍّ وموجّه^{٦٠٩}. ومن التطبيقات العملية للتربية على الحقوق والواجبات، المسجد النبوي الذي لم يكن مجرد مكان عبادة، بل مؤسسة تعليمية متكاملة. فقد كان الصحابة يتأدّبون في مجلس النبي ﷺ بدرجة عظيمة، كما وصفهم الراوي: "كأنما على رؤوسهم الطير"^{٦١٠}. ومن أمثلة ذلك أيضاً إرسال النبي ﷺ لمصعب بن عمير إلى يثرب، مما يعكس مركزية التعليم في تأسيس المجتمع^{٦١١}. وقد أجمع أولوا العزم من الرسل على أداء الوظيفة التعليمية التربوية من خلال الكتاب والحكمة، بالحوار، والقدوة، والخطاب العقلي. يقول الشاطبي: "الرسالات إنما جاءت لإقامة المصالح العامة، وأساسها العلم والعمل به"^{٦١٢}. وهكذا يظهر أن البيئة العلمية التي أنشأها الأنبياء كانت نتاج تربية دؤوبة مستمرة، قائمة على أداء الحق، والتعليم الهادف، والتزكية المستمرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^{٦١٣}.

خلاصة القول: تتبيّن من خلال هذا البحث أهمية التربية المتواصلة على الحقوق والواجبات، بوصفها أساساً راسخاً لبناء البيئة العلمية الراشدة عند أولي العزم من الرسل ﷺ. فقد أظهرت النماذج القرآنية والسُنّية أن التربية الإيمانية لم تقتصر على البعد العقدي أو المعرفي

^{٦٠٧} القرآن الكريم، سورة الأنبياء: ١٠.

^{٦٠٨} مسلم، الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، ١: ٣٠٠ (٧٤٦).

^{٦٠٩} ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ١: ١٤٧.

^{٦١٠} ورد هذا التعبير في حديث طويل رواه الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه، حين وصف أصحاب النبي ﷺ عند سماعهم للقرآن، فقال: «فوالله ما أنزلت على رسول الله ﷺ سورة براءة إلا وأنا عنده، فما مرّ على أصحاب رسول الله ﷺ منها شيء إلا علموه، فأنزلت عليه، فوضعناها بيننا، فما فينا من أحدٍ إلا وقد حفظها، وإنكم لتعملون بها زماناً، ثم ما أسرع ما نسيتها، والله لأنتم أشدّ نسياناً لها من بني إسرائيل...»؛ ثم قال في وصف حال الصحابة: "كأنما على رؤوسهم الطير". أبو داود، السنن، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، ٧: ١١٦ (٤٣٢٠). خلاصة حكم الحديث: صحيح.

^{٦١١} انظر، ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٣١؛ وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٦٢.

^{٦١٢} الشاطبي، الموافقات، ٢: ٢٨٩.

^{٦١٣} القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٣٣: ٢١.

فحسب، بل امتدت لتشكّل منهجاً متكاملًا يجمع بين أداء الحقوق تجاه الخالق جلّ وعلا، والقيام بالواجبات نحو الخلق، أفرادًا وجماعات. وقد تمثل ذلك في سلوكياتهم، ودعواتهم، وأخلاقياتهم، وصبرهم في التعليم، مما رسّخ بيئة علمية تقوم على الاحترام المتبادل، والمسؤولية المشتركة، والربط بين العلم والعمل، والعقيدة والسلوك. ومن أبرز ما اتّسمت به هذه النماذج: المداومة التربوية، والشمول في الرؤية، والربط بين التزكية والعلم، مما يجعلها مصدرًا غنيًا للمعلمين والمربين والباحثين في التربية الإسلامية المعاصرة.

العادة الثانية: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في ضوء أوامر الله ونواهيه في مجال التزكية

إنّ التربية الصالحة التي قام بها أولو العزم من الرسل ﷺ في مجتمعاتهم لم تكن مجرد دعوة خطابية، بل ممارسة مستدامة نابعة من أمر الله ونهيه، تُنفَّذ في صميم البيئة الاجتماعية بهدف إصلاحها، من خلال مسؤوليتهم النبوية الكبرى في مجال التزكية، كما قال تعالى في وصف وظيفة الرسل ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^{٦١٤}. فقد جعلت الآية التزكية قبل التعليم، دلالة على أنها أصل في بناء الشخصية المؤمنة والمجتمع الصالح^{٦١٥}.

وقد تكرّرت هذه الوظيفة التزكوية في وصف بعثة أولي العزم ﷺ، مثل ما جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^{٦١٦}، فطلب التزكية صراحة يؤكد أنها هدفٌ تأسيسي في كل علاقة اجتماعية يراها الأنبياء، وخاصة أولو العزم، لما يحملونه من دور قيادي في إعادة بناء الأمة وتطهيرها من الجاهلية.

فمثلاً، في سيرة نوح عليه السلام، نجد أنه داوم على تربية مجتمعه عبر الدعوة المستمرة وتكرار النصح بأوامر الله ونواهيه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا

^{٦١٤} القرآن الكريم، سورة الجمعة: ٢.

^{٦١٥} الطبري، جامع البيان، ٢٣: ٥٩٤.

^{٦١٦} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٩.

وَنَهَارًا^{٦١٧}، ولم يقتصر على التذكير العقدي، بل مارس تربية أخلاقية وسلوكية، دعاهم فيها إلى الاستغفار كوسيلة لتزكية النفس وبناء مجتمع نقي، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا^{٦١٨}، وقد ذكر ابن كثير أن دعوته كانت شاملة لإصلاح الاعتقاد والسلوك الاجتماعي عبر مداومة تعليمهم وتحذيرهم رغم إيذائهم له^{٦١٩}.

أما إبراهيم عليه السلام، فقد برز التزامه بالتزكية من خلال مواقفه العملية في تطهير المجتمع من مظاهر الوثنية والظلم الأسري والاجتماعي، مثل تحطيمه للأصنام في مواجهة المجتمع الوثني الذي خالف أوامر الله ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ^{٦٢٠}، وقد قال القرطبي: "كان فعله هذا تربية للأمة لتنتقل من الجمود الوثني إلى الفكر الإيماني"^{٦٢١}. كما جسد إبراهيم عليه السلام التربية بالتزكية داخل البيئة الأسرية، حين وجه ابنه إسماعيل عليه السلام إلى قيم الطاعة لله حتى في أصعب المواقف، كما في قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ^{٦٢٢}، فجاء الجواب التربوي الإيماني من الابن: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ^{٦٢٣}، وهو ما يدل على أن التزكية في بيت النبوة قد أثمرت بنية طاهرة تلتزم أمر الله دون تردد، كما أشار الرازي في تفسيره أن هذا الامتثال هو "من تمام التزكية النبوية التي غرسها إبراهيم في بيته"^{٦٢٤}.

وفي سيرة موسى عليه السلام، تجلّت التربية الصالحة في مواجهة الطغيان الاجتماعي والفساد الأخلاقي والسياسي، حيث قام بمهمة مزدوجة في إصلاح بني إسرائيل وتعليمهم الحدود الإلهية بعد نجاحهم من فرعون، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ^{٦٢٥}، وقد عمل على بناء الروابط الاجتماعية وفق قواعد الشورى والعدل، فاختار منهم سبعين رجلاً للقاء الله، كما أشار ذلك ابن عاشور بأن موسى كان يُربيهم على

^{٦١٧} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ٥.

^{٦١٨} القرآن الكريم، سورة نوح ٧١: ١٠.

^{٦١٩} ابن كثير، قصص الأنبياء، ٤٥.

^{٦٢٠} القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١: ٥٨.

^{٦٢١} القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١١: ٢٧٥.

^{٦٢٢} القرآن الكريم، سورة الصافات ٣٧: ١٠٢.

^{٦٢٣} الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٦: ١٣٨.

^{٦٢٤} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٢٠.

الجماعية والاستقامة في طاعة الله تعالى^{٦٢٥}. وفي موقفه مع السامري، نجد أنه مارس التزكية الحازمة بإقصاء الانحراف العقدي لحماية البيئة الاجتماعية من الفتنة، ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾^{٦٢٦}، فالتزكية هنا تمثلت في تطهير المجتمع من القادة المفسدين الذين يُغَوِّونَ الناس عن أمر الله، وقد بيّن السعدي أن هذه الخطوة هي حماية تربية للمجتمع بأكمله من الانحيار العقدي^{٦٢٧}.

أما عيسى عليه السلام، فقد بعثه الله تعالى في مجتمع طغت فيه المادية وتسلط فيه أهل الرياء، فكان خطابه قائماً على تزكية القلوب، ومخاطبة الأرواح، كما جاء في قوله تعالى على لسانه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^{٦٢٨}، وقد علّق الرازي على هذه الآية بأن "البركة التي أوتيها عيسى هي ثمرة التزكية الإلهية التي وهبت له ليصلح بها المجتمع من الداخل"^{٦٢٩}.

وفي مسيرة محمد ﷺ، تتجلى مداومته على التربية بالتزكية داخل البيئة الاجتماعية بشكل شامل ومتكامل، إذ لم يترك مجالاً من مجالات العلاقات الإنسانية إلا ووضع فيه أصلاً تهذيبياً، سواء مع الأسرة أو الجيران أو المجتمع، فقال ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر»^{٦٣٠}. وكان ﷺ يربي أصحابه عملياً من خلال القدوة والتوجيه المستمر، كما في قصة بناء المسجد النبوي والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي تجسيدٌ عملي لمفهوم التزكية الجماعية من خلال أوامر الله تعالى ونواهيه، لبناء بيئة علاقات قائمة على المحبة والتكافل والطاعة.

العادة الثالثة: مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على التربية في ضوء أوامر الله تعالى ونواهيه في مجال العمران

^{٦٢٥} ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٦: ٢١٢.

^{٦٢٦} القرآن الكريم، سورة طه ٢٠: ٩٧.

^{٦٢٧} السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٥١٢.

^{٦٢٨} القرآن الكريم، سورة مريم ١٩: ٣١.

^{٦٢٩} الرازي، مفاتيح الغيب، ٢١: ٥٤.

^{٦٣٠} ابن ماجه، السنن، كتاب الفتن، باب الصبر على أذى الناس، ٣: ١١ (٤٠٣٢) خلاصة حكم الحديث: الصحيح.

جعل الله تعالى الاستخلاف في الأرض غاية من غايات الخلق، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^{٦٣١}، أي طلب منكم إعمارها بما يحقق مقاصد الشرع في الإصلاح لا الفساد، كما فسر ذلك الطبري بقوله: "جعلهم عُمَّارًا لها بما يصلحها، من الزرع والغرس والبناء والصناعة والعدل"^{٦٣٢}.

ومن هنا، كانت مهمة الأنبياء عامة، وأولي العزم من الرسل ﷺ منهم خاصة، قائمة على تربية الإنسان تربيةً صالحة تؤهله لحمل هذه الأمانة العظيمة. بين سيد قطب من معاني الاستخلاف في الأرض الحقيقة؛ عند قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^{٦٣٣}، أي: "فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟ إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم؛ إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج الذي رسمه الله تعالى للبشرية؛ وأن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد؛ وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر؛ وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري. فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور؛ فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض؛ إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله تعالى آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف؛ وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتديرها"^{٦٣٤}.

لقد مثل أولو العزم من الرسل ﷺ نموذجًا ربانيًا في غرس القيم العمرانية الشاملة، التي لا تقف عند البناء المادي، بل تشمل البناء الإيماني والأخلاقي والاجتماعي. فالرسول نوح ﷺ بدأ دعوته بقومه بغرس أصل التوحيد، وهو الركن الأعظم الذي يبنى عليه كل عمران صالح، كما قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^{٦٣٥}، وهو ما أشار إليه ابن كثير

^{٦٣١} القرآن الكريم، سورة هود ١١: ٦١.

^{٦٣٢} الطبري، جامع البيان، ١٥: ٢٩٣.

^{٦٣٣} القرآن الكريم، سورة النور ٢٤: ٥٥.

^{٦٣٤} سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤: ٢٥٢٩.

^{٦٣٥} القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧: ٥٩.

في تفسيره بأن دعوة نوح كانت تهدف إلى تطهير الأرض من الشرك وتهيئة بيئة قائمة على التوحيد والبناء الإيماني^{٦٣٦}.

وأما إبراهيم عليه السلام فقد جسّد بوضوح أمانة الاستخلاف من خلال بنائه لبيت الله في مكة، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾^{٦٣٧}، وقد ربطت الآية بين البناء الحسي والدعاء الأخلاقي التربوي: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا... رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾^{٦٣٨}، وهذا يدل كما قال الفخر الرازي على أن "العمران الحق لا يتم إلا حين يُقرن بالبُعد الإيماني والتوجّه الروحي"^{٦٣٩}.

أما موسى عليه السلام، فقد جاء في زمانٍ ساد فيه الفساد السياسي والاجتماعي، فكانت تربيته لبني إسرائيل تهدف إلى إعادة بناء أمة التوحيد والعدل، عبر إخراجهم من طغيان فرعون وتأسيس أمة تعبد الله تعالى وتُقيم أمره، كما قال تعالى على لسانه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^{٦٤٠}. وبين السيوطي أن الأمر الإلهي لموسى وقومه إنما كان بإعادة العمران القائم على الطاعة والنظام الإلهي، لا على بقايا العبودية الفرعونية^{٦٤١}.

وعند النظر في سيرة عيسى عليه السلام، نلاحظ أن دعوته ركّزت على إحياء القيم الروحية، والزهد في زخارف الدنيا الفانية، وتطهير الهيكل من المفسدين، كما في قوله: «إنكم جعلتم بيت الله مغارة لصوص»، وهو ما ورد في إنجيل متى وأشارت إليه تفاسير المسلمين عند ذكرهم لتطهيره الهيكل، مع تأكيده على التربية الخلقية الجماعية التي هي أساس صلاح العمران^{٦٤٢}. ويأتي في خاتمة المطاف رسول الله محمد ﷺ، الذي جسّد أمانة الاستخلاف في أكمل صورها، إذ بنى مجتمع المدينة على أسس التربية الشاملة: العقيدة، العبادة، الأخلاق، والحقوق، فكانت وثيقة المدينة وثيقة عمرانية سياسية تربوية، تُنظّم العلاقة بين المسلمين

^{٦٣٦} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣: ٤٠٨.

^{٦٣٧} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٧.

^{٦٣٨} القرآن الكريم، سورة البقرة ٢: ١٢٧-١٢٨.

^{٦٣٩} الرازي، مفاتيح الغيب، ٤: ١٨٢.

^{٦٤٠} القرآن الكريم، سورة المائدة ٥: ٢١.

^{٦٤١} السيوطي، الدر المنثور، ٢: ١٤٦.

^{٦٤٢} القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠: ٣٤٨.

وغيرهم على أساس العدل والمسؤولية، كما أشار إلى ذلك محمد حميد الله بقوله: "الوثيقة تمثل أول دستور مدني عالمي في تاريخ البشرية"^{٦٤٣}. ولم يكن الرسول ﷺ يكتفي بالجانب المادي، بل كان يري أصحابه على تعظيم الحقوق، والقيام بالأمانة، كما قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^{٦٤٤}.

ومن دلائل حرصه ﷺ على العمران الشامل، تشجيعه على الزراعة والإخماء، كما جاء في السنة النبوية الحث على عمارة الأرض؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: دخل النبي ﷺ، على أم معبد، حائطا؛ فقال: «يا أم معبد! من غرس هذا النخل؟ أمسلم أم كافر؟»؛ فقالت: بل مسلم؛ قال: «فلا يغرس المسلم غرسا، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير، إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة»^{٦٤٥}. مما يُظهر أن الإعمار لا يقتصر على الجوانب المادية، بل يشمل أيضًا المساهمة في استقرار الحياة ونفع المخلوقات. فالإنسان هو أفضل خلق الله تعالى؛ إذ ميّزه بقدرات عظيمة، وإرادة حرة، وكرمه بسجود الملائكة له، اعترافًا بمواهبه ودوره الجليل في إعمار الأرض^{٦٤٦}.

ومن المنظور التربوي العقائدي، يوضح محمد قطب أن "الرسالات السماوية جميعًا كانت تربية للإنسان ليكون خليفة راشدًا، يعبد الله تعالى ويعمر الأرض على هداية"^{٦٤٧}. فليس الاستخلاف مجرد سلطة، بل تكليف يستلزم تأهيلًا روحيًا وعقليًا وأخلاقيًا، وهو ما تولّته التربية النبوية.

وختامًا، فإن مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على التربية الصالحة كانت عمادًا في تنفيذ أمر الله تعالى بالاستخلاف والإعمار، لا على أساس الطغيان والتجبر، بل على أسس الهداية والتقوى والعقل والعدل، وهذا هو المعنى الشامل للعمران كما صاغه المفكر المعاصر طه

^{٦٤٣} حميد الله، الوثائق السياسية في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ٥٠.

^{٦٤٤} البخاري، الصحيح، كتاب الجمعة، باب الإمام راع، ٤: ١١ (٨٩٣).

^{٦٤٥} مسلم، الصحيح، كتاب المساقاة؛ باب فضل الغرس والزرع؛ ٣: ١٨٩ (١٥٥٢).

^{٦٤٦} حنان اللحم، مقاصد القرآن الكريم: ولقد كرمنا بني آدم، (دمشق: دار الحنان، ٢٠٠٤)، ٣٥.

^{٦٤٧} محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ١: ٨٩.

عبد الرحمن حين قال: "ال عمران في الإسلام يبدأ من الإنسان وينتهي في الإنسان، بين وعي بالخلافة ووعي بالعبودية"^{٦٤٨}.

خلاصة القول:

لقد أبرز هذا البحث كيف مثلت العادات التربوية لأولي العزم من الرسل ﷺ في مجال الالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه لبنيةً جوهرية في بناء البيئة الصالحة، إذ تضافرت فيها العوامل العقدية والتربوية والاجتماعية والعمرانية في نسقٍ متكامل. فقد كانت تربية الالتزام لديهم قائمة على التزكية العميقة للنفس، والتوجيه المتواصل للأمم، والاستقامة العملية في مواجهة الفساد والانحراف، مما أسس لبيئة ربانية متزنة تصلح للاستخلاف والإعمار. وتُظهر النماذج المدروسة في هذا الفصل أنّ التربية بالقُدوة، والمداومة على الدعوة، وربط العادات بالأوامر الإلهية، كانت من أبرز السمات الجامعة لهذه النماذج، مما يُجتم على المربين وطلبة العلم استلهاً هذه المعاني في واقعنا المعاصر، من أجل إحياء بيئة طيبة يُذكر فيها اسم الله تعالى، وتُعظم فيها أوامره، وتُقام فيها حضارة صالحة تعبد الله تعالى وتُعمّر الأرض وفق هديه.

خلاصة المطلب:

يتّضح أن التربية البيئية تمثل جزءاً لا يتجزأ من الرسالة التربوية التي حملها أولوا العزم من الرسل، والتي قامت على أسس التوحيد، والتزكية، وال عمران. فقد جسّد هؤلاء الرسل نماذج عملية رائدة في المحافظة على البيئة، من خلال سلوكياتهم التربوية وأقوالهم وتوجيهاتهم التي حفظها لنا الوحي الإلهي. وتؤكد النصوص القرآنية والسنن النبوية أن القدوة الصالحة تمثل وسيلة فعّالة في غرس القيم البيئية، وأن العادات التربوية التي مارسها الأنبياء كانت منضبطة بمقاصد الشرع في الإصلاح والتوازن، والبعد عن الإفساد والعبث. ومن هنا، فإن استحضار تلك النماذج النبوية وتفعيلها في الواقع المعاصر، يُعدّ ضرورة تربوية وأخلاقية للحفاظ على البيئة، وتحقيق الاستخلاف الراشد في الأرض، وفق الهدى الإلهي الشامل.

^{٦٤٨} طه عبد الرحمن، روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الانتمائية، ط ٢، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢)، ١٣٣.

خلاصة المبحث:

يُتَّضح من خلال ما تقدّم في هذا الفصل أنّ أولي العزم من الرسل ﷺ لم يكونوا دعاة إلى الله فحسب، بل كانوا أيضاً مربّين حكماء استخدموا أنجع الوسائل التربوية العقدية والشرعية والاجتماعية والبيئية، بما يتناسب مع طبيعة مجتمعاتهم، وواقع أقوامهم، ومقاصد الرسالة الإلهية. لقد قدّموا نماذج حيّة للقدوة الصالحة في التبليغ والتعليم، وفي الإصلاح الاجتماعي والتزكية الإيمانية، مما يجعلهم أنموذجاً خالداً للمربين والدعاة في كل زمان ومكان. ففي مجال التربية العقدية، تجلّت وسائلهم في ترسيخ توحيد الله تعالى، وبناء العقيدة على أساس الفطرة والبرهان، ومواجهة مظاهر الشرك بأسلوب حكيم يجمع بين البيان والرفق. أما في التربية الشرعية، فقد استخدموا التعليم التدريجي والتشريع الحكيم، وربط الأحكام بالحكمة والمقاصد، مما ساعد في ترسيخ مبادئ الدين في النفوس. وفي جانب العلاقات الاجتماعية، قدّموا أعظم الأمثلة في الإصلاح بين الناس، والدعوة إلى البر والعدل، وإرساء معاني الرحمة والتكافل في المجتمع. أما في الجانب البيئي، فقد ظهر حرصهم على عمارة الأرض وصيانتها من الفساد، ودعوة الناس إلى الاستخلاف الراشد القائم على العدل والمسؤولية. ومن خلال هذه النماذج المتنوعة، يتبيّن أنّ الوسائل التربوية التي اتبعها أولي العزم من الرسل كانت شاملة ومتكاملة، وتستند إلى الوحي الإلهي، وتراعي سنن الله تعالى في النفس والمجتمع. وهي بذلك تمثل مصدراً غنياً للدراسات التربوية الإسلامية المعاصرة، وتوفّر معالم هادية للمربين والدعاة، في سبيل بناء الإنسان الصالح والمجتمع الراشد، على نهج النبوة والرسالة.

المبحث الثالث: أساليب التربية عند أولي العزم من الرسل ﷺ في ترسيخ الآداب الاجتماعية

تمهيد

تتنوّع الأساليب التربوية في الجانب الاجتماعي في القرآن الكريم والسنة النبوية، وتختلف في طرائقها وآثارها، ممّا يعكس حكمة الله تعالى في مخاطبة النفس البشرية وتوجيهها. وتُعَدّ هذه الأساليب من الوسائل الفاعلة التي تهدف إلى تهذيب الإنسان وتكميل شخصيته، وتعديل سلوكه بما يحقق له تركية النفس واستقامة الحال. فكلّ أسلوب من هذه الأساليب يراعي جانباً

معينًا من جوانب النفس الإنسانية، أو ينفذ إلى مدخل من مداخلها، بما يضمن التأثير الفاعل والتفاعل الإيجابي، ويؤدي في النهاية إلى تحقيق مقاصد الشريعة في بناء الفرد والمجتمع^{٦٤٩}.

وانطلاقًا من هذه الأهمية، يتناول هذا المبحث نماذج مختارة من معالم القدوة الصالحة في تطبيق الأساليب التربوية التي تتجلى من خلال معالم القدوة الصالحة لأولي العزم من الرسل ﷺ، في ترسيخ الآداب الاجتماعية، كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك من خلال دراسة أبرز هذه الأساليب في المطالب الآتية: المطلب الأول: التربية بالتدرّج عند أُولي العزم من الرسل ﷺ، والمطلب الثاني: التربية بالقدوة الصالحة عند أُولي العزم من الرسل ﷺ، والمطلب الثالث: التربية بالمجاهدة والتعوّد والصبر عند أُولي العزم من الرسل ﷺ، والمطلب الرابع: التربية بالعزلة والبراءة عند أُولي العزم من الرسل ﷺ.

المطلب الأول: التربية بالتدرّج عند أُولي العزم من الرسل ﷺ

تمهيد

يتناول هذا المحور مسألتين رئيسيتين: المسألة الأولى: مفهوم التربية بالتدرّج في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المسألة الثانية: نماذج من معالم العادات الصالحة في التربية بالتدرّج في مجالات الدعوة والتعليم والتأديب والتزكية عند أُولي العزم من الرسل في ضوء القرآن والسنة.

المسألة الأولى: مفهوم التربية بالتدرّج

تمهيد

تُعَدّ التربية بالتدرّج من أبرز الأساليب التي اتبعتها الإسلام في توجيه الإنسان نحو الكمال الإيماني والسلوكي، لما لها من أثر بالغ في مراعاة الفروق الفردية، وتيسير الانتقال من حال إلى حال دون مشقة أو نفور. وقد جاء هذا المنهج متسقًا مع سنن الله تعالى في خلقه، حيث جُبل الإنسان على التدرّج في الإدراك والفهم والتطبيق. وقد اتسمت الشريعة الإسلامية

^{٦٤٩} ليلي عبد الرشيد عطار، آراء ابن الجوزي التربوية، (ميريلاند: الولايات المتحدة الأمريكية: منشورات أمانة للنشر، ط ١، ١٩٩٨م)، ١: ٢٢٢.

بالحكمة والرحمة في تنزيل الأحكام وبيان التكاليف شيئاً فشيئاً، تحقيقاً للمصلحة ودرءاً للمفسدة.

التدرج لغةً: مأخوذة من كلمة دَرَج؛ ويُذكر أن الدال والراء والجيم أصل يدل على مضي الشيء والمضي فيه؛ ويضيف الأصمعي: دَرَج الرجل، أي مضى ولم يترك نسلاً^{٦٥٠}؛ ورد أن دَرَج تعني مشى، أو أن القوم انقرضوا، أي اندرجوا، كما يُقال: "فلان لم يخلف نسلاً"، أو "مضى لسبيله". أما مفهوم استدراج الله تعالى للعبد، فهو أن كلما أتى العبد بخطيئة، جدد الله تعالى له نعمة وأنساه الاستغفار، أو أن الله تعالى يأخذه تدريجياً دون مباغته^{٦٥١}؛ ودرجه إلى كذا، واستدرجه بمعنى: أدناه منه تدريجياً^{٦٥٢}. قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^{٦٥٣}؛ أي: "نأخذهم درجة فدرجة، وذلك إدناؤهم من الشيء شيئاً فشيئاً"^{٦٥٤}؛ وأما دَرَج بتشديد الراء، فيعني التدرج في تناول الشيء أو الوصول إليه؛ ويُقال: دَرَج الشيء، أي جعله درجات؛ ويقال أيضاً: دَرَج البناء، أي: جعله متدرجاً؛ وكذلك يُقال: دَرَج فلاناً إلى الشيء، بمعنى قرب به إليه شيئاً فشيئاً، أو دَرَج العليل، أي أطعمه قليلاً قليلاً حتى يتعافى ويعود إلى حالته الطبيعية في الأكل^{٦٥٥}.

وأما التدرج اصطلاحاً: وردت العديد من التعريفات لمفهوم التدرج وهي تختلف باختلاف العلوم والفنون؛ ومن بين المفاهيم التي برزت في هذا السياق مفهوم التدرج، الذي يحظى بأهمية خاصة في اللغة وفي النصوص القرآنية والسنة النبوية؛ يمكن تعريف التدرج في إطار البحث على أنه التدرج الذي تُنزل به التكاليف الإلهية على المكلفين تدريجياً، عبر الرسول ﷺ، بهدف الوصول إلى الحكم النهائي للتكليف؛ ومثال ذلك: التدرج في تشريع

^{٦٥٠} ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة درج، ص ٢٧٥.

^{٦٥١} الفيروز آبادي، القاموس المحيط، فصل الدال، ص ٢٤١.

^{٦٥٢} ابن منظور، لسان العرب، حرف الدال، ص ٢٦٦.

^{٦٥٣} القرآن الكريم: سورة القلم ٦٨: ٤٤.

^{٦٥٤} الراغب الأصفهاني، المفردات، ٣١١.

^{٦٥٥} إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ٢٧٧.

تحریم الخمر، حیث تم الانتقال بالمكلفین خطوة بخطوة حتی تم الوصول إلى التحريم الكامل^{٦٥٦}.

من هنا لا يقتصر معنی التدرج على نزول الأحكام فقط، بل يتعدى ذلك إلى تطبيقها بعد اكتمال التشريع؛ وعليه، يمكن أن يفهم التدرج التشريعي من خلال جانبين أساسيين: التدرج في نزول الأحكام: وهو نزول الأحكام الشرعية بشكل مرحلي خلال فترة البعثة النبوية؛ والتدرج في تطبيق الأحكام: وهو تنفيذ هذه الأحكام بشكل تدريجي بعد اكتمال التشريع؛ وفي هذا السياق، كما عرّف وهبة الزحيلي التدرج التشريعي بقوله: "التدرج في التشريع هو نزول الأحكام الشرعية على المسلمين شيئاً فشيئاً، طوال فترة البعثة النبوية، حتى انتهى بتمام الشريعة وكمال الإسلام"^{٦٥٧}. وأما المراد بالتدرج في المجال التربوي والعلمي، فيمكن تعريفه بأنه: الانتقال من مرحلة تربوية أو علمية إلى مرحلة أخرى أعلى وأرقى، سواء كان ذلك على مستوى الإدراك الحسي أو المعنى الفكري^{٦٥٨}.

بناءً على هذا يمكن أن نفهم أن مفهوم التدرج في الدين يشير إلى الدخول في الدين بالتدريج، وبخطوات متأنية ومرتنة، مع محاولة جذب الناس إليه خطوة خطوة؛ وبالتالي، يمكن القول أن التدرج التربوي يعني التعامل مع الشيء بالتدريج، والأخذ به شيئاً فشيئاً وبهدوء، دون الحاجة إلى تناول كل الجوانب دفعة واحدة.

أما المقصود بوسيلة التربية بالتدرج في التأديب والتعليم في هذا البحث، فهو اتباع منهجية تربوية تعتمد على التدرج المرحلي والمنظم في التعامل مع الأمور؛ يتم نقل المعرفة خطوة بخطوة وبطريقة متأنية، بهدف تعزيز الفهم العميق بدأ بغرس الأدب قبل تعليم العلم بما يتوافق مع الأهداف التربوية المنشودة.

^{٦٥٦} نور الله كورت، وآخرون، التدرج في القرآن الكريم والسنة النبوية، "مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية"، (القاهرة: مجلة علمية محكمة في البحوث الإسلامية والعربية والقانونية بجامعة الأزهر؛ المجلد ٣٢، والعدد ١، والرقم المسلسل للعدد ٩، والصفحة ١٣٣-١٣٧).

^{٦٥٧} محمد مصطفى الزحيلي، التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية، (الكويت: اللجنة الاستشارية العليا، ٢٠٠٢)، ٢٨.

^{٦٥٨} انظر: <https://www.alukah.net/social/0/80730> تاريخ التصفح: يوم الأربعاء ٤ ديسمبر ٢٠٢٤ م.

المسألة الثانية: نماذج من معالم العادات الصالحة في التربية بالتدرج عند أولي العزم من

الرسول ﷺ

تمهيد

تُعَدُّ سُنَّةُ التدرّج من السنن الإلهية الثابتة في مسار تربية الأمم وبناء المجتمعات، إذ لا يمكن الانتقال بالناس من حالٍ إلى حال بصورة فجائية، دون مراعاة لطبيعتهم البشرية، وحاجاتهم النفسية والاجتماعية والعقلية. وقد جسّد أولو العزم من الرسول ﷺ هذه السُنَّةَ التربوية في دعوتهم وتعليمهم وتأديبهم وتزكيتهم، فكان منهجهم قائماً على التدرّج في غرس القيم، وتصحيح المفاهيم، وتقويم السلوك، بما يحقق الامتثال التام لمنهج الله تعالى، ويؤسس لجيلٍ راشد يتحمّل أمانة الاستخلاف في الأرض.

وسيتناول هذا المحور مسألتين رئيسيتين، وهما: أولاً: مفهوم التربية بالتدرّج في مجالات الدعوة والتعليم والتأديب والتزكية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ثانياً: مداومة أولي العزم من الرسول ﷺ على تربية أفراد المجتمع بالتدرّج، من خلال دعوتهم وتعليمهم وتأديبهم، سعياً لتكوين جيلٍ يحمل العلوم النافعة ويقوم بالوظيفة الاستخلافية على أكمل وجه.

أولاً: التربية بالتدرّج في مجالات الدعوة والتعليم والتأديب والتزكية

إن التربية الربانية قد بلغت ذروتها في شخص النبي ﷺ، وهو أفضل خلق الله أدباً وأعلمهم؛ ويمكن القول أن من أسباب تقديم تعليم الأدب كوسيلة على تحصيل العلم النافع، ومن أعظم ما أدّب الله به نبيه ﷺ حينما قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»^{٦٥٩}، وأخذ النبي ﷺ بهذا الأدب الرباني، ملتزماً بالسعي الدائم لزيادة العلم والتربية الذاتية؛ حيث أمره بالسعي المستمر نحو زيادة العلم، مما يُبرز قيمة طلب العلم وفضله في الإسلام؛ قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي

^{٦٥٩} أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي، أدب الاملاء والاستملاء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١)، ١. وقد ذكر ابن السمعاني هذا الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه، وانظر: العجلوني، كشف الخفاء، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ١: ٧٠ (١٦٤)؛ وانظر: المناوي، فيض القدير، ١: ٢٢٤ (٣١٠). وذكر ابن تيمية أن معنى الحديث صحيح، ولكنه قال: "لا يُعرف له إسناد ثابت". انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٨: ٣٧٥؛ وقال الألباني: ضعيف. انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، ١: ١٠١-١٠٢.

عِلْمًا^{٦٦٠}، وكان ﷺ يدعو قائلًا: «اللهم انفعني بما علّمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا، والحمد لله على كل حال»^{٦٦١}؛ وجاء في الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله علما نافعا، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع»^{٦٦٢}.

وجاء في الأثر عن الحسن بن علي رضي الله عنه، قال: «العلم علمان: علم في القلب فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان فتلك حجة الله على عباده»^{٦٦٣}. والمراد بالعلم النافع كما قال الغزالي: "هو ما يزيد في خوفك من الله تعالى، ويزيد في بصيرتك بعيوب نفسك، ويزيد في معرفتك بعبادة ربك ﷻ، ويقلل من رغبتك في الدنيا، ويزيد في رغبتك في الآخرة، ويفتح بصيرتك بآفات أعمالك حتى تحتزّر منها، ويطلعك على مكائد الشيطان وغروره، وكيفية تليسه على العلماء السوء حتى عرضهم لمقت الله ﷻ وسخطه؛ حيث أكلوا الدنيا بالدين، واتخذوا العلم وسيلة إلى أخذ الأموال من السلاطين، وأكل أموال الأوقاف واليتامى والمساكين، وصرف همّتهم طول نهارهم إلى طلب الجاه والمنزلة في قلوب الخلق، واضطّروهم ذلك إلى المراءاة والمماراة، والمنافسة والمباهاة"^{٦٦٤}.

ولذا، يتبين لنا أهمية وسيلة التدرج في التربية، وكان سابقًا من نماذج ميادين التربية الاجتماعية الإسلامية في غرس الأدب والعلم في الأفراد المجتمع؛ وتعدّ وسيلة التدرج في التأديب والتعليم الإسلامي لبناء الأسرة، وهي من وسائل التربية الاجتماعية الأساسية التي أُرشدنا إليها الشارع الحكيم. كما فسّر علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^{٦٦٥}، أي: "أدبهم وعلموهم"^{٦٦٦}.

^{٦٦٠} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ١١٤.

^{٦٦١} ابن ماجه، السنن، المحقق: عبد الباقي، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ١: ٩٢ (٢٥١). خلاصة حكم الحديث، قال المحقق: حكم الألباني صحيح.

^{٦٦٢} ابن ماجه، السنن، المحقق: عبد الباقي، كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ، ٢: ١٢٦٣ (٣٨٤٣).

خلاصة حكم الحديث، قال المحقق: في الزوائد إسناده صحيح؛ ورجاله ثقات وحكم الألباني أنه حديث حسن.

^{٦٦٣} أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، المصنف في الأحاديث والآثار، المحقق: كمال يوسف الحوت، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٩)، كتاب الزهد، ما ذكر عن نبينا ﷺ في الزهد، ٧: ٨٢.

^{٦٦٤} أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، بداية الهداية، راجعه وصححه: محمد عبد الرحمن الأهدل وآخرون، (بيروت: دار المنهاج، ٢٠٠٤)، ١٠٨-١٠٩.

^{٦٦٥} القرآن الكريم: سورة التحريم ٦٦: ٦.

وجاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»^{٦٦٧}. وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "تأدّبوا ثم تعلّموا"^{٦٦٨}. كما جاء في الأثر عن عثمان الحاطي قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول لرجل: «أدب ابنك فإنك مسئول عن ولدك ماذا أدبته وماذا علمته؟ وإنه مسئول عن برك وطواعيته لك»^{٦٦٩}.

من هنا يتبن لنا أن تعليم الأدب والعلم بوسيلة التدرج ومراعاة الأجيل فهي المسؤولية الأسرية، وهذا النهج في التربية الإسلامية لنيل حسن القصد والفهم، والبعد عن التربية اليهودية أو النصرانية؛ وهذا هو المقصود بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^{٦٧٠}. وقد أكد النبي ﷺ على هذه الوسيلة التربوية ووجه الناس إليها؛ فمن توجيه النبي ﷺ قوله: «علّموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعا، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرا، وفرّقوا بينهم في المضاجع»^{٦٧١}.

وقد أمر النبي ﷺ باستخدام أسلوب التأديب والتعليم في تربية الصبي على الصلاة في سن السابعة، وقبل أن يبلغ الطفل مبلغ الكبر. ويتضح من ذلك أن التأديب والتعليم وسيلتان

^{٦٦٦} الطبري، جامع البيان، ١٢: ١٥٧.

^{٦٦٧} ابن ماجه، السنن، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، ٢: ١٢١١ (٣٦٧١). قال المحقق: حكم الألباني أنه حديث ضعيف.

^{٦٦٨} عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي، الغنية لطالبي طريق الحق ﷺ، المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فصل ينبغي لكل مؤمن العمل بهذه الآداب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨)، ١: ١١٦. هذا الأثر ورد بمعناه في بعض كتب الآداب والأخلاق ومعناه صحيح، ونسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتب التراث الإسلامي، لكنه ليس له إسناد واضح مرفوع إلى النبي ﷺ، أو منقول بإسناد ثابت عنه. انظر: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي، الآداب الشرعية والمنح المرعية، المحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط ٣ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩)، ٣: ٥٥٣.

^{٦٦٩} البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب ما على الآباء والأمهات من تعليم الصبيان أمر الطهارة والصلاة، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، كتاب الصلاة، ٥: ٥٨٧، (٥١٦١). نقل المحقق قول الذهبي، فقال: عثمان الحاطي هو ابن إبراهيم ليس بالقوى.

^{٦٧٠} البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز: باب ما قيل في أولاد المشركين، ٢: ١٠٠، (١٣٨٥).

^{٦٧١} الحاكم، المستدرک، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، كتاب الصلاة، باب التأمين، ١: ٣١١، (٧٠٨)، خلاصة حكم الحديث، قال المحقق: صحيح.

فَعَالَتَانِ وَمَهْمَتَانِ مِنْ وَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي يُمْكِنُ لِلْمُرَبِّينَ تَوْضِيفُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمَا؛ فَالطِّفْلُ بِحَاجَةٍ إِلَى عُنَايَةٍ وَتَرْبِيَةٍ، فَكَمَا أَنَّ نَوَاةَ التَّفَاحِ لَا تَنْبُتُ إِلَّا تَفَاحًا، وَكَذَلِكَ نَوَاةُ النَّخِيلِ لَا تَخْرُجُ إِلَّا نَخْلًا، إِلَّا أَنَّهُمَا تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَتَعَهَّدُهَا بِالْغَرْسِ، وَالتَّرْبِيَةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْأَدَبِ، وَالْعُنَايَةِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ لِلتَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ أَثْرًا بَالِغًا فِي تَهْذِيبِ سُلُوكِ الْمَرْءِ وَتَطْهِيرِ نَفْسِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ الْمُهْلِكَةِ؛ إِذْ يُبْتَغَى مِنَ الْعِلْمِ صَلَاحُ الْقَلْبِ وَتَرْكِيزُ النَّفْسِ، كَمَا قَالَ الْغَزَالِيُّ: "إِذَا قُرِئَ الْعِلْمُ أَوْ طَالَعَتْهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِلْمُكَ يَصْلَحُ قَلْبَكَ وَيُزَكِّي نَفْسَكَ"^{٦٧٢}.

وَقَدْ أَكَّدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أَسْلُوبَ التَّأْدِيبِ وَالتَّرْبِيَةِ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ الْأَسْرِيَّةِ وَسَيَسْأَلُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحْفَظَ أَمْ ضَيَّعَ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^{٦٧٣}.

ثَانِيًا: مَدَاوِمَةُ أُولَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﷺ عَلَى تَرْبِيَةِ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ بِالتَّدَرُّجِ

كَانَ نُوحٌ ﷺ قَدْ اسْتَعْدَمَ وَسِيلَةَ التَّدَرُّجِ فِي التَّأْدِيبِ وَتَعْلِيمِ التَّوْحِيدِ قَبْلَ التَّشْرِيعِ لِتَغْيِيرِ الْمَجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ الَّذِي كَانَ غَارِقًا فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾^{٦٧٤}؛ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾^{٦٧٥}. وَلِذَا يَظْهَرُ جَلِيلًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قِصَّةُ سَيِّدِنَا نُوحٍ ﷺ فِي تَرْبِيَةِ الْأُسْرَةِ وَتَوْجِيهِهِمْ وَوَقَايَتِهِمْ مِنَ الْإِنْخِرَافِ وَالضَّلَالَةِ، حِينَمَا ضَلَّ أَحَدٌ مِنْ أَبْنَاءِهِ عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ فَقَالَ ﷺ لَهُ وَصِيَّةٌ لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى فِطْرَتِهِمُ السَّلِيمَةِ، كَمَا عِبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^{٦٧٦}. وَأُورِدَ الرَّازِيُّ ثَلَاثَةَ تَفْسِيرَاتٍ مُحْتَمِلَةٍ لِنِدَاءِ نُوحٍ ﷺ لِابْنِهِ رَغْمَ

^{٦٧٢} الغزالي، رسالة أبيها الولد، ط (بيروت: دار المنهاج، ٢٠١٤)، ٧٥.

^{٦٧٣} أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، صحيح ابن حبان: المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقلها، المحقق: محمد علي سونمز وآخرون، (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠١٢)، النوع الرابع والسبعون، ذكر الإخبار بسؤال الله ﷻ كل من استرعى رعية عن رعيته، ٦: ١٩١؛ (٤٤٩٣). خلاصة حكم الحديث: صحيح.

^{٦٧٤} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ٥.

^{٦٧٥} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ٨-٩.

^{٦٧٦} القرآن الكريم: سورة هود ١١: ٤٢.

كفره؛ وهي: الأول: ظنّ الإيمان: قد يكون نوح ﷺ اعتقد أن ابنه كان ينافق، فظن أنه مؤمن؛ ولو تأكد من كفره، لما دعاه للركوب أو رغب في نجاته؛ والثاني: الرغبة في الإيمان: كان نوح ﷺ يعلم أن ابنه كافر، لكنه رجح أن مشاهدة الغرق والأهوال قد تدفعه للإيمان، فجاء نداؤه: ﴿يَبْنِي أَرْكَب مَعَنَا﴾، كدعوة ضمنية للإيمان، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، أي لا تبقَ على كفرك واتبعنا بالإيمان، والثالث: شفقة الأبوة: لعل عاطفة الأبوة وشفقته حملته على نداء ولده، رغم علمه بكفره، في محاولة لإنقاذه^{٦٧٧}.

وقد جاء تأديب الله لإبراهيم ﷺ بوسيلة التدرج لتحقيق الفوائد المهمة في حصول العلم اليقيني، كما فسر البغوي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْمَ تُوْمَنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَنِّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^{٦٧٨}؛ أي: فلما رأى ذلك إبراهيم ﷺ تعجب منها وقال: يا رب قد علمت لتجمعنها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف دواب البحر فأرني كيف تحييها لأعائن فأزداد يقينا، فعاتبه الله تعالى^{٦٧٩}؛ ﴿قَالَ أَوْمَ تُوْمَنُ قَالَ بَلَىٰ﴾ أي: يا رب علمت وآمنت؛ ﴿وَلَكِنَّ لِيْطْمَنِّ قَلْبِي﴾، أي: ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة، أراد أن يصير له علم اليقين عين اليقين، لأن الخبر ليس كالمعاينة^{٦٨٠}.

ولعل من أوضح آيات تأديب الله ﷻ لنبي الله موسى ﷺ على العجلة دون التدرج ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى • قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى • قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾^{٦٨١}، تُظهر هذه الآيات في التأديب الصريح من الله لنبيه موسى ﷺ بسبب عجلته في المجيء إليه وعدم وسيلة التدرج مع قومه، وذلك أن موسى ﷺ اختار من قومه سبعين رجلاً حتى يذهبوا

^{٦٧٧} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٧: ٣٥١.

^{٦٧٨} القرآن الكريم: سورة العنكبوت ٢٩: ٦٩.

^{٦٧٩} انظر: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، أسباب النزول، (الدمام: دار الإصلاح، ١٩٩٥)، ٧٩.

^{٦٨٠} انظر: البغوي، معالم التنزيل، ١: ٣٢٢.

^{٦٨١} القرآن الكريم: سورة طه ٢٠: ٨٣-٨٥.

معه إلى الطور ليأخذوا التوراة، فسار بهم، ثم عجل موسى ﷺ من بينهم شوقاً إلى ربه ﷻ، وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل^{٦٨٢}. وقد وردت قصة موسى ﷺ في الآيات القرآنية والسنة النبوية حيث يظهر تأديب الله ﷻ لكليمه موسى ﷺ من خلال العتاب الذي يهدف إلى التوجيه والتنبيه، وبيان ما هو الأولى والأفضل في حقه، وذلك بوسيلة التدرج في التعليم أثناء مرافقته لنبي الله ﷻ الخضر ﷺ؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾^{٦٨٣}، ثم جاءت قصته فيما أخرجه البخاري في صحيحه بأن نبي الله موسى ﷺ لما سأله قومه عن أعلم الناس، وجاءه التوجيه للتعلم من الخضر فلم يرد العلم إليه إلا بوسيلة التدرج^{٦٨٤}.

إن التأديب والتعليم كأسلوب لتدرج في المجتمع، له مكانه كبرى في التربية الاجتماعية، لأنه يتطرق إلى النفس الإنسانية من مداخلها الحقيقية، ويجعل الناصح في نظر المنصوح شخصاً طيب النوايا، حريصاً على المصلحة، ومن هنا يكون لكلامه قبول حسن^{٦٨٥}. قال عبد الله بن ضيف الله الرحيلي: التربية وتهذيب الأخلاق ليست مهمة المربي وحده؛ بل هي مسؤولية مشتركة بين المربي والمرئى والمجتمع^{٦٨٦}. فكان المسجد من ميادين التربية الاجتماعية الإسلامية، وهو أول مدرسة جماعية منظمة، لتأديب وتعليم الكبار والصغار والرجال والنساء^{٦٨٧}. ولذا، جاء فضل أسلوب التدرج في التأديب والتعليم في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أدب الرجل أمتة فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران وإذا آمن بعيسى ثم آمن بي فله أجران والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران»^{٦٨٨}. ومن أدلة التربية بوسيلة التدرج جاء

^{٦٨٢} انظر: البغوي، معالم التنزيل، ٣: ٢٧١.

^{٦٨٣} القرآن الكريم: سورة الكهف ١٨: ٦٥-٦٦.

^{٦٨٤} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الخضر مع موسى ﷺ، ٤: ١٥٤ (٣٤٠١).

^{٦٨٥} محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، (القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٥)، ١: ٨١.

^{٦٨٦} انظر: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، الأخلاق الفاضلة: قواعد ومنطلقات لاكتسابها، ط ١٠ (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠١٧)، ١٤٩.

^{٦٨٧} انظر: النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، ١١٨.

^{٦٨٨} البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﷻ واذكر في الكتاب مريم، ٤: ١٦٧، (٣٤٤٦).

في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن وقال له: «إنك تقدم على قوم أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ﷻ. فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله ﷻ فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم. فإذا فعلوا، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم. فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم»^{٦٨٩}. وكان النبي ﷺ يستخدم وسيلة التدرج في تعليم الأدب قبل العلم كما في قصة هذا الأعرجي في المسجد، جاء في الحديث مما أخرجه في الصحيحين، واللفظ لمسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرجي؛ فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: «مه مه»؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ترموه دعوه»؛ فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القدر، إنما هي لذكر الله ﷻ، والصلاة، وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله ﷺ قال: فأمر رجلا من القوم، فجاء بدلو من ماء، فشنه عليه^{٦٩٠}. قال ابن حجر العسقلاني: "إن الأعرجي واحد الأعراب وهم من سكن البادية عربا كانوا أو عجماء، وإنما تركوه يبول في المسجد لأنه كان شرع في المفسدة فلو منع لزدت إذ حصل تلويث جزء من المسجد، فلو منع لدار بين أمرين: إما أن يقطعه فيتضرر، وإما أن لا يقطعه فلا يأمن من تنجيس بدنه أو ثوبه، أو مواضع أخرى من المسجد"^{٦٩١}.

التربية الاجتماعية تهدف إلى بناء مجتمع إسلامي مترابط يقوم على أسس المودة والرحمة والتأدب بأخلاق الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^{٦٩٢}. يظهر هذا

^{٦٨٩} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ١: ٥١، (١٩).

^{٦٩٠} البخاري، الصحيح، كتاب الأدب: باب قول النبي ﷺ يسروا ولا تعسروا، ١: ٥٤ (٢١٩)، ومسلم، الصحيح، كتاب الطهارة؛ باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذ حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها، ١: ٥٤ (٢١٩). قال المحقق عبد الباقي: قوله ﷺ: «مه مه» هي كلمة زجر؛ قال العلماء: هو اسم مبني على السكون؛ معناه اسكت. قال صاحب المطالع: هي كلمة زجر. وقيل: أصلها ما هذا ثم حذف تخفيفا. قال: وتقال مكررة مه مه، وتقال فردة مه. وقوله: «فشنه»: يروي بالشين المعجمة وبالمهمل، وهو في أكثر الأصول والروايات بالمعجمة، ومعناه صبه، وفرق بعض العلماء بينهما؛ فقال: هو بالمهمل الصب في سهولة، وبالمعجمة التفريق في صبه.

^{٦٩١} انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ١: ٣٨٥.

^{٦٩٢} القرآن الكريم: سورة الحجرات ٤٩: ١٠.

الهدف من خلال رعاية العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع، بدءًا من الأسرة التي تمثل اللبنة الأولى في حماية الإنسان من الانحراف وتعليمه القيم الصالحة.

من أبرز النماذج التي تظهر فيها أهمية التربية الاجتماعية، ووسيلة التدرج في التأديب والتعليم، قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ • وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^{٦٩٣}، عندما عاد النبي ﷺ من الغزوة، أمر الصحابة بمقاطعة الثلاثة كإجراء تأديبي. الهدف من هذه المقاطعة لم يكن العقاب، بل تحفيزهم على الندم والعودة إلى الطريق القويم من خلال تأثير المجتمع عليهم. هذه القصة تعكس أهمية الالتزام المجتمعي في تعزيز التربية الصالحة. ولذا، فالنبي ﷺ شدد على ضرورة مصاحبة الصالحين والابتعاد عن السيئين؛ يقول النبي ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري، **«قال النبي ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»»**^{٦٩٤}.

يبرز المثال في السنة النبوية التي تدل على تأثير البيئة في الإنسان، قصة الرجل الذي قتل مائة نفس وسعى للتوبة؛ فيظهر فضل العالم على العابد في قضايا التوجيه، حيث اعتمد العالم وسيلة التدرج في التأديب والتعليم لتوجيه الرجل نحو الصواب وتحقيق التغيير المطلوب؛ جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري **«قال النبي ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه وقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة؛ ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد**

^{٦٩٣} القرآن الكريم: سورة التوبة ٩: ١١٧-١١٨.

^{٦٩٤} البخاري، الصحيح، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، ٧: ٩٦، (٥٥٣٤).

الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء»^{٦٩٥}. أوضح ابن حجر العسقلاني في شرحه لهذا الحديث أن البيئة قد تكون عاملاً محفزاً للمعصية إما لتذكيرها الإنسان بأفعاله السابقة أو بسبب الأشخاص الذين يعينونه عليها، لذا؛ فإن التائب يحتاج إلى تغيير محيطه ليجد الدعم في الثبات والاستقامة^{٦٩٦}. ولذا، فإن عملية التربية التي تعتمد على وسيلة التدرج في التأديب والتعليم لتهديب وتطوير الأخلاق، فليست مسؤولية المربي وحده؛ بل هي واجب مشترك يقع على عاتق كل من المربي، والمربي، والمجتمع ككل.

خلاصة المطلب:

يتبين من خلال ما سبق أنّ التربية بالتدرج تمثل سُنّة إلهية راسخة في منهج الأنبياء والمرسلين، لاسيّما أولي العزم منهم ﷺ، وقد ظهرت هذه السُنّة جليّة في مراحل دعوتهم وتوجيههم لأفراد مجتمعاتهم، من خلال التدرج في بيان الأحكام، وترسيخ القيم، وتصحيح الانحرافات السلوكية والعقدية. وتُعَدّ هذه العادة التربوية الصالحة من أبرز مظاهر الحكمة والرحمة النبوية في التعامل مع الواقع البشري، مما يستدعي استحضارها وتفعيلها في المناهج التربوية المعاصرة، تأسيساً بمنهج النبوة، ووفاءً بوظيفة الاستخلاف.

المطلب الثاني: التربية بالقدوة عند أولي العزم من الرسل ﷺ

تمهيد

تُعَدّ التربية بالقدوة من أنجع أساليب التربية في بناء النفوس وغرس القيم، لما لها من أثر عملي مباشر في تقويم السلوك وتثبيت المبادئ. وقد جاء الأنبياء والرسل ﷺ وفي مقدمتهم أولو العزم نموذجاً متكاملًا في تجسيد هذا الأسلوب التربوي، إذ مثّلوا القيم التي دعوا إليها في واقعهم الحيّاتي، فكانوا أعظم قدوة للبشرية في السلوك والإيمان والعمل.

يتناول هذا المحور قضيتين رئيسيتين: المسألة الأولى: بيان مفهوم التربية بالقدوة الصالحة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، مع تسليط الضوء على أصولها ومقوماتها

^{٦٩٥} مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ٤: ٢١١٨، (٢٧٦٦).

^{٦٩٦} ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٦: ٥١٧.

الشرعية والتربوية. المسألة الثانية: عرض نماذج من العادات الصالحة التي جسدها أولو العزم من الرسل ﷺ في تطبيق أسلوب التربية بالقدوة، من خلال مواقفهم العملية وسيرهم المباركة، بما يعكس الأثر التربوي العميق لهذه النماذج في واقع الأفراد والمجتمعات.

المسألة الأولى: مفهوم التربية بالقدوة

القدوة لغةً: مأخوذة من مادة قدو، وهي مكونة من حروف القاف والذال والحرف المعتل؛ أصل هذه المادة يدل على الاقتباس والاهتداء^{٦٩٧}. والقدوة هي المثال الذي يتشبه به الآخرون فيعملون كما يعمل^{٦٩٨}، وهي الأسوة. يقال: "فلان قدوة يُقتدى به"^{٦٩٩}. بناءً على هذه التعريفات، يمكننا أن نلاحظ أن المعاني اللغوية للاقتداء أو القدوة تدور حول التأسي والمتابعة، والسير على نهج شخص آخر يعتبر مثلاً جيداً يحتذى به، لتنعكس تلك الصفات في كل جوانب الشخصية.

وأما تعريف القدوة اصطلاحاً: تعددت آراء العلماء في تعريف القدوة اصطلاحاً، وقد جاءت التعريفات، منها: الاقتداء: هو اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة^{٧٠٠}؛ وعرف القدوة، بالكسر والضم، تعني: الاقتداء بالغير ومتابعته والتأسي به^{٧٠١}؛ والاقتداء: طلب موافقة الغير في فعله^{٧٠٢}.

من خلال النظر في التعريفات اللغوية والاصطلاحية للقدوة، يتضح أنه لا يوجد اختلاف كبير بين العلماء في تحديد مفهومها، بل نجد أن الألفاظ تتقارب، والمعنى الاصطلاحي يتوسع على المعنى اللغوي، مضيفاً جوانب مرتبطة بالسلوك والتأثير العملي.

^{٦٩٧} ابن فارس، مقاييس اللغة، ٥: ٦٦.

^{٦٩٨} مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ٢: ٧٢١.

^{٦٩٩} الرازي، مختار الصحاح، ٥: ٢٤٩.

^{٧٠٠} عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢)، ٢: ٣١٨.

^{٧٠١} المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ٥: ٢٩٦.

^{٧٠٢} الشوكاني، فتح القدير، ٢: ١٥٧.

والمقصود بالتربية بالقدوة الحسنة في هذا البحث هي طريقة تربية تعتمد على تقديم نموذج حيّ وفَعَال يتميز بالأخلاق والقيم والسلوكيات المثالية، بحيث يكون هذا النموذج مرجعاً يُتخذى به من قبل الأفراد في حياتهم اليومية؛ وتهدف إلى غرس الآداب والقيم الإيجابية وتعزيز السلوك القويم من خلال التأثير العملي والتأسي التلقائي بالشخصية القدوة، التي تُظهر توافقاً بين القول والفعل، وتُبرز سمات الالتزام بالقيم الإسلامية.

المسألة الثانية: نماذج من العادات الصالحة في أسلوب التربية بالقدوة عند أولي العزم من

الرسل ﷺ

تمهيد

يتناول هذا المحور مسألتين رئيسيتين: أولاً: بيان مفهوم التربية بالقدوة الصالحة في مجال الاقتداء بالواقع والأحداث الصالحة، في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وبيان أثر هذا الأسلوب في بناء الوعي السلوكي والاجتماعي. ثانياً: إبراز مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على ترسيخ هذا الأسلوب التربوي من خلال دعوتهم، ومشروعية الاقتداء بالأحداث والوقائع الصالحة التي جسّدوها أو استشهدوا بها في مسيرتهم الدعوية.

أولاً: التربية بالقدوة في مجال الاقتداء بالواقع والأحداث الصالحة

تعد القدوة من أهم الأساليب المؤثرة في حياة البشر عامة، وفي المجال الدعوي خاصة. فالناس في كل زمان ومكان بحاجة ماسة إلى نماذج حية تسير أمامهم لتضيء لهم الطريق، وترشدتهم إلى ما يصلح أمور دينهم ودنياهم. وقد جعل الله تعالى النبي ﷺ مصدر أمان للمؤمنين من الوقوع في المعاصي والابتعاد عن الله، كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^{٧٠٣}، القدوة تمثل أحد أهم العناصر المؤثرة في إصلاح الإنسان وحمایته من الانحراف، ويأتي رسول الله ﷺ على رأس القدوات، فهو أسوة للبشرية كافة ودعوة عملية إلى الإسلام بكل ما يحمله من قيم ومبادئ سامية. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

^{٧٠٣} القرآن الكريم: سورة الأحزاب ٣٣: ٦.

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا»^{٧٠٤}. ونظرًا لأهمية القدوة في التربية والدعوة، شدد النبي ﷺ على خطورة الكذب حتى في الأمور البسيطة، مثل المزاح مع الأطفال، لئلا ينشئوا على الاقتداء بمن يكذب، فيصبح الكذب خلقًا لديهم؛ فعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: دعيتني أُمِّي يومًا ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: تعال أعطك، فقال لها رسول الله ﷺ: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: أعطيه تمرًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تُعْطِه شيئًا، كُتِبَ عَلَيْكَ كَذِبَةٌ»^{٧٠٥}. في الحديث الشريف لفتة تربوية اجتماعية عميقة تتعلق بقدوة المربية، سواء كان أبًا أم أمًّا، في تربية الأبناء؛ فالطفل الذي ينشأ على يد والدين يمارسان الكذب يكتسب هذا السلوك تلقائيًا، ليصبح جزءًا من شخصيته. وللأسف، يستهين بعض الناس بالكذب على الأطفال ظنًا منهم أنهم غير مؤاخذين، متجاهلين خطورة هذا السلوك وأثره على تشكيل شخصية الطفل. كما أن النبي محمد ﷺ أشار إلى أهمية الصدق في تصرفات الداعية، حتى في التفاصيل الصغيرة، لتجنب غرس السلوكيات السلبية، حيث شدد على خطورة الكذب، حتى ولو كان على سبيل المزاح؛ وكان ﷺ قدوة في الوقاية من النار، كما جاء في الحديث شبه النبي ﷺ نفسه برجل يشعل نارًا، فتأقي الفراش والحشرات لتقع فيها، رغم محاولاته منعها؛ قال ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي»^{٧٠٦}. يدل هذا الحديث عند النووي على حرص النبي ﷺ على نجاة أمته من المعاصي والشهوات التي تؤدي إلى النار، وكيف أن البعض يغلبون أهواءهم، مما يؤدي بهم إلى الهلاك^{٧٠٧}.

ومن أبرز النماذج على ذلك ما حدث في صلح الحديبية، حينما صد المشركون الصحابة رضي الله عنهم عن أداء العمرة، مما أثار فيهم شعورًا عميقًا بالحزن؛ أمر النبي ﷺ الصحابة

^{٧٠٤} القرآن الكريم: سورة الأحزاب ٣٣: ٢١.

^{٧٠٥} أبو داود، السنن، المحقق شعيب الأرناؤوط، كتاب الأدب، باب في الكذب، ج ٧، ص ٣٤١، الرقم ٤٩٩١. قال المحقق: حديث حسن لغيره.

^{٧٠٦} البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ٨: ١٠٢، (٦٤٨٣)؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب شفقة النبي ﷺ على أمته، ٤: ١٧٨٩، (١٨). واللفظ له.

^{٧٠٧} النووي، المنهاج، ١٥: ٥٠.

بنحر ما معهم من الهدي والتحلل من الإحرام، لكنهم لم يبادروا بفعل ذلك فوراً، رغم شدة حرصهم على طاعته، لما كانوا عليه من الأمل في إتمام العمرة^{٧٠٨}.

هنا يظهر الدور المحوري للقدوة، حيث أشارت السيدة أم سلمة رضي الله عنها على النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقيم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة، يا نبي الله، أتحب ذلك، اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً»^{٧٠٩}.

والقدوة لها تأثير عميق على النفس، مما يجعلها من أبرز وسائل التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل عليهم السلام؛ ومع ذلك؛ قد يستعظم بعض الناس وجود تأديب الله تعالى وأنبياءه عليهم السلام، أو عتاب الله تعالى رسوله؛ ظناً منهم أن ذلك قد ينتقص من عصمة الأنبياء عليهم السلام، أو يتناقى مع مكانتهم السامية^{٧١٠}.

ويمكن القول بأن الأمر ليس كذلك؛ ولذا؛ تكون القدوة الكمال غير ممكن في الطبيعة البشرية؛ لكن حق الله أعظم وأجل، والإيمان بحكمته وعدله يقتضي قبول هذا التأديب دون أن يمس ذلك مكانة الأنبياء الكريمة. وعرف عصمة الأنبياء أحمد عبد اللطيف بأنها: "حفظ الله ظواهر الأنبياء وبواطنهم، مما تستقبحه الفطرة السليمة قبل النبوة، وحفظهم

^{٧٠٨} صلح الحديبية، الذي جرى في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، يمثل نموذجاً حياً لتأثير القدوة الحسنة في تربية النفوس وتوجيهها؛ خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون من المدينة قاصدين مكة لأداء العمرة، إلا أن قريش رفضت السماح لهم بالدخول وأقسمت على منعهم بالقوة. توقف المسلمون على مقربة من مكة في منطقة الحديبية، وهناك جرت مفاوضات انتهت بتوقيع صلح الحديبية. انظر: محمد سعيد رمضان البوطي، **فقه السيرة مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٦)، ٢٣٠.

^{٧٠٩} البخاري، **الصحيح**، كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد، ٣: ١٩٣، (٢٧٣١).

^{٧١٠} بينوغين أكبر الأندونيسي، عتاب الله تعالى للأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم: دراسة موضوعية، (رسالة ماجستير، قسم القرآن وعلومه، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، ٢٠١٥)، ١٧.

من الكبيرة وصغائر الحسنة بعدها، وتوفيقهم للتوبة والاستغفار من الصغائر، وعدم إقرارهم عليها^{٧١١}.

جاء عند راشد سعد العليمي في بيان الأمور التي تقع فيها عصمة الأنبياء على نوعين: العصمة ووقوع الخطأ؛ فالأول: لقد اتفق العلماء عليها وهي جوانب العصمة المهمة؛ منها: الأنبياء ﷺ معصومون من الكفر والشرك، والكبائر، وتحمل الوحي وتبليغ الرسالة وبيانها، وعدم كتمان أي أمر منها، وعدم النسيان في البلاغ. أما الثاني: وقوع الخطأ في الصغائر، يتوقع صدور الخطأ في أمور أخرى، مثل الصغائر، وهم ﷺ معصومون من الإقرار على الذنوب مطلقاً، وأنهم إن وقعت منهم زلات من جنس ذلك فإنهم يتداركونها بالتوبة والإجابة، ثم يرتفعون إلى منزلة أعلى من المنزلة التي كانوا عليها قبل الذنب^{٧١٢}.

ثانياً: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على تربية أفراد المجتمع بالقُدوة الصالحة
لقد حدث مع سيدنا نوح ﷺ؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^{٧١٣}، جاء البيان عند ابن حمير في قوله تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: في الدين لا في صلة النسب، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، أي: أن عمله غير صالح؛ فأعلمه الله تعالى بحاله وماله، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، ثم أدبه ووعظه وعلمه نجاه ربه أن يسأله تحصيل علم ما لم يُكلف بعلمه، إذ لا يجب على المكلف أن يسأل عن علم ما لم يُكلف به^{٧١٤}.

^{٧١١} أحمد عبد اللطيف بن عبد الله، عصمة الأنبياء بين المسلمين وأهل الكتاب، (رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٣)، ٢٣.

^{٧١٢} انظر: راشد سعد العليمي، "قيم تربوية ودعوية مستفادة من عتاب الله تعالى أولي العزم من الرسل ﷺ على ضوء دراسة الآيات القرآنية"، مجلة أبحاث، (الكويت: جامعة الحديدة، كلية التربية، ١٠، العدد ٢، يونيو ٢٠٢٣، ص ١٢٣-١٤٢).

^{٧١٣} القرآن الكريم: سورة هود ١١: ٤٦.

^{٧١٤} أبو حسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بابن حمير، تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حالة الأغبياء، المحقق: محمد رضوان الداية (بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩٠)، ٧٩-٨١.

وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما استغفر لأبيه، وهو ما استثناه الله من أسوته الحسنة؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^{٧١٥}، وكان استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه بناءً على وعد قطعه له، رجاء أن يهتدي إلى الحق؛ ولكن عندما تبين لإبراهيم عليه السلام أن أباه عدو لله ﷻ، تبرأ منه وترك الاستغفار له، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾^{٧١٦}، هذا الموقف يوضح أهمية الوعي والبصيرة في اتخاذ القدوة، والتمييز بين الالتزام بالمبادئ ومراعاة المواقف التي قد تستدعي تغيير السلوك أو القرار. كما ورد في دعاء موسى عليه السلام؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ • قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^{٧١٧}، فموسى اعترف بذنبه، وطلب المغفرة من الله بعد قتله القبطي، وقد غفر الله له ذنبه^{٧١٨}.

وأما عيسى عليه السلام فجاء السؤال من الله ﷻ له يوم القيامة لتقريع النصارى وتوبيخهم على كفرهم وشركهم بالله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^{٧١٩}، لقد أراد الله ﷻ أن يقر عيسى عليه السلام على نفسه بالعبودية أمام قومه، ليظهر كذبهم عليه في زعمهم أنه أمرهم بذلك؛ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد^{٧٢٠}. وورد في حق النبي ﷺ عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا • إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي ربي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾^{٧٢١}، قال ابن كثير: "هذا إرشاد من الله تعالى لرسول

^{٧١٥} القرآن الكريم: سورة الممتحنة ٦٠: ٤.

^{٧١٦} القرآن الكريم: سورة التوبة ٩: ١١٤.

^{٧١٧} القرآن الكريم: سورة القصص ٢٩: ١٥-١٦.

^{٧١٨} راشد سعد العليمي، "قيم تربوية ودعوية مستفادة من عتاب الله تعالى أولي العزم من الرسل على ضوء دراسة الآيات القرآنية"، مجلة أبحاث، (الكويت: جامعة الحديدة، كلية التربية، مجلد ١٠، العدد ٢، يونيو ٢٠٢٣)، ١٣.

^{٧١٩} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١١٦.

^{٧٢٠} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢: ١٣٥.

^{٧٢١} القرآن الكريم: سورة الكهف ١٨: ٢٣-٢٤.

الله ﷻ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ، علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون^{٧٢٢}.

من هنا يتبين لنا أن أولي العز من الرسل ﷺ فيهم الجانب البشري الذي يتعرض لتقلبات الحياة النفسية والاجتماعية؛ فيأتي التأديب للتوجيه والعلاج ولإرجاع النفس إلى مقامها الكريم في منازل الأتقياء وصفوة الخلق. فالتأديب من الله ﷻ للأنبياء لا ينافي عصمتهم، لأن العصمة لا تعني عدم صدور الخطأ عن الإنسان، وإلا لكان الأنبياء ملائكة وهم الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^{٧٢٣}؛ ولكن العصمة تدل على أنهم بشر تعزيبهم كل العوارض البشرية؛ ولذا، فإن تأديب الله ﷻ لأنبيائه لا ينافي عصمتهم، بل هو دليل على رفعتهم ومكانتهم عند الله ﷻ.

يتبين من خلال ما سبق أنّ أسلوب التربية بالقدوة في مجال الاقتداء بالواقع والأحداث الصالحة يُعدّ من الوسائل التربوية المؤثرة التي مارسها أولو العزم من الرسل ﷺ في دعواتهم، لما له من دور فعال في ترسيخ القيم واستنهاض الهمم وتقويم السلوك. وقد جاء عرض هذا النموذج التربوي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ليؤكد أهمية هذا المسلك في العملية التعليمية والتزكية للأُمم والمجتمعات.

خلاصة المطلب:

يتّضح مما سبق أنّ التربية بالقدوة تمثّل ركيزة أساسية في بناء الشخصية الإيمانية، وقد شكّل أولو العزم من الرسل ﷺ النموذج الأسمى في هذا المجال؛ إذ تجسّدت فيهم القيم الربانية في أبهى صورها. وقد أظهر العرض أنّ هذا الأسلوب لم يكن مجرد خطاب نظري، بل كان ممارسة حية وواقعاً ملموساً أثمر نتائج باهرة في تربية الأفراد وبناء المجتمعات. ومن هنا، فإنّ الاقتداء بهدي الأنبياء والرسل ﷺ يُعدّ ضرورة ملحة لإصلاح الواقع التربوي المعاصر، واستعادة فعالية التربية الإسلامية في تحقيق أهدافها النبيلة.

^{٧٢٢} البغوي، معالم التنزيل، ٢: ١٠٥.

^{٧٢٣} القرآن الكريم: سورة التحريم ٦٦: ٦.

المطلب الثالث: التربية بالمجاهدة والتعود والصبر عند أولي العزم من الرسل ﷺ

تمهيد

يتناول هذا المطلب مسألتين رئيسيتين: المسألة الأولى: بيان مفهوم مفهوم التربية بالمجاهدة والتعود والصبر في ضوء القرآن والسنة، والمسألة الثانية: عرض نماذج من العادات التربوية الصالحة التي تجلّت في تطبيق أولي العزم من الرسل ﷺ لهذا الأسلوب، في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمجاهدة والتعود مع الصبر، كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

المسألة الأولى: مفهوم التربية بالمجاهدة والتعود والصبر

المجاهدة لغةً: مأخوذة من جهد، أي بذل الجهد والطاقة، ويقال: جهد في الأمر إذا طلبه بإصرار حتى بلغ الغاية وتحمل المشقة. ويُقال: جهد بفلان أي امتحنه. كما يُستخدم المصطلح للإشارة إلى مجاهدة العدو بمعنى مقاتلته ومقاومته^{٧٢٤}. أما المجاهدة اصطلاحاً: يقصد بها مجاهدة النفس، وهي إلزامها باتباع أوامر الله واجتناب ما نهى عنه، وعندما ينجح الإنسان في ذلك، يصبح أكثر قوة وثباتاً في مواجهة أعداء الدين؛ يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^{٧٢٥}، حيث ربط سبحانه وتعالى الهداية بالجهاد؛ وبالتالي، فإن أعظم الناس هداية هم أكثرهم اجتهاداً في هذا السبيل؛ وأهم أنواع الجهاد هو جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا؛ فمن اجتهد في التغلب على هذه الأربعة ابتغاء مرضاة الله ﷻ، أكرمه الله بالهداية إلى الطرق التي تقوده إلى رضاه وجنته^{٧٢٦}.

وأما التَّعوُّد لغةً: من العادة بأنها: كلما استمر حتى أصبح يُفعل دون مشقة أو جهد، مع تكرار الحالة على نمط واحد، مثل عادة الحيض لدى المرأة^{٧٢٧}؛ وقد ورد تعريفها الديدن،

^{٧٢٤} انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: جهد، ٢: ٣٤، وانظر: المعجم الوسيط، ١: ١٤٧.

^{٧٢٥} القرآن الكريم: سورة العنكبوت ٢٩: ٦٩.

^{٧٢٦} انظر: شريف فوزي سلطان، التربية بالمجاهدة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: خطوات عملية على

طريق تربية النفس، (مصر: دار الؤلؤة، ٢٠٢٣)، ١٣.

^{٧٢٧} مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ٢: ٥٦٣.

والتعود والتمادي في أمر حتى يصبح طبعاً وسجية للإنسان^{٧٢٨}. وقد سميت عادة لأن صاحبها يعود إليها مراراً وتكراراً^{٧٢٩}.

بناءً عليه، فإن المعنى اللغوي للعادة يتمحور حول مفهوم التدريب المستمر والتكرار، إلى أن يتأصل الشيء في النفس ويصبح سجية وطبيعة لا تتغير.

أما التعود اصطلاحاً: لا يتعد المعنى الاصطلاحي لمفهوم العادة كثيراً عن المعنى اللغوي؛ إذ يرتبط بالتكرار والمداومة؛ **فالتعود** عَرَّف بأنه: "ما اعتاد الناس على فعله بناءً على حكم العقل، وأصبحوا يعودون إليه مراراً وتكراراً"^{٧٣٠}. كما ورد تعريفها بأنها: "اسم لتكرار الفعل أو الانفعال، حتى يصبح القيام به سهلاً وكأنه جزء من الطبع"^{٧٣١}. وكما عرفه الجرجاني بأن التكرار عبارة عن الإتيان بشيء مرة بعد أخرى^{٧٣٢}. يتضح من ذلك أن التعود هو كل ما يلتزم به الإنسان ويكرره في حياته حتى يصير جزءاً من سجيته وطبيعته الذاتية، ملازماً له دون حاجة إلى التوجيه أو الإرشاد المستمر، وإنما يثبت بالتكرار والمداومة المستمرة.

يسعى الباحث إلى الجمع بين هاتين الوسيلتين لتكوين شخصية متوازنة تجمع بين القدرة على مجاهدة النفس والعادات الصالحة لتحقيق الاستقامة ورضا الله ﷻ. ولذا، فإن المقصود بالتربية بوسيلة المجاهدة والتعود في هذا البحث هو التربية بغرس الأدب في النفس، وذلك من خلال تقويمها وحملها على الالتزام بأوامر الله ﷻ واجتناب نواهيه، مع الاعتماد على التكرار والتدريب المستمر والصبر، حتى تصبح هذه القيم جزءاً من طبيعة الإنسان.

المسألة الثانية: نماذج من العادات الصالحة في أسلوب التربية بالمجاهدة والتعود والصبر عند أولي العزم من الرسل ﷺ

^{٧٢٨} ابن سيده المرسى، المخصص، ٣: ٣٢٦.

^{٧٢٩} أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي أبو العباس، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٩٦)، ٢: ٤٣٦.

^{٧٣٠} الجرجاني، التعريفات، ١٤٦.

^{٧٣١} سميح عاطف الزين، معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة، (بيروت: دار الكتب اللبناني، ١٩٩١)، ١: ٥١٩.

^{٧٣٢} الجرجاني، التعريفات، ٦٥.

سيتناول هذا المحور مسألتين رئيسيتين، وهما: أولاً: مفهوم التربية بالمجاهدة والتعود والصبر في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء القرآن والسنة. ثانياً: مداومة أولى العزم من الرسل ﷺ على تربية أفراد المجتمع بالمجاهدة والتعود والصبر من خلال دعوتهم في مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أولاً: التربية بالمجاهدة والتعود والصبر في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

التربية بالمجاهدة والتعود في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي حمل النفس على التزام هذا الواجب الشرعي مع المداومة عليه حتى يصير خُلُقاً راسخاً، مستمدة من قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^{٧٣٣}، وقوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^{٧٣٤}. والمجاهدة هنا تشمل مجاهدة النفس على الصبر والثبات أمام المنكر، والتعود على المبادرة بالمعروف، مع التزام الحكمة والرفق، وهو ما أشار إليه ابن تيمية بأن دوام العمل الصالح مع المجاهدة سبيل لتزكية النفس وتقويم المجتمع^{٧٣٥}.

وتكمن أهمية هذا الأسلوب في ترسيخ القيم الإيمانية والأخلاقية في الأفراد، وبناء مجتمع متماسك ينهض بواجب الإصلاح، إذ إن المجاهدة والتعود يجعلان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلوكاً جماعياً يحمي من الانحرافات العقدية والأخلاقية، ويغرس روح المسؤولية والتكافل، فيسهم في استقامة الأفراد وصيانة المجتمع.

إن أولى العزم من الرسل ﷺ كانوا منشغلين بقضايا أممهم، ومع ذلك لم يغفلوا عن الجانب الاجتماعي المهم؛ فقد كانوا حريصين على كسب القلوب، ولذلك لم يكونوا يطلبون الأجر من أحد إلا من الله تعالى؛ بل كانوا يقدمون العطاء بسخاء ويبدلون كل ما في وسعهم لتنفيذ ما طُلب منهم لصالح أمتهم، هذه الصفة، لا يتحلى بها إلا صاحب قلب كبير ونفس

^{٧٣٣} القرآن الكريم: سورة العنكبوت ٢٩: ٦٩.

^{٧٣٤} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر واجب، ١: ٦٩ (٤٩).

^{٧٣٥} ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨: ١٠٩.

سامية، لأنها تتطلب جهداً كبيراً ووقتاً ثميناً^{٧٣٦}. لقد أكد القرآن الكريم هذه الصفة لكل الأنبياء والرسل ﷺ في مواطن عدة، مثل قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^{٧٣٧}؛ وأمر الله نبيه ﷺ بأن يجعل هذه الصفة معياراً لصدق الداعية بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^{٧٣٨}؛ وورد في السيرة النبوية عندما عرضت قريش على رسول الله ﷺ المال والملك والنساء^{٧٣٩}. فقد جاء في الحديث عن جابر رضي الله عنه يقول: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا»^{٧٤٠}. قال النووي: "ذكر الحديث بعده في إعطائه ﷺ للمؤلفة وغيرهم؛ في هذا كله بيان عظيم سخائه، وغزارة جوده ﷺ ومعناه ما سئل شيئاً من متاع الدنيا"^{٧٤١}. وعندما يتحلى الداعية بهذه الصفة، فإنه يصبح ربانياً، لا يحزن لإعراض الناس ولا يكثر لإيذائهم، قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^{٧٤٢}.

لقد أشار عبد المجيد الغيلي في كتابه "كيف يرمج القرآن الحياة" إلى أن هذه هي صفة حامل الرسالة؛ منها التجرد من المصالح الشخصية والتكلف؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^{٧٤٣}. أي: "التجرد من المصالح الشخصية فهو لا يريد من وراء هداية الناس أي مصلحة منهم، ولا يتبغي أي منفعة ذاتية؛ وهو المقوم الأساسي للصبر والثبات والصمود حتى تحقق الهدف، وعندما يتجرد الداعية من مصالحه

^{٧٣٦} يوسف خاطر حسن الصوري، أساليب الرسول في الدعوة والتربية، (الكويت: صندوق التكافل لرعية أسر الشهداء والأسرى، د.ط، د.ت)، ٢٢.

^{٧٣٧} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

^{٧٣٨} القرآن الكريم: سورة يس ٣٦: ٢١.

^{٧٣٩} محمد بن إسحاق بن يسار المطلي، السير والمغازي، المحقق: سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨)، ١٥٤؛ وانظر: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، السيرة النبوية لابن هشام، المحقق: مصطفى السقا وآخرون، ط٢ (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥)، ١: ٢٩٣.

^{٧٤٠} البخاري، الصحيح، كتاب الأدب: باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، ٨: ١٣، (٦٠٣٤). مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل: باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً، ٤: ١٨٠٥، (٢٣١١). واللفظ له.

^{٧٤١} النووي، المنهاج، ١٥: ٧١.

^{٧٤٢} القرآن الكريم: سورة يونس ١٠: ٧٢.

^{٧٤٣} القرآن الكريم: سورة ص ٣٨: ٨٦.

الشخصية فإنه يلتحم بالحق حتى يجري الحق على لسانه، ويتمثل في أفعاله، فيكون غضبه ورضاه لأجل رسالته، ويكون حديثه وصمته لأجل رسالته، يعيش لها، ويموت من أجلها، يحمل همها في كيانه وأحشائه، يسير بها أينما سار، ومن ثم تثمر دعوته، وبيارك الله لا في جهوده^{٧٤٤}.

جاء عند يوسف القرضاوي حديثٌ عن نماذج الشخصيات الصابرة التي ذكرها القرآن الكريم. ومن بين هذه النماذج، صبر بعض الأنبياء ﷺ مثل أيوب ﷺ ويعقوب ﷺ والذبيح إسماعيل ﷺ، ويُعدُّ صبر أولي العزم من الرسل ﷺ مثلاً للنماذج الصبر في تكميل الغير، بينما تمثل النماذج الأخرى الصبر على تكميل النفس، حيث قال: "صبر أولي العزم من الرسل ﷺ وهذه نماذج أخرى للصبر أحسب أنها في نوعها أعلى من كل النماذج السابقة، لأنها تمثل الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ﷻ؛ وما تكلفه أصحابها من تضحيات وأخطار؛ وهو صبر على تكميل الغير؛ وما قبله صبر على تكميل النفس^{٧٤٥}".

بناءً عليه، فإن التربية بالمجاهدة والتعود والصبر في هذا المجال ليست مجرد تكليف شرعي، بل هي منهج حياة، يجمع بين تهذيب النفس وإصلاح الغير، وهو ما به تستقيم المجتمعات وتُصان القيم.

ثانياً: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على تربية أفراد المجتمع بالمجاهدة والتعود والصبر
لقد واجه أولي العزم من الرسل ﷺ أنواعاً متعددة من الأذى والبلاء، بدءاً من الرفض القاسي، مروراً بالاضطهاد والتعذيب، وصولاً إلى محاربة دعواتهم بكل الوسائل، ورغم كل هذه المحن، ظلوا صابرين ثابتين على رسالتهم، هذا الصبر يعد من أهم صفات هؤلاء الرسل ﷺ، وقد علم الله ﷻ سيدنا محمد ﷺ أن يتأسى بهم في صبره، ليكون ذلك درساً للأمم في مواجهة الصعاب والابتلاءات؛ قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^{٧٤٦}. وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

^{٧٤٤} عبد المجيد الغيلي، كيف يرمج القرآن الحياة، ٢٩٢.

^{٧٤٥} يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط ٣، ١٩٨٩)، ٧٣.

^{٧٤٦} القرآن الكريم: سورة الأحقاف ٤٦: ٣٥.

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ^{٧٤٧}. هذه الآية تؤكد على استمرار الدعوة الدينية على مر العصور من خلال هؤلاء الأنبياء من الرسل ﷺ، حيث كانوا يشتركون في دعوة واحدة هي إقامة الدين وعدم التفريق فيه^{٧٤٨}.

يظهر الصبر والعزم الذي تحلى به نوح ﷺ في دعوته، على الرغم من استمرار إعراض قومه وعنادهم؛ وقد عبر نوح ﷺ عن معاناته مع قومه في دعوته لهم، في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا • فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا • وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾^{٧٤٩}. ثم قدم نوح ﷺ لهم الدعوة والتربية بكل الوسائل الممكنة بالمجاهدة والعادة، ولكنهم كانوا مصرين على رفضها؛ هذا الموقف يعكس قسوة النفوس التي لا تقبل التغيير أو الهداية، ويبين لنا كيف أن الدعوة والتربية لا تعتمد فقط على الوسائل المتنوعة، بل على استعداد القلوب للقبول والتجاوب مع الحق؛ وكان موقف قوم نوح ﷺ يتمثل في إصرارهم على رفض دعوته، فهم كانوا يغلقون آذانهم بأصابعهم حتى لا يسمعون كلماته، ويغطون أنفسهم بثيابهم لئلا يروه أو يبصروا نور رسالته. هذا كان نوعاً من الاستكبار والإصرار على الجحود. ثم قال نوح ﷺ في محاولاته المستمرة: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا • ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا • فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا • يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا • وَيمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾^{٧٥٠}. على الرغم من تنوع وسائل وأساليب الدعوة، فقد استمر قوم نوح ﷺ في رفضهم، وأصروا على كفرهم، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَى لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَاذِبِينَ﴾^{٧٥١}. كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾^{٧٥٢}. وعلى مر الأجيال والقرون، استمر إعراضهم عن دعوته، حتى أصبح من الصعب تغيير طبائعهم؛ وبعد سنوات

^{٧٤٧} القرآن الكريم: سورة الشورى ٤٢: ١٣.

^{٧٤٨} يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، ٧٥.

^{٧٤٩} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ٥-٧.

^{٧٥٠} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ٨-١٢.

^{٧٥١} القرآن الكريم: سورة هود ١١: ٢٧.

^{٧٥٢} القرآن الكريم: سورة المؤمنون ٢٣: ٢٥.

طويلة من المعاناة، وصل نوح إلى مرحلة من اليأس الذي دفعه إلى الدعاء لله قائلاً: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا • إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّارًا﴾^{٧٥٣}.

ويتضح مدى صبر إبراهيم عليه السلام في مواجهة الصعاب والمحن التي تعرض لها من أقرب الناس إليه، وهو أبيه وقومه. ورغم ما واجهه من تهديدات وإيذاء، ظل ثابتاً على مبدئه في الدعوة إلى التوحيد؛ وكان سلوكه عليه السلام مع أبيه يتسم باللطف والإحسان، حتى في أشد اللحظات قسوة؛ وكما يظهر في هذه القصة أن الله ﷻ كان دائماً مع عباده الصابرين الذين يخلصون في دعوتهم ولا يلتفتون إلى التهديدات أو المحن؛ وتحلى عليه السلام بالصبر العظيم في دعوته لأبيه وقومه إلى التوحيد؛ فقد كانت دعوته قائمة على اللطف واللين، ولكنه كان يواجه معارضة شديدة من قومه، لاسيما من أبيه؛ حين قال له: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ، لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾^{٧٥٤}. لكن إبراهيم عليه السلام لم ييأس، بل أجاب بأدب وحكمة قائلاً: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا • وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾^{٧٥٥}. هكذا كان إبراهيم عليه السلام، يتحلى بالرفق، حتى مع أقرب الناس إليه، ويترك أمره إلى الله ﷻ. ثم استمر إبراهيم عليه السلام في دعوته رغم استمرار الضلال عند قومه إلى أن جاء الوقت الذي قام فيه بتحطيم الأصنام وتكسير الآلهة، فعلم القوم أنه كان هو من فعل ذلك؛ فاجتمعوا على الانتقام منه، وأجمعوا على أن يحرقوه بالنار عقاباً له؛ فحاولوا إشعال النار بأقصى قوة، وأمدوها بالوقود ليجعلوها أداة انتقام لتدمير إبراهيم عليه السلام؛ وألقوه في النار، لكن إبراهيم عليه السلام لم يجرع ولم يهرب ولم يلتجئ إلى أحد سوى الله ﷻ؛ بل كان لسانه يردد دائماً ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾^{٧٥٦}، في تلك اللحظة، تولى الله ﷻ الدفاع عن خليله عليه السلام، فلم يتركه في مواجهة هذه النار، بل أمرها أن تكون باردة

^{٧٥٣} القرآن الكريم: سورة نوح ٧١: ٢٦-٢٧.

^{٧٥٤} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٤٦.

^{٧٥٥} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٤٧-٤٨.

^{٧٥٦} القرآن الكريم: سورة الزمر ٣٩: ٣٨.

وسلامًا على إبراهيم عليه السلام، وقال لها: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^{٧٥٧}، فكانت النار كما أراد الله، وبطلت بذلك محاولات أعداء الله في إلحاق الأذى به^{٧٥٨}.

ويبرز العديد من مواقف الصبر التي تحلى بها موسى عليه السلام في مواجهة التحديات الصعبة، سواء من فرعون أو من بني إسرائيل؛ ويظهر النص الشرعي كيف أن الصبر على الأذى من قومه كان أحد أشد أنواع البلاء الذي واجهه موسى عليه السلام، حيث كان يتعرض لتمردهم المتواصل وتخليهم عن دعوته، لكنه ظل ثابتًا؛ وهذا الصبر العجيب يعكس الدروس العميقة التي تعلمها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والذي كان في موقف مشابه عندما صبر على أذى قومه. لقد وُلد موسى عليه السلام في وقت كان الرعب يسود مصر، فقد فرض فرعون على قومه العذاب والخوف؛ أُوحي إلى أم موسى بأن تضعه في اليم إذا خافت عليه، وكان القدر أن يلتقط موسى عليه السلام من قبل أعداء الله صلى الله عليه وسلم، وأن يُقتل عن طريق الخطأ؛ ثم عاش موسى عليه السلام في الغربة لمدة عشر سنوات بعيداً عن قومه وأهله^{٧٥٩}؛ وعندما بعثه الله ليواجه فرعون، كان عليه أن يواجه جبروت فرعون وهامان وجنودهما؛ وعندما بدأ موسى عليه السلام في دعوته لفرعون، كان الرد من فرعون مليئاً بالتهديدات والعدوان؛ وقال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ • وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^{٧٦٠}. ورغم أن موسى عليه السلام كان يدعو فرعون إلى توحيد الله ورفض عبادة الأوثان؛ وكان رد فرعون عنيفاً، حيث كان يقول للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾^{٧٦١}، وأعلن أنه لا يعرف إلهاً غيره. ثم بدأ فرعون في تهديد موسى بالقتل أو السجن، وقال: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^{٧٦٢}، وأيضاً هدد بقتل المؤمنين الذين تبعوا موسى عليه السلام ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَيَدْعُ رَبَّهُ﴾^{٧٦٣}. ورغم هذه التهديدات والإهانات، ظل موسى عليه السلام

^{٧٥٧} القرآن الكريم: سورة الأنبياء ٢١: ٦٩.

^{٧٥٨} يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، ٧٦.

^{٧٥٩} القرضاوي، الصبر في القرآن، ٧٧.

^{٧٦٠} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ١٩.

^{٧٦١} القرآن الكريم: سورة النازعات ٧٩: ٢٤.

^{٧٦٢} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٢٩.

^{٧٦٣} القرآن الكريم: سورة غافر ٤٠: ٢٦.

صابراً على ما يوجهه، وكان دائماً يوجه قومه إلى الصبر والاعتماد على الله ﷻ، وقد تواصلت محن موسى ﷺ مع بني إسرائيل، الذين كانوا يعانون من كثرة التمرد والعصيان. على سبيل المثال: عندما عبروا البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وجنوده، عثروا على قوم يعبدون الأصنام، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً مثلهم، فقال لهم موسى ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^{٧٦٤}. وعندما أمرهم الله بذبح بقرة، قابلوهم بالتهكم والسخرية: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾^{٧٦٥}. وعندما غادر موسى ﷺ للقاء ربه على الجبل، صنع السامري عجلاً من الحلي وعبدته قومه. وكانت المواقف الصعبة تتوالى، حتى عندما أمرهم موسى ﷺ بدخول الأرض المقدسة، تراجعوا وقالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾^{٧٦٦}. وعندما جادلوا في مطالبهم للأطعمة في التيه، رفضوا المن والسلوى الذي أنزله الله عليهم وطلبوا طعاماً آخر: ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾^{٧٦٧}. رغم كثرة أذى بني إسرائيل، لم يتوقف موسى ﷺ عن الدعوة والصبر؛ وكان دائماً يتوجه إلى الله مستعيناً به على ما يلقاه من قومه. وفي أحد المواقف، عندما وجد موسى ﷺ نفسه وحيداً في مواجهة هذا الشعب الصلب، دعا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^{٧٦٨}. لقد صبر موسى ﷺ في هذه المواقف الشديدة كان ملهما للنبي محمد ﷺ، الذي كان يواجه بدوره أذى قومه^{٧٦٩}. فقد ذكر في الحديث الشريف، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ تأثر بما لقيه موسى ﷺ من قومه، وكان يذكر صبره في مواجهة الأذى ثم قال: «رحم الله موسى، قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر»^{٧٧٠}.

ويسلط الضوء على الصبر الذي تحلى به عيسى عليه السلام، والذي يعتبر من أصعب أنواع الصبر، بسبب الكيد والتآمر الذي لاقاه من قومه؛ كما يظهر النص كيف أن هذا الصبر كان

^{٧٦٤} القرآن الكريم: سورة الأعراف ٧: ١٣٨.

^{٧٦٥} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ٦٧.

^{٧٦٦} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ٢٤.

^{٧٦٧} القرآن الكريم: سورة البقرة ٢: ٦١.

^{٧٦٨} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ٢٥.

^{٧٦٩} يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، ٨٤.

^{٧٧٠} البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي باب غزوة الطائف، ٥: ١٥٩، (٤٣٣٦).

مشتركًا بين جميع الرسل ﷺ الذين أمروا بتحمل آلام الدعوة، في وقت كان قومهم يقاومون الحق بتعنت؛ من خلال القرآن والسنة، نجد أن الله قد أمر نبيه محمد ﷺ بالصبر على ما يوجهه من قومه، ليكون صبره مشابهاً لصبر أولي العزم من الرسل ﷺ، مما يذكرنا بأهمية الثبات على الدعوة مهما كانت التحديات. لقد بعث الله المسيح عيسى ابن مريم ﷺ إلى خراف بني إسرائيل الضالة، كما وصف نفسه في الإنجيل^{٧٧١}. وقد واجه عيسى ﷺ ما واجه أخوه موسى ﷺ وكان عيسى ﷺ وعظهم بأبلغ المواعظ، وضرب لهم أروع الأمثال، ولكنهم قابلوا دعوته بالإنكار والجحود؛ ورغم هذه المكائد، أحبط مكرهم بقدرة الله، إذ قرروا قتله وصلبه، لكن الله نجاه من شرهم، وسجل القرآن هذا الحدث ليكون شهادة على كذبهم وفسادهم؛ قال تعالى: ﴿وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا • وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾،^{٧٧٢}.

إن هؤلاء الرسل ﷺ الصبارة على البلاء كنوح ﷺ، وإبراهيم ﷺ، وموسى ﷺ، وعيسى ﷺ وقد واجهوا من أقوامهم أشد الأذى والتعنت، ولكنهم صبروا على ما لاقوه من مكروه، وثبتوا على دعوتهم ورؤيتهم للحق. لم يجزعوا، ولم يياسوا، بل ظلوا متمسكين برسالتهم حتى حكم الله بينهم وبين أعدائهم بالحق، فأنقذ الله رسله والمؤمنين معهم، وجعل خصومهم هم الخاسرين. وقد جعل الوحي من تجارب هؤلاء الرسل ﷺ مرجعاً وثروة للرسول ﷺ، ليكون ذلك زاداً له في مواصلة دعوته العظيمة التي ليست مقصورة على شعب أو جيل معين، بل هي دعوة للناس كافة إلى يوم القيامة. وعليه، أمر الله نبيه بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﷺ، ليظفر كما ظفروا في النهاية؛ وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ حدثها بعد صيام طويل صامه، ثم قال: «يا عائشة! إن الدنيا لا ينبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة! إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها، والصبر على محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم؛ فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾»^{٧٧٣}، وإني والله لأصبرن كما

^{٧٧١} انظر: القضاوي، الصبر في القرآن، ٨٩.

^{٧٧٢} القرآن الكريم: سورة النساء ٤: ١٥٧-١٥٨.

^{٧٧٣} القرآن الكريم: سورة الأحقاف ٤٦: ٣٥.

صبروا جهدي، ولا قوة إلا بالله»^{٧٧٤}. ولقد صبر رسول الله ﷺ، كما أمره ربه، وكان من أولى العزم ﷺ، بل إمامهم، فهو سيد الصابرين والشاكرين ونحن على ذلك من الشاهدين.

المطلب الرابع: التربية بالعزلة والبراءة عند أولى العزم من الرسل ﷺ

يتناول هذا المطلب مسألتين رئيسيتين: المسألة الأولى: بيان مفهوم التربية بأسلوب العزلة والبراءة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، من حيث التأصيل الشرعي والدلالات التربوية لهذا الأسلوب. المسألة الثانية: عرض نماذج من العادات التربوية الصالحة التي تجلّت في تطبيق أولى العزم من الرسل ﷺ لهذا الأسلوب، في مواجهة مظاهر المعصية والكفر والظلم، كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

المسألة الأولى: مفهوم التربية بالعزلة والبراءة

العزلة والبراءة الاجتماعية تُعرّف بأنها انقطاع الإنسان عن مخالطة الناس، وامتناعه عن التحدّث أو الجلوس معهم^{٧٧٥}. وقد أشار الغزالي في كلماته إلى أهمية اختيار المجلس الصالح الذي يُذكّر الإنسان بالله بسيرته وأفعاله، فقال: "فإن وجدت مجلساً يذكرك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن، وتحقق أن المجلس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من المجلس السوء"^{٧٧٦}.

وموقف الإسلام من العزلة والبراءة، أنه يشجّع على المخالطة الإيجابية مع الناس، وخاصةً صلة الأرحام، واعتبر ذلك عبادة عظيمة وأمرًا واجباً على المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ وَيُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^{٧٧٧}. ولذا، لا يرفض الإسلام العزلة تماماً ولا يُجيزها في كل حال، بل يوازن بين فضيلة المخالطة الإيجابية وضرورة الانعزال أحياناً للعبادة أو الابتعاد عن الفتن؛ جاء في الحديث عن ابن عمر

^{٧٧٤} انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤: ١٧٢. خلاصة حكم الحديث: ضعيف.

^{٧٧٥} انظر: الجرجاني، التعريفات، ١٥٠.

^{٧٧٦} انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ٢: ٢٣٢.

^{٧٧٧} القرآن الكريم: سورة الرعد ١٣: ٢١.

ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»^{٧٧٨}. فهذا الحديث يُبرز أهمية التفاعل الاجتماعي والقدرة على تحمّل الأذى في سبيل الإصلاح، ولكن لا يمنع المسلم عن العزلة عند ظهور الفتن أو انتشار المعاصي، بحيث يخشى المسلم على دين^{٧٧٩}.

تُعَرَّف التربية بوسيلة العزلة والبراءة في هذا البحث بأنها منهج تربوي يهدف إلى حماية الفرد المسلم من المؤثرات السلبية المحيطة به، سواء كانت اجتماعية أو فكرية أو سلوكية، من خلال الخلوة مع النفس لمحاسبتها ولتركيبتها، وتعزيز الصلة بالله تعالى، أو التفرغ للعبادة والطاعات، والابتعاد عن الفتن والمعاصي، وتجنب الأماكن والبيئات الفاسدة، وذلك لإعداد الفرد ليكون قادراً على المشاركة الإيجابية.

المسألة الثانية: نماذج من العادات الصالحة في أسلوب التربية بالعزلة والبراءة عند أولي العزم من الرسل ﷺ

سيتناول هذا المحور مسألتين رئيسيتين، وهما: أولاً: مفهوم التربية بالعزلة والبراءة في مجالات المعاصي والكفر والظلم في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية. ثانياً: مداومة أولي العزم من الرسل ﷺ على تربية أفراد المجتمع بأسلوب العزلة والبراءة، من خلال دعواتهم الإصلاحية، في الوقاية من المعاصي والكفر والظلم.

أولاً: التربية بالعزلة والبراءة في مجالات المعاصي والكفر والظلم

يُعدّ مفهوم التربية بالعزلة والبراءة من الوسائل التربوية العميقة التي يُراد بها بناء الوعي العقدي والسلوكي للفرد المسلم؛ إذ تقوم هذه التربية على مبدأ مفاصلة الباطل، والتميّز عن أهله، مع الثبات على الحق وأهله. وهذه المفاصلة لا تكون انطواءً ولا اعتزالاً سلبياً، بل تُعدّ أسلوباً من

^{٧٧٨} ابن ماجه، السنن، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢: ١٣٣٨، (٤٠٣٢). خلاصة حكم الحديث: قال المحقق: حديث صحيح.

^{٧٧٩} مظهر الدين الزيداني، المفاتيح في شرح المصابيح، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، (الكويت: دار النوادر، ٢٠١٢)، ٢٠٦.

أساليب التربية الوقائية والعقدية، ترمي إلى حفظ العقيدة من التأثير بالمعاصي والكفر والظلم، من خلال بناء شخصية متماسكة تعرف حدود الولاء والبراء وتوازن بين الانعزال البناء والمخالطة الواعية.

وقد جاء التأصيل لهذا المفهوم جلياً في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فأمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بالخروج من قومه، لما تمادوا في الشرك والظلم، فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^{٧٨٠}، فكانت هذه العزلة التربوية موقفاً عقدياً عظيماً، تتجلى فيه البراءة من الكفر والظلم، والإعراض عن البيئة الفاسدة التي لا تُهيئ للإيمان سبيلاً^{٧٨١}. كما يتجلى هذا المعنى في هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وهي عزلة مكانية حملت أبعاداً تربوية كبرى؛ من أبرزها تأسيس مجتمع نظيف من رواسب الجاهلية، وتحرير الإنسان من الضغوط الفكرية والاجتماعية الفاسدة، وتوفير بيئة صالحة للتمكين للدين. قال ابن القيم في ذلك: "كانت الهجرة فراراً إلى الله وإلى رسوله، وفراراً من الفتنة في الدين"^{٧٨٢}.

وتُعَدُّ التربية بالعزلة أحد مظاهر البراءة العملية، التي لا تقتصر على مجرد المفاصلة القلبية، بل تتجسّد في مواقف وسلوكيات واقعية؛ كترك المجالس التي يُعصى فيها الله، والانقطاع عن المظاهر المجتمعية المنحرفة، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾^{٧٨٣}، وهذا دليل على أن التربية بالعزلة لا تهدف إلى القطيعة العامة، بل هي موقف تربوي يُتخذ عند الحاجة صيانةً للدين والفكر^{٧٨٤}. وفي السنة النبوية، جاء الحديث عن فضيلة اعتزال الفتن والمعاصي، كما في قوله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»^{٧٨٥}. فهذا الحديث يُشير إلى بُعد تربوي عميق، حيث العزلة وسيلة لحفظ الدين حال استحكام الفتن وانتشار المعاصي.

^{٧٨٠} القرآن الكريم: سورة مريم ١٩: ٤٨.

^{٧٨١} انظر: الزمخشري، الكشاف، ٢: ٦٩٤.

^{٧٨٢} ابن القيم، زاد المعاد، ٣: ٥٨.

^{٧٨٣} القرآن الكريم: سورة النساء ٤: ١٤٠.

^{٧٨٤} انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١٠: ٨٥.

^{٧٨٥} البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، ب باب التعرب في الفتنة، ٩: ٥٣ (٧٠٨٨).

وتُشير كتب التربية الإسلامية إلى أن التربية بالعزلة لا تُفهم على أنها انزواء دائم، بل هي موقف مرحلي لحماية النفس من التأثير بالمجتمعات الفاسدة. وقد ذكر الطنطاوي أن "من الحكمة أحياناً أن يعزل المرء نفسه أو أبناءه عن بعض المؤثرات الاجتماعية، ريثما يتم بناء التصورات الصحيحة"^{٧٨٦}.

ويُلاحظ أن مفهوم البراءة والعزلة في التربية العقديّة ينبني على أصل عقدي عظيم هو "الولاء والبراء"، كما بيّن ابن تيمية حين قال: "المؤمن مأمورٌ بمعاداة الكفار والمنافقين بحسب الإمكان، لا بمجرد القلب فقط، بل بالقول والعمل أيضاً عند الحاجة"^{٧٨٧}. فحين تتعدّر الدعوة أو يكون الخوف على النفس من الفتنة في الدين، تكون العزلة التربوية سبيلاً لحفظ الثوابت العقدية.

وعلى هذا الأساس، فإن التربية بالعزلة والبراءة تُعدّ وسيلة تربوية نبيلة، تستند إلى النصوص الشرعيّة، وتهدف إلى تنقية الفرد من التأثير بأجواء المعصية، وتربطه بالله في عزلة قلبية وسلوكية واعية، تحقّق له الثبات والاستقامة في زمن الغربة، كما قال النبي ﷺ: «فطوبى للغرباء»^{٧٨٨}.

ثانياً: مداومة أُولي العزم من الرسل ﷺ على تربية أفراد المجتمع بالعزلة والبراءة
لقد كان من أساسيات منهج أُولي العزم من الرسل ﷺ في الوقاية من الانحراف العقدي عن الطريق الصحيح للإيمان بالله، اعلانهم التبرؤ من مظاهر الشرك، وأعمال الكافرين، لينشأ الإنسان نشأة دينية صحيحة، بعيدة عن كل ما يناهض هذه العقيدة الصافية، فهي تحمي الناس من الانجرار وراء هذه الأعمال التي تصيب الإنسان في إيمانه، أو تقضي على بواردها عند بداية ظهورها. كما كان الشافعي يحث من أحبّ أن يفتح الله قلبه ويرزقه الحكمة فعليه

^{٧٨٦} انظر: الطنطاوي، منهج التربية الإسلامية، ١: ١٤٢.

^{٧٨٧} ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨: ٢٠٩.

^{٧٨٨} مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وإنه يأرز بين المسجدين، ١: ١٣٠ (١٤٥).

بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب^{٧٨٩}.

إن الإنسان لا يستقيم إيمانه إلا بالبراءة من الكفر فهذا نبي الله سيدنا نوح عليه السلام، يعلن في مواجهة قومه الذين كفروا واستكبروا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^{٧٩٠}، ثم يعلن بعد ذلك براءته صراحة من إجرام قومه وما يكتسبونه من الذنوب من الكفر والتكذيب، فيقول كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾^{٧٩١}، إنه مشهد عظيم يتجسد فيه ولاء سيدنا نوح عليه السلام لربه، وإعلان براءته مما يكتسبه قومه من المعاصي والتكذيب والكفر.

ثم يأتي سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ ليؤكد أيضاً في مواجهة قومه، أن الرابطة الوحيدة التي يلتزم بها هي رابطة الإيمان بالله ﷻ، وما عدا ذلك من الروابط فلا قيمة لها، وحبها كلها مقطوعة، وهو برئ من كل ما عبد من دون الله، قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^{٧٩٢}، إنه إعلان للبراءة من الكفر ومعاداته، وليس المراد أننا نعادي كل من يخالفنا في الدين، وإن لم يقاتلنا فيه، ولم يخرجنا من الديار، ولم يظاهر الناس على إخراجنا، ولو كان ذلك هو المراد الناقض القرآن بعضه بعضاً، ولكان ذلك العمل مخالفاً للحكمة والمنطق، ومخالفة لسيرة رسول الله ﷺ العملية، وسيرة خلفائه الراشدين رضي الله عنهم، للتأسي بنبي الله إبراهيم عليه السلام في كراهة المشركين وإعلان عداوتهم وبغضهم لم يكن لحجر شركهم، بل لدفاعهم عن الشرك، وإيذاء أنصار التوحيد، وفتنة الناس في عقائدهم حتى لا يكونوا آمنين على

^{٧٨٩} أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، مناقب الشافعي، المحقق: السيد أحمد صقر، (القاهرة: مكتبة دار التراث، ١٩٧٠)، ٢٢.

^{٧٩٠} القرآن الكريم: سورة يونس ١٠: ٧٢.

^{٧٩١} القرآن الكريم: سورة هود ١١: ٣٥.

^{٧٩٢} القرآن الكريم: سورة الممتحنة ٦٠: ٤.

دينهم، أما الشرك الذي لا يحارب توحيداً، ولا يصد أصحابه عن الإيمان، ولا يعرضون لهم بشيء من الأذى فلا معنى لعداوة أصحابه ومحاربتهم^{٧٩٣}. وفي موضع آخر من القرآن الكريم يصرح سيدنا إبراهيم ﷺ بالبراءة من الشرك في قوة ووضوح، وذلك حينما سلك قومه طريقاً آخر غير طريق الاستقامة والهداية، فبين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة الكواكب والأصنام فقال معلنا براءته الحاسمة من شركهم وضلالهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^{٧٩٤}، ثم أعلن ولاءه المطلق لله الذي فطر السموات والأرض فقال: ﴿إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^{٧٩٥}، وبذلك يكون قد أعلن أساس منهجه بتبرأته من كل الآلهة الباطلة وعداوته للشرك، قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ • أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ • فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^{٧٩٦}، إنه جعل البراءة من الشرك باقية في ذريته، يتوصى بها النبيون والمرسلون ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ • وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^{٧٩٧}، أي: جعل البراءة من الشرك ونزعاته وتقاليده والاعتصام بالتوحيد الخالص كلمة باقية في عقبه يدعوا إليها النبيون والمرسلون منهم^{٧٩٨}، لعل الكفرة من قومه يرجعون تائبين إلى الله ﷻ مؤمنين به فيعبدونه ولا يشركون به شيئاً وبذلك يظهر المنهج الوقائي في التبرئة من كل صور الكفر وما يفضي إليه.

ويسير سيدنا موسى ﷺ على منهج من سبقه من الأنبياء والرسل ﷺ فيتبرأ من صنيع الكافرين الباطل، وذلك بعد أن رفض بنو إسرائيل الجهاد ودخول الأرض المقدسة التي أمرهم الله بدخولها لتحقيق النصر لهم، وبعد أن نكلوا عن طاعة الله ورسوله فأعلن البراءة من ذلك، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

^{٧٩٣} العدوي، دعوة الرسل إلى الله تعالى، ٦٣.

^{٧٩٤} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ٧٨

^{٧٩٥} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ٧٩.

^{٧٩٦} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٧٥-٧٧.

^{٧٩٧} القرآن الكريم: سورة الزخرف ٤٣: ٢٦ - ٢٨.

^{٧٩٨} محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٥: ٣٥٧.

فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا فَاعِدُونَ ﴿٧٩٩﴾، لقد شعر سيدنا موسى ﷺ بأن هذا الجيل لا خير فيه، ولم تنفع معه كل أساليب التربية والتوجيه، فبتبراً من صنيعهم، ودعا الله أن يفرق بينه وأخيه وبينهم لأن هذه البراءة من لوازم تحقيق الإيمان بالله فالظالم اذا شعر ببعد الناس عنه رجع عن ظلمه غالباً. ومن خلال دعوة سيدنا موسى ﷺ ضرب الله لنا مثلاً عالياً في الإيمان بالله ﷻ والبراءة من الكفر من قبل امرأة فرعون التي كانت تعيش مع عدو من أعداء الله وطاغية من أعتي الطغاة في الأرض وهو فرعون، فلم يضرها كفره، وطلبت من رها النجاة منه وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله الضال شيء، وهو ألصق الناس بها، وتبرأت كذلك من قوم فرعون وهي تعيش بين أظهرهم، واعتبرت ما صنعه فرعون وقومه شراً محضاً لا خير فيه، ولا هدي، فتبرأت من ذلك كله، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^{٨٠٠}، كل ذلك من أجل تمسكها بالإيمان، وبراءتها من الكفر، وهذا هو الدور الوقائي الإيمان المتمثل في إعلان التبرؤ من الكفر وعمله فكانت النتيجة أن أراها الله لبيتها في الجنة وجعل الله إيمان آسية مثلاً يضربه للمؤمنين الذين تنكشف أمام بصائرهم الحقائق، فيتمسكون بها، ولا تغرهم الدنيا، ولا يلعب بعقولهم ابليس وجنوده^{٨٠١}.

وسيدنا عيسى ﷺ يعلن هو أيضاً براءته مما نسبته إليه، قومه من ألوهيته وأمه، وذلك كما يصور ذلك القرآن الكريم هذا اليوم الذي يكشف فيه مشهد من مشاهد يوم القيامة، شيء علي مرأي ومسمع من الناس جميعاً، فيسأله الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْلِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ • مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى

^{٧٩٩} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥ : ٢٤.

^{٨٠٠} القرآن الكريم: سورة التحريم ٦٦ : ١١.

^{٨٠١} غلوش، دعوة الرسل ﷺ، ٣١٤.

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ^{٨٠٢}. لقد تلقى سيدنا محمد ﷺ توجيهات من ربه، بأن يعلن البراءة من الشرك، وعبادة الأنداد من دون الله ومن كل عمل من شأنه يفضي إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾^{٨٠٣}، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةٌ قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَنُشْهِدُنَّ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^{٨٠٤}، وغير ذلك من الآيات التي تأمر النبي ﷺ بإعلان البراءة من كل مظاهر الشرك وعمل الكافرين، حتى جعل النبي ﷺ هذه التوجيهات واقعاً ملموساً، فتنبراً من الشرك وكل ما يعبد من دون الله؛ ثم أمر من أخذ مضجعه للنوم أن يقرأ سورة الكافرون لأنها إعلان بالبراءة من الشرك، وهذا هو عين التوحيد، فمن قرأها عن اعتقاد صحيح فقد برئ من الشرك، وهذا منهج دعوي تربوي من النبي ﷺ لأمته حتى لا يضلوا الطريق، فعن فروة بن نوفل^{٨٠٥} عن أبيه أنه قال لرسول الله ﷺ: جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «إذا أخذت مضجعتك من النوم، فاقراً: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾»^{٨٠٦}، ثم نم علي خاتمتها، فإنها براءة من الشرك^{٨٠٧}. والمراد: أنها تبرئ قائلها من الشرك، لأنها اشتملت علي نفي عبادة ما يعبده المشركون بأبلغ عبارة وأوفي تأكيد، فإنه نفى عبادته لما يعبدونه بالجملة الفعلية المضارعية، ليفيد الحال والاستقبال، فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ أي: في الحال والاستقبال، ثم نفاه

^{٨٠٢} القرآن الكريم: سورة المائدة ٥: ١١٦-١١٧.

^{٨٠٣} القرآن الكريم: سورة الشعراء ٢٦: ٢١٦.

^{٨٠٤} القرآن الكريم: سورة الأنعام ٦: ١٩.

^{٨٠٥} يرى ابن حجر أن حال فروة بن نوفل الأشجعي الكوفي مختلف فيه، فقد أورده ابن حبان في الصحابة لكنه توقف في ثبوت صحبته، قائلًا: "يقال: إن له صحبة"، بينما نفى أبو حاتم ذلك، وقال أبو حاتم: "ليست له صحبة، وإنما الصحبة لأبيه"، وقال المزرياني في "معجم الشعراء": كان رئيس السراة، وأنشد له شعراً في ذلك. انظر: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ٥: ٣٠٣.

^{٨٠٦} القرآن الكريم: سورة الكافرون ١٠٩: ١.

^{٨٠٧} أبو داود، السنن، المحقق: شعيب الأرناؤوط، كتاب الأدب، باب ما يقال عند النوم، ٧: ٣٩٥، (٥٠٥٥)؛ وقال المحقق: حديث حسن.

بالجملة الاسمية لما عبده فيما مضى، فقال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾^{٨٠٨}، كما نفى عبادتهم لما يعبد به بالجملة الاسمية في الطرفين، ما يعبدونه في الحال والاستقبال^{٨٠٩}.

يتبين من خلال استقراء سيرة أولي العزم من الرسل ﷺ أن التربية بالعبادة والبراءة ليست موقفاً عابراً، بل منهجاً متكاملًا يهدف إلى حماية الفرد والمجتمع من مظاهر الانحراف، وذلك من خلال فصل المؤمن عن بيئة الفساد عقدياً وسلوكياً، وربطه بمنظومة القيم الإيمانية. وقد مثلت هذه العادة التربوية نمطاً من أنماط التصفية والتميز، الذي يُسهم في ترسيخ الهوية الإيمانية، وتعزيز الاستقامة، وبناء بيئة صالحة تنبذ الفساد وتقاوم الظلم والانحراف.

خلاصة المبحث الثالث:

يتبين من خلال هذا المبحث أنّ أولي العزم من الرسل ﷺ قد جسّدوا أسمى معاني القدوة التربوية في ترسيخ الآداب الاجتماعية، وذلك من خلال أساليب متعددة تمثّلت في التدرّج، والقدوة الحسنة، والمجاهدة، والعزلة والبراءة. وقد جاءت هذه الأساليب منسجمة مع الفطرة الإنسانية، ومواكبةً لمراحل النمو والتكوين، مستمدة من الوحي الإلهي، وهادفة إلى بناء الإنسان الصالح المصلح. وأنّ استقراء هذه النماذج في ضوء القرآن والسنة يكشف عن عمق البُعد التربوي في الرسائل السماوية، ويؤكد أهمية الاقتداء بالأنبياء في منهجية التربية الاجتماعية السليمة، التي تُسهم في بناء مجتمعات مؤمنة، متماسكة، قائمة على مبادئ الأخلاق والتزكية.

خلاصة الفصل الخامس:

إن التربية الاجتماعية الإسلامية باستخدام الوسائل والأساليب التربوية المتبعة ليست مسؤولية المربي وحده، بل هي واجب مشترك بين المربي والأسرة والمجتمع بأسره. وعندما يبلغ الإنسان سن الرشد، يصبح ملزماً شرعاً بمعرفة تعاليم الإسلام وأحكامه والالتزام بها، سواء وُجّه ودُعي

^{٨٠٨} القرآن الكريم: سورة الكافرون ١٠٩: ٤.

^{٨٠٩} محمد اسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير، المحقق محمد اسحاق محمد إبراهيم، (الرياض: مكتبة دار السلام، ٢٠١١)، ١: ٥١١.

إليها من قبل الآخرين أم لم يُدعَ، وسواء حصل على التربية من يجب عليهم تربيته أم لم يحصل عليها. ومع ذلك، فإن التعليم والتربية لا يمكن أن يكونا فعالين ما لم يُظهر المتلقي قبولاً واقتناعاً حقيقياً بهما؛ فالشخص الذي يرفض التفاعل مع جهود المربي لا يمكن أن يستفيد منها، مهما كانت نوايا المربي مخلصه وجهوده صادقة.

ومن هنا يتبين أن أهم وسائل وأساليب التربية الاجتماعية عند أولى العزم من الرسل ﷺ تتمثل في: التربية العقدية، والتربية الشرعية، والتربية على بناء العلاقات الاجتماعية، والتربية البيئية؛ أما الأساليب المهمة المتبعة فيها فتشمل: المجاهدة، والقُدوة الحسنة، والتدرج في التعليم والتأديب والدعوة، وإعلان البراءة والمفاصلة مع مظاهر الفساد والكفر.

وعلى الرغم من أن كل فرد مُلزم بتربية من هم تحت مسؤوليته، فإن هذه الجهود قد تصبح بلا جدوى إذا وُجّهت إلى أفراد أو مجتمع لا يتقبلها أو لا يقدرها، بل قد يقابلها البعض بالرفض والجحود. ولذلك، فإن البداية الحقيقية لأي عملية تغيير تنبع من داخل النفس البشرية، وليس من الظروف الخارجية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^{١١٠}. ولتحقيق التغيير داخل الأفراد والمجتمع الإسلامي، لا بد أن يبدأ الإصلاح من الداخل، أي من النفس وتقواها، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»^{١١١}. وبناءً على ذلك، فإن مسؤولية التربية الاجتماعية مسؤولية تشاركية، تستوجب جهداً متكاملًا بين المربي والمتربي والمجتمع، وبدون استعداد داخلي من الفرد لتحقيق هذا التغيير، تبقى الجهود غير مثمرة وغير فعّالة.

^{١١٠} القرآن الكريم: سورة الرعد ١٣: ١١.

^{١١١} مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ٤: ١٩٨٦، (٢٥٦٤).

الخاتمة

أولاً: النتائج

الحمد لله، خالق الوجود من العدم، وجاعل النور من الظلم، ومخرج الصبر من الألم، وملقي التوبة على الندم، فنشكره على المصائب كما نشكره على النعم، ونصلّي على رسوله الأكرم، ذي الشرف الأشم والنور الأتم، والكتاب المحكم، وكمال النبيين والخاتم، سيد ولد آدم وذريّة نوح عليه السلام، ودعا لبعثته إبراهيم عليه السلام حين كان يرفع قواعد بيت الحرام، والذي أخبر به عيسى ابن مريم عليه السلام، وعلى أتباعه خير الأمم، الذي بارك الله بهم كافة التّاس العرب منهم والعجم، وبعد:

فبفضل الله تعالى وتوفيقه، توصّل هذا البحث، من خلال الاستقراء والتحليل في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، إلى جملة من النتائج العلمية، يمكن إجمالها فيما يأتي:

١. تبين أن التربية الاجتماعية في المنهج الإسلامي ليست مجرد توجيهات أخلاقية جزئية، بل هي نسق تربوي متكامل يهدف إلى بناء الفرد داخل الجماعة، وضبط علاقاته الاجتماعية على أسس عقدية وقيمية، بما يحقق التوازن بين تركية النفس وإصلاح المجتمع، ويمنع الفصل بين البعد الإيماني والبعد السلوكي.
٢. أظهرت الدراسة أن مقاصد التربية الاجتماعية في القرآن الكريم والسنة النبوية تتجه أساساً إلى تحقيق العبودية لله تعالى، وبناء الإنسان الصالح المستخلف، وترسيخ معاني الوحدة والعدل والتكافل، وتحمل المسؤولية الفردية والجماعية، بما يضمن استقامة المجتمع وتماسكه.

٣. أظهر التحليل أن منهج أولي العزم من الرسل عليهم السلام يُعد التطبيق العملي الأرفع لمقاصد التربية الاجتماعية، إذ جمع بين تبليغ الرسالة، وتعليم الكتاب والحكمة، والتركية، والقدوة السلوكية. وقد أسهم هذا الجمع المتكامل في إحداث تغييرات تدريجية في قيم وعادات وبنية المجتمع، ولم يقتصر أثره على الفرد بمفرده.

٤. تبين أن تبليغ الرسالة في منهج أولي العزم من الرسل عليهم السلام لم يكن غاية مستقلة، بل مدخلاً تأسيسياً للتربية الاجتماعية، إذ ارتبط التبليغ بإعادة توجيه السلوك

الاجتماعي، وتقويم الانحرافات، وبناء جماعة مؤمنة منضبطة بمنظومة قيمية واضحة.

٥. أظهرت الدراسة أن معالم التربية الاجتماعية في المنهج النبوي تنسجم انسجاماً وثيقاً مع مقاصد الشريعة، ولا سيما حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وذلك من خلال ترسيخ القيم الإيمانية، وتعزيز الانضباط الأخلاقي، وبناء العلاقات الاجتماعية القائمة على التعاون والتكافل.

٦. كشفت الدراسة أن تهميش المرجعية النبوية في التربية الاجتماعية أو ضعف الأدب مع الأنبياء والرسل ﷺ ينعكس سلبياً على الواقع الاجتماعي، ويؤدي إلى انتشار مظاهر الظلم والفساد والجهل.

٧. تبين أن معالم التربية الاجتماعية في الإسلام مسؤولية تشاركية، تتكامل فيها أدوار الفرد والأسرة والمؤسسات والمجتمع بأسره، مع ضرورة توافر استعداد داخلي لدى الأفراد لتلقي التربية والاستجابة لمقاصدها، وإلا بقيت الجهود محدودة الأثر.

٨. أظهرت الدراسة أن معالم التربية الاجتماعية عند أولي العزم من الرسل ﷺ اتسمت بطابع تراكمي دائري، يبدأ بالوحي، ثم القدوة، ثم الممارسة السلوكية اليومية، فتنتج أدباً اجتماعياً وعادات صالحة، تعود بدورها إلى تعزيز الإيمان وترسيخ القيم داخل المجتمع.

٩. تبين أن من أبرز معالم التربية الاجتماعية في المنهج النبوي: ترسيخ التوحيد كأساس للعلاقات الاجتماعية، وبناء المسؤولية الفردية والجماعية، وتعزيز المفاصلة مع الفساد والانحراف، مع اعتماد التدرج، والمجاهدة، والحكمة في إحداث التغيير الاجتماعي.

١٠. أظهرت الدراسة أن المنهج التربوي الاجتماعي في الإسلام يتميز عن النماذج التربوية الوضعية المعاصرة بكونه يهدف إلى تكوين الإنسان العابد المستخلف، لا مجرد الفرد المنضبط قانونياً، وهو ما يمنحه قدرة أعمق على تحقيق الاستقرار الاجتماعي المستدام، ومعالجة الإشكالات التربوية والاجتماعية المعاصرة معالجة جذرية.

ثانيًا: توصيات البحث

يوصي الباحث بما يلي:

١. دعوة الباحثين في حقل التراث الإسلامي عموماً وآسيا خصوصاً للإهتمام بعلماء الإسلام وتقديم تراثهم العلمي إلى المشهد الأكاديمي حتى يتبن للناس جهودهم الحثيثة في الحقل المعرفي الإسلامي؛ ومزيداً من الأبحاث عن أولي العزم من الرسل ﷺ ومناهجهم؛ ثم إجراء دراسة مقارنة بين أبحاث الغربيين وغيرهم.
 ٢. دعوة المربين ليجتهدوا من بيان عن مفهوم التربية الاجتماعية وأهميتها في بناء الأفراد والمجتمع وفقاً لتعاليم الإسلام، بما يخالف النماذج التربوية التي تسعى لتكوين أفراد تابعين للدولة فحسب.
 ٣. دعوة القراء إلى الحرص على الأدب، وذلك لنشر الآداب الاجتماعية التي تعزز الأخوة الإسلامية، والتكافل، والتناصر، بما يساهم في بناء مجتمع قوي من أهل التوحيد، متماسك بالدين، مع الحذر من الاستهانة بالمعاصي والذنوب.
- نسأل الله ﷻ أن يبارك في هذا البحث، وأن يجعله نافعا لجميع طلبة العلم والمستفيدين من مرويّاته، مع القبول والإخلاص لوجهه الكريم، وأن يكون هذا العمل وسيلةً للتقرب إليه وإلى دار السلام، نافعا للباحثين والعباد الصالحين، وأن يُختتم بحسن الخاتمة. وما ورد فيه من صواب فهو من فضل الله ﷻ، وما تخلله من خطأ فهو من الباحث، واستغفر الله تعالى مما أخطأت فيه.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب العربية

القرآن الكريم

ابن أبي العز، صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد الحنفي الأذرعي الصالحي
الدمشقي. **شرح العقيدة الطحاوية**. تحقيق: أحمد شاكِر. السعودية: وزارة
الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٩٩٨.

ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد. **تفسير القرآن العظيم**. د.م: د.ن، د.ت.

ابن أبي شيبه، عبد الله بن محمد الكوفي. **المصنف في الأحاديث والآثار**. تحقيق: كمال
يوسف الحوت. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٩.

ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المظلي. **السير والمغازي**. تحقيق سهيل زكار.
بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨.

ابن الأثير، أبو السعادات المبارك. **النهاية في غريب الحديث والأثر**. بيروت: المكتبة العلمية،
١٩٨٠.

ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي. **زاد المسير في علم التفسير**. تحقيق: عبد
الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتب العربي، ٢٠٠٩.

ابن العربي، محمد بن عبد الله. **أحكام القرآن**. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.

ابن باديس، عبد الحميد. **الآثار**. تحقيق وتعليق: عمار الطالبي. بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٧.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. ط ٧. تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل. بيروت: دار عالم الكتب، ١٩٩٩.

_____ . الاستقامة. تحقيق: محمد رشاد سالم. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٣.

_____ . الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح. تحقيق: علي بن حسن وآخرون. الرياض: دار العاصمة، ١٩٩٤.

_____ . الحسبة في الإسلام. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

_____ . السياسة الشرعية. المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٩٩٨.

_____ . الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. دمشق: مكتبة دار البيان، ١٩٨٥.

_____ . درء تعارض العقل والنقل. تحقيق: محمد رشاد سالم. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٩١.

_____ . مجموع الفتاوى. الرياض: مجمع الملك فهد، د.ت.

_____ . مقدمة التفسير. ط ٣. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣.

_____ . الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: مكتبة دار التراث، د.ت.

_____ . جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية، تحقيق: محمد عزيز شمس. ط ٣. الرياض: دار عطاءات العلم، ٢٠١٩.

ابن حبان، محمد بن حبان البستي. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤.

_____. صحيح ابن حبان: المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع، تحقيق: محمد علي سونغز وآخرون. بيروت: دار ابن حزم، ٢٠١٢.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق علي محمد البجاوي. القاهرة: دار الجيل، ١٩٩٢.

_____. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ط٢. الهند: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٢.

_____. الغرائب الملتقطة من مسند الفردوس المسمى زهر الفردوس. تحقيق حسن علي ورسمه. دبي: جمعية دار البر، ٢٠١٠.

_____. فتح الباري شرح صحيح البخاري. ط٢. الرياض: مكتبة دار السلام، ٢٠٠٠.

ابن حمير، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي، تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حالة الأغبياء، تحقيق: محمد رضوان الداية. بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩٠.

ابن خلدون، عبد الرحمن محمد. المقدمة. تحقيق: عبد الله محمد الدرويش. دمشق: دار يعرب، ٢٠٠٤.

ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد. جامع العلوم والحكم. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١.

_____. فضل علم السلف على علم الخلف. تحقيق: بدر البدر. الكويت: دار ابن الجوزي، ١٩٩٤.

ابن سَيِّدَه، علي بن إسماعيل. **المخصّص**. تحقيق: خليل إبراهيم جفال. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٨.

ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**. ط ٩. تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤.

ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي. الرباط: وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٩٥.

_____. **جامع بيان العلم وفضله**. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. الرياض: دار ابن الجوزي، ١٩٩٤.

ابن عبد الفتاح، حسن عز الدين بن حسين. **معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن**. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

ابن عطية، عبد الحق بن غالب. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

ابن عقيل، عبد الله بن محمد. **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦.

ابن فارس، أحمد بن فارس. **مجلد اللغة**. تحقيق: زهير سلطان. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦.

ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم. **غريب القرآن**. تحقيق: أحمد صقر. مصر: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨.

_____. **تأويل مشكل القرآن**. القاهرة: دار التراث، د.ت.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**. بيروت: دار الجيل، ١٩٩١.

- _____ . الفوائد. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
- _____ . تحفة المودود بأحكام المولود. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤.
- _____ . زاد المعاد في هدي خير العباد. ط٢٧. الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ١٩٩٤.
- _____ . طريق المهجرتين وباب السعادتين. القاهرة: الدار السلفية، ١٩٧٥.
- _____ . مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٦.
- _____ . مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. تحقيق: محمد رشاد سالم. الرياض: مكتبة الرشد، ١٩٩٦.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٩٧.
- _____ . تفسير القرآن العظيم. ط٢. تحقيق: سامي بن محمد السلامة. الرياض: دار طيبة، ١٩٩٩.
- _____ . قصص الأنبياء. تحقيق مصطفى عبد الواحد. بيروت: دار الفكر، د.ت.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني. السنن. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. بيروت: دار صادر، ١٩٩٠.
- ابن نبي، مالك. مشكلات الحضارة: الظاهرة القرآنية. بيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٠.

_____ . مشكلات الحضارة: شروط النهضة. ترجمة عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦.

_____ . مشكلات الحضارة: ميلاد مجتمع، الجزء الأول: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، الجزائر: دار الفكر، ١٩٨٦.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري. السيرة النبوية. ط ٢. تحقيق: مصطفى السقا وآخرين. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥.

أبو جيب، سعدي. القاموس الفقهي: لغةً واصطلاحاً. ط ٢. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٨. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. البحر المحيط في التفسير. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣.

أبو سليمان، عبد الحميد. أزمة العقل المسلم. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١.

أبو منصور الديلمي. مسند الفردوس. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.

أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥.

أحمد بن حنبل الشيباني، أحمد بن محمد. مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون. بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١.

الأزرق، محمد بن عبد الله. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. ط ٣. تحقيق: رشدي الصالح ملحس. بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٣.

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد. تهذيب اللغة. تحقيق محمد عوض مرعب. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١.

الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. الإبانة عن أصول الديانة. تحقيق: صالح بن مقبل بن عبد الله العصيمي التميمي. الرياض: دار الفضيلة، ٢٠١١.

الأشقر، عمر سليمان عبد الله. صحيح القصص النبوي. عمان: دار النفائس، ١٩٩٧.

_____. الرسل والرسالات. عمان: دار النفائس، ١٩٩٨.

الأصفهاني، الراغب. المفردات في غريب القرآن. تحقيق: صفوان داوودي. دمشق: دار القلم، ٢٠٠٢.

الألباني، محمد ناصر الدين. إرواء الغليل في تخرج أحاديث منار السبيل. إشراف: زهير الشاويش. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥.

_____. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٩٥.

الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥.

_____. غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب. د.م : د.ن، د.ت.

_____. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية. دمشق: مؤسسة الخافقين، ١٩٨٢.

الأندلسي، عبد الحق بن غالب. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢.

الأنصاري، زكريا بن محمد. الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة. تحقيق: مازن المبارك. بيروت: دار الفكر المعاصر، د.ت.

أنيس، إبراهيم وآخرون. المعجم الوسيط. القاهرة: مجمع اللغة العربية، د.ت.

الباطنين، عبد الرحمن بن عبد الوهاب. مرجع الآباء في تربية الأبناء. د.م: د.ن، د.ت.

الباجي، سليمان بن خلف بن سعد. المنتقى شرح الموطأ. مصر: مطبعة السعادة، ١٩١٣.

البخاري، محمد بن إسماعيل. الأدب المفرد. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٩٦٠.

_____ الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. د.م: دار طوق النجاة، ٢٠٠١.

بدوي، أحمد زكي. معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (إنجليزي-فرنسي-عربي). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٥.

البغدادى، الخطيب. شرف أصحاب الحديث. تحقيق: أحمد بن فارس السلوم. الرياض: دار أضواء السلف، ٢٠٠٠.

البغوي، الحسين بن مسعود. معالم التنزيل في تفسير القرآن. تحقيق عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠.

البقاعي، إبراهيم بن عمر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت.

بلبول، عبد الباسط. القصص القرآني. القاهرة: دار الفتح للإعلام العربي، ١٩٨٠.

البوطي، محمد سعيد رمضان. فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة. بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٦.

البيانوني، محمد أبو الفتح، المدخل إلى علم الدعوة، د.م: د.ن، د.ت..

البيضاوي، عبد الله بن عمر. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. السنن الكبرى. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.

_____ . مناقب الشافعي. تحقيق السيد أحمد صقر. القاهرة: مكتبة دار التراث، ١٩٧٠.

_____ . الزهد الكبير. ط٢. الكويت: دار القلم، ١٩٨٣.

_____ . دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. تحقيق: عبد المعطي قلعجي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥.

الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع المختصر من السنن عن النبي ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل المعروف ب: جامع الترمذي أو السنن. تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض. القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٥.

_____ . الشمائل المحمدية. تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٧.

تلوت، جميلة. الأسرة في التصور القرآني. القاهرة: دار الشروق، د.ت.

الجابري، محمد عابد. فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول. الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ٢٠٠٩.

الجبر، بدر بن ناصر. كيف نشرت العربية؟: تجارب لأعلام من المختصين الناطقين بغيرها في آسيا وأستراليا وأمريكا. الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، ٢٠٢٣.

الجزائري، علي بن محمد بن علي الزين الشريف. التعريفات. تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.

الجزائري، أبو بكر جابر. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. ط٢. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ٢٠٠٣.

الجزائري، نصر الدين بن محمد بلقاسم. أساليب تربوية في ضوء السنة النبوية من خلال الكتب الستة ومسند الإمام أحمد. موريتانيا: دار الإسرائ، د.ت.

الجزائري، نصر الدين. أساليب تربوية في ضوء السنة النبوية من خلال الكتب الستة ومسند الإمام أحمد. موريتانيا: دار الإسرائ، د.ت.

الخصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي. أحكام القرآن،. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥.

الجليل، عبد العزيز بن ناصر. وقفات تربوية في ضوء القرآن. الرياض: دار طيبة، ٢٠٠٤.

جماعة من الباحثين. الموسوعة التفسيرية: موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. الرياض: مركز تفسير للدراسات القرآنية، ٢٠١٩.

جماعة من الباحثين. الموسوعة العقدية. إشراف علوي بن عبد القادر السقاف. الرياض: دار الإمام مسلم، ٢٠٠٠.

الجمال، جمال الدين محمد محمود. أصول المجتمع الإسلامي. القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٩٢.

الجنيد، عبد العزيز. المسؤولية التربوية وأسسها من الكتاب والسنة. الرياض: دار المسلم، ٢٠٠٢.

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٩.

الجيلاني، فضل الله. الأدب المفرد لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٩٥٩.

الحازمي، إبراهيم بن عبد الله. الشفاعة وبيان الذين يشفعون كما ورد في القرآن والسنة. الرياض: دار الشريف، ١٩٩٣.

الحازمي، خالد بن حامد. أصول التربية الإسلامية. بيروت: دار عالم الكتب، ٢٠١٠.

الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري. المستدرک علی الصحيحین. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.

الحامدي، عبد الكريم. مقاصد القرآن من تشريع الأحكام. بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٨.

الحسيني، غلوش. دعوة الرسل ﷺ. د.م: د.ن، د.ت.

الحقيل، سليمان بن عبد الرحمن. التربية الإسلامية: مفهوما ومصادرها وأسسها وأهدافها ومبادئها وأساليبها وخصائصها ودورها في مكافحة جريمة المخدرات ومتطلبات تعميمها. الرياض: دار النشر، ١٩٩٦.

حللي، عبد الرحمن. رسالات الأنبياء. بيروت: دار المعرفة، د.ت.

الحموي، حميد الله. الوثائق السياسية في عهد النبوة والخلافة الراشدة. د.م: د.ن، د.ت.

الحويني، أبو إسحاق. تخريج تفسير ابن كثير. القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د.ط، د.ت.

- الخادمي، نور الدين بن مختار، علم المقاصد الشرعية. الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٠.
- الخطّابي، حمد بن محمد. معالم السنن: شرح سنن أبي داود. تحقيق محمد حامد الفقي. القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٨٩.
- الخطيب، عبد الكريم يونس. التفسير القرآني للقرآن. القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.
- الخميس، محمد بن عبد الرحمن. أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة. السعودية: دار الصميعة، ١٩٩٦.
- الخير آبادي، محمد أبو الليث. علوم الحديث: أصيلها ومعاصرها. الهند: مكتبة دار العلوم وقف ديوبند، ٢٠٢٣.
- الدرّة، محمد علي طه. تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه. دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٩.
- الدروزة، محمد عزت. التفسير الحديث: مرتب حسب ترتيب النزول. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٨٩.
- الدهلوي، ولي الله. حجة الله البالغة. تحقيق: السيد سابق. القاهرة: دار الجيل، ٢٠٠٥.
- الديسي، محمد خليل محسن. التربية الاجتماعية في فكر الإمام الغزالي. عمّان: دار عمار، ٢٠٠١.
- الرازي، أبو الحسين أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٩.
- الرازي، فخر الدين. مفاتيح الغيب. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨١.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. المفردات في غريب القرآن. بيروت: دار القلم، ٢٠٠٩.

الرحيلي، عبد الله بن ضيف الله. الأخلاق الفاضلة: قواعد ومنطلقات لاكتسابها. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠١٧.

رضا، محمد رشيد. تفسير القرآن الحكيم: المشهور بتفسير المنار). بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.

الريسوني، أحمد: مقاصد المقاصد: الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠١٣.

زايد، أبو يوسف محمد. فيض الرحمن في تفسير جواهر القرآن. د.م: د.ن، د.ت.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس. الكويت: وزارة الإعلام، ١٩٨٦.

الزحيلي، محمد مصطفى. التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية. الكويت: اللجنة الاستشارية العليا، ٢٠٠٢.

_____. أصول الفقه الإسلامي. ط ٢. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦.

_____. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. دمشق: دار الفكر، ١٩٩١.

_____. التفسير الوسيط. دمشق: دار الفكر، ٢٠٠١.

الزرزور، عدنان. مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه. دمشق: دار الفكر، ٢٠٠١.

الزرقاني، محمد عبد العظيم. شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦.

الزرقاني، محمد عبد العظيم. مناهل العرفان في علوم القرآن. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٥.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. البحر المحيط في أصول الفقه. القاهرة: دار الكتب، ١٩٩٤.

زفروق، محمود حمدي. هموم الأمة الإسلامية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

الزحشري، محمود بن عمر. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل. د.م: د.ن، د.ت.

الزنتاني، عبد الحميد الصيد. أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية. ليبيا: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤.

الزبياري، عامر سعيد. كيف تكون فقيهاً. بيروت: دار ابن حزم، ١٩٩٥.

الزيداني، مظهر الدين. المفاتيح في شرح المصابيح. تحقيق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب. الكويت: دار النوادر، ٢٠١٢.

الزير، محمد بن حسن. القصص في الحديث النبوي. الرياض: د.ن، ١٩٨٥.

الزين، سميح عاطف. معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة. بيروت: دار الكتب اللبنانية، ١٩٩١.

سابق، سيد. العقائد الإسلامية. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢.

السباعي، مصطفى. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٢.

_____. من روائع حضارتنا. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٦.

_____. السيرة النبوية: دروس وعبر. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩٢.

السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. السنن. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. بيروت: دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠.

السعدي، خطاب بن يعقوب. الأساليب التربوية عند شيخ الإسلام ابن تيمية. عمان: الدار الأثرية، ٢٠٠٨.

السعدي، زكي محمد إسماعيل. التأسيس الإسلامي للعلوم والدراسات الاجتماعية. الرياض: دار المطبوعات الجديدة، ١٩٨٩.

السعدي، عبد المجيد لمشعي. التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام. د.م: د.ن، د.ت.

السعدي، علّال الفاسي. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣.

السفاريني، شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية. دمشق: مؤسسة الخافقين ومكبتها، ١٩٨٢.

سلطان، شريف فوزي. التربية بالمجاهدة: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا: خطوات عملية على طريق تربية النفس. مصر: دار اللؤلؤة، ٢٠٢٣.

سيد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي. في ظلال القرآن. ط ٣٢. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣.

السيد، محمود أحمد. معجزة الإسلام التربوية. بيروت: دار البحوث العلمية، ١٩٧٨.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين. الإِتقان في علوم القرآن. بيروت: دار الفكر، د.ت.

_____ تاريخ الخلفاء. تحقيق: حمدي الدمرداش. د.م: مكتبة نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٤.

_____ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، د.م: د.ن، د.ت.

_____ صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام، ط٢. الإسكندرية: مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٠.

_____ صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام. ط٢. الإسكندرية: مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٠.

_____ معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم. تحقيق: محمد إبراهيم عبادة. القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٤.

_____ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى. الاعتصام. تحقيق: سليم الهلالي. بيروت: دار ابن عفان، ١٩٩٢.

_____ الموافقات في أصول الشريعة، د.م: د.ن، د.ت، ٢٠٢٨٩.

_____ الآداب الشرعية والمنح المرعية. تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩.

الشافعي، محمد بن إدريس. الرسالة. تحقيق: أحمد شاکر. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٤٠.

الشحود، علي بن نايف. الخلاصة في أصول التربية الإسلامية. ماليزيا: دار المعمور، ٢٠١٠.

الشربيني، أحمد بن محمد. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير. د.م: د.ن، د.ت.

الشربيني، عبد الله بن محمد البركتي. التعريفات الفقهية. تحقيق: عبد المعين حنفي. بيروت: دار الفكر، د.ت.

الشعراوي، محمد متولي. الخواطر. مصر: دار أخبار اليوم، ١٩٩٧.

شلتوت، محمود. الإسلام عقيدة وشريعة. القاهرة: دار القلم، ١٩٦٦.

الشنقيطي، محمد الأمين. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥.

الشوكاني، محمد بن علي. فتح القدير. بيروت: دار ابن كثير، ١٩٩٤.

الصابوني، محمد علي. صفوة التفاسير. القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧.

الصالح، صبحي. مباحث في علوم القرآن. بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٠.

الصباغ، محمد بن لطيفي. التصوير الفني في الحديث النبوي. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٣.

الصلبي، جميل. المعجم الفلسفي. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢.

الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني. التنوير شرح الجامع الصغير. تحقيق محمد إسحاق محمد إبراهيم. الرياض: مكتبة دار السلام، ٢٠١١.

الطبراني، سليمان بن أحمد. المعجم الكبير. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. بغداد: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٣.

الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: محمود شاكر. بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠.

الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد، سراج الملوك. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤.
طنطاوي، محمد سيد. التفسير الوسيط. القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٨.

الطبي، الحسين بن عبد الله. شرح الطبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ الكاشف عن حقائق السنن. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. الرياض: مكتبة مكة المكرمة، ١٩٩٧.

عبد الرحمن، طه. روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية. ط٢. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢.

_____ من الإنسان الأبر إلى الإنسان الكوثر. ط٢. بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ٢٠١٦.

عبد الواحد، صالح طه. البرهان من قصص القرآن: قصص أولي العزم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى. الأردن: مكتبة الغرباء، ٢٠١٠.

العثيمين، محمد بن صالح. الشرح الممتع على زاد المستقنع. الرياض: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٢.

_____ تفسير الفاتحة والبقرة. السعودية: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٢.

_____ شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية. ط٧. خرج أحاديثه واعتنى به سعد بن فواز الصميل. الرياض: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٣.

_____ شرح العقيدة الواسطية. الرياض: دار الثريا، ١٩٩٥.

العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

العجمي، محمد عبد السلام وآخرون. تربية الطفل في الإسلام. د.م: د.ن، د.ت.

العدوي، محمد أحمد. دعوة الرسل إلى الله تعالى. القاهرة: دار الاعتصام، د.ت.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. معجم الفروق اللغوية. ط٦. قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ٢٠١٢.

العتار، ليلي عبد الرشيد. آراء ابن الجوزي التربوية. ميريلاند: منشورات أمانة للنشر، ١٩٩٨.

العتاس، سيد محمد نقيب. مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية. ترجمة: محمد الطاهر الميساوي. كوالالمبور: المعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية، ٢٠٠٠.

العلواني، طه جابر. التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة. هزندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٦.

العلي، إبراهيم محمد، الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء ﷺ. دمشق: دار القلم، ١٩٩٥.

علي، سعيد إسماعيل. التربية الإسلامية: أهدافها وأساليبها. د.م، د.ن، د.ت.

العلمي، سعيد إسماعيل، وآخرون. التربية الإسلامية: المفاهيم والتطبيقات. الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠٠٥.

عمر، أحمد مختار عبد الحميد. معجم اللغة العربية المعاصرة. بيروت: دار عالم الكتب، ٢٠٠٨.

- عمر، عمر أحمد. **منهج التربية في القرآن والسنة**. بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٥.
- العودة، عبد القادر. **التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي**. بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت.
- العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**. تحقيق عبد الله محمود محمد عمر. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١.
- الغامدي، أحمد سعيد علي. **دراسات في التربية الإسلامية**. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٥.
- الغامدي، سعيد بن ناصر. **الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها: دراسة نقدية شرعية**. جدة: دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.
- الغانمي، بلغيث بن أحمد. **منهج التربية الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم**. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ٢٠١٠.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **أيها الولد**. بيروت: دار المنهاج، ٢٠١٤.
- _____. **جواهر القرآن**. تحقيق: محمد رشيد رضا القباني. بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٦.
- _____. **إحياء علوم الدين**. بيروت: دار ابن حزام، ٢٠٠٥.
- _____. **بداية الهداية**. تحقيق ومراجعة: محمد عبد الرحمن الأهدل وآخرون. بيروت: دار المنهاج، ٢٠٠٤.
- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد. **إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن**. القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١٩٩٥.

الغيلي، عبد المجيد محمد علي. كيف يرمج القرآن الحياة؟. صنعاء: دار النشر للجامعات، ٢٠٠٩.

الفاروقي، إسماعيل راجي. أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل. ترجمة: عبد الوارث سعيد. الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٨٤.

الفاسي، علّال. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣.

فراج، عز الدين. فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية. القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٢.

الفرايدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين. المحقق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي. مصر: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٩.

فؤاد عبد الباقي، محمد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٦.

الفوال، صلاح مصطفى. التصوير القرآني للمجتمع: نظرية الإسلام الاجتماعية. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٥.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠.

_____. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق محمد علي النجار وعبد العليم الطحاوي. القاهرة: إحياء التراث الإسلامي، ١٩٩٦.

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي أبو العباس الحموي. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٩٦.

القاساني، علاء الدين. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت.

القاسم، حمزة محمد. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري. دمشق: مكتبة دار البيان، ١٩٩٠.

القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد. محاسن التأويل. تحقيق: محمد باسل عيون السود. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨.

القاضي، يوسف مصطفى ومقداد يالجن. علم النفس التربوي في الإسلام. الرياض: دار المريخ، ١٩٨١.

القاهري، ابن مفلح المقدسي. الآداب الشرعية والمنح المرعية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩.

القحطاني، سعيد بن علي. الهدى النبوي ﷺ في تربية الأولاد في ضوء القرآن والسنة. د.م: سلسلة مؤلفات سعيد بن علي القحطاني، ٢٠١١.

القراقي، أحمد بن إدريس. الذخيرة. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤.

القرشي، بريكان بريكي. القدوة ودورها في تربية النشء. مكة: المكتبة الفيصلية، ١٩٨٤.

القرضاوي، يوسف. السنة مصدراً للمعرفة والحضارة. ط٣. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١.

_____. الصبر في القرآن. ط٣. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٩.

_____. ملامح المجتمع الذي ننشده. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٣.

_____. كيف نتعامل مع القرآن. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٨.

القرطبي، محمد بن أحمد. الجامع لأحكام القرآن. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤.

القسطلاني، أحمد بن محمد. خصوصيات الرسول ﷺ. تحقيق عبد الله بن محمد بن أحمد الطواله. الرياض: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٢.

القطان، مناع بن خليل. مباحث في علوم القرآن. القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٠.

قطب، محمد. منهج التربية الإسلامية. بيروت: دار الشروق، ١٩٩٣.

الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني القريني. الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. المحقق: عدنان درويش، ومحمد المصري. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩.

الكناني، ابن عراق. تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة. تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف. القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٦٩.

الكيلاي، ماجد عرسان. الفكر التربوي عند ابن تيمية. المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، ١٩٨٧.

_____ أهداف التربية الإسلامية. المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، ١٩٨٧.

_____ تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية: دراسة منهجية في الأصول التاريخية للتربية الإسلامية. المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، ١٩٨٥.

_____ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. ط ٣. الإمارات العربية المتحدة: دار القلم، ٢٠٠٢.

اللاكائي، أبو القاسم هبة الله بن الحسن. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي. السعودية: دار طيبة، ٢٠٠٣.

الجنة من علماء الأزهر. تفسير المنتخب. القاهرة: مؤسسة الأهرام للطباعة والنشر، ١٩٩٥.

- اللحم، حنان. مقاصد القرآن الكريم: ولقد كرمنا بني آدم. دمشق: دار الحنان، ٢٠٠٤.
- الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود. تأويلات أهل السنة. تحقيق: مجدي باسلوم. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥.
- الماوردي، علي بن محمد، النكت والعيون: تفسير الماوردي، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
- المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم. تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي. ط٢. تحقيق: عبد الوهاب بن عبد اللطيف. المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٩٦٣.
- متولي، مصطفى محمد وآخرون. المدرسة والمجتمع. ط٢. الرياض: دار الخريجي، ١٩٩٥.
- مجمع اللغة العربية. معجم المصطلحات التربوية والنفسية. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- مجموعة من المؤلفين. معجم مصطلحات العلوم الشرعية. المدينة: الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، ٢٠١٧.
- محجوب، عباس، "بيئات التربية الإسلامية"، مجلة الجامعة الإسلامية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة ١٢، العدد ٤٦ (١٩٨٠)، ص ١١٦.
- المحلي، جلال الدين، وجمال الدين السيوطي. تفسير الجلالين. بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠١.
- محمود، علي عبد الحليم، محمد ﷺ نبي الحرية، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٠)، ص ٤٩-٥١.
- _____ . التربية الاجتماعية في الإسلام. القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٢٠.
- مذكور، علي أحمد. مناهج التربية: أسسها وتطبيقاتها. بيروت: دار الفكر العربي، ٢٠١٠.

المراغي، أحمد بن مصطفى. تفسير المراغي. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٤٦.

مرسي، محمد منير. التربية الإسلامية: أصولها وتطورها في البلاد العربية. القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٥.

المروزي، أبو سعد عبد الكريم بن محمد. أدب الإملاء والاستملاء. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١.

مسلم، ابن الحجاج النيسابوري. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٥.

المسيري، منير محمود علي. دلالة التقديم والتأخير في القرآن الكريم: دراسة تحليلية. القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٥.

المشعي، عبد المجيد بن سالم. التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام. الرياض: أضواء السلف، ١٩٩٨.

مقاتل بن سليمان. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم. تحقيق حاتم صالح الضامن. الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠١١.

المقدسي، محمد بن مفلح. الآداب الشرعية والمنح المرعية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩.

المقدم، محمد بن أحمد بن إسماعيل. فقه أشراط الساعة. د.م: الدار العالمية، ٢٠٠٨.

الملا القاري، علي بن سلطان محمد. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٢.

ملكاوي، فتحي حسن. الفكر التربوي الإسلامي المعاصر: مفاهيمه ومصادره وخصائصه وسبل إصلاحه. هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠.

_____. منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية. هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠.

المنادي، عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ٢٠٠٢.

_____. التوقيف على مهمات التعاريف. تحقيق عبد الحميد صالح حمدان. مصر: عالم الكتب، ١٩٨٩.

المنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف. تحقيق إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.

الميداني، عبد الرحمن حبنكة. العقيدة الإسلامية وأسسها. بيروت: دار القلم، ١٩٧٩.

_____. غزو في الصميم: دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العام ونظرة عامة إلى التعليم في العالم مع توجهات وتوصيات خاصة وعامة: مذيلة بتوصيات المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي. بيروت: دار القلم، ١٩٨٢.

الناصري، محمد المكي. التيسير في أحاديث التفسير. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥.

النباهين، علي سالم. أصول التربية الإسلامية. غزة: د.م، ١٩٩٥.

النجار، زغلول راغب. أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية. هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٠.

النحلاوي، عبد الرحمن. أصول التربية الإسلامية في البيت والمدرسة والمجتمع. بيروت: دار الفكر، ٢٠١٢.

النسائي، أحمد بن شعيب. السنن الصغرى. ط ٢. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. حلب. مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٩٨٦.

النقيب، عبد الرحمن. التربية الإسلامية المعاصرة في مواجهة النظام العالمي الجديد. بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٩٦.

النووي، يحيى بن شرف. المجموع شرح المذهب. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٧.

_____. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. بيروت. دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٦.

_____. روضة الطالبين وعمدة المفتين. ط ٣. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩١.

الهلل، محمد. تفسير القرآن الثري الجامع في الإعجاز البياني واللغوي والعلمي. بيروت: دار المعراج، ٢٠١١.

الهمداني، شيرويه بن شهردار. الفردوس بمأثور الخطاب. تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.

الهندي، جمال محمد، وعبد الرحمن النقيب. قراءات في علم اجتماعيات التربية. د.م: مؤسسة أم القرى، ٢٠٠٧.

الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المحقق: حسام الدين القدسي. القاهرة: مكتبة القدسي، ١٩٩٤.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد. أسباب النزول. الدمام: دار الإصلاح، ١٩٩٥.

ياجن، مقداد. التربية الأخلاقية في الإسلام. الرياض: دار عالم الكتب. د.ت.

_____ . منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر ودور التربية الإسلامية في معالجتها. الرياض: دار عالم الكتب، ١٩٩٠

الرسائل الجامعية:

أسا علي مبارك، علي. "الأمراض الاجتماعية وعلاجها في ضوء سورة الحجرات: قراءة معاصرة". رسالة الماجستير. الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠١٦.

إيكو ستجفتو، محمد. "التسامح الاجتماعي في القرآن الكريم: دراسة تحليلية لنماذج مختارة من تفسير المراغي". رسالة الماجستير. الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠٢٠.

الديسي، محمد خليل محسن. "التربية الاجتماعية في فكر الإمام الغزالي". رسالة الماجستير، الجامعة الأردنية. الأردن، ١٩٩٩.

شكري إسماعيل، محمد. "تفسير الآيات القرآنية في معجزات أولي العزم من الرسل: دراسة مقارنة بين تفسيري القرآن العظيم والمصباح". رسالة الدكتوراه. الجامعة الإسلامية الحكومية سونان أنبيل بسوريا. الإندونيسيا، ٢٠١٩.

شكوكاني، نجوى نايف عبد النبي. "أسلوب التعليل في القرآن الكريم وأثره على العالم والمتعلم: دراسة تحليلية". رسالة الدكتوراه. الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠١٨.

ضيف الله، أنوار، ومحمد شوقي بوسته. "أدب الأنبياء ﷺ مع أقوامهم: أولو العزم من الرسل أنموذجاً". مذكرة تخرج الماجستير. جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي، ٢٠٢١.

عبد العزيز، حسن. "التربية البشرية في ضوء القرآن الكريم: ظاهرة النفاق أنموذجاً". رسالة الماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠١٣.

المقالات:

الحواس، حصة بنت حمد محمد. 'القواعد القرآنية في تربية الذرية'. مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا ٢، (٢٠٢٢): ٣٦-٦٠.

الكورت، نور الله وآخرون. 'التدرج في القرآن الكريم والسنة النبوية'. مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية. جامعة الأزهر بمصر، ٢٠٢٣.

قدح، محمود بن عبد الرحمن. 'موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة'. مجلة الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة، العدد ١٠٧، ١٩٩٨.

العليمي، راشد سعد. 'قيم تربوية ودعوية مستفادة من عتاب الله تعالى أولى العزم من الرسل ﷺ على ضوء دراسة الآيات القرآنية'. مجلة أبحاث. جامعة الحديدة، كلية التربية، الكويت، ٢٠٢٣.

الشمراي، أيمن أحمد. 'مبادئ التربية الاجتماعية في السنة النبوية وتطبيقاتها في البيئة المدرسي'. مجلة العلوم التربوية والنفسية، جامعة جدة، ج ٢، ع ٤٤، (٢٠٢١)، ص ٤٧-٦٧.

الشريف، نايف حامد همام. 'مفهوم التزكية وتطبيقاتها في التربية الإسلامية'. مجلة الأحمديّة، العدد ٤، ١٤٢٠هـ.

خضر، عبد الفتاح محمد أحمد. 'عادات عربية في ضوء القرآن الكريم'. مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية ١، العدد ٣، (٢٠٠٧)، ٦٨-١٣٥.

العمري، حنان بنت لويقي بن علي. 'عادات الأنبياء والرسل'. مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية. مجلة علمية دورية محكمة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، شعبان ١٤٤٣هـ، ١، العدد ٢٢٢ (٢٠٢١)، ٣٢٨-٣٤٠.

منصور محمد، سعد الدين. 'دور الحكومات والمنظمات في تيسير الحج'، ندوة الحج الكبرى: التيسير في الحج في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، أعمال الدورة

الحادية والثلاثين لندوة الحج الكبرى، المجلد الثاني، مكة المكرمة، ٢٢-٢٥
ديسمبر ٢٠٠٦. الرياض: وزارة الحج. (٢٠٠٧): ٩٣٣-٩٥٦.

العنزي، إقبال علي. 'قواعد تكوين العادات الحسنة من خلال السنة النبوية'. مجلة الشريعة
والدراسات الإسلامية ٣٧، العدد ١ (٢٠٢٢): ٩٣-١٣١.

المصادر الأجنبية:

Al-Attas, Syed Muhammad Naquib. *The Concept of Education in Islam*. Kuala Lumpur: ISTAC, 1999.

Ardiansyah. Muhammad. *Konsep Adab Syed Muhammad Naquib al-Attas dan Aplikasinya di Perguruan Tinggi*. Depok: Yayasan Pendidikan Islam At-Taqwa Depok, 2020.

Badaruddin, Kemas. *Filsafat Pendidikan Islam, Analisis Pemikiran Prof. Dr. Syed Muhammad Naquib al-Attas*. Yogyakarta: Pustaka Pelajar, 2007.

Daud, Wan Mohd Nor Wan. *Filsafat dan Praktik Pendidikan Syed Muhammad Naquib al-Attas*. Translated by Hamid Fahmy Zarkasyi et al. Bandung: Mizan, 2006.

Jansen, Gerrit Hendrik. *Militant Islam*. London: Pan Books, 1979.

Noaparast, Khosrow Baghezi. *al-Attas Revisited on The Islamic Understanding of Education*, *Journal of Shi'a Islamic Studies*, 2012.

Paglayan, Agustina S. *Raised To Obey: The Rise And Spread Of Mass Education*. United States of America: Princeton University Press, 2024.

المواقع الالكترونية:

<https://shamela.ws/search>

<https://studentrepo.iium.edu.my/>